سلسلة شروحات ومؤلفات معالي الشيخ صالح الفوزان (٥١)

دروس وفتاوى المسجد الحرام

لمعالي الشيخ الدكتور
صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان
عضو هيئة كبار العلماء
وعضو اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء
غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين

اعتنى به وأشرف على طبعه
د. سلمان جابر عثمان المجلهم السويلم
غفر الله له ولوالديه ولأهل بيته ولمشايخه

الجزء الثاني

التراث الذهبي
الرياض

مكتبة الإمام الذهبي
الكويت

دروس وفتاوى المسجد الحرام

دروس وفتاوى

المسجد الحرام

الجزء الثاني

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الفوزان، صالح بن فوزان

دروس وفتاوى المسجد الحرام ١-٦. / صالح بن فوزان الفوزان؛ سلمان جابر المجلهم - ط١. - الرياض، ١٤٤٥هـ

٦ مج

رقم الإيداع: ١٠١٤٩ / ١٤٤٥

ردمك: ٥-١-٩٢١٢٥-٦٠٣-٩٧٨ (مجموعة)

ردمك: ٩-٣-٩٢١٢٥-٦٠٣-٩٧٨ (ج ٢)

الطبعة الأولى

(١٤٤٥هـ - ٢٠٢٤م)

الإمام الذهبي

مكتبة الإمام الذهبي للنشر والتوزيع

الفرع الرئيسي: حولي - شارع المثنى - مجمع البدري - ت: ٢٢٦٥٧٨٠٦

فرع المصاحف: ت ٢٢٦١٥٠٤٦ - فرع الجهراء: الناصر مول: تلفون: ٩٥٥٥٨٦٠٨

فرع الفحيحيل: البرج الأخضر - شارع الدبوس - تلفون: ٢٥٤٥٦٠٦٩ - ٩٥٥٥٨٦٠٧

فرع الرياض: المملكة العربية السعودية التراث الذهبي - جوال ٠٠٩٦٦ ٥٥٧٧٦٥١٣٨

الخط الساخن: جوال: ٠٠٩٦٥ ٩٤٤٠٥٥٥٩

z.zahby74@yahoo.com imamzahby

دروس وفتاوى المسجد الحرام

لمعالي الشيخ الدكتور

صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان

عضو هيئة كبار العلماء

وعضو اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء

غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين

اعتنى به وأشرف على طبعه

د. سلمان جابر عثمان المجلهم السويلم

غفر الله له ولوالديه ولأهل بيته ولمشايخه

الجزء الثاني

بسم الله الرحمن الرحيم

أحكام الصوم العامة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهداه، وتمسك بسنته إلى يوم الدين، أما بعد:

قد صح في الحديث عن النبي ﷺ أنه كان يصبح جنبًا من جماع، ثم يغتسل ويصوم. متفق عليه[1].

هذا الحديث يدل على أن الصيام لا يشترط له الطهارة، فللمسلم أن ينوي الصيام ولو لم يكن على طهارة، حتى ولو كان عليه حدث أكبر، فإذا أدركه طلوع الفجر وهو لم يغتسل من الجنابة، فإنه يصوم، ينوي الصيام، ثم يغتسل بعد ذلك ويصلي، وكذلك المرأة إذا كانت حائضًا أو نفساء، ثم انقطع دمها عند طلوع الفجر، فإنها تنوي الصيام وتتسحر، ثم بعد ذلك تغتسل من الحيض أو من النفاس، وتصلي، والصوم صحيح، ولو نواه الإنسان وهو على غير طهارة، هذا ما دل عليه هذا الحديث الصحيح من فعل الرسول ﷺ.

قوله: (من جماع) ينفي احتمال أنه كان محتلمًا، ينفي أن الغسل الذي عليه كان من احتلام، ولذلك قال: (من جماع) هذا واضح وصريح، وهذا يؤخذ من

---

(١) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (١٩٣٠، ١٩٣١)، ومسلم -واللفظ له- (١١٠٩)، عَنْ عُرْوَةَ ابْنِ الزُّبَيْرِ، وَأَبِي بَكْرِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ أَنَّ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا زَوْجَ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَتْ: «قَدْ كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُدْرِكُهُ الْفَجْرُ فِي رَمَضَانَ وَهُوَ جُنُبٌ، مِنْ غَيْرِ حُلُمٍ، فَيَغْتَسِلُ وَيَصُومُ».

إشارة الآية الكريمة، وهي قوله تعالى: ﴿فَٱلْـَٔـٰنَ بَـٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۚ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾ [البقرة:١٨٧]، فأباح لنا الأكل والشرب والجماع إلى طلوع الفجر، إلى آخر لحظة، ويلزم من هذا أن الإنسان إذا جامع في آخر لحظة عند طلوع الفجر أنه سيصبح جنبًا، فالآية تدل على هذا بما يسمونه دلالة الإشارة مع الحديث الصحيح الذي سمعتم.

وبالمناسبة كثيرًا ما يسأل الناس عن الصائم إذا احتلم، بعض الناس يظن أنه يبطل صومه، وليس كذلك، لا يبطل صومه؛ لأن الاحتلام بغير اختياره، وصومه صحيح، ولكن عليه أن يغتسل من الجنابة فقط، أما لو جامع أو أنزل باختياره، هذا محل البطلان، فإذا جامع وهو صائم أو استمنى وهو صائم فأنزل، فهذا يبطل صيامه بالإجماع؛ لأنه تعمد الجماع أو الاستمناء، فيبطل صيامه، فهناك فرق بين الاحتلام وبين الجماع في اليقظة، الجماع في اليقظة يبطل الصيام، ويوجب الكفارة كما سبق، وأما الاحتلام، فهذا لا يبطل الصيام بإجماع أهل العلم؛ لأنه ليس باختياره؛ مثلما سبق أنه إذا ذرعه القيء، يعني: غلبه القيء والاستفراغ، استفرغ وهو صائم، صيامه صحيح؛ لأنه بغير اختياره، وأما لو استقاء، يعني: هو الذي تعمد القيء والاستفراغ، يبطل صيامه، ففرق بين التعمد وبين عدم التعمد.

وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**مَنْ مَاتَ وَعَلَيْهِ صِيَامٌ صَامَ عَنْهُ وَلِيُّهُ**»(١).

---

(١) أخرجه البخاري (١٩٥٢)، ومسلم (١١٤٧)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

«وَعَلَيْهِ صِيَامٌ»، يعني: صيامًا واجبًا، إذا مات الإنسان وعليه صيام واجب، فهو دين في ذمته.

«صَامَ عَنْهُ وَلِيُّهُ»، أي: قريبه؛ لإبراء ذمته، وينفعه ذلك.

سبق أن الإنسان إذا كان عليه قضاء من رمضان، فإنه ينبغي له أن يبادر بالقضاء قبل أن يحل عليه رمضان آخر؛ إبراء لذمته، لكن لو أنه أخَّر القضاء ومات بين الرمضانين، قبل أن يأتي رمضان الجديد مات، هذا ليس عليه شيء؛ لأنه لم يفرط، أما لو أخَّره من غير عذر حتى أدركه رمضان الجديد، ثم مات، فهذا قد أخطأ، ويبقى الصيام في ذمته وهو ميت؛ لأنه فرط، فهذا محل أنه يصوم عنه وليه.

فقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ مَاتَ وَعَلَيْهِ صِيَامٌ»، هذا عام يشمل صيام النذر، ويشمل صيام الكفارة، ويشمل صيام رمضان، يشمل جميع أنواع الصيام الواجب، فإنه إذا صامه وليه عنه، أو صامه أحدٌ من المسلمين عنه، فإن ذلك يبرئ ذمته، وهذا في النذر والكفارة لا خلاف فيه؛ لأنه تدخله النيابة، أما في الصيام الواجب بأصل الشرع مثل قضاء رمضان، فهذا محل خلاف بين العلماء على قولين:

القول الأول: أنه لا تدخله النيابة؛ لأنه عمل بدني لا تدخله النيابة، إذا كان واجبًا بأصل الشرع، فلا يصام عنه، ولكن يُطعم عنه عن كل يوم مسكينًا من تركته، أو إن تبرع له أحد، وهذا اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم رَحِمَهُمَا اللَّهُ وغيرهما من الأئمة أن الصيام الذي وجب بأصل الشرع مثل صيام رمضان هذا لا تدخله النيابة، فإذا مات وعليه صيام يُطعم عنه عن كل يوم مسكينًا.

والقول الثاني: أنه يصام عنه ولو كان من رمضان؛ لعموم هذا الحديث[(١)].

لكن جاء في بعض الروايات عند البخاري: «**مَنْ مَاتَ وَعَلَيْهِ صَوْمُ نَذْرٍ**»[(٢)]، تكون هذه الرواية مقيدة لما أُطلق في قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ مَاتَ وَعَلَيْهِ صِيَامٌ**»، تكون مقيدة أن المراد به صيام النذر، وما وجب بسبب من قِبل العبد كالنذر والكفارة، أما ما وجب بأصل الشرع، فهذا لا تدخله النيابة على القول الأول.

وعلى كل حال فالحديث يدل على أن الصيام عن الميت يبرئ ذمته -إن شاء الله-، سواء كان صيام رمضان، أو صيام نذر، أو صيام كفارة، لكن -كما ذكرنا- على المسلم إذا كان عليه صيام من رمضان أن يبادر بقضائه قبل أن يتعذر عليه القضاء ما دام أنه في زمن الإمكان.

وفي الحديث دليل على أن الميت ينتفع بعمل الحي بما دلت عليه الأدلة مثل: القضاء، الصيام عنه، مثل: الدعاء له، مثل: الصدقة عنه، مثل: الحج عنه، العمرة عنه، هذه الأعمال جاءت الأدلة في أنها يصل ثوابها إلى الميت، وأن فعل الحي لها إذا أهدى ثوابها للميت ينفعه؛ كما جاء في الحديث: «**إِذَا مَاتَ ابْنُ آدَمَ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ: صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ**»، يعني: الوقف، أو صدقة التبرع، «**أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ**»[(٣)]، فينفعه الدعاء، ينفعه الصدقة.

---

(١) انظر في تفصيل القولين: مختصر اختلاف العلماء للجصاص (٢/ ٤٥- ٤٧)، والحاوي الكبير (٣/ ٤٥٢- ٤٥٣)، وحلية العلماء (٣/ ٢٠٨- ٢٠٩)، والمغني لابن قدامة (٣/ ١٥٢- ١٥٣)، والمجموع للنووي (٦/ ٣٦٧- ٣٧١)، وشرح عمدة الفقه لشيخ الإسلام ابن تيمية -كتاب الصيام (١/ ٣٦١- ٣٧٧)، وعون المعبود وحاشية ابن القيم (٧/ ٢٥- ٢٦).

(٢) هذه الرواية أخرجها إسحاق بن راهويه في مسنده (٢/ ٣٦١).

(٣) أخرجه أحمد (١٤/ ٤٣٨)، ومسلم (١٤) (١٦٣١)، وأبو داود (٢٨٨٠)، والترمذي (١٣٧٦)، والنسائي (٣٦٥١)، بلفظ: «إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ»؛ من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

وجاء في الحديث: عن التي ماتت ولم تحج، سألت ابنتها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ أُمِّي مَاتَتْ وَلَمْ تَحُجَّ، أَفَأَحُجُّ عَنْهَا؟ قَالَ: **نَعَمْ، حُجِّي عَنْهَا**»[١].

والحديث الذي فيه أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَمِعَ رَجُلًا يَقُولُ: لَبَّيْكَ عَنْ شُبْرُمَةَ، قَالَ: «مَنْ شُبْرُمَةُ؟» قَالَ: أَخٌ لِي -أَوْ قَرِيبٌ لِي- قَالَ: «**حَجَجْتَ عَنْ نَفْسِكَ؟**» قَالَ: لَا، قَالَ: «**حُجَّ عَنْ نَفْسِكَ ثُمَّ حُجَّ عَنْ شُبْرُمَةَ**»[٢].

وما عدا هذه الأمور التي جاء الدليل في أنها تصل إلى الميت، فإنه لا يُفعل عن الميت؛ لقوله تعالى: ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾ [النجم:٣٩]، الآية تدل على أن عمل الحي لا ينفع الميت، ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾ [النجم:٣٩]، لكن يخصص منها ما جاء في الأحاديث من الدعاء والصدقة والحج والعمرة والصوم؛ كما في هذا الحديث، فهذه تنفع الميت، وما عداها يبقى على العموم على النفي، ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴾ [النجم:٣٩، ٤٠].

فعلى المسلم أن يجتهد في العمل الصالح ما دام على قيد الحياة، وأن يقدم لنفسه قبل أن يختم عمله، فلا يستطيع الزيادة فيه ولا النقص، ويحال بينه وبين العمل.

هذا والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين.

---

(١) أخرجه أحمد (٣٨/ ٥٢)، ومسلم (١٥٧) (١١٤٩)، وأبو داود (٢٨٧٧)، والترمذي (٦٦٧، ٩٢٩)، من حديث بريدة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه أبو داود (١٨١١)، وابن ماجه (٢٩٠٣)، والبيهقي في الكبرى (٤/ ٥٤٩)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

أحكـام الحـج

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على عبده ورسوله نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين.

ما زال الكلام في بيان أركان الإسلام، وقد انتهى بنا الحديث إلى الركن الخامس والأخير منها، وهو الحج، وتقدم أول الكلام على هذا الركن.

الحج يشمل العمرة -أيضًا-؛ لأن العمرة حج أصغر، فهي تدخل في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران:٩٧]، والنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حديث جبريل لما بين أركان الإسلام، قال في إحدى الروايات: «وَتَحُجَّ الْبَيْتَ وَتَعْتَمِرَ»(١)، وقال للذي سأل عن أبيه الذي لايستطيع الحج لكبره، والذي سأله عن الحج عن أبيه الميت، قال: «حُجَّ عَنْ أَبِيكَ، وَاعْتَمِرْ»(٢).

إذًا: فالعمرة واجبة كوجوب الحج، إلا أنها ليس لها وقت محدد من السنة كما هو للحج؛ فإن الحج جعل الله له ميقاتًا زمنيًّا، فقال سبحانه: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ﴾ [البقرة:١٩٧]، وهذه الأشهر هي شوال، وذو القعدة، وعشر من

(١) أخرجه ابن خزيمة في صحيحه (١/ ٣)، والبيهقي في الكبرى (٤/ ٥٧٠)، من حديث ابن عمر عن أبيه رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه أحمد (٢٦/ ١٠٣)، وأبو داود (١٨١٠)، والترمذي (٩٣٠)، والنسائي (٢٦٣٧)، وابن ماجه (٢٩٠٦)، عَنْ أَبِي رَزِينٍ الْعُقَيْلِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ «أَنَّهُ أَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ أَبِي شَيْخٌ كَبِيرٌ لَا يَسْتَطِيعُ الحَجَّ، وَلَا العُمْرَةَ، وَلَا الظَّعْنَ، قَالَ: حُجَّ عَنْ أَبِيكَ وَاعْتَمِرْ».

شهر ذي الحجة، هذه أشهر الحج التي يحرم بالحج فيها، وتؤدى فيها مناسكه؛ كما بين ذلك رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حين حج بأصحابه، وقال: «**خُذُوا عَنِّي مَنَاسِكَكُمْ**»(١).

فالحج مؤقت بأشهر معروفة معلومة؛ ﴿**ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ**﴾ [البقرة:١٩٧]، وأما العمرة، فإنها ليس لها وقت محدد، فتشرع في كل شهور السنة.

والكلام على الحج ومناسكه يأتي في وقته، ويكون كلامنا الآن عن العمرة؛ لأن الناس الآن أكثرهم جاءوا للعمرة في هذا الشهر المبارك.

العمرة -كما ذكرنا- ليس لها وقت محدد، بل إنها تشرع في جميع شهور السنة، وليس لبعض الشهور مزية على بعض إلا رمضان؛ فإن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**عُمْرَةٌ فِي رَمَضَانَ، تَعْدِلُ حَجَّةً**»، وفي رواية: «**تَعْدِلُ حَجَّةً مَعِي**»(٢).

العمرة في رمضان لها مزية على العمرة في غير رمضان، وإن كانت العمرة في جميع السنة فيها فضل عظيم، ولذلك يحرص الناس على أداء العمرة في شهر رمضان تحريًا لهذا الفضل العظيم الذي أخبر به صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهذا التحري له وجهه، وله اعتباره؛ حيث إن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رغب في العمرة في رمضان،

---

(١) أخرجه مسلم (١٢٩٧)، عن جابر صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «رَأَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَرْمِي عَلَى رَاحِلَتِهِ يَوْمَ النَّحْرِ، وَيَقُولُ: **لِتَأْخُذُوا مَنَاسِكَكُمْ، فَإِنِّي لَا أَدْرِي لَعَلِّي لَا أَحُجُّ بَعْدَ حَجَّتِي هَذِهِ**».

(٢) أخرجه البخاري (١٨٦٣)، ومسلم (١٢٥٦)، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، «قَالَ لِامْرَأَةٍ مِنَ الْأَنْصَارِ يُقَالُ لَهَا: أُمُّ سِنَانٍ: **مَا مَنَعَكِ أَنْ تَكُونِي حَجَجْتِ مَعَنَا؟** قَالَتْ: نَاضِحَانِ كَانَا لِأَبِي فُلَانٍ -زَوْجِهَا- حَجَّ هُوَ وَابْنُهُ عَلَى أَحَدِهِمَا، وَكَانَ الْآخَرُ يَسْقِي عَلَيْهِ غُلَامُنَا، قَالَ: **فَعُمْرَةٌ فِي رَمَضَانَ تَقْضِي حَجَّةً أَوْ حَجَّةً مَعِي**».

ولكن لا يظن الإنسان أن العمرة لا تشرع إلا في رمضان، بل العمرة مشروعة في كل السنة، ومتى تيسر للإنسان أن يعتمر، فليعتمر في أي وقت.

والعمرة هي زيارة البيت لأداء مناسك معينة عبادة لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

العمرة في اللغة: الزيارة(١).

وأما في الشرع: فهي زيارة البيت لأداء مناسك معينة عبادة لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ(٢).

فمن جاء إلى العمرة ومرَّ على ميقات من المواقيت التي وَقَّتها رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإنه يجب عليه الإحرام من الميقات الذي يمر به في طريقه، ولا يتعداه إلا وهو محرم -سواء مرَّ به برًا، أو جوًا في الطائرة، أو حاذاه-، إذا لم يمر به، فإنه يحرم بمحاذاته، سواء من البر، أو من البحر، أو من الجو، بالمحاذاة، ولايتعداه وهو يريد العمرة إلا و هو محرم؛ لأن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما وقَّت هذه المواقيت -وهي: ذو الحليفة لأهل المدينة، وقرن المنازل لأهل نجد، والجحفة لأهل الشام ومصر والمغرب، ويلملم أو ألملم المسمى بالسعدية لأهل اليمن، وذات عرق لأهل العراق-، قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فَهُنَّ**»، أي: هذه المواقيت.

«**لَهُنَّ**»، أي: لأهل تلك الجهات وتلك البلاد.

«**وَلِمَنْ أَتَى عَلَيْهِنَّ مِنْ غَيْرِ أَهْلِهِنَّ**»، أي: من غير أهل تلك البلاد، يعني: من مرَّ على ميقات، ولو لم يكن ميقاتًا لبلاده وهو يريد العمرة، فإنه يحرم من الميقات الذي يمر به، «**مِمَّنْ يُرِيدُ الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ**»(٣).

---

(١) انظر: غريب الحديث لابن قتيبة (١/ ٢١٩)، وتهذيب اللغة (٢/ ٢٣٣)، والنهاية في غريب الحديث والأثر (٣/ ٢٩٧)، وتحرير ألفاظ التنبيه (ص ١٣٣).

(٢) انظر: طلبة الطلبة (ص٣٢)، والفروع وتصحيح الفروع (٥/ ٢٠١)، والمبدع في شرح المقنع (٣/ ٨٠)، والروض المربع (ص٢٤٦).

(٣) أخرجه البخاري (١٥٢٤)، ومسلم (١١٨١)، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: «وَقَّتَ رَسُولُ اللهِ=

«فَهُنَّ لَهُنَّ، وَلِمَنْ أَتَى عَلَيْهِنَّ مِنْ غَيْرِ أَهْلِهِنَّ، مِمَّنْ يُرِيدُ الحَجَّ وَالْعُمْرَةَ»، فلا يجوز للإنسان أن يتعدى الميقات ويحرم بعدما يتجاوزه.

وهنا يجب التنبيه على أن الذين يأتون بالطائرات من مصر، أو من المغرب أو من الشام، أو من اليمن، أو من السودان، أو من أي جهة، لا يجوز لهم أن يؤخروا الإحرام إلى أن ينزلوا في مطار جدة؛ لأن جدة ليست ميقاتًا لهم؛ الميقات المعتبر في حقهم هو الميقات الذي يمرون عليه من الجو، فيحرمون من محاذاته جوًّا، ولا يؤخروا الإحرام إلى جدة؛ جدة ليست ميقاتًا إلا لأهلها، أو لمن نوى العمرة منها، لأهلها -أهل جدة- أو من نوى العمرة منها من غير أهلها، فيحرم من جدة؛ لقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما وَّقت المواقيت، قال: «**وَمَنْ كَانَ دُونَ ذَلِكَ**»، أي: دون هذه المواقيت مما يلي مكة «**فَمُهَلُّهُ مِنْ أَهْلِهِ**»، أو «**مِنْ حَيْثُ أَنْشَأَ**»، وهذا يشمل جدة؛ لأنها دون المواقيت، داخل المواقيت، فلا تكون ميقاتًا لأهل الآفاق القادمين من خارج المواقيت، وإنما هي ميقات لأهلها ولمن نوى النسك منها، فإنه يحرم من جدة، فيجب على من مرَّ بأحد هذه المواقيت وهو يريد العمرة أن ينوي الإحرام.

الإحرام ما هو؟ الإحرام: هو نية الدخول في النسك، ونية الشروع في النسك(١)، وليس الإحرام أنك تأتي ناويًا العمرة من بلد، هذا ليس إحرامًا، من

= صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِأَهْلِ المَدِينَةِ ذَا الحُلَيْفَةِ، وَلِأَهْلِ الشَّأْمِ الجُحْفَةَ، وَلِأَهْلِ نَجْدٍ قَرْنَ المَنَازِلِ، وَلِأَهْلِ اليَمَنِ يَلَمْلَمَ، فَهُنَّ لَهُنَّ، وَلِمَنْ أَتَى عَلَيْهِنَّ مِنْ غَيْرِ أَهْلِهِنَّ لِمَنْ كَانَ يُرِيدُ الحَجَّ وَالعُمْرَةَ، فَمَنْ كَانَ دُونَهُنَّ، فَمُهَلُّهُ مِنْ أَهْلِهِ، وَكَذَاكَ حَتَّى أَهْلُ مَكَّةَ يُهِلُّونَ مِنْهَا».

(١) انظر: عمدة السالك (ص١٢٦)، وأسنى المطالب (١/ ٤٦٧)، وتحفة المحتاج (٤/ ٥٠)، والروض المربع (ص٢٨٥).

وقت أنك تخرج من بلدك أنت ناوٍ العمرة أو الحج، هذا ليس إحرامًا، الإحرام: أن تنوي الشروع في النسك، والدخول فيه، هذا هو الإحرام، نية الدخول في النسك، سُمِّي إحرامًا؛ لأنه يحرم على الإنسان أشياء كانت مباحة له قبل الإحرام، يحرم عليه الطيب، يحرم عليه لبس المخيط للذكر، يحرم عليه تغطية رأسه في حق الذكر، يحرم عليه أخذ الشعور التي يشرع أخذها من جسده، يحرم عليه أشياء كانت مباحة له قبل أن ينوي الإحرام، يحرم عليه الطيب، يحرم عليه قتل الصيد، يحرم عليه الجماع ودواعيه كالرفث، لذلك سُمِّي بالإحرام؛ لأن من نواه، حَرمت عليه أشياء كانت مباحة له من قبل تسمى محظورات الإحرام.

فينوي الإحرام من الميقات الذي يمر به، ويلبي بما نوى، يذكر ما نوى في تلبيته، فيقول: (لبيك اللهم عمرة) أو (لبيك اللهم حجًا)، أو (حجًا وعمرة)، فيلبي بالنسك الذي نواه، وعقد النية عليه من الميقات.

وأما من مرَّ بهذه المواقيت وهو لا يريد حجًّا ولا عمرة، يريد الدخول إلى مكة لحاجة، أو ليسكن فيها، أو ليبقى فيها، وهو لم ينو نسكًا، فإنه يدخل بدون إحرام؛ لأن الرسول ﷺ إنما أوجب الإحرام من هذه المواقيت على من يريد الحج أو يريد العمرة، وأما من كان منزله دون المواقيت -كأهل الشرائع، وأهل الزيمة، وأهل جدة، وأهل بحرة، حتى أهل مكة-، من كان منزله دون المواقيت فإنه يحرم من منزله بالحج.

وأما العمرة فالذي في مكة إذا أراد أن يعتمر، لا يحرم بالعمرة من مكة، وإنما يخرج إلى الحل، ويحرم من الحل خارج الحرم؛ لأن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا لما أرادات العمرة بعد الحج، أمر النبي ﷺ أخاها عبد الرحمن بن أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا،

فخرج بها إلى التنعيم؛ لأنه أدنى الحل، فأحرمت منه بالعمرة(١)، فدل على أن من أراد العمرة وهو في داخل مكة أنه لا يحرم بها من مكة، وإنما يحرم بها من الحل؛ من الجعرانة، من التنعيم، من عرفة، من أي جهة خارج الحرم.

وأهل العلم يكرهون للإنسان أن يخرج من مكة ليأتي بعمرة، يقولون: بقاؤه في الحرم أفضل له من الخروج إلى الحل ليأتي بعمرة، بقاؤه في الحرم، صلاته فيه، اعتكافه في المسجد الحرام، طوافه بالبيت، تلاوته للقرآن في المسجد الحرام، اشتغاله بذكر الله أفضل من أن يخرج ليأتي بعمرة؛ لأن الصلاة الواحدة في المسجد الحرام عن مائة ألف صلاة، وخروجه للحل ليحرم يفوت عليه بعض الصلوات، أو يفوت عليه كثيرًا من الأعمال التي فعلها في الحرم أفضل من العمرة، إلا أنه ليس ممنوعًا ولا مُحرمًا أن يخرج ويأتي بعمرة، هذا أمرٌ مشروع، وعمله هذا صحيح، ولكنه مفضول، بقاؤه في الحرم أفضل من خروجه للعمرة(٢).

---

(١) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (٣١٧)، ومسلم (١٢١١)، عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: «خَرَجْنَا مُوَافِينَ لِهِلَالِ ذِي الحِجَّةِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُهِلَّ بِعُمْرَةٍ فَلْيُهْلِلْ، فَإِنِّي لَوْلَا أَنِّي أَهْدَيْتُ لَأَهْلَلْتُ بِعُمْرَةٍ**. فَأَهَلَّ بَعْضُهُمْ بِعُمْرَةٍ، وَأَهَلَّ بَعْضُهُمْ بِحَجٍّ، وَكُنْتُ أَنَا مِمَّنْ أَهَلَّ بِعُمْرَةٍ، فَأَدْرَكَنِي يَوْمُ عَرَفَةَ وَأَنَا حَائِضٌ، فَشَكَوْتُ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: **دَعِي عُمْرَتَكِ، وَانْقُضِي رَأْسَكِ، وَامْتَشِطِي وَأَهِلِّي بِحَجٍّ**. فَفَعَلْتُ حَتَّى إِذَا كَانَ لَيْلَةُ الحَصْبَةِ، أَرْسَلَ مَعِي أَخِي عَبْدَ الرَّحْمَنِ ابْنَ أَبِي بَكْرٍ فَخَرَجْتُ إِلَى التَّنْعِيمِ، فَأَهْلَلْتُ بِعُمْرَةٍ مَكَانَ عُمْرَتِي».

(٢) قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (الخُرُوجُ مِنْ مَكَّةَ لِعُمْرَةِ تَطَوُّعٍ بِدْعَةٌ لَمْ يَفْعَلْهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَا أَصْحَابُهُ عَلَى عَهْدِهِ لَا فِي رَمَضَانَ وَلَا فِي غَيْرِهِ، وَلَمْ يَأْمُرْ عَائِشَةَ بِهَا بَلْ أَذِنَ لَهَا بَعْدَ المُرَاجَعَةِ تَطْيِيبًا لِقَلْبِهَا، وَطَوَافُهُ بِالْبَيْتِ أَفْضَلُ مِنْ الخُرُوجِ اتِّفَاقًا وَخُرُوجُهُ عِنْدَ مَنْ لَمْ يَكْرَهْهُ عَلَى سَبِيلِ الجَوَازِ) الفتاوى الكبرى (٥/ ٣٨٤). وانظر: المستدرك على مجموع الفتاوى (٣/ ١٨٩)، والفروع وتصحيح الفروع (٦/ ٧٢)، والمبدع في شرح المقنع (٣/ ٢٣٨).

العمرة لها أركان ولها واجبات، يجب أن نعرفها، لها أركان لا تصح إلا بها، ولها واجبات لا تتم إلا بها، ولها سنن ومستحبات، فأفعال العمرة تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

* أركان هذا واحد.

* الثاني: واجبات.

* الثالث: سنن.

فأما الأركان فهي ثلاثة:

الأول: الإحرام، فلابد من الإحرام، وهو نية الدخول في النسك، وتجنب محظورات الإحرام، لابد من هذا؛ أن ينوي الإحرام، وينوي الدخول في النسك والشروع فيه، ويتجنب محظورات الإحرام، لابد من هذا.

فمن فعل أفعال العمرة -من طواف وسعي وحلق أو تقصير-، فعل هذا، لكنه لم يحرم، فعمرته هذه غير صحيحة، أعماله هذه لا تسمى عمرة؛ لأنه لم يحرم، فلا تنعقد العمرة إلا بالإحرام؛ مثل الإنسان لو قام يصلي، يريد الصلاة، ولم يكبر تكبيرة الإحرام، لم تنعقد صلاته، ولم تصح إلا إذا كبر تكبيرة الإحرام، كذلك العمرة أو الحج لا يصحان إلا بالإحرام، وهو نية الدخول في النسك وتجنب محظورات الإحرام، هذا هو الركن الأول للعمرة.

الركن الثاني: الطواف بالبيت سبعة أشواط، كل شوط يبدأ من الحجر وينتهي بالحجر، سبع دورات على البيت، ويشترط لصحة الطواف:

أولًا: أن يكون على طهارة، فإن طاف وهو على غير طهارة، لم يصح طوافه؛

لقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لعائشة لما حاضت: «**افْعِلِي مَا يَفْعَلُ الحَاجَّ، غَيْرَ ألاَّ تَطُوفِي بِالبَيْتِ حَتَّى تَطْهُرِي**»(١)، فاشترط للطواف بالبيت الطهارة.

وفي الأثر الذي يُروى عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا بسند صحيح، ويروى مرفوعًا إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «**الطَّوَافُ بِالْبَيْتِ صَلَاةٌ، إلا أَنَّكُمْ تَتَكَلَّمُونَ فِيهِ**»(٢)، فإذا كان الطواف بالبيت صلاة، يعني: مثل الصلاة، والصلاة يشترط لها الطهارة، فتشترط الطهارة للطواف، فلو طاف على غير طهارة، لم يصح طوافه.

ويشترط أيضًا لصحة الطواف: أن يكون سبعة أشواط، لابد من إكمال سبعة أشواط، كل شوط يبدأ من الحجر، وينتهي بالحجر، فلو طاف ستة أشواط أو خمسة أشواط، لم يصح طوافه حتى يكمل سبعة أشواط؛ لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ طاف بالبيت سبعة أشواط، وقال: «**خُذُوا عَنِّي مَنَاسِكَكُمْ**»(٣).

ويشترط لصحة الطواف: الستارة، أن يكون مستور العورة، وهي بالنسبة للرجل ما بين السرة إلى الركبة، وإذا زاد على ذلك بأن ستر كتفيه وظهره وبطنه بالرداء، فيكون هذا أحسن، إلا في حالة الاضطباع.

الاضطباع: أن يخرج كتفه الأيمن(٤)، وذلك في طواف العمرة وفي طواف القدوم، هذا الاضطباع يستحب في الطواف؛ أن يخرج كتفه الأيمن.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٠٥)، ومسلم (١٢١١)، من حديث عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٢) أخرجه الترمذي (٩٦٠)، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**الطَّوَافُ حَوْلَ البَيْتِ مِثْلُ الصَّلَاةِ، إِلَّا أَنَّكُمْ تَتَكَلَّمُونَ فِيهِ، فَمَنْ تَكَلَّمَ فِيهِ فَلَا يَتَكَلَّمَنَّ إِلَّا بِخَيْرٍ**».

(٣) سبق تخريجه (ص١١).

(٤) قال الأزهري ناقلًا عن أبي عبيد عن أبي عمرو: (الاضطباع بِالثَّوْبِ: أَن يُدخل رِدَاءَهُ تَحت يَده الْيُمْنَى ثمَّ يُلقِيَه على عَاتِقه الْأَيْسَر، كَالرّجلِ يُرِيد أَن يعالجَ أمرا فيتهيّأ لَهُ. يُقَال قد اضطبعتُ =

ويشترط ستر العورة، وهي بالنسبة للرجل ما بين السرة إلى الركبة، وبالنسبة للمرأة كلها عورة، المرأة كلها عورة، فتستر نفسها بما في ذلك وجهها وكفيها وقدميها، إلا أنها إذا كانت محرمة، لا تلبس النقاب على وجهها، وإنما تغطيه بالخمار أو بالثوب، ولا تلبس البرقع ولا النقاب، وتغطي وجهها بالخمار أو بالثوب، ولا تلبس القفازين على كفيها؛ لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال في المرأة المحرمة: «**لَا تَنْتَقِبُ الْمَرْأَةُ الْمُحْرِمَةُ، وَلَا تَلْبَسُ الْقُفَّازَيْنِ**»[(١)]، فتغطي كفيها بثوبها أو بالعباءة، أو الجلباب الذي عليها، هذه هي العورة بالنسبة للرجل والمرأة.

ويشترط لصحة الطواف: أن يكون داخل المسجد الحرام، ولا يطوف خارج المسجد، فلو دار على المسجد سبعة أشواط أو بعض الأشواط خارج المسجد، لم يصح الطواف، لابد أن تكون داخل المسجد؛ إما في صحن المطاف، وإما في الرواق الأرضي، أو الرواق الثاني، أو على السطح، لا بأس بذلك، إذا حصل زحام شديد، فلا بأس أن يطوف الإنسان بالرواق الأرضي أو الرواق الثاني -الدور الثاني-، أو يطوف فوق السطح؛ لأن هذا كله من المسجد، أما لو طاف من المسعى، دخل في بعض الأشواط مع المسعى، هذا غير صحيح؛ لأن المسعى ليس من المسجد، المسعى مشعر مستقل ليس من المسجد، ولذلك تسعى الحائض، وتجلس الحائض في المسعى؛ لأنه ليس من المسجد، حتى ولو أحاطته

= بثوبي. وَهُوَ مَأْخُوذ من الضَّبْع، وَهُوَ العضُد) تهذيب اللغة (١/ ٣٠٨). وانظر: الصحاح (٣/ ١١١٤)، وحلية الفقهاء (ص١١٨)، وغريب الحديث لابن الجوزي (٢/ ٦)، والمغرب في ترتيب المعرب (ص٢٨٠).

(١) أخرجه البخاري (١٨٣٨)، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

البناية، فهو مشعر مستقل ليس من المسجد، فيتحرز الإنسان أنه يطوف بعض الأشواط مع المسعى أو من فوق المسعى من سطح المسعى -الدور الثاني-، هذا لا يحتسب من الطواف؛ لأنه ليس داخل المسجد، فيشترط أن يكون الطواف داخل المسجد، وكلما قرب من الكعبة مع الإمكان، فهو أفضل، ومع الزحام كونه يبتعد ولا يزاحم أفضل له من أن يقرب من الكعبة مع الزحام.

وكذلك لا يصح الطواف لو اخترق الحجر وهو الحطيم، وهذا شيء يجهله بعض الناس، لو طاف ثم إذا حاذى باب الحطيم أو باب الحجر الشرقي دخل وخرج من بابه الغربي، هذا لا يجوز؛ لأن الحجر من الكعبة، أغلبه من الكعبة، والله أمرنا أن نطوف بالبيت العتيق، بالبيت كله، فمن طاف من داخل البيت، لم يكن طوافه صحيحًا حتى يطوف من وراء البيت، ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ [الحج:٢٩]، بما فيه الحِجر؛ لأن الحِجر من البيت، لكنه لم يبن؛ لأن قريشًا قصرت بها النفقة، فاحتطمت هذا المكان من الكعبة، وبنت من دونه، فبقي فضاء، وأحيط بهذا الجدار؛ لأجل أن يتجنب الناس الدخول معه في الطواف.

كذلك لا تصح صلاة الفريضة فيه، لا تصح صلاة الفريضة في الحِجر، ولا في داخل الكعبة، وإنما تصح النافلة فقط، النافلة تصح داخل الكعبة، وتصح في الحِجر، أما صلاة الفريضة فلا تجوز في الحِجر ولا داخل الكعبة.

فيجب التنبه لهذه الأمور المشترطة في الطواف، هذا الركن الثاني من أركان الطواف.

الركن الثالث: السعي بين الصفا والمروة سبعة أشواط، تبدأ من الصفا، وتنتهي بالمروة، ذهابه من الصفا إلى المروة سعية، ورجوعه من المروة إلى الصفا

سعية أخرى؛ حتى يكمل سبعة أشواط، بدايتها من الصفا ونهايتها من المروة، ولا يشترط للسعية الطهارة، يجوز للإنسان أن يسعى وهو على غير طهارة، ولكن الطهارة مستحبة في السعي، ولذلك يجوز للحائض أنها تسعى إذا كانت قد طافت وهي طاهرة، إذا كانت طافت وهي طاهرة ثم أصابها الحيض بعدما انتهت من الطواف، يجوز أن تستمر وتسعى وهي حائض؛ لأن السعي لا يشترط له الطهارة. هذه أركان العمرة.

أما واجباتها فهي اثنان:

الأول: الإحرام من الميقات المعتبر له، وهو إذا مر بالمواقيت الخمسة يحرم منها، وإن كان دونها، فإنه يحرم من المكان الذي نوى منه، إلا إذا نوى وهو في مكة، فلابد أن يخرج ويحرم من الحل، هذا واجب من واجبات العمرة، فلو أحرم بالعمرة بعدما تعدى الميقات المعتبر له، فإحرامه صحيح، ولكن ترك واجبًا، وهو الإحرام من الميقات، فيكون عليه فدية، يجبر ذلك فدية، وهي ذبح شاة تجزئ في الاضحية، يوزعها على فقراء الحرم، وإن كان لايستطيع، فإنه يصوم عشرة أيام، هذا إذا أحرم بالعمرة من دون الميقات، فهو ترك واجبًا.

الواجب الثاني من واجبات العمرة: الحلق أو التقصير، الحلق أو التقصير هذا واجب من واجبات العمرة، لا تتم إلا به، فإذا طاف بالبيت سبعة أشواط، وسعى بين الصفا والمروة سبعة أشواط، فإنه يحلق رأسه، أو يقصر من رأسه، وبذلك تمت عمرته، فيتحلل من إحرامه، وتباح له الأشياء التي كانت محظورة عليه بالإحرام، أما الأشياء المحظورة دائمًا، فهذه حرام دائمًا على المحرم وغيره، لكن الأشياء التي كانت مباحة وحُرِّمت بالإحرام -كالنساء، والطيب، ولبس

المخيط، إلى آخره- تباح له إذا أنهى عمرته، تعود حلالًا له كما كانت قبل الإحرام. هذه أركان العمرة، وهذه واجباتها.

والتقصير يجهل بعض الناس شأنه، فيأخذ شعرات أو شعرتين، ويقول: أنا قصرت. لا، التقصير أن تعمم الرأس، تأخذ من جميع جوانب الرأس ومن وسطه، تأخذ من مجموعه، لا من جميعه، يعني: ليس من كل شعرة، لكن من مجموع شعر الرأس، بحيث لا تترك جهة من الرأس لم تأخذ منها. هذا هو التقصير، يعمم به جميع الرأس، يعني: جميع جوانب الرأس بالمقص أو بالماكينة.

والحلق بالموس أفضل من التقصير؛ لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دعا للمحلقين ثلاث مرات، ودعا للمقصرين مرة واحدة[1]، دل على أن الحلق أفضل من التقصير، ولأنه هو الذي فعله الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حلق رأسه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولأن الله قدمه على التقصير، فقال: ﴿مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ﴾ [الفتح:٢٧]، فقدم الحلق على التقصير في الذكر، تقديمه في الذكر يدل على فضيلته في العمل.

وأما المستحبات في العمرة فهي كثيرة:

المستحبات منها: التلبية، التلبية إذا نوى الإحرام، فإنه يلبي من حين نوى الإحرام إلى أن يشرع في الطواف، يلبي: «**لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ، لَبَّيْكَ لَا شَرِيكَ لَكَ لَبَّيْكَ، إِنَّ الْحَمْدَ وَالنِّعْمَةَ لَكَ وَالْمُلْكَ، لَبَّيْكَ لَا شَرِيكَ لَكَ**»[2]، يصوت بها الرجل، وتخفيها المرأة، التلبية شعار المحرم، هذا من سنن العمرة ومن سنن الحج التلبية.

---

(١) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (١٧٢٨)، ومسلم (١٣٠٢)، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِلْمُحَلِّقِينَ**. قَالُوا: وَلِلْمُقَصِّرِينَ، قَالَ: **اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِلْمُحَلِّقِينَ**. قَالُوا: وَلِلْمُقَصِّرِينَ. قَالَهَا ثَلَاثًا، قَالَ: **وَلِلْمُقَصِّرِينَ**».

(٢) أخرجه البخاري (٥٩١٥)، ومسلم -واللفظ له- (١١٨٤)، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، =

كذلك من سنن العمرة وسنن الحج -أيضًا-: أن يصلي بعد الطواف ركعتين، تسميان ركعتي الطواف، هذا سنة ليس بواجب، من ترك صلاة بعد الطواف، فعمرته صحيحة، وحجه صحيح؛ لأنه لم يترك واجبًا، وإنما ترك سنة مستحبة، فيصلي بعد الفراغ من الطواف ركعتين؛ إن تمكن أن يصليهما عند مقام إبراهيم، فهو أفضل؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة:١٢٥][(١)]، وإن لم يتمكن، فإنه يصليهما في أي مكان من الحرم.

ومن سنن العمرة والحج: الدعاء، الدعاء في الطواف، والدعاء على الصفا والمروة، والدعاء في السعي بما تيسر له من أنواع الأدعية.

ومن سنن العمرة: الاضطباع في الطواف، وهو إذا أراد الشروع في الطواف، يُخرج كتفه الأيمن، يجعل وسط الرداء تحت إبطه الأيمن، ويجعل طرفيه على كتفه الأيسر، فيكون كتفه الأيمن وعضده مكشوفًا، ويكون كتفه الأيسر مستورًا وصدره وظهره، وإنما يبدي الكتف الأيمن وقت الطواف، وقت الطواف من بدايته إلى نهايته. ويجهل بعض الناس فيضطبعون ويخرجون

= «أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ، إِذَا اسْتَوَتْ بِهِ رَاحِلَتُهُ قَائِمَةً عِنْدَ مَسْجِدِ ذِي الْحُلَيْفَةِ، أَهَلَّ فَقَالَ: **لَبَّيْكَ اللهُمَّ، لَبَّيْكَ، لَبَّيْكَ لَا شَرِيكَ لَكَ لَبَّيْكَ، إِنَّ الْحَمْدَ، وَالنِّعْمَةَ، لَكَ وَالْمُلْكَ، لَا شَرِيكَ لَكَ**».

(١) كما في حديث جابر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ الطويل في وصف حج النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي أخرجه مسلم (١٢١٨)، وفيه: «حَتَّى إِذَا أَتَيْنَا الْبَيْتَ مَعَهُ، اسْتَلَمَ الرُّكْنَ فَرَمَلَ ثَلَاثًا وَمَشَى أَرْبَعًا، ثُمَّ نَفَذَ إِلَى مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَقَرَأَ: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة:١٢٥] فَجَعَلَ الْمَقَامَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْبَيْتِ، فَكَانَ أَبِي يَقُولُ -وَلَا أَعْلَمُهُ ذَكَرَهُ إِلَّا عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: كَانَ يَقْرَأُ فِي الرَّكْعَتَيْنِ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ وَ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾».

أكتافهم قبل الطواف أو بعد الطواف، بل بعضهم يضطبع من حين يحرم من الميقات، وهذا غلط، ليس مشروعًا هذا؛ الاضطباع إنما يكون عند بداية الطواف، وينتهي بنهايته، إذا فرغ من الطواف، يعيد الإحرام على جميع كتفيه، ويستر كتفيه، هذا هو السنة.

ومن سنن الطواف في العمرة: الرَّمَل في الأشواط الأولى الثلاثة، الأشواط الثلاثة إذا تمكن من الرَّمَل، وهو الإسراع مع تقارب الخطا، هذا هو الرَّمل: الإسراع مع تقارب الخطا، فيستحب في طواف العمرة، وفي طواف القدوم للحج، وتكون الأشواط الأربعة الباقية على المشي المعتاد.

وأيضًا إذا كان بين الركنين -الركن اليماني والحجر-، فإنه لا يرمل، ينتهي الرمل في الشوط بين الركن اليماني والحجر، يمشي على عادته في كل شوط، في كل الأشواط يمشي بين الركنين؛ لأن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والصحابة كانوا يرملون في الشوط، إلى أن يكونوا بين الركن اليماني والحجر الأسود، فيمشون على هينتهم(١)، هذا سنة إذا تمكن الإنسان، وإن لم يتمكن، فإنه لا شيء عليه.

وكذلك من سنن الطواف في الحج والعمرة وفي طواف التطوع: أن يمسح الركن اليماني إذا تمكن، وإن لم يتمكن، فإنه يمشي ولا يشير إليه؛ لأن بعض الناس يشير إليه، وهذا غير مشروع، المشروع هو مسحه باليد، استلامه باليد إذا أمكن، وإذا لم يمكن، فإنه يمشي، ولا يشير إليه.

---

(١) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (١٦٠٢)، ومسلم (١٢٦٦)، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، «أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اضْطَبَعَ، فَاسْتَلَمَ وَكَبَّرَ، ثُمَّ رَمَلَ ثَلَاثَةَ أَطْوَافٍ وَكَانُوا، إِذَا بَلَغُوا الرُّكْنَ الْيَمَانِيَ وَتَغَيَّبُوا مِنْ قُرَيْشٍ، مَشَوْا، ثُمَّ يَطْلُعُونَ عَلَيْهِمْ يَرْمُلُونَ، تَقُولُ قُرَيْشٌ: كَأَنَّهُمُ الْغِزْلَانُ»، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فَكَانَتْ سُنَّةً.

وأما الحجر الأسود فيستحب أن يستلمه بيده، بمعنى أن يمسحه بيده اليمنى، ثم يقبله إذا أمكن، وإذا لم يمكن استلامه ولا تقبيله للزحام، فإنه يشير إليه ولو من بعيد، ولو كان يطوف في أقصى المطاف أو في الدور الثاني، أو فوق السطح، إذا حاذى الحجر، فإنه يستحب أن يشير إليه، وأن يكبِّر في كل شوط، هذا من سنن الطواف، فإذا فعل هذه الأفعال، فإنه قد تمت عمرته.

وأما الشرب من ماء زمزم، فليس هو من أعمال العمرة، ولا من أعمال الحج، وإنما هو سنة مستقلة، يستحب للإنسان أن يشرب من ماء زمزم، ويتضلع منه؛ لأنه ماء مبارك، ولأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شرب من ماء زمزم، ولو أنه فعل هذا بعدما يفرغ من الطواف، ويصلي ركعتي الطواف، يمر على زمزم ويشرب، يكون هذا أحسن؛ لأن هذا هو الذي فعله النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فإنه لما فرغ من طوافه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصلى الركعتين عند المقام، مرَّ على بئر زمزم، وأخذ دلوًا وشربه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ(١).

فهذه مهمات أحكام العمرة، ونسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن يوفقنا وإياكم للعمل الصالح الخالص لوجهه الكريم، الخالي من الشرك، والصواب على سنة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، الخالي من البدع والمحدثات.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين.

---

(١) كما في حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الطويل في وصف حج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي أخرجه مسلم (١٢١٨)، وفيه: «ثُمَّ رَكِبَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَفَاضَ إِلَى الْبَيْتِ، فَصَلَّى بِمَكَّةَ الظُّهْرَ، فَأَتَى بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، يَسْقُونَ عَلَى زَمْزَمَ، فَقَالَ: انْزِعُوا، بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، فَلَوْلَا أَنْ يَغْلِبَكُمُ النَّاسُ عَلَى سِقَايَتِكُمْ لَنَزَعْتُ مَعَكُمْ. فَنَاوَلُوهُ دَلْوًا، فَشَرِبَ مِنْهُ».

أركان الإسلام وأحكام الصيام

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين، الحمد لله الذي هدانا للإسلام، وجعلنا إن تمسكنا به خير أمة أخرجت للناس، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران:١٠٢]، ﴿ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [البقرة:١٣٢].

الإسلام هو الاستسلام لله بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة والبراءة من الشرك وأهله(١)، والإسلام هو الدين الذي لا يقبل الله من أحد سواه، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ [آل عمران:١٩]، قال سبحانه: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [آل عمران:٨٥].

وهذا الإسلام مبني على خمسة أركان؛ كما قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**بُنِيَ الإِسْلامُ عَلَى خَمْسٍ: شَهَادَةِ أَنْ لا إِلَهَ إِلا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَإِقَامِ الصَّلاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَالْحَجِّ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ**»(٢)، وقال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الإِسْلامُ أَنْ**

---

(١) انظر: اقتضاء الصراط المستقيم (٢/ ٣٧٦)، ومجموع الفتاوي (٧/ ٢٦)، وشرح ثلاثة الأصول للمؤلف -حفظه الله- (ص ١٤٦).

(٢) أخرجه البخاري (٨، ٤٥١٤)، ومسلم (١٦).

تَشْهَدَ أَنْ لا إِلَهَ إلا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَتُقِيمَ الصَّلاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنْ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا»[(١)].

وهذه الأركان هي أركان الإسلام الخمسة التي بُني عليها، وما زاد عنها من الطاعات وتجنب المحرمات فإنه مكمل ومتمم لها، فدين الإسلام يتكون من أركان خمسة، هي مبانيه التي لابد منها، ومن سائر العبادات والطاعات والقربات التي هي تكمل هذه الأركان، وهي من حقوقها.

وكذلك الإسلام يشمل تجنب كل ما حرم الله؛ لأن الإسلام هو الاستسلام لله بالطاعة، والطاعة تشمل فعل الواجبات والمستحبات، وتشمل كذلك ترك المحرمات والمكروهات، كل ذلك من دين الإسلام، ولهذا قال صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ، وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ مَا نَهَى اللهُ عَنْهُ»[(٢)].

فالإسلام واسع، يشمل كل ما شرعه الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ لعباده، وليس الإسلام مقصورًا على هذه الأركان الخمسة أو هذه المباني الخمسة، وإنما هو شامل لكل الطاعات ولترك جميع المحرمات، والله جَلَّوَعَلَا يقول: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ ﴾ [البقرة:٢٠٨]، والسلم هو الإسلام، و﴿ كَآفَّةٗ ﴾ يعني: بجميع شرائعه، فلا يأخذ الإنسان جانبًا من الإسلام، ويترك الجوانب الأخرى، وإنما يأخذ الإسلام كله حسب ما يستطيع وحسب ما يقدر عليه[(٣)]، هذا هو الإسلام.

---

(١) أخرجه مسلم (٨) من حديث عمر رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ. وأخرجه البخاري (٥٠، ٤٧٧٧)، ومسلم (٩، ١٠) من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ.

(٢) أخرجه البخاري (١٠)، ومسلم (٤٠) من حديث ابن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمَا.

(٣) كما في الحديث أخرجه البخاري (٧٢٨٨)، ومسلم (١٣٣٧) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ، =

حتى إنه يشمل المعاملات والبيع والشراء؛ بأن يتقيد المسلم بالمعاملات المباحة الطيبة، ويتجنب المحرمات والمكاسب الخبيثة، كل ذلك من الإسلام.

الأخـلاق الطيبة: يتخلق المسلم بالحياء، ويتخلق بالكرم، ويتخلق بالأخلاق الفاضلة من الأقوال والأفعال، كل ذلك من الإسلام، وهذا هو المسلم الذي انقاد لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ باتباع ما شرعه لعباده.

ومن أركان الإسلام ما نحن فيه الآن، وهو الصيام، أركان الإسلام الخمسة منها ما يتكرر في جميع اللحظات، وهو شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، فهذا الركن -ركن الشهادتين- لا يتخلى عنه المسلم أبدًا، دائمًا وأبدًا هو يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله في جميع حياته، يكون قائمًا على هاتين الشهادتين لا يتخلى عنهما أبدًا.

ومن أركان الإسلام ما يتكرر في اليوم والليلة خمس مرات، وهو الصلوات الخمس المفروضة، هذا الركن يتكرر في حياة المسلم في كل يوم خمس مرات في أوقات حددها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لعباده، ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبٗا مَّوۡقُوتٗا ﴾ [النساء:١٠٣]، يعني: مشروعة ومفروضة في أوقات معينة من الليل والنهار، فالظهر يجب إذا زالت الشمس، والعصر يجب إذا صار ظل الشيء مثله؛ تساوى الظل والشاخص، والمغرب يجب إذا غربت الشمس، والعشاء يجب إذا غاب الشفق الأحمر، والفجر يجب إذا طلع الصبح، هذه مواقيت الصلوات الخمس.

= عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «دَعُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ، إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِسُؤَالِهِمْ وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ، فَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَاجْتَنِبُوهُ، وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ».

ومن هذه الأركان ما يتكرر كل سنة، وهو صيام شهر رمضان، فهذا يتكرر كل سنة في حياة المسلم.

ومن أركان الإسلام ما يكون مرة واحدة في العمر على من استطاع، وهو الحج والعمرة؛ ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران:٩٧]، هذا مرة واحدة في العمر على المستطيع، وما زاد عن المرة فهو تطوع؛ لأن الحج يحتاج إلى مؤونة، ويحتاج إلى سفر، ويحتاج إلى كلفة، فالله جَلَّ وَعَلَا خفف عن عباده، فجعله مرة واحدة في العمر، وما زاد فهو تطوع.

هذه أركان الإسلام، ونحن الآن مع الركن الرابع، وهو الصيام، صيام شهر رمضان، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة:١٨٣].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، هذا نداء من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، وخص المؤمنين بهذا النداء؛ لأن المؤمنين هم الذين يمتثلون أمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ويصغون إلى ندائه بموجب الإيمان، والإيمان كما فسره النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ، خَيْرِهِ وَشَرِّهِ»[(١)]، هذا هو الإيمان؛ أن تؤمن بهذه الأركان الستة: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ، خَيْرِهِ وَشَرِّهِ»، فمن استوفى هذه الأركان، فهو المؤمن، والإيمان -كما عرفه أهل السنة والجماعة-: هو قول باللسان، واعتقاد بالقلب، وعمل بالجوارح يزيد بالطاعة وينقص

---

(١) حديث جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ سبق تخريجه (ص٢٦).

بالمعصية[١]، هذا تعريف الإيمان، وأما أركانه التي يبنى عليها، فهي هذه الستة: الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وبالقدر خيره وشره.

فالله جَلَّ وَعَلَا قال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾؛ الذين آمنوا هذا الإيمان الذي هو قول باللسان واعتقاد بالقلب وعمل بالجوارح، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، والذي هو يتكون من هذه الأركان الستة التي بينها رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فالله خص المؤمنين بالنداء؛ لأنهم هم الذين يمتثلون أمر الله، ويستجيبون لندائه، أما الكفار فإنهم لا يستجيبون لنداء الله، ولا يمتثلون أمره، فلذلك أعرض الله عنهم.

وأيضًا الكفار لو صاموا، لا يقبل صيامهم حتى يؤمنوا بالله عَزَّ وَجَلَّ، قال سبحانه: ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾ [الفرقان:٢٣]، وقال سبحانه عن المشركين: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُواْ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام:٨٨]، فالكافر والمشرك لا يقبل منه صيام ولا غيره من الأعمال حتى يؤمن بالله عَزَّ وَجَلَّ، ولهذا خص الله المؤمنين بأنهم هم الذين يقبل منهم الصيام، وأما الكفار فلا يقبل منهم الصيام ولا سائر الأعمال حتى يؤمنوا بالله عَزَّ وَجَلَّ، ومن هنا أخذ جمهور العلماء أن الكفار غير مخاطبين بفروع الشرائع؛ لأن الله لم يخاطبهم بالصيام، وإنما خاطب المؤمنين فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ ﴾ [البقرة:١٨٣].

ومن العلماء من يقول: إنهم مخاطبون بفروع الشرائع، وكيف يكونون مخاطبين بفروع الشرائع وهم لو فعلوها لم تصح؟ قال: نعم، لو فعلوها، لم تصح، ولكن يعذبون في النار -والعياذ بالله- عذابًا زائدًا على الكفر، يعذبون على ترك

(١) انظر: لمعة الاعتقاد (ص٢٣)، ومجموع الفتاوى (٧/ ٥٠٥)، واجتماع الجيوش الإسلامية (ص٨٤).

الصلاة، ويعذبون على ترك الزكاة، ويعذبون على ترك الصيام، ويعذبون على ترك الحج والعمرة عذابًا زائدًا على عذاب الكفر والشرك.

هذه ثمرة الخلاف بين العلماء: هل الكفار مخاطبون بفروع الشرائع أو لا؟ مع أنهم مجمعون على أن الكفار لو فعلوا العبادات، لم تقبل منهم، ولن يثابوا عليها، وإنما فائدة الخطاب أنهم يعذبون عذابًا زائدًا على عذاب الكفر.

وأما الجمهور فيقولون: يعذبون على الكفر، ويدخل فيه تركهم لسائر الطاعات، لا أنهم يعذبون عذابًا زائدًا على الكفر، يكفي العذاب على الكفر والشرك -والعياذ بالله[1].

---

(١) ذكر الزركشي في كتابه البحر المحيط (٢/ ١٢٥- ١٣٣) في هذه المسألة سبعة أقوال:
أحدها: أنهم مخاطبون بها مطلقًا في الأوامر والنواهي بشرط تقدم الإيمان.
الثاني: أنهم غير مكلفين بالفروع وهو قول جمهور الحنفية، وبه قال عبد الجبار من المعتزلة والشيخ أبو حامد الإسفراييني من أصحابنا.
الثالث: أنهم مكلفون بالنواهي دون الأوامر، لأن الانتهاء ممكن في حالة الكفر، ولا يشترط فيه التقرب، فجاز التكلف بها دون الأوامر، فإن شرطها العزيمة، وفعل التقريب مع الجهل بالمقرب إليه محال، فامتنع التكليف بها.
الرابع: أنهم مخاطبون بالأوامر فقط. حكاه ابن المرحل في «الأشباه والنظائر» ولعله انقلب مما قبله، ويرده الإجماع السابق على تكليفهم بالنواهي.
الخامس: أن المرتد مكلف دون الكافر الأصلي. حكاه القاضي عبد الوهاب في «الملخص» والطرطوشي في «العمدة»، لالتزام أحكام الإسلام.
السادس: أنهم مكلفون بما عدا الجهاد، أما الجهاد فلا، لامتناع قتالهم أنفسهم، حكاه القرافي. قال: (ولا أعرف أين وجدته).
السابع: الوقف. حكاه سليم الرازي في «تقريبه» عن بعض الأشعرية، وحكاه الشيخ أبو حامد الإسفراييني عن الأشعري نفسه.
وانظر في المسألة -أيضا-: إيضاح المحصول من برهان الأصول (ص٧٧- ٨٣)، وشرح تنقيح الفصول للقرافي (١/ ١٦٢- ١٦٤)، والإبهاج في شرح المنهاج (١/ ١٧٧-١٨٦).

الحاصل: أن الله جَلَّ وَعَلَا خص المؤمنين بالنداء؛ تشريفًا لهم وتكريمًا لهم وتنويهًا بشأنهم بأنهم هم الذين يصغون إلى أوامر الله وندائه، ويمتثلون أمره ويجتنبوه نهيه.

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ ﴿كُتِبَ﴾ معناها: فُرِضَ؛ كما قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة:٢١٦] يعني: فرض عليكم الجهاد في سبيل الله عَزَّوَجَلَّ، وكما قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ حين الوصية، ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة:١٨٠]، معنى ﴿كُتِبَ﴾ يعني: فُرِضَ، فقوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ يعني: فُرِضَ عليكم الصيام، فالصيام فرض على هذه الأمة، وقد بين النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هذا بأنه ركن من أركان الإسلام فقال: «وَأَنْ تَصُومَ رَمَضَانَ»(١).

وصيام رمضان بيَّن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن الصيام ركن من أركان الإسلام، وأنه فرض على هذه الأمة، وأنه من المباني التي بني عليها هذا الإسلام.

والصيام في اللغة هو: الإمساك عن الشيء(٢)، يقال: صام عن الكلام يعني: أمسك عن الكلام؛ كما قال تعالى في قصة مريم: ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾ [مريم:٢٦]، فسمى

---

(١) حديث جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ سبق تخريجه (ص٢٦).

(٢) انظر: العين (٧/ ١٧١)، والصحاح (٥/ ١٩٧٠)، ومقاييس اللغة (٣/ ٣٢٣)، وتحرير ألفاظ التنبيه (ص١٢٣).

الإمساك عن الكلام صيامًا[١]، والإمساك عن المشي يسمى صيامًا -أيضًا- في اللغة العربية، يقال: صام عن المشي، يعني: أمسك عن المشي؛ كما قال الشاعر[٢]:

خَيْلٌ صِيَامٌ، وخَيْلٌ غَيْرُ صَائِمَةٍ ... تَحْتَ العَجَاجِ، وأُخْرَى تَعْلُكُ اللُّجُمَا

فقوله: (خيل صيام) هل الخيل تصوم؟ صيام يعني: مربوطة لا تمشي، مربوطة عن المشي، قال امرؤ القيس[٣]:

كأنّ الثُّرَيّا عُلّقَتْ في مَصامِها ... بأمراسِ كَتّانٍ إلى صُمّ جَنْدَلِ

الثريا النجم المعروف، يقول: طول الليل كأن الثريا واقفة لا تمشي، (عُلّقَتْ في مَصامِها) يعني: في مكانها ولم تتحرك، (بأمراسِ كَتّانٍ) أمراس كتان التي هي الخيوط، خيوط قوية.

الحاصل: أن الصيام في اللغة هو الإمساك عن الشيء، أما الصيام في الشرع المراد به: الإمساك عن الطعام والشراب والمفطرات مع النية من طلوع الفجر الثاني إلى غروب الشمس -كما يأتي-، هذا هو الصيام في الشرع، هو الإمساك عن المفطرات بنية من طلوع الفجر الثاني إلى غروب الشمس، هذا هو الصيام شرعًا[٤]، وهذا هو المقصود في الآية.

---

(١) هكذا فسره ابن عباس وأنس بن مالك وأبي بن كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ. قال البغوي: (﴿فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا﴾؛ يعني: صَمْتًا، وكذلك كان يقرأ ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، والصوم في اللغة الإمساك عن الطعام والشراب والكلام). تفسير البغوي (٣/ ٢٣٠). وانظر: تفسير الماوردي (٣/ ٣٦٧)، وزاد المسير (٣/ ١٢٨)، والقرطبي (١١/ ٩٧)، وابن كثير (٥/ ٢٢٥).

(٢) البيت للنابغة. انظر: تفسير الطبري (٣/ ١٥٢)، وجمهرة اللغة (٢/ ٨٩٩)، والفصول في الأصول (١/ ٦٨)، وتهذيب اللغة (١٢/ ١٨١).

(٣) انظر: جمهرة أشعار العرب (ص١٣٣)، وشرح المعلقات التسع (ص١٥٧)، والكامل في اللغة والأدب (٣/ ٦٧)، وتهذيب اللغة (٥/ ٥١).

(٤) انظر: المغني لابن قدامة (٤/ ٣٢٣- ٣٢٥)، والشرح الكبير على المقنع (٧/ ٣٢٥)، والمبدع في شرح المقنع (٣/ ٣).

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾ أي: الإمساك عن المفطرات مع النية من طلوع الفجر إلى غروب الشمس؛ كما يأتي في الآيات التي بعد هذه.

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾: فرض عليكم الصيام كما فرض على الأمم السابقة، فدل هذا على أن الصيام عبادة مفروضة على جميع الأمم، وليس خاصًّا بهذه الأمة، ولماذا قال سبحانه: ﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾؟ من أجل أن يهون على النفوس مشقة الصيام، فإن الأشياء الشاقة إذا كانت عامة، فإن هذا يسهل على النفوس تحملها، والله قال: ﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾؛ من أجل أن يتسلى الصائم بأن هذا شيء عام لجميع الأمم، فيصبر عليه، يصبر على الصيام.

﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ يعني: من المؤمنين السابقين، الرسل وأتباع الرسل عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كانوا يصومون، فالصيام عبادة قديمة وعبادة عامة لجميع المؤمنين من أول الخلق إلى آخرهم، لكن يختلف صيام الأمم بعضها عن بعض؛ لأن الله جَلَّ وَعَلَا يشرع لكل أمة ما يناسبها في وقتها؛ كما قال سبحانه: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة:٤٨]، فالله شرع الصيام، لكنه يختلف عن صيامنا كما تختلف الشرائع بعضها عن بعض.

ثم قال: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾، هذا بيان للحكمة من الصيام، والله شرع الصيام لأجل أن تحصل الوقاية به من المكروه، فالصيام وقاية من المكروه في الآخرة؛ لأنه يقي من النار، ومن عذاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ووقاية في الدنيا؛ لأنه يقي المسلم من الأخلاق الرذيلة والأعمال السيئة، يقيه من الكلام المحرم ومن النظر المحرم ومن السماع المحرم، فالصائم إذا صام، فإنه يمسك عن الطعام

والشراب والشهوات المباحة له في غير حالة الصيام، ويمسك كذلك عن المحرمات التي حرمها الله على الدوام، فالصائم يمسك عن أشياء مؤقتة، وهي الطعام والشراب والاستمتاع بأهله، هذه أشياء مباحة حرمها الله على الصائم وقت الصيام فقط، وأباحها له في وقت الإفطار، وهناك أشياء محرمة دائمًا وأبدًا، فيتجنبها الصائم ويتوقاها؛ كالغيبة والنميمة والسب والشتم والكلام المحرم، الصائم يتجنب هذا ويحفظ لسانه؛ لأنه إذا تكلم بالكلام المحرم وهو صائم، فإن هذا يؤثر على صيامه.

وكذلك الصائم يغض بصره عما حرم الله، وإن كان غض البصر قد أمر الله به دائمًا وأبدًا، غض البصر واجب، والنظر إلى ما حرم الله هذا حرام دائمًا وأبدًا، ولكن الصائم بالخصوص يتأكد في حقه أن يغض بصره؛ لأنه إذا أطلق بصره في الحرام، أثر ذلك على صيامه، فأصبح تعبًا بلا فائدة، كذلك الصائم يصوم سمعه عن سماع الكلام المحرم من غيبة أو نميمة أو سباب أو شتم، لايستمع إلى هذه الأشياء، وكذلك عن سماع الأغاني والمزامير وآلات اللهو، هذه محرمات دائمًا، ولكن الصائم يتجنبها لأنه صائم، ولهذا قال ﷺ: «**إِذَا كَانَ يَوْمُ صَوْمِ أَحَدِكُمْ فَلَا يَرْفُثْ وَلَا يَصْخَبْ، فَإِنْ سَابَّهُ أَحَدٌ أَوْ قَاتَلَهُ، فَلْيَقُلْ إِنِّي امْرُؤٌ صَائِمٌ**»(١)، فلا يتكلم المسلم الصائم بالكلام البذيء والكلام المحرم، ولو أن أحدًا تطاول عليه وتكلم عليه، فلا يرد عليه؛ بل يقول: إني صائم، إني صائم، يتذكر صيامه.

فقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ أي: أن الله شرع لكم الصيام لأجل أن يقيكم هذا الصيام عما يضركم في الدنيا والآخرة، فالصيام وقاية بينك وبين

---

(١) أخرجه البخاري (١٩٠٤)، ومسلم (١٦٣) (١١٥١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

الحرام، وقاية بينك وبين عذاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولهذا قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الصوم جُنَّة»(١)، والجنة هي السترة التي يتخذها المقاتل من الحديد والفولاذ، يتخذها أمامه يتقي بها سهام العدو، هذه هي الجنة، الجنة هي السترة التي يتخذها في القتال، فالصيام جنة بينك وبين ما حرم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ كما أن السترة التي يتخذها المقاتل سترة بينه وبين سلاح العدو، هذه فائدة الصيام أنه يقيك من عذاب الله، ويقيك من الكلام المحرم ومن النظر المحرم ومن السماع المحرم؛ قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الصِّيَامُ جُنَّةٌ مَا لَمْ يَخْرِقْهَا صَاحِبُهَا، وَخَرْقُهَا الْغَيْبَةُ**»(٢)، فإذا صام الإنسان، ترك الطعام، ترك الشراب، ترك الاستمتاع بزوجته، لكنه لم يترك الكلام المحرم، ولم يترك السماع المحرم، ولم يترك النظر المحرم، هذا لا يسمى صائمًا عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ لأنه أفسد صيامه؛ الصيام جنة، ولكنه خرقها، فصارت لا تقيه، هذا الصيام لا يقيك من عذاب الله، ولا يقيك من المحرمات، إذًا ليس صيامًا صحيحًا، ولهذا جاء في الحديث: «**مَنْ لَمْ يَدَعْ قَوْلَ الزُّورِ، وَالْعَمَلَ بِهِ، وَالْجَهْلَ، فَلَيْسَ للهِ حَاجَةٌ أَنْ يَدَعَ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ**»(٣).

---

(١) أخرجه البخاري بهذا اللفظ (٧٤٩٢)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
وأخرجه البخاري (١٨٩٤)، ومسلم (١٦٢) (١١٥١)، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الصِّيَامُ جُنَّةٌ**».

(٢) أخرجه بهذا اللفظ عبد الرزاق في مصنفه (٤/ ٣٠٧) من حديث حفصة بنت سيرين.
وأخرجه النسائي في المجتبى مرسلا (٢٢٣٥)، عَنْ أَبِي عُبَيْدَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: «**الصِّيَامُ جُنَّةٌ مَا لَمْ يَخْرِقْهَا**»، وأخرجه الدارمي مرفوعًا في سننه (٢/ ١٠٨١).
وقال المنذري في الترغيب والترهيب (٢/ ٩٤): (رَوَاهُ النَّسَائِيّ بِإِسْنَاد حسن وَابْن خُزَيْمَة فِي صَحِيحه وَالْبَيْهَقِيّ وَرَوَاهُ الطَّبَرَانِيّ فِي الْأَوْسَط من حَدِيث أبي هُرَيْرَة، وَزَاد: «قيل: وَبِمَ يخرقها قَالَ بكذب أَو غيبَة»).

(٣) أخرجه البخاري (٦٠٥٧)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الصيام ليس الصيام عن الأكل والشرب فقط، ولكنه صيام -أيضًا- عن كل ما حرم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فهذا الصيام الذي تصومه إذا حفظته وتقيدت به، صار وقاية لك في الدنيا والآخرة، وقاية لك في الآخرة من النار، ووقاية لك في الدنيا من الأعمال والأقوال والأفعال الخبيثة، هذا الصيام يحفظك، ولذلك تجدون الصائم أحسن من المفطر، تجدون الصائمين عليهم الوقار، وعليهم العبادة، وعليهم الخشوع، وعليهم السكينة، وعليهم تجنب المحرمات؛ لأن الصيام منعهم ووقاهم من هذه الأمور، ولهذا قال: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ أي: شرع لكم الصيام لأجل أن تحصل لكم التقوى، والتقوى معناها أن تتخذ وقاية دونك ودون ما تكره، فالصيام وقاية لك، يقيك مما تكره، هذا الصيام الصحيح، الصيام الذي صانه صاحبه عما حرم الله هذا هو الذي يكون وقاية.

أما الصيام الصوري الذي لم يتجنب صاحبه المحرمات من الكلام والنظر حظ صاحبه التعب بدون فائدة؛ كما جاء في الحديث: «**رُبَّ صَائِمٍ حَظُّهُ مِنْ صِيَامِهِ الْجُوعُ وَالْعَطَشُ، وَرُبَّ قَائِمٍ حَظُّهُ مِنْ قِيَامِهِ السَّهَرُ**»[1]؛ لأن الأمور ليست في صورها الظاهرة فقط، ولكنها تكون بحسب ما يقوم بقلب المؤمن من خشية الله وتعظيمه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

هذا هو الصيام الذي ينفع صاحبه في الدنيا والآخرة، هو الصيام الذي صانه صاحبه عن كل ما حرم الله؛ عن المفطرات الحسية من الأكل والشرب،

---

(١) أخرجه أحمد (١٤/ ٤٤٥)، والنسائي في الكبرى (٣/ ٣٤٨)، وابن ماجه (١٦٩٠)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وعن المفطرات المعنوية، وهي الكلام المحرم والسماع المحرم والنظر المحرم، هذا هو الصيام الصحيح الذي ينفع صاحبه في الدنيا والآخرة.

نسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يجعلنا وإياكم من الصائمين القائمين الذين حفظوا صيامهم وحفظوا قيامهم من الرياء والسمعة ومن المفسدات، وأرادوا بهما وجه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

أعمال العشر الأواخر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على عبده وسوله نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين، أما بعد:

أيها الأخوة! ما أكثر العبر! وما أقل المعتبرين! ها نحن مع هذا الشهر المبارك شهر رمضان قد انطوى أكثره، ومضى معظمه، مضت منه العشرون الأول، وبقيت العشر الأواخر، وهي الثلث، ولكن الثلث كثير، قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الثُّلُثُ، وَالثُّلُثُ كَثِيرٌ**»[1] لمن وفقه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

فما مضى من هذا الشهر يجب علينا أن نحاسب أنفسنا: بماذا مضى؟ وبماذا أودعناه من الأعمال؟ فمن كان محسنًا، فعليه بالإتمام والاستمرار والعمل الصالح؛ ليضيف خيرًا إلى خير، ومن كان مفرطًا في العشرين الأول ومضيعًا، فعليه بالتوبة إلى الله عَزَّوَجَلَّ، والاستغفار مما قصر، وعليه باستدراك هذه العشر المباركة.

العمر كذلك ينطوي، ويمر بسرعة، ولا يدري الإنسان، ولا يستيقظ إلا إذا حضره الموت؛ ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق:٢٢]، إنها عبر، ولكن من يعتبر؟!

(١) أخرجه البخاري (٢٧٤٣)، ومسلم (١٦٢٩)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

أيها الأخـوة! إن هذه العشر الأخيرة من رمضان هي عشر مباركة، وعشرٌ فاضلة؛ لأنها ختام الشهر، والأعمال بالخواتيم، ولأنها العشر التي كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يخصها بمزيد من الاجتهاد، ففي الصحيحين أنه: «كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا دَخَلَ العَشْرُ شَدَّ مِئْزَرَهُ، وَأَحْيَا لَيْلَهُ، وَأَيْقَظَ أَهْلَهُ»[1].

شد مئزره، يعني: جد واجتهد في العمل الصالح.

وأحيا ليله: أحيا ليله بالعبادة، ليالي هذه العشر كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يحييها بالتهجد، وإطالة الصلاة، ويحييها بذكر الله عَزَّ وَجَلَّ، وبتلاوة القرآن.

كان في العشرين الأول كان يصلي وينام، أما إذا دخلت العشر الأواخر، فإنه كان يحييها بالتهجد والعبادة، وفي رواية: «لَمْ يَذُقْ غَمْضًا»[2] صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فينبغي للمسلم أن يحيي هذه الليالي المباركة بالعبادة والتهجد والصلاة مع المسلمين، ولا يغفل مع الغافلين، فتضيع عليه هذه الأيام، وتنتهي بدون فائدة، فيخسرها، ويندم على ذلك بعد الفوات.

قال بعض السلف: (الأوقات ثلاثة: وقت مضى لا تستطيع استرداده واسترجاعه، ووقت مستقبل لا تدري هل تدركه أو لا تدركه، ووقت أنت فيه فاستغله بالعبادة)، الوقت الذي أنت فيه اجتهد فيه قبل أن يفوت عليك كما فات ما قبله، وقد يكون هو آخر حياتك، فلا تدرك المستقبل، فعليك بالاجتهاد

---

(١) أخرجه البخاري (٢٠٢٤)، ومسلم (١١٧٤)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٢) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٦/ ٣٠٦)، عَنِ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قُلْنَا لَهُ: أَخْبِرْنَا بِلَيْلَةِ الْقَدْرِ، يَا أَبَا حَمْزَةَ، قَالَ: «كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا شَهِدَ رَمَضَانَ، قَامَ وَنَامَ، فَإِذَا كَانَ أَرْبَعًا وَعِشْرِينَ، لَمْ يَذُقْ غَمْضًا».

في هذا الوقت الذي تعيشه، وهو بين يديك، وقد مكنك الله منه، فلا يمضي عليك بدون فائدة وعمل صالح.

إن هذه العشر لها فضائل كثيرة:

الفضيلة الأولى: أنها ختام الشهر، وأنها ليالي الإعتاق من النار، ومغفرة الذنوب، وقد روي عنه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال عن شهر رمضان: «**شَهْرٌ أَوَّلُهُ رَحْمَةٌ وَأَوْسَطُهُ مَغْفِرَةٌ وَآخِرُهُ عِتْقٌ مِنَ النَّارِ**»(١)، فأيام الإعتاق من النار هي في هذه العشر الأواخر، فأعتق نفسك من النار بطاعة الله سبحانه وبالتوبة والاستغفار، والرجوع إلى الله عَزَّ وَجَلَّ؛ فإن الله يقبل التوبة ممن تاب، ويغفر الذنوب لمن أناب إليه؛ قال تعالى: ﴿وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة:١٦٠]، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾ [طه:٨٢]، قال سبحانه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الشورى:٢٥].

والفضيلة الثانية من فضائل هذا الشهر: أن الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يخصها بعبادة لم يكن يفعلها في أول الشهر، من ذلك أنه كان يحيي ليالي هذه العشر، يحييها بالتهجد بين يدي ربه عَزَّ وَجَلَّ، وكثرة الصلاة، كثرة الاستغفار وتلاوة القرآن، هذا معنى إحيائها، أي: إحياءها بالعبادة، وليس المراد إحياءها بالسهر على القيل والقال، والأكل والشرب، والضحك والمازحة؛ كما يفعله بعض الناس، وإنما يحييها بالعبادة، فينبغي للمسلم أن يقتدي بنبيه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فيحيي هذه الليالي، وهي ليال قليلة، ولكنها مباركة، وكثيرة النفع بإذن الله،

(١) أخرجه ابن خزيمة في صحيحه (٣/ ١٩١)، والبيهقي في شعب الإيمان (٥/ ٢٢٣)، من حديث سلمان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

كان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يخصها بمزيد اجتهاد لا يفعله في أول الشهر، ومن ذلك: أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يعتكف هذه العشر، بمعنى: أنه يجلس في المسجد ليله ونهاره، يخلو بربه عَزَّ وَجَلَّ، وينقطع عن الناس؛ لأجل أن يتفرغ لعبادة الله عَزَّ وَجَلَّ من تلاوة القرآن وذكر الله، والصلاة، فكان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يعتكف في المسجد ليله ونهاره، ولا يخرج إلا لما لابد له منه، ثم يرجع إلى معتكفه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كان يُضرب له حصير في ناحية المسجد، ويخلو من ورائه، ويجلس وحده صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولا يخرج منه إلا للصلاة، أو يخرج للحاجة التي لابد منها، ثم يرجع إلى هذا المكان، وبقي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يعتكف العشر الأواخر حتى توفاه الله عَزَّ وَجَلَّ مما يدل على فضل هذه العشر؛ حيث خصها صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالاعتكاف والخلوة بربه عَزَّ وَجَلَّ، والبقاء في المسجد في ليله ونهاره، كل ذلك لأجل أن يتفرغ لاستغلال هذه العشر وهذه الساعات وهذه الدقائق المباركة، مما يدل على فضل هذه العشر(١).

ومما يدل على فضل هذه العشر: أنها هي أرجى الليالي التي ترجي فيها ليلة القدر، التي قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فيها: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ ١ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ ٢ لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ ٣ تَنَزَّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذۡنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمۡرٖ ٤ سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطۡلَعِ ٱلۡفَجۡرِ﴾ [القدر:١-٥]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ٣ فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ﴾ [الدخان:٣، ٤]، فهي ليلة مباركة أخبر الله جَلَّ وَعَلَا أنها

---

(١) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (٢٠٤٤)، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: «كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَعْتَكِفُ فِي كُلِّ رَمَضَانٍ عَشَرَةَ أَيَّامٍ، فَلَمَّا كَانَ العَامُ الَّذِي قُبِضَ فِيهِ اعْتَكَفَ عِشْرِينَ يَوْمًا».

مباركة، وأخبر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أنها ﴿ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴾ [القدر:٣]، ﴿ خَيْرٌ ﴾، أي: العمل الصالح في هذه الليلة خيرٌ من العمل في ألف شهر ليس فيها ليلة القدر، فعملها يعادل عمل ألف شهر، وألف شهر إذا حولتها إلى سنين تزيد على ثلاث وثمانين سنة، هذا فضل عظيم لمن وفقه الله.

وهذه الليلة أخفاها الله في شهر رمضان من أجل أن يجتهد المسلم في جميع ليالي رمضان من أوله إلى آخره؛ حتى يفوز بليلة القدر، ويفوز -أيضًا- بقيام ليالي رمضان زيادة خير له، وقد قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ قَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ**»[١]، فيحصل على فضل قيام ليالي رمضان كلها، ويحصل على قيام ليلة القدر، النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يتحرى ليلة القدر، كان يعتكف العشر الأوسط من رمضان يتحرى فيها ليلة القدر، ثم تبين له أنها في العشر الأواخر، فنقل اعتكافه من العشر الأوسط إلى العشر الأواخر[٢]، وبقي يعتكف العشر الأواخر حتى توفاه الله عَزَّوَجَلَّ، وهذا مما يؤكد فضل هذه

---

(١) أخرجه البخاري (٣٧)، ومسلم (٧٥٩)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (٨١٣)، ومسلم (١١٦٧)، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: «إِنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اعْتَكَفَ الْعَشْرَ الْأَوَّلَ مِنْ رَمَضَانَ، ثُمَّ اعْتَكَفَ الْعَشْرَ الْأَوْسَطَ، فِي قُبَّةٍ تُرْكِيَّةٍ عَلَى سُدَّتِهَا حَصِيرٌ، قَالَ: فَأَخَذَ الْحَصِيرَ بِيَدِهِ فَنَحَّاهَا فِي نَاحِيَةِ الْقُبَّةِ، ثُمَّ أَطْلَعَ رَأْسَهُ فَكَلَّمَ النَّاسَ، فَدَنَوْا مِنْهُ، فَقَالَ: إِنِّي اعْتَكَفْتُ الْعَشْرَ الْأَوَّلَ، أَلْتَمِسُ هَذِهِ اللَّيْلَةَ، ثُمَّ اعْتَكَفْتُ الْعَشْرَ الْأَوْسَطَ، ثُمَّ أُتِيتُ، فَقِيلَ لِي: إِنَّهَا فِي الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ، فَمَنْ أَحَبَّ مِنْكُمْ أَنْ يَعْتَكِفَ فَلْيَعْتَكِفْ. فَاعْتَكَفَ النَّاسُ مَعَهُ، قَالَ: وَإِنِّي أُرِيتُهَا لَيْلَةَ وِتْرٍ، وَإِنِّي أَسْجُدُ صَبِيحَتَهَا فِي طِينٍ وَمَاءٍ. فَأَصْبَحَ مِنْ لَيْلَةِ إِحْدَى وَعِشْرِينَ، وَقَدْ قَامَ إِلَى الصُّبْحِ، فَمَطَرَتِ السَّمَاءُ، فَوَكَفَ الْمَسْجِدُ، فَأَبْصَرْتُ الطِّينَ وَالْمَاءَ، فَخَرَجَ حِينَ فَرَغَ مِنْ صَلَاةِ الصُّبْحِ، وَجَبِينُهُ وَرَوْثَةُ أَنْفِهِ فِيهِمَا الطِّينُ وَالْمَاءُ، وَإِذَا هِيَ لَيْلَةُ إِحْدَى وَعِشْرِينَ مِنَ الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ».

العشر، وأنها أرجى ما تكون فيها هذه الليلة المباركة، فينبغي للمسلم أن يحرص على إحياء هذه الليالي في طاعة الله عَزَّوَجَلَّ، وقيام الليل، والإكثار من ذكر الله عَزَّوَجَلَّ.

وكان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوقظ أهله، أهل بيته يوقظهم للتهجد في هذه الليالي المباركة، وهذا مما يؤكد على المسلم أن يحرص على أولاده وعلى أهل بيته، فيوقظهم، ويُقيمهم للتهجد والصلاة في هذه الليالي مع المسلمين، ولا يترك أولاده يسرحون ويمرحون في الشوارع، ولا يترك نساءه في البيوت نائمات أو غافلات، أو يترك نساءه يتجولن في الأسواق من محل إلى محل طول ليلهن بين ذهاب وإياب، ويترك أولاده في الشوارع، النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يوقظ أهله في هذه العشر المباركة لاغتنامها، والصلاة مع المسلمين ومشاركة المسلمين، وهذا العمل منه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ امتثال لقوله سبحانه: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ [طه:١٣٢]، ولقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ [التحريم:٦]، فكما أن الإنسان يطلب النجاة لنفسه، ويريد الخير لنفسه، فإنه -أيضًا- يطلب النجاة لأهله وأهل بيته وإخوانه المسلمين، والأمور بالتعاون؛ قال الله سبحانه: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ [المائدة:٢].

فإن بعض الناس يضيعون هذه الليالي بمتابعة القنوات الفضائية والسهر عليها، والنظر فيها وما يُعرض فيها مما يقضي على دينهم ودنياهم، فيصبحون خاسرين؛ لا هم الذين شاركوا المسلمين في قيام هذه الليالي، ولا هم الذين سلموا من الآثام والمناظر الخبيثة والمسامع القبيحة، فهذا عين الخسار، ولا يكفي

أنهم ضيعوا هذه الليالي، ففاتت عليهم، وإنما زيادة على ذلك تحملوا آثامًا وأوزرًا بمتابعة هذه القنوات التي أضلت كثيرًا من الناس إلا من رحم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

إنه يتعين على المسلمين أن ينتبهوا لأنفسهم، وأن يتنبهوا لأولادهم وأهل بيوتهم في هذا الشهر وفي غيره.

الحياة كلها مطلوب من المسلم أن يستغلها في طاعة الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأنها هي مزرعة الآخرة، وهي حصيلتك من هذه الدنيا، أنت خرجت إلى الدنيا ليس معك شيء، خرجت من بطن أمك ليس عليك شيء، ليس عليك ثياب، خرجت عاريًا إلى هذه الدنيا، وستخرج منها إلى القبر وإلى الآخرة كما دخلت فيها، فانظر بماذا تخرج منها، لا تخرج من هذه الدنيا من متاعها وأموالها إلا بالكفن، لا تخرج من الأموال التي جمعت وتعبت في تحصيلها إلا بالكفن، اللفافة التي تلف فيها، وإنما المعتبر الأعمال الصالحة، أما الأموال فإنها تبقى لغيرك، وتخرج منها كما دخلت فيها ليس معك شيء منها، قال صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: **«يَتْبَعُ الْمَيِّتَ ثَلَاثَةٌ، فَيَرْجِعُ اثْنَانِ، وَيَبْقَى وَاحِدٌ: يَتْبَعُهُ أَهْلُهُ، وَمَالُهُ، وَعَمَلُهُ، فَيَرْجِعُ أَهْلُهُ وَمَالُهُ، وَيَبْقَى مَعَهُ عَمَلُهُ»**(١)، ليس له من هذه الدنيا إلا العمل؛ فإن كان صالحًا، فيا سعادته! ويا ربحه! ويا فوزه عند الله! وكانت حياته خيرًا له، ولو كانت قليلة، فإنها مباركة، وإذا طال عمر المسلم على العمل الصالح، فذلك زيادة خير؛ قال صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: **«خَيْرُكُمْ مَنْ طَالَ عُمْرُهُ، وَحَسُنَ عَمَلُهُ»**(٢)، ولو كان عمره قصيرًا، ولكنه استعمله في الطاعة، فهو عمرٌ مبارك، أما إذا طال عمره

---

(١) أخرجه البخاري (٦٥١٤)، ومسلم (٢٩٦٠)، من حديث أنس بن مالك رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

(٢) أخرجه أحمد (٢٩/ ٢٢٦)، والترمذي (٢٣٢٩)، من حديث عبد الله بن بسر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

وساء عمله، فالمصيبة لا وزن لها، ولا جبران لها، إذا طال عمره وساء عمله -والعياذ بالله-، فهو داخل في قوله: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًا﴾ [آل عمران:١٧٨].

فالعبرة ليست بطول العمر وقصر العمر، العبرة بماذا استفدت من هذا العمر، هذه هي العبرة، وهذه هي الثمرة، وهذه هي الفائدة.

تمر بنا هذه المواسم العظيمة كشهر رمضان، ومنا من وفقه الله، واستغلها في طاعة الله، فصارت في ميزان حسناته، ومنا المقصر، ومنا المضيع الذي لم ينتبه لنفسه، فتمر عليه هذه الأيام كغيرها لا يستفيد منها إلا السيئات التي تكون في ميزان سيئاته -ولا حول ولا قوة إلا بالله-، فيخسر الدنيا والآخرة، ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ [الحج:١١].

من خسر دنياه، خسر آخرته؛ لأن الآخرة مبنية على هذه الدنيا، الآخرة والمستقبل مبنيان على هذه الدينا، الإنسان يجتهد في طلب الرزق وفي طلب الأموال، ويقول: أنا أريد أن أؤمن مستقبلي، يؤمن مستقبله بالأموال، يخشى من الفقر، يخشى من الحاجة، ولكنه المسكين لا يؤمن مستقبله الصحيح الذي لابد له منه، وهو الآخرة، هذه هي المستقبل الذي يجب أن يؤمن بالأعمال الصالحة، أما المال والرزق الله تكفل سبحانه، ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود:٦]، ولكن الشأن في العمل الصالح، هذا هو الذي إذا فات على الإنسان وحضره الموت، ﴿قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا﴾ [المؤمنون:٩٩، ١٠٠].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾، يناديكم الله جَلَّوَعَلَا، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿٩﴾ وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴾ [المنافقون:٩-١١]، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿١٩﴾ لَا يَسۡتَوِيٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۚ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ﴾ [الحشر:١٨-٢٠].

أسأل الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ أن يمن علينا وعليكم بالتوفيق، وأن يجعل أعمارنا خيرًا لنا، وأن يجعل خير أعمالنا آخرها، وخير أيامنا يوم لقائه، أن يحسن لنا ولكم الختام، وأن يتقبل منا ومنكم الصيام والقيام، وأن يعفو عن سيئاتنا وتقصيرنا إنه سميع مجيب.

وصلى الله وسلم على عبده ورسوله نبينا محمد، وعلى آله واصحابه أجمعين.

الأحكام المتعلقة بالصيام

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين، أما بعد:

فقد جاء في الحديث عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «**لَا يَزَالُ النَّاسُ بِخَيْرٍ مَا عَجَّلُوا الفِطْرَ**»[(١)]، وفي حديث آخر: «**قَالَ اللهُ** عَزَّ وَجَلَّ: **إِنَّ أَحَبَّ عِبَادِي إِلَيَّ، أَعْجَلُهُمْ فِطْرًا**»[(٢)]، وفي الحديث الآخر أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إِذَا أَفْطَرَ أَحَدُكُمْ فَلْيُفْطِرْ عَلَى تَمْرٍ، فَإِنْ لَمْ يَجِدْ فَلْيُفْطِرْ عَلَى الْمَاءِ؛ فَإِنَّهُ طَهُورٌ**»[(٣)].

هذه الأحاديث كلها في الحث على تعجيل الفطر من الصيام اليومي، وذلك إذا تحقق غروب الشمس؛ لأن الله جَلَّ وَعَلَا يقول: ﴿**وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ۖ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ**﴾ [البقرة:١٨٧]، ﴿**إِلَى ٱلَّيْلِ**﴾، فجعل الليل غاية للفطر، والليل يبدأ بغروب الشمس، والمسلم يصوم من طلوع الفجر إلى بداية الليل، وبداية الليل بغروب الشمس؛ كما قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِذَا أَقْبَلَ اللَّيْلُ مِنْ هَا هُنَا، وَأَدْبَرَ النَّهَارُ مِنْ هَا هُنَا، وَغَرَبَتِ الشَّمْسُ فَقَدْ أَفْطَرَ الصَّائِمُ**»[(٤)]، فوقت الإفطار هو غروب الشمس.

---

(١) أخرجه البخاري (١٩٥٧)، ومسلم (١٠٩٨)، من حديث سهل بن سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه أحمد (١٢/ ١٨٢)، والترمذي (٧٠٠)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه أحمد (٢٦/ ١٦٣)، وأبو داود (٢٣٥٥)، والترمذي (٦٥٨)، وابن ماجه -واللفظ له- (١٦٩٩)، من حديث سلمان بن عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) أخرجه البخاري (١٩٥٤)، ومسلم (١١٠٠)، من حديث عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

غروب الشمس يراد به: سقوطها في الأفق، وليس المراد بغروب الشمس أن تختفي وراء شيء مرتفع كالمباني والجبال والمرتفعات، بل المراد أن تغرب في الأفق، ولذلك جعل علامة الغروب إقبال الليل من المشرق، وإدبار النهار من المغرب، هذه علامة الغروب، أما إذا غابت من وراء مرتفع، ولم يقبل الليل، لم تر الليل من المشرق، فهذا ليس هو الغروب المقصود، ولا ينتهي به النهار، المراد بالغروب الذي ينتهي به النهار ويبدأ به الليل، هذا هو الغروب الذي هو نهاية الصيام للمسلمين، وهذا يُعرف بالمشاهدة، فإذا كنت ترى غروب الشمس بنفسك؛ بأن كنت في مكان بارز ترى غروب الشمس، فإنك تعتمد على ذلك -على غروب الشمس-، أما إذا كنت في مكان لا ترى غروب الشمس كأن تكون في منزل، أو في غرفة أو مكان لا ترى غروب الشمس، فإنك تعتمد على التوقيت الحسابي وأذان المؤذنين، تعتمد على التوقيت وعلى أذان المؤذنين، أو إذا أخبرك ثقة، ليس هناك توقيت، ليس عندك توقيت، ولا تسمع أذانًا، وأنت لا ترى غروب الشمس، أنت في مكان لا تستطيع البروز والخرج منه، تعتمد على خبر الثقة، فإذا أخبرك ثقة أن الشمس قد غربت، فإنك تفطر.

وفي هذه الأحاديث أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حث على تعجيل الإفطار إذا غربت الشمس، وأن ذلك أحب إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فلا يجوز لك أن تؤخر الإفطار، وتقول: أريد زيادة الخير، وأنا عندي قوة وقدرة، وأريد أن أزيد الصيام، وأمدد الصيام، هذا لا يجوز، وهذا لا يحبه الله؛ لأن الله يقول: «**إِنَّ أَحَبَّ عِبَادِي إِلَيَّ أَعْجَلُهُمْ فِطْرًا**»، يفهم من ذلك أن الذي لا يعجل الإفطار أن ذلك يكرهه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وأنت تلتمس رضا الله، وتتقي سخط الله، إذا كنت تلتمس

رضا الله، فبادر بالإفطار عند غروب الشمس، ولاتؤخر؛ لأن هناك من أهل البدع -هذا من علامات النبوة أنه أخبر عن هذا[(١)]-، من أهل البدع الآن من يؤخرون الإفطار، ولا يفطرون حتى يروا النجوم، لا يفطرون حتى يُظلم الجو، ويروا النجوم، هذا بدعة، هذا ابتداع في الدين، وهذا يكرهه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهذا ليس من الدين، الله جَلَّ وَعَلَا يقول: ﴿ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ ﴾ [البقرة:١٨٧]، و(إِلَى) غاية، لايدخل ما بعدها فيما قبلها، غاية، نهاية، نهاية الصيام غروب الشمس، لهذا قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِذَا أَقْبَلَ اللَّيْلُ مِنْ هَاهُنَا، وَأَدْبَرَ النَّهَارُ مِنْ هَاهُنَا، وَغَابَتِ الشَّمْسُ فَقَدْ أَفْطَرَ الصَّائِمُ**»[(٢)]، يعني: انتهى الصيام، سواء أكل وشرب أو لم يأكل، هو أفطر، بقاؤه على الصيام بعد غروب الشمس لا فائدة فيه، وليس هو عبادة لله عَزَّوَجَلَّ، ولا يؤجر عليه، بل يأثم؛ لأنه مخالفة لما أمر الله به، ولما حث عليه رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولهذا قال: «**لَا يَزَالُ النَّاسُ بِخَيْرٍ مَا عَجَّلُوا الفِطْرَ**»، يعني: لا تزال هذه الأمة بخير ما دامت متمسكة بالسنة، والسنة: الإفطار عند الغروب، فمن غيّر وزاد، ولم يفطر عند الغروب، فقد ابتدع في الدين ما ليس منه، فحينئذ يحصل الشر؛ لأن الشر إنما يأتي مع البدع والمحدثات، والخير يأتي مع العمل بالسنة والتمسك بالسنة.

بقيت مسألة، وهي ماذا يفطر عليه الصائم؟ الإفطار معناه: أنه يتناول شيئًا من الطعام، النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حث على الإفطار على التمر، على الرطب، وهو أول التمر، فإن لم يكن رطب، فعلى التمر، وهو الجاف، وهو ثمر النخل

---

(١) لأن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال في الحديث السابق تخريجه (ص٤٧): «**لَا يَزَالُ النَّاسُ بِخَيْرٍ مَا عَجَّلُوا الفِطْرَ**».

(٢) سبق تخريجه (ص٤٧).

الجاف أو المجفف، هذا يسمى التمر، أما أوله، هذا يسمى رطبًا؛ ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا ﴾ [مريم:٢٥]، أول صلاح ثمر النخل يسمى الرطب، فإذا تجفف، سُمِّي تمرًا، فإذا كان وقت الرطب، فالسنة أنك تفطر على رطبات، على رطبات، على ثلاث تمرات، خمس تمرات، يعني: تفطر على وتر، وإذا كان ليس بوقت الرطب، تفطر على التمر، التمر المجفف، هذا هو الأفضل؛ لأن التمر فيه فائدة للمعدة الخالية من الصيام، يكون أول ما يرد إليها التمر أو الرطب، هذا فيه فائدة صحية للمعدة؛ لأنه من أحسن الحلوى، التمر من أحسن الحلوى، وإذا لم يجد رطبًا ولا تمرًا، فإنه يشرب الماء؛ لأن الماء طهور، يطهر المعدة، وفيه فائدة صحية، وكان ﷺ يفطر على الرطب، على رطبات، فإن لم تكن رطبات، فعلى تمرات، فإن لم يكن تمرات، أفطر على الماء، حسا حسوات من الماء ﷺ، فيجعل بدل التمر الماء[1].

أولًا: التمر إذا وُجد، وهذا أحسن، فإذا لم يجد، فإنه يشرب الماء على المعدة، يكون أول ما يرد عليها الماء، وهو طهور، ثم بعد ذلك يأكل ما شاء مما تيسر له، يتعشى بعدما يصلي المغرب، يتعشى، لكن الكلام الآن على الإفطار، وهو أول ما يتناوله الصائم، فإذا كان يجد التمر، يفطر على التمر، فإذا كان لم يجد التمر، فإنه يفطر على الماء، وإذا كان لا يجد الماء، فإنه يفطر على ما يتيسر له من المأكولات، ولا يبقى صائمًا، ولا يبالغ في الإفطار مثلما يفعل بعض الناس يبالغون في تناول الأنواع من الأطعمة ومن المأكولات، هذا خلاف السنة.

---

(١) كما في الحديث الذي أخرجه أبو داود (٢٣٥٦)، والترمذي (٦٩٦)، وابن ماجه (١٧٥٤): عَنْ أَنَسِ ابْنِ مَالِكٍ قَالَ: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُفْطِرُ عَلَى رُطَبَاتٍ قَبْلَ أَنْ يُصَلِّيَ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ رُطَبَاتٌ، فَتَمَرَاتٌ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ تَمَرَاتٌ حَسَا حَسَوَاتٍ مِنْ مَاءٍ».

السنة أنك تفطر على رطبات أو تمرات، أو تشرب ماء، ثم تقوم إلى الصلاة مع الجماعة، ثم إذا صليت، ترجع وتتعشى بما تيسر لك، تأكل ما يسر الله لك العشاء، العشاء غير الإفطار؛ الإفطار قبل الصلاة عند غروب الشمس، والعشاء يكون بعد الصلاة، هذا يسمى عشاء، ولا يسمى إفطارًا، بعض الناس يجمع بينهما، يجمع بين الإفطار والعشاء، ولا يقوم إلا وهو شبعان، ويؤخر الصلاة، أو يترك صلاة الجماعة، ويبقى يأكل، هذا خلاف السنة، بل فيه تضييع لصلاة الجماعة، وهي واجبة على المسلم، فينبغي مراعاة هذا، مراعاة آداب الفطر:

أولًا: أنه يُعجل إذا تحقق غروب الشمس، ولا يؤخره.

ثانيًا: أنه يُفطر على التمر إذا تيسر، ويكون تمرًا يسيرًا، عددًا من التمرات، فإذا لم يجد، يشرب ماءً؛ لأنه طيب وطهور، ثم يقوم إلى الصلاة، ثم بعد الصلاة يتعشى، هذه هي السنة، ولا يجلس ويأكل ويتعشى ويترك الصلاة مع الجماعة.

بقيت مسألة، وهي مسألة الوصال، الوصال: بأن المسلم لا يفطر عند غروب الشمس، بل يواصل بين اليومين والثلاثة من غير إفطار ومن غير سحور، يصوم أيامًا متعددة متواصلة ليس فيها إفطار ولا سحور، هذا نهى عنه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ «نَهَى رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ الْوِصَالِ»، وأمر بالإفطار عند غروب الشمس -كما سمعتم-؛ لأن هذا أرفق بالمسلم، والوصال فيه إرهاق وفيه تعب، والله جَلَّ وَعَلَا يحب لعباده اليسر، ولا يرضى عن الشيء الذي فيه حرج عليهم أو يشق عليهم؛ ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة:١٨٥]، ولذلك نهى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن الوصال، وهو صوم اليومين

والثلاثة متواصلة من غير إفطار ومن غير سحور، والنهي يقتضي التحريم، هذا هو الأصل، أو يقتضي الكراهة؛ كراهة التنزيه.

«قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّكَ تُوَاصِلُ؟» النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان أحيانًا يواصل بين الأيام، ولا يفطر، أخبرهم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن هذا خاص به، أن هذا خاص بالرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، «**قَالَ: إِنِّي لَسْتُ مِثْلَكُمْ؛ إِنِّي أَبِيتُ عِنْدَ رَبِّي يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِي**»، هذا خاصية للرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن الله يغنيه عن الإفطار بالطعام والشراب، يغنيه بشيء من عنده، ويقويه على الوصال.

قيل معناه: أنه يؤتى بطعام من الجنة وشراب من الجنة.

وقيل معناه: أنه يتلذذ بطاعة الله عَزَّ وَجَلَّ، ويغنيه ذلك عن الطعام والشراب، ولا يحتاج إلى الطعام والشراب، هذا خاص بالرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

أما نحن فقد نهانا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن الوصال؛ رفقًا بنا، رحمة بنا.

فلما رآهم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم ينتهوا عن الوصال، واصل بهم يومًا، ثم يومًا، ثم رأوا الهلال، قال: «**لَوْ تَأَخَّرَ الْهِلَالُ لَزِدْتُكُمْ. كَالْمُنَكِّلِ بِهِمْ**»(١)، أي: المؤدب لهم، لما لم يقبلوا أمره صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالإفطار وينتهوا عن الوصال، أراد أن يؤدبهم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويواصل بهم حتى يشق ذلك عليهم، قال: «**لَوْ تَأَخَّرَ الْهِلَالُ لَزِدْتُكُمْ. كَالْمُنَكِّلِ بِهِمْ**»، لما لم ينتهوا عن الوصال.

الحاصل: أن المسلم لا ينبغي له الوصال.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٨٥١)، ومسلم (١١٠٣)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

وقد اختلف العلماء في هذه المسألة على ثلاثة أقوال:

القول الأول: المنع من الوصال، وأنه لا يجوز؛ لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نهى عنه، والنهي يقتضي التحريم والبطلان.

القول الثاني: أن الوصال جائز بدليل فعل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فالوصال جائز أن تواصل اليومين والثلاثة من غير إفطار؛ لفعل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

القول الثالث -وهو الصحيح والراجح-: أنه يجوز الوصال إلى السحر[(١)]؛ لأنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**لاَ تُوَاصِلُوا، فَأَيُّكُمْ إِذَا أَرَادَ أَنْ يُوَاصِلَ، فَلْيُوَاصِلْ حَتَّى السَّحَرِ**»[(٢)]، يعني: تجاوز الإفطار، ويبقى ليله صائماً، لكن إذا جاء السحر يتسحر، يفصل بين اليومين بالسحور؛ لأن ذلك أرفق به، وأقوى له على العبادة، أما أنه لا يتسحر، لا يفطر ولا يتسحر أيامًا، فهذا فيه حرج، فيه مشقة، والرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إنما كان يواصل هذا خاص به صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإذا أمر بشيء وخالفه بالفعل، فعل غيره، هذه خصوصية للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، هذا هو الصحيح أنه يجوز الوصال إلى السحر فقط، ولا يجوز وصال اليومين فأكثر؛ لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نهى عن ذلك، وكرهه لأصحابه، وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**تَسَحَّرُوا؛ فَإِنَّ فِي السُّحُورِ بَرَكَةً**»[(٣)]، هذا حث منه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على التسحر آخر الليل.

الله جَلَّ وَعَلَا يقول: ﴿**وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ**﴾ [البقرة:١٨٧]، ﴿**وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟**﴾، وقبلها أباح الجماع بالليل،

---

(١) انظر في هذه الأقوال الثلاثة: الإشراف على مذاهب العلماء (٣/ ١٥٤)، والمغني لابن قدامة (٤/ ٤٣٦-٤٣٧)، والمعاني البديعة في معرفة اختلاف أهل الشريعة (١/ ٣٣٤).

(٢) أخرجه البخاري (١٩٦٣)، من حديث أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه البخاري (١٩٢٣)، ومسلم (١٠٩٥)، من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

﴿فَٱلْـَٔـٰنَ بَـٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۚ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾ [البقرة:١٨٧]، هذا فيه استحباب تأخير السحور، ما لم يخش طلوع الفجر، هذا أفضل.

أما الذي يتسحر وسط الليل وينام، هذا خلاف السنة؛ لأن بعض الناس يسهر، فإذا جاء آخر الليل أكل وملأ بطنه بما يسميه السحور، وهو ليس سحورًا هذا، ثم ينام، وربما يترك صلاة الفجر مع الجماعة، أو يتركها في وقتها، ويصلي بعد خروج الوقت، هذا لا يجوز؛ المسلم ينام أول الليل ليرتاح، ثم يقوم آخر الليل، ويصلي ما تيسر له وقت النزول الإلهي آخر الليل، يصلي ما تيسر له، ويدعو الله ويستغفر؛ ﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران:١٧]، ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذاريات:١٧، ١٨]، فيقوم آخر الليل، في رمضان وغيره، يقوم آخر الليل، ويصلي ما تيسر له، ويوتر، ويكثر من الاستغفار، ويتسحر للصيام، يتسحر للصيام آخر شيء، إذا أقبل طلوع الفجر، يتسحر قبل طلوع الفجر، هذه هي السنة؛ «تَسَحَّرُوا»، والسَّحُور -أو السُّحُور بالضم-: هو الأكلة عند طلوع الفجر؛ من أجل الصيام، هذا هو السحور، الأكلة التي تكون في آخر الليل قبيل طلوع الفجر، هذا هو السحور، أما الذي يتسحر وسط الليل قبل أن ينام، هذا ليس سحورًا، وهذا مخالف للسنة، ويترتب عليه ترك الواجب وهو صلاة الفجر في وقتها مع الجماعة.

قال: «فَإِنَّ فِي السُّحُورِ بَرَكَةً»، السحور إذا نويت به التقوي على الصيام، ففيه بركة، يبارك الله فيه، ويصبح عونًا لك على طاعة الله عَزَّوَجَلَّ، تؤجر عليه، لاحظ! تأكل وتؤجر، تأكل ما تشتهي، وتؤجر على ذلك، لماذا؟ لأنك تنوي

به التقوي على الصيام، فتؤجر على ذلك، العادات تتحول إلى عبادات، إذا كان يستعان بها على طاعة الله، صارت عبادات:

النوم إذا نمت أول الليل من أجل أن تقوم آخر الليل، تؤجر على النوم، تنام ولك أجر؛ لأنك ناو أن تتقوي بهذا النوم على القيام آخر الليل، فالعادات تكون عبادات تؤجر عليها إذا نويت بها الاستعانة على طاعة الله.

الأكل إذا نويت به الاستعانة على الصيام، يكون لك أجر، النوم إذا نويت به الاستعانة على قيام الليل، يكون لك به أجر، إذا نويت بالنوم حفظ صيامك من الغيبة والنميمة والقوة على الصيام، إذا نمت بالنهار في القيلولة، تؤجر على هذا إذا نويت بهذه القيلولة حفظ الصيام والاستعانة على الصيام، ونويت -أيضًا- بهذه القيلولة قيام الليل؛ لأن القيلولة تساعد على قيام الليل.

أما إذا لم تنم بالنهار، فإنك تستغرق النوم في الليل، إذا نمت بالنهار خف عليك النوم بالليل، فإذا نويت بالقيلولة الاستعانة على طاعة الله، تكون عبادة تؤجر عليها.

«تَسَحَّرُوا؛ فَإِنَّ فِي السُّحُورِ بَرَكَةً»؛ لأنه طاعة لله عَزَّوَجَلَّ، وامتثال لأمر الله؛ ﴿وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ﴾: هذا أمر، ﴿وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾ [البقرة:١٨٧]، والنبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يقول: «تَسَحَّرُوا»، هذا أمر، فكونك تتسحر أفضل، ويكون لك أجر.

أما أنك تصوم بدون سحور، الصيام يصح، لكنه خلاف السنة، خلاف الأفضل، تسحر، كُلّ واشرب؛ من أجل أن تستعين به على الصيام في النهار،

ففيه بركة، يكون هذا الطعام مباركًا يؤثر عليك الخير، ويكون عونًا لك على طاعة الله عَزَّوَجَلَّ.

أما الذي لا ينوي بالأكل والشرب التقوي على الطاعة، فإنه يكون هذا الأكل والشرب مكسلًا له، ومثبطًا له عن العبادة، الشبع المفرط، وتناول الشهوات وإن كانت مباحة، الإكثار من تناول الشهوات المباحة منهي عنه؛ لأنه إسراف؛ ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف:٣١]، خير الأمور الوسط، فلا تحرم نفسك مما أباح الله لها، ولاتعطها كل ما تشتهي، بل توسط في هذا، الوسط هو الخير.

هذا والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

الركن الثالث من أركان الإسلام الزكاة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين، أما بعد:

سبق الكلام عن الركن الثاني من أركان الإسلام، وهو الصلاة، والكلام الآن عن قرينة الصلاة في كتاب الله، وهي الزكاة، الركن الثالث من أركان الإسلام.

فدائمًا إذا ذُكِرت الصلاة في كتاب الله وفي أحاديث رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، تُذكر معها الزكاة، فهي قرينتها مما يدل على آكدية الزكاة في الإسلام، وقد فُرِضت الزكاة على المسلمين في السنة الثانية من الهجرة، وذلك في كثير من الآيات: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ [البقرة:٤٣]، وفي قوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [التوبة:١٠٣]، وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لمعاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لما بعثه إلى اليمن، قال له: «إِنَّكَ تَأْتِي قَوْمًا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ: شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ -وَفِي رِوَايَةٍ: «إِلَى أَنْ يُوَحِّدُوا اللهَ تَعَالى»- فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ، فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ، فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ فَتُرَدُّ فِي فُقَرَائِهِمْ»[١].

(١) أخرجه البخاري (١٣٩٥، ١٤٩٦، ٢٤٤٨، ٤٣٤٧، ٧٣٧١، ٧٣٧٢)، ومسلم (٢٩) (١٩).

فالزكاة فريضة، والزكاة قرينة الصلاة، فكما أن الصلاة فريضة فالزكاة فريضة، والزكاة هي ثالثة أركان الإسلام -كما هو معلوم-، من جحد وجوبها، فإنه يكفر ويرتد عن دين الإسلام، وأما من أقر بوجوبها، ولكنه منعها بخلًا، فإنها تؤخذ منه قهرًا؛ لأنها حقٌّ واجب عليه، واجب للفقراء والمساكين.

معلومٌ أن الإنسان إذا أبى أن يدفع الحق الذي عليه، فإن ولي الأمر يأخذه منه قهرًا، ويدفعه إلى مستحقيه، فإن كان هذا الذي منع الزكاة بخلًا، إن كان معه قوة وشوكة، فإنه يُقاتَل على منع الزكاة، ولو كان يقر بوجوبها، بمجرد أنه يمتنع من أدائها، وهو له شوكة وقوة يحتمي بها، فإن ولي الأمر يُقاتله حتى يدفع الزكاة، ولذلك لما امتنع جماعة من العرب عن دفع الزكاة بعد وفاة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وظنوا أن الزكاة إنما تُدفع للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولا تُدفع لغيره، لما امتنعوا من دفعها، قاتلهم خليفة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حتى أخضعهم لأداء الزكاة، وقال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وَاللهِ لَأُقَاتِلَنَّ مَنْ فَرَّقَ بَيْنَ الصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ»، وفي رواية: «وَاللهِ لَوْ مَنَعُونِي عِقَالًا كَانُوا يُؤَدُّونَه إِلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَقَاتَلْتُهُمْ عَلَيْه»، وقال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إِنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: **أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، فَإِذَا قَالُوهَا، عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ، إِلَّا بِحَقِّهَا، وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللهِ** عَزَّ وَجَلَّ»[(١)]، وإن الزكاة من حقها. والأدلة على ذلك كثيرة في آكدية الزكاة.

والزكاة في اللغة: الطهارة والنماء[(٢)]؛ لأن الزكاة تطهر المال، وتطهر النفس

---

(١) أخرجه البخاري (٧٢٨٤)، ومسلم (٣٢) (٢٠)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) انظر: تهذيب اللغة (١٠/ ١٧٥)، والصحاح (٦/ ٢٣٦٨)، ومقاييس اللغة (٣/ ١٧)، ولسان العرب (١٤/ ٣٥٨).

من الشح والبخل، ولهذا قال تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة:١٠٣]، فالزكاة طهرة للمال، وطهرة للنفس من الشح والبخل، وهي نماء تنمي المال، وتسبب البركة فيه، أما إذا مُنِعت الزكاة، فإن هذا سببٌ لتلف المال ورفع البركة منه، ولهذا جاء في الحديث: «**لَمْ يَمْنَعْ قَوْمٌ زَكَاةَ أَمْوَالِهِمْ إِلَّا مُنِعُوا الْقَطْرَ مِنَ السَّمَاءِ، وَلَوْلَا الْبَهَائِمُ لَمْ يُمْطَرُوا**»(١).

وجاء في الأثر: «مَا تَلِفَ مَالٌ فِي بَرٍّ وَلَا بَحْرٍ إِلَّا بِمَنْعِ الزَّكَاةِ»(٢).

فالزكاة خير كلها، هي ليست نقصًا كما يظنه البخيل أنها تنقص مال، هي لا تنقص المال، بل تزيده وتنميه، وتسبب نزول البركة فيه، المال الذي لا يُزكى هذا مالٌ معدوم البركة، وهو عرضة للتلف والآفات والزوال.

ومانع الزكاة جاء الوعيد في حقه، إن كان عنده ذهب أو فضة ولا يؤدي زكاتها، فإنها -الذهب او الفضة- يُمثل له في قبره شجاع أقرع، يعني: ثعبان -والعياذ بالله- ثعبان عظيم به سم، فيطوقه في قبره، ويلدغه، ويفرغ فيه من سمه حتى يتألم جسمه(٣)، وهذا كما في قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (١٢/ ٤٤٦)، وأبو نعيم في الحلية (٣/ ٣٢٠)، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه الطبراني في الدعاء (ص٣١)، وابن عساكر في معجمه (٢/ ١١٨٢)، من حديث عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (١٤٠٣)، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ آتَاهُ اللهُ مَالًا، فَلَمْ يُؤَدِّ زَكَاتَهُ، مُثِّلَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ شُجَاعًا أَقْرَعَ، لَهُ زَبِيبَتَانِ، يُطَوَّقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ثُمَّ يَأْخُذُ بِلِهْزِمَيْهِ، يَعْنِي شِدْقَيْهِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا مَالُكَ، أَنَا كَنْزُكَ، ثُمَّ تَلَا:** ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ﴾ الْآيَةَ». =

بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ هُوَ خَيۡرٗا لَّهُمۖ بَلۡ هُوَ شَرّٞ لَّهُمۡۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِۦ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ [آل عمران:١٨٠]، وقال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ٣٤ يَوۡمَ يُحۡمَىٰ عَلَيۡهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكۡوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمۡ وَجُنُوبُهُمۡ وَظُهُورُهُمۡۖ هَٰذَا مَا كَنَزۡتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡنِزُونَ﴾ [التوبة:٣٤، ٣٥].

والكنز هو المال الذي لا تؤدى زكاته، هذا هو الكنز، أما الذي تؤدى زكاته، فهذا ليس بكنز.

يُجمع ماله كله، ويُجعل صفائح، يُجمع ماله -الذهب والفضة-، ويُجعل صفائح، ويحمى عليها في نار جهنم، فيكوى بها؛ كما ذكر الله سبحانه، وكما بين النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه «**مَا مِنْ صَاحِبِ ذَهَبٍ وَلَا فِضَّةٍ، لَا يُؤَدِّي مِنْهَا حَقَّهَا، إِلَّا إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ، صُفِّحَتْ لَهُ صَفَائِحُ مِنْ نَارٍ، فَأُحْمِيَ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ، فَيُكْوَى بِهَا جَنْبُهُ وَجَبِينُهُ وَظَهْرُهُ كُلَّمَا بَرَدَتْ أُعِيدَتْ لَهُ**»، يكوى من جميع الجوانب؛ من الإمام ومن الجنب ومن الخلف- والعياذ بالله-، وليس لمدة ساعة، «**فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ**»، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة وهو يُعذب بهذه الصفائح وهذا الكي، أما إن كان ماله من الماشية -كالإبل والبقر والغنم-، ولا يؤدي زكاتها، فإنه يبطح بها يوم القيامة؛ «**بِقَاعٍ قَرْقَرٍ**»، ثم تساق عليه، تطؤه

= وكما في الحديث الذي أخرجه أحمد (١٠/ ٣٤١)، والنسائي في المجتبى (٢٤٨١)، عَنْ عَبْدِ اللهِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّ الَّذِي لَا يُؤَدِّي زَكَاةَ مَالِهِ يُمَثَّلُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ شُجَاعٌ أَقْرَعُ لَهُ زَبِيبَتَانِ قَالَ: يَلْزَمُهُ، أَوْ يُطَوِّقُهُ قَالَ: يَقُولُ لَهُ: أَنَا كَنْزُكَ أَنَا كَنْزُكَ**».

بأظلافها وأخفافها، وتنهشه بأنيابها، كلما أتى عليه آخرها، رد عليه أولها في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة[١].

فالأمر خطير جدًّا، منع الزكاة خطير على الإنسان، من هنا يجب على الإنسان أن يحصي أمواله، وأن يزكيها، إذا وجبت فيها الزكاة أن يبادر بإخراجها، ولا يتأخر عن إخراجها، إلا إذا كان ليس عنده شيء في الوقت الحاضر، فإنها تبقى دينًا في ذمته، لابد أن يؤديها إذا قدر، فلا يتساهل الإنسان في إخراج الزكاة.

والزكاة مقدرة، مقادير بينها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بين مقدارها في الذهب والفضة أنها ربع العشر[٢]، الذهب والفضة اثنان ونصف في المائة، ويقوم مقام الذهب والفضة الأوراق النقدية المعمول بها الآن، هذه تقوم مقام الذهب والفضة، ولها حكم الذهب وحكم الفضة.

والزكاة تجب في أربعة أصناف من المال:

الصنف الأول: الذهب والفضة، وهو النقدان، أو ما يقوم مقام النقدين من الأوراق النقدية.

---

(١) أخرجه مسلم (٩٨٧)، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَا مِنْ صَاحِبِ كَنْزٍ لَا يُؤَدِّي زَكَاتَهُ، إِلَّا أُحْمِيَ عَلَيْهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ، فَيُجْعَلُ صَفَائِحَ فَيُكْوَى بِهَا جَنْبَاهُ، وَجَبِينُهُ حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ بَيْنَ عِبَادِهِ، فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، ثُمَّ يَرَى سَبِيلَهُ، إِمَّا إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِمَّا إِلَى النَّارِ، وَمَا مِنْ صَاحِبِ إِبِلٍ لَا يُؤَدِّي زَكَاتَهَا، إِلَّا بُطِحَ لَهَا بِقَاعٍ قَرْقَرٍ، كَأَوْفَرِ مَا كَانَتْ، تَسْتَنُّ عَلَيْهِ، كُلَّمَا مَضَى عَلَيْهِ أُخْرَاهَا رُدَّتْ عَلَيْهِ أُولَاهَا، حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ بَيْنَ عِبَادِهِ، فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ...**».

(٢) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (١٤٥٤)، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وفيه: «**وَفِي الرِّقَّةِ رُبْعُ العُشْرِ**».

الصنف الثاني: بهيمة الأنعام، وهي الإبل والبقر والغنم.

الصنف الثالث: عروض التجارة، وهي السلع التي تعد للبيع، السلع التي تعد للبيع هذه فيها الزكاة إذا بلغت قيمتها النصاب، تجب الزكاة في قيمتها، وعروض التجارة -كما ذكرنا- هي السلع التي تعد للبيع كالأراضي والبيوت التي تعد للبيع، والسيارات، والآليات وقطع الغيار، والأقمشة، والأطعمة، كل ما يعد للبيع، فإنه تجب فيه الزكاة، ويسمى عروض التجارة.

النوع الرابع: الخارج من الأرض من الحبوب والثمار.

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبۡتُمۡ وَمِمَّآ أَخۡرَجۡنَا لَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ ﴾ [البقرة:٢٦٧]، قال سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٖ مَّعۡرُوشَٰتٖ وَغَيۡرَ مَعۡرُوشَٰتٖ وَٱلنَّخۡلَ وَٱلزَّرۡعَ مُخۡتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهٗا وَغَيۡرَ مُتَشَٰبِهٖۚ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوۡمَ حَصَادِهِۦ ﴾ [الأنعام:١٤١]، وحقه يوم الحصاد هو الزكاة، هذه الأموال التي تجب فيها الزكاة، أربعة أصناف:

الصنف الأول: الذهب والفضة وما يقوم مقامهما، هذا فيه ربع العشر، اثنان ونصف في المائة.

وأما المواشي فهذه لها أنصبة بيَّنها الرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ في الإبل وفي البقر وفي الغنم، وهي معروفة في كتب الفقه، لا يتسع المقام الآن لذكرها.

وعروض التجارة زكاتها مثل زكاة النقدين، إذا بلغت قيمتها نصابًا، فإنها تزكى القيمة، بأن يخرج ربع العشر من قيمتها.

وأما الخارج من الأرض: الحبوب -كالبر والشعير والذرة والدخن-، والثمار -كالتمر والزبيب-، فهذه الحبوب والثمار إن كانت تسقى بلا مؤنة، تسقى من الأنهار أو من السيول أو تشرب بعروقها بدون سقي، الإنسان لايخسر عليها شيئًا، وإنما تسقى من غير مؤنة، فهذه فيها العشر كاملًا، أما إن كانت تسقى بمؤنة، يعني: نفقة، ينفق على سقيها، فهذه فيها نصف العشر.

هذه المقادير مقادير سهلة يسيرة، الله أعطاك مالًا كثيرًا، وأوجب عليك شيئًا يسيرًا يعود عليك بالنفع، يعود عليك بالأجر عند الله، ويعود على مالك بالبركة والنماء، ويعود على نفسك بالكرم والجود والبراءة من الشح والبخل.

فهذه الزكاة يسيرة إذا قارنتها بالمال الذي يعطيك الله عَزَّوَجَلَّ، إذا قارنتها بما عندك من الأموال، تجد أنها يسيرة، وفيها خير كثير لك ولمالك ولإخوانك المسلمين، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾ [المعارج:٢٤، ٢٥]، قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ﴾، يعني: الزكاة، ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة:٦٠]، هذه مصارف الزكاة ثمانية، لايجوز صرفها في غير هذه المصارف الثمانية؛ فالزكاة لا تنفق في المشاريع كالمساجد والمدارس والطرقات، لا تُنفق في المشاريع الخيرية، وإنما تُنفق على الأصناف التي ذكرها الله في هذه الآية.

أما المشاريع الخيرية، فإنها يُنفق عليها من التبرعات ومن صدقات التطوع، أما الزكاة فإنها محجوزة لهذه الأصناف الثمانية التي ذكرها الله في هذه الآية الكريمة، فيجب على المسلم أن يهتم بالزكاة غاية الاهتمام.

الخارج من الأرض تجب فيه الزكاة عند حصاده؛ كما قال تعالى: ﴿وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾ [الأنعام:١٤١]، عندما تحصل على الثمرة أو على الحبوب، تخرج زكاتها.

أما النقود وأما المواشي وأما عروض التجارة، فإنه لا تجب فيها الزكاة حتى يحول عليها الحول من امتلاكك لها، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَا زَكَاةَ فِي مَالٍ حَتَّى يَحُولَ عَلَيْهِ الْحَوْلُ**»(١)؛ اثنا عشر شهرًا.

فإذا تم الحول على المال الذي عندك، وجبت عليك الزكاة، ويجب عليك المبادرة بإخراجها، وتكون طيبة بها نفسك مغتبطًا بها؛ لأنها نعمة من الله عَزَّوَجَلَّ، ليست بمغرم أو خسارة كما يظنه المنافقون؛ ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا﴾ [التوبة:٩٨]، مغرم، يحسبه غرامة وخسارة، لا. المؤمنون يعتبرونها خيرًا وبركة ونماء، أما المنافقون فيعتبرونها غرامة، يعني: خسارة -والعياذ بالله-، والمنافقون لا يخرجونها إلا وهم كارهون؛ ﴿وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ﴾ [التوبة:٥٤].

أما المؤمن فإنه يؤدي الزكاة في وقتها، وافية غير منقوصة، طيبة بها نفسه، محتسبًا أجرها عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ويبادر بإخراجها إذا وجبت، ويدفعها إلى المستحقين.

﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾: الفقراء: جمع فقير(٢)، وهو من

---

(١) أخرجه ابن ماجه (١٧٩٢)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٢) الفقراء: جمع فقير، وهو الذي له بلغة من العيش. وقيل: هو أحسن حالًا من المسكين. وقيل: =

لا يجد شيئًا، أو يجد شيئًا يسيرًا، أما المسكين، فإنه أحسن حالًا من الفقير، هو من يجد نصف الكفاية أو غالب الكفاية فيُعطى ما يكمل له نفقته، هؤلاء هم الفقراء والمساكين[1]، هم أول الأصناف فتُدفع لهم.

ولا يجوز للإنسان أن يستأهل ويدفعها لغير الفقراء، لا تجزئه، إذا أعطاها لغني، لا تجزيه، لا تجوز الزكاة للغني، ليس فيها حظ لغني، وكذلك لاتعطى

= من قل ماله. انظر مادة (فقر) في: العين (٥/ ١٥٠)، وتهذيب اللغة (٩/ ١٠٢)، والصحاح (٢/ ٧٨٢).

والفقير في اصطلاح الفقهاء: قال النووي: (الفقير، وهو الذي لا مال له ولا كسب، يقع موقعا من حاجته، فالذي لا يقع موقعا، كمن يحتاج عشرة ولا يملك إلا درهمين أو ثلاثة، فلا يسلبه ذلك اسم الفقير، وكذا الدار التي يسكنها، والثوب الذي يلبسه متجملا به) روضة الطالبين (٢/ ٣٠٨).

(١) قال البغوي: (اختلف العلماء في صفة الفقير والمسكين، فقال ابن عباس والحسن ومجاهد وقتادة وعكرمة والزهري: الفقير الذي لا يسأل والمسكين الذي يسأل. وقال ابن عمر: ليس الفقير من جمع الدرهم إلى الدرهم والتمرة إلى التمرة، ولكن من أنقى نفسه وثيابه لا يقدر على شيء يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف، فذلك الفقير. وقال قتادة: الفقير المحتاج الزمن، والمسكين الصحيح المحتاج. وروي عن عكرمة أنه قال: الفقراء من المسلمين والمساكين من أهل الكتاب. وقال الشافعي: الفقير من لا مال له ولا حرفة تقع منه موقعا زمنا كان أو غير زمن، والمسكين من كان له مال أو حرفة ولا يغنيه، سائلا كان أو غير سائل، فالمسكين عنده أحسن حالًا من الفقير لأن الله تعالى قال: ﴿ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتۡ لِمَسَٰكِينَ ﴾ [الكهف:٧٩]، أثبت لهم هنا ملكهم مع اسم المسكنة، وقال آخرون: الفقير أحسن حالًا من المسكين. وقال آخر: الفقير له البلغة من العيش، والمسكين الذي لا شيء له. وقيل: الفقير من له المسكن والخادم، والمسكين من لا ملك له. وقيل: الفقراء هم المهاجرون، والمساكين من لم يهاجر من المسلمين.

قلت: وفي الجملة الفقر والمسكنة عبارتان عن الحاجة وضعف الحال، فالفقير المحتاج الذي كسرت الحاجة فقار ظهره، والمسكين الذي ضعفت نفسه وسكنت عن الحركة في طلب القوت) تفسير البغوي (٢/ ٣٥٩).

الزكاة للقادر على الكسب، الذي يقدر على الكسب، القوي في جسمه، الذي يقدر على الكسب لا تحل له الزكاة؛ كما قال ﷺ: «**لَا تَحِلُّ الصَّدَقَةُ لِغَنِيٍّ، وَلَا لِذِي مِرَّةٍ قَوِيٍّ**»(١)، يعني: قوي في بدنه وقادر على الاكتساب، هذا يكتسب ويأكل من كسبه، إنما يُعطى الزكاة الضعيف الذي لايستطيع الكسب، هذا هو الذي يُعطى الزكاة.

فعلينا أن نتنبه لهذا الأمر؛ لأن الزكاة ركن من أركان الإسلام، إذا لم تؤدها على الوجه المطلوب، فإنك تركت ركنًا من أركان الإسلام، تنبه لهذا! ليست الزكاة تبرعًا منك، أو منَّة منك تمن بها، ليست بمنَّة، الزكاة منَّة عليك من الله، وليست منَّة منك على الناس، الله هو الذي منَّ عليك بالمال، ومنَّ عليك بالزكاة؛ لأجل أن تطهر مالك وتطهر نفسك، فهي منَّة من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فلا تمنن بها على الناس؛ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ [البقرة:٢٦٤].

لا تمنن بها على الناس، بل اعتبر الفضل لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهذا حقٌّ للفقير والمحتاج، ليس فيه طيب منك، هذا حقٌّ واجب عليك، ليس هو طيبًا منك أو كرمًا منك، وإنما هو حقٌّ واجب عليك للفقراء والمساكين.

---

(١) كما في الحديث الذي أخرجه أبو داود (١٦٣٤)، والترمذي (٦٥٢)، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**لَا تَحِلُّ الصَّدَقَةُ لِغَنِيٍّ، وَلَا لِذِي مِرَّةٍ سَوِيٍّ**»، قَالَ أَبُو دَاوُدَ: رَوَاهُ سُفْيَانُ، عَنْ سَعْدِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ، كَمَا قَالَ إِبْرَاهِيمُ. وَرَوَاهُ شُعْبَةُ، عَنْ سَعْدٍ قَالَ: «**لِذِي مِرَّةٍ قَوِيٍّ**»، وَالْأَحَادِيثُ الْأُخَرُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ بَعْضُهَا: «**لِذِي مِرَّةٍ قَوِيٍّ**»، وَبَعْضُهَا «**لِذِي مِرَّةٍ سَوِيٍّ**»، وَقَالَ عَطَاءُ ابْنُ زُهَيْرٍ: أَنَّهُ لَقِيَ عَبْدَ اللهِ بْنَ عَمْرٍو، فَقَالَ: «**إِنَّ الصَّدَقَةَ لَا تَحِلُّ لِقَوِيٍّ، وَلَا لِذِي مِرَّةٍ سَوِيٍّ**».

فعلى المسلم أن يهتم بهذا الركن الثالث من أركان الإسلام الذي هو قرين الصلاة في كتاب الله عَزَّوَجَلَّ.

وفق الله الجميع لما يحب ويرضى، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين.

الركن الثاني الصلوات المفروضة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين.

تقدم الكلام على الركن الأول من أركان الإسلام، وهو الشهادتان: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله نطقًا، واعتقادًا، وعلمًا، وعملًا.

ثم يأتي بعد الشهادتين الركن الثاني من أركان الإسلام، وهو الصلاة، الصلوات الخمس في اليوم والليلة، هذه الصلوات هي آكد أركان الإسلام بعد الشهادتين، وجاءت في مقدمة الأعمال، أول الأعمال بعد الشهادتين: الصلاة، الصلوات الخمس، وقد فُرِضَت على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في مكة قبل الهجرة، فُرضت ليلة الإسراء والمعراج قبل الهجرة، وصلاها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه في مكة، وأين فُرِضت؟ فُرِضت فوق السماوات، لما عُرِجَ بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى الله جَلَّ وَعَلَا، وجاوز السبع الطباق صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فرض الله عليه الصلوات الخمس في هذا الموقف العظيم، فرضها عليه بدون واسطة جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، فرضها عليه منه جَلَّ وَعَلَا بدون واسطة.

وكانت فرائض الإسلام غير الصلاة تنزل على الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بواسطة جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهو في الأرض، أما الصلوات الخمس، فإنها فُرِضت

على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيما بينه وبين الله عَزَّوَجَلَّ بدون واسطة، كلمه الله بها، وفرضها عليه، وكانت أول ما فُرِضت خمسين صلاة في اليوم والليلة، فراجع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ربه، وسأله التخفيف عن أمته؛ فإنها لا تطيق خمسين صلاة في اليوم والليلة، وكان موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ هو الذي أشار على الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أن يراجع ربه ويسأله التخفيف عن أمته، فخففها الله جَلَّ وَعَلَا، وجعلها خمس صلوات بدل خمسين، خمس صلوات في اليوم والليلة، وهي عن خمسين صلاة في الأجر والثواب؛ لأن الحسنة بعشر أمثالها، فكل صلاة عن عشر صلوات، فيكون المجموع خمسين صلاة في الأجر والثواب، وخمس صلوات في العمل، وهذا فضل من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى(١).

هذه الصلوات الخمس لا تسقط عن المسلم في حال من الأحوال، ما دام عقله ثابتًا، فإنها لا تسقط عنه بعذر من الأعذار، ولكنه يصليها على حسب حاله؛ فلا تسقط عن المريض، ولو اشتد مرضه، ولكن يصليها على حسب حاله؛ كما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يصلي المريض قائمًا، فإن لم يستطع فقاعدًا،**

---

(١) كما في الحديث الطويل الذي أخرجه البخاري (٣٤٩)، ومسلم (١٦٣)، وفيه: «ثُمَّ عَرَجَ بِي حَتَّى ظَهَرْتُ لِمُسْتَوًى أَسْمَعُ فِيهِ صَرِيفَ الْأَقْلَامِ»، قَالَ ابْنُ حَزْمٍ، وَأَنَسُ بْنُ مَالِكٍ، قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فَفَرَضَ اللهُ عَلَى أُمَّتِي خَمْسِينَ صَلَاةً**»، قَالَ: «**فَرَجَعْتُ بِذَلِكَ حَتَّى أَمُرَّ بِمُوسَى، فَقَالَ مُوسَى** عَلَيْهِ السَّلَامُ: **مَاذَا فَرَضَ رَبُّكَ عَلَى أُمَّتِكَ؟ قَالَ: قُلْتُ: فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسِينَ صَلَاةً، قَالَ لِي مُوسَى** عَلَيْهِ السَّلَامُ: **فَرَاجِعْ رَبَّكَ، فَإِنَّ أُمَّتَكَ لَا تُطِيقُ ذَلِكَ، قَالَ: فَرَاجَعْتُ رَبِّي، فَوَضَعَ شَطْرَهَا، قَالَ: فَرَجَعْتُ إِلَى مُوسَى** عَلَيْهِ السَّلَامُ، **فَأَخْبَرْتُهُ قَالَ: رَاجِعْ رَبَّكَ، فَإِنَّ أُمَّتَكَ لَا تُطِيقُ ذَلِكَ، قَالَ: فَرَاجَعْتُ رَبِّي، فَقَالَ: هِيَ خَمْسٌ وَهِيَ خَمْسُونَ لَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ، قَالَ: فَرَجَعْتُ إِلَى مُوسَى، فَقَالَ: رَاجِعْ رَبَّكَ، فَقُلْتُ: قَدْ اسْتَحْيَيْتُ مِنْ رَبِّي**».

فإن لم يستطع فعلى جنب»[(١)]، «ويومئ برأسه في الركوع والسجود، فإن لم يستطع فمستلقيًا ورجلاه إلى القبلة»[(٢)].

وكذلك لا تسقط الصلاة عن المسافر، لكنه له أن يقصر الرباعية إلى ركعتين؛ تخفيفًا عنه، وله أن يجمع بين الصلاتين في وقت إحداهما؛ يصلي الظهر مع العصر، والمغرب مع العشاء في وقت إحداهما تقديمًا أو تأخيرًا، هذا للمسافر؛ تخفيفًا عنه، فلم تسقط عنه الصلاة وهو مسافر ويتعب في سفره، عليه مشقة، لم يُسقط الله عنه الصلاة، لكنه خففها عنه، خففها عنه من حيث العدد، وخففها عنه من حيث الوقت؛ من حيث العدد: يقصر الرباعية إلى ركعتين، ومن حيث الوقت: يجمع بين الصلاتين إذا احتاج إلى ذلك في وقت إحداهما.

وكذلك لا تسقط الصلاة عن الخائف، في حالة الخوف لا تسقط الصلاة، لكن يصلي على حسب حاله، لا تسقط الصلاة في حالة الخوف، قال الله

---

(١) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (١١١٧)، والترمذي (٣٧٢)، عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «كَانَتْ بِي بَوَاسِيرُ، فَسَأَلْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ الصَّلَاةِ، فَقَالَ: **صَلِّ قَائِمًا، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَقَاعِدًا، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَعَلَى جَنْبٍ**».

(٢) كما في قال الترمذي بعد الحديث السابق: (حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ بَشَّارٍ قَالَ: حَدَّثَنَا ابْنُ أَبِي عَدِيٍّ، عَنْ أَشْعَثَ ابْنِ عَبْدِ المَلِكِ، عَنِ الحَسَنِ، قَالَ: «إِنْ شَاءَ الرَّجُلُ صَلَّى صَلَاةَ التَّطَوُّعِ قَائِمًا، وَجَالِسًا، وَمُضْطَجِعًا»، «وَاخْتَلَفَ أَهْلُ العِلْمِ فِي صَلَاةِ المَرِيضِ إِذَا لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يُصَلِّيَ جَالِسًا، فَقَالَ بَعْضُ أَهْلِ العِلْمِ: إِنَّهُ يُصَلِّي عَلَى جَنْبِهِ الأَيْمَنِ، وقَالَ بَعْضُهُمْ: يُصَلِّي مُسْتَلْقِيًا عَلَى قَفَاهُ وَرِجْلَاهُ إِلَى القِبْلَةِ»، وَقَالَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ فِي هَذَا الحَدِيثِ: «**مَنْ صَلَّى جَالِسًا فَلَهُ نِصْفُ أَجْرِ القَائِمِ**»، قَالَ: هَذَا لِلصَّحِيحِ وَلِمَنْ لَيْسَ لَهُ عُذْرٌ، فَأَمَّا مَنْ كَانَ لَهُ عُذْرٌ مِنْ مَرَضٍ أَوْ غَيْرِهِ فَصَلَّى جَالِسًا، فَلَهُ مِثْلُ أَجْرِ القَائِمِ»، وَقَدْ رُوِيَ فِي بَعْضِ هَذَا الحَدِيثِ مِثْلُ قَوْلِ سُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ).

سبحانه: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، يعني: في حالة الخوف، ﴿فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓا۟ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا۟ فَلْيَكُونُوا۟ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا۟ فَلْيُصَلُّوا۟ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا۟ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾ [النساء:١٠٢]، فالإمام يقسم المصلين إلى قسمين: قسم يحرس العدو؛ لئلا ينقض على المسلمين، وقسم يصلي مع الإمام أول الصلاة، ثم يكمل لنفسه، ويثبت الإمام قائمًا في الركعة الثانية، فتأتي الطائفة التي لم تصل معه الركعة الأولى، فتصلي معه الركعة الثانية، ثم يثبت جالسًا قبل السلام؛ حتى تكمل لنفسها، ثم يسلم بهم، هذا إذا كان الخوف غير شديد.

أما إذا اشتد الخوف، فإنهم يصلونها رجالًا وركبانًا، قال تعالى: ﴿حَٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُوا۟ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا﴾ [البقرة:٢٣٨، ٢٣٩]، فإذا كان خائفًا من عدوه أن يدركه وهو هارب من العدو، فإنه يصلي، إذا حانت الصلاة وهو يمشي على قدميه أو يركض على قدميه، أو راكبًا على دابته، أو سيارته، أو مركوبه، ﴿فَرِجَالًا﴾، يعني: ماشين، ﴿أَوْ رُكْبَانًا﴾، متوجهًا إلى القبلة أو غير متوجه إلى القبلة.

هذا مما يدل على آكدية الصلاة، وأنها لا تسقط، ما دام عقل الإنسان باقيًا، فإنها لا تسقط عنه؛ لا تسقط عن المسافر، لا تسقط عن المريض، لاتسقط عن الخائف، وكل منهم يصلي على حسب حاله؛ كما جاء في الأدلة من القرآن والسنة، هذه الصلاة.

قال الله جَلَّوَعَلَا: ﴿حَٰفِظُوا۟﴾ [البقرة:٢٣٨]، والمحافظة معناها: العناية بأدائها تامة في وقتها مع الجماعة، هذه المحافظة، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ

يُحَافِظُونَ ۝٩ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡوَٰرِثُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلۡفِرۡدَوۡسَ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [المؤمنون:٩-١١]، ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمۡ يُحَافِظُونَ ﴾ [المؤمنون:٩]، أما الذي يصلي مرة، ويترك مرة، يصلي بعض الصلوات ويترك بعض الصلوات، فهذا لم يصل، هذا يؤمن ببعض الكتاب ويكفر ببعض، فلابد أن يحافظ على الصلوات كلها ما دام حيًّا؛ كما سمعتم عن عيسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ أنه قال: ﴿ وَأَوۡصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمۡتُ حَيّٗا ﴾ [مريم:٣١]، ما دام الإنسان حيًّا، فإنه يحافظ على الصلوات في مواقيتها مع جماعة المسلمين، أما الذي يصلي وقتًا ويترك وقتًا آخر، أو يصلي إذا كان مع ناس يصلون، ويترك الصلاة إذا كان مع ناس لا يصلون، فهذا لم يصلِّ، لم يحافظ على صلاته، لم يحافظ عليها.

وكذلك الذي لا يصلي مع الجماعة، وهو يقدر على صلاة الجماعة، هذا لم يحافظ على صلاته، كذلك الذي لا يصلي في الوقت، يُخرج الصلاة عن وقتها من غير عذر شرعي، هذا لم يحافظ على صلاته، بل هو مضيع، قال تعالى: ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ﴾ [مريم:٥٩]، ومعنى: (أضاعوها) أنهم لا يصلون في الوقت، ضيعوا وقتها، فإذا ضيع وقتها، فقد ضيعها.

بعض الناس ينام ولا يصلي إلا إذا استيقظ، لا يصلي الفجر إلا عند الظهر، ولا يصلي الظهر إلا عند غروب الشمس، ولا يصلي المغرب إلا بعد دخول وقت العشاء، ولا يصلي العشاء إلا بعد طلوع الفجر، هذا لم يحافظ على صلاته، ولا تصح صلاته؛ لأنه مضيع لها، ﴿أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ [مريم:٥٩]، يعني:

أضاعوا وقتها، ولم يؤدوها في الوقت، والله جَلَّوَعَلَا يقول: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبٗا مَّوۡقُوتٗا﴾ [النساء:١٠٣].

إذا أخرجتها من وقتها، فأنت لم تصلِّ، لم تؤد الصلاة في وقتها، فلا تقبل منك، وقال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**صَلِّ الصَّلَاةَ لِوَقْتِهَا**»(١).

فلا يجوز للإنسان أن يخرج الصلاة عن وقتها، ويقول: أنا أصلي. نقول له: أنت لا تصلي، أنت لا تصلي الصلاة التي أمرك الله بها، أنت تصلي صلاة على حسب هواك، وهذه لا تقبل منك، فإذا أردت أن تصلي الصلاة التي أمرك الله بها، فأدها في وقتها، وإلا فإنها لا تقبل منك.

كذلك الذي لا يصلي مع الجماعة، المسجد قريب منه، ولا يصلي مع الجماعة، هذا لم يحافظ على الصلاة، مضيع للصلاة، وقد قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّ أَثْقَلَ صَلَاةٍ عَلَى الْمُنَافِقِينَ صَلَاةُ الْعِشَاءِ وَصَلَاةُ الْفَجْرِ، وَلَوْ يَعْلَمُونَ مَا فِيهِمَا لَأَتَوْهُمَا وَلَوْ حَبْوًا. وَلَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ آمُرَ بِالصَّلَاةِ فَتُقَامَ، ثُمَّ آمُرَ رَجُلًا فَيُصَلِّيَ بِالنَّاسِ. ثُمَّ أَنْطَلِقَ مَعِي بِرِجَالٍ مَعَهُمْ حُزَمٌ مِنْ حَطَبٍ إِلَى قَوْمٍ لَا يَشْهَدُونَ الصَّلَاةَ فَأُحَرِّقَ عَلَيْهِمْ بُيُوتَهُمْ بِالنَّارِ**»(٢).

الأمر خطير جدًّا، بعض الناس يتساهل بصلاة الجماعة، ولايذهب للمسجد، ويقول: أنا أصلي في بيتي. نعم، إن كنت مريضًا، صلِّ في بيتك، الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما مرض، صلى في بيته، أما إن كنت معافًى تسمع الأذان، يجب عليك الذهاب إلى المسجد، قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ سَمِعَ النِّدَاءَ فَلَمْ يَأْتِهِ،**

---

(١) أخرجه مسلم (٦٤٨)، من حديث أبي ذر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري (٦٥٧)، ومسلم (٦٥١)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

فَلَا صَلَاةَ لَهُ، إِلَّا مِنْ عُذْرٍ»، قيل لابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا راوي الحديث: «وَمَا الْعُذْرُ؟ قَالَ: خَوْفٌ أَوْ مَرَضٌ»(١).

«مَنْ سَمِعَ النِّدَاءَ فَلَمْ يُجِبْ»، يعني: فلم يحضر للصلاة، «فَلَا صَلَاةَ لَهُ، إِلَّا مِنْ عُذْرٍ»، معذور العذر الشرعي، لا بأس يصلي في بيته.

خوف: يخاف إذا ذهب إلى المسجد أن العدو يتربص أو يقتله، أو هناك بينه وبين المسجد سباع تأكله، هذا خائف، يصلي في البيت.

اما الإنسان الآمن والإنسان الصاحي في جسمه، لا يسعه إلا أن يصلي في المسجد، ما دام يسمع الأذان.

لماذا شُرِع الأذان؟ أليس بدعاء؛ دعوة؟ (حي على الصلاة، حي على الفلاح)، يعني: تعال إلى الصلاة، تعال إلى الفلاح، فالذي لا يريد الصلاة، ولايريد الفلاح يبقى في بيته، أما الذي يريد الصلاة، ويريد الفلاح، فإنه يقبل؛ لأن الداعي دعاه؛ (حي على الصلاة، حي على الفلاح)، يعني: تعال، هلم، أقبل إلى الصلاة، أقبل على الفلاح. ثم هو يجلس في بيته، ويقول: أنا أصلي في بيتي. لماذا تسمع الأذان ولا تجيب داعي الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؟!

وجاءه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رجل أعمى، فشكا إليه أنه ليس له قائد يلائمه، وبينه وبين المسجد مشقة في الطريق، وطلب من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يرخص له في أن يصلي في بيته، قال: «هَلْ تَسْمَعُ النِّدَاءَ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: فَأَجِبْ»(٢)، العذر أنك ليس لك قائد، ابحث عن قائد يلائمك، واحضر للصلاة ما دمت تسمع النداء.

---

(١) أخرجه أبو داود (٥٥١)، وابن ماجه (٧٩٣)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.
(٢) أخرجه مسلم (٦٥٣)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقال عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَلْقَى اللهَ غَدًا مُسْلِمًا، فَلْيُحَافِظْ عَلَى هَؤُلَاءِ الصَّلَوَاتِ حَيْثُ يُنَادَى بِهِنَّ، فَإِنَّ اللهَ شَرَعَ لِنَبِيِّكُمْ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سُنَنَ الْهُدَى، وَإِنَّهُنَّ مِنْ سُنَنِ الْهُدَى، وَلَوْ أَنَّكُمْ صَلَّيْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ كَمَا يُصَلِّي هَذَا الْمُتَخَلِّفُ فِي بَيْتِهِ، لَتَرَكْتُمْ سُنَّةَ نَبِيِّكُمْ، وَلَوْ تَرَكْتُمْ سُنَّةَ نَبِيِّكُمْ لَضَلَلْتُمْ، وَمَا مِنْ رَجُلٍ يَتَطَهَّرُ فَيُحْسِنُ الطُّهُورَ، ثُمَّ يَعْمِدُ إِلَى مَسْجِدٍ مِنْ هَذِهِ الْمَسَاجِدِ، إِلَّا كَتَبَ اللهُ لَهُ بِكُلِّ خَطْوَةٍ يَخْطُوهَا حَسَنَةً، وَيَرْفَعُهُ بِهَا دَرَجَةً، وَيَحُطُّ عَنْهُ بِهَا سَيِّئَةً، وَلَقَدْ رَأَيْتُنَا وَمَا يَتَخَلَّفُ عَنْهَا إِلَّا مُنَافِقٌ مَعْلُومُ النِّفَاقِ، وَلَقَدْ كَانَ الرَّجُلُ يُؤْتَى بِهِ يُهَادَى بَيْنَ الرَّجُلَيْنِ حَتَّى يُقَامَ فِي الصَّفِّ»[1].

هذا عمل الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ مع الصلاة والاهتمام بها؛ لأنهم يعرفون قدر الصلاة، ويقدرونها، ويعظمونها، والله جَلَّ وَعَلَا يقول: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت:٤٥].

فالصلاة فيها فائدتان عظيمتان:

الفائدة الأولى: أنها تنهى عن الفحشاء والمنكر.

الفائدة الثانية -وهي أعظم-: أنها تشتمل على ذكر الله عَزَّوَجَلَّ؛ ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت:٤٥]، وقال تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾ [البقرة:٤٥]، وقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة:١٥٣].

الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، الصلاة فيها ذكر الله، وهو أعظم، الصلاة تعين على مشاق الحياة وعلى الهموم والأحزان، تفرج لصاحبها، وكان

(١) أخرجه مسلم (٦٥٤).

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا اشتد به الأمر، فزع إلى الصلاة، وقال: «يَا بِلَالُ، أَقِمِ الصَّلَاةَ، أَرِحْنَا بِهَا»(١)، وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «حُبِّبَ إِلَيَّ مِنَ الدُّنْيَا النِّسَاءُ، وَالطِّيبُ وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ»(٢)، فالصلاة هي قرة عين الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذه الدنيا، يرتاح فيها ويحبها، ويألفها مما يدل على عظمة هذه الصلوات.

والله جَلَّ وَعَلَا حث على إقام الصلاة في آيات كثيرة، ومعنى إقام الصلاة: الإتيان بها قائمة بشروطها وأركانها وواجباتها، والخشوع فيها، هذه الصلاة المقامة؛ ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، ﴿أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، لم يقل: (صلوا)، بل قال: ﴿أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، ليس المقصود شكل الصلاة، ليس المقصود الصلاة الشكلية التي هي حركات فقط، المقصود أن تكون الصلاة قائمة على شروطها وأركانها وواجباتها والخشوع فيها؛ قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾ [المؤمنون:١، ٢]، إلى قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٩ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [المؤمنون: ٩-١١].

والصلاة هي عمود الإسلام، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «رَأْسُ الْأَمْرِ الْإِسْلَامُ، وَعَمُودُهُ الصَّلَاةُ، وَذِرْوَةُ سَنَامِهِ الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ»(٣).

عمود يقوم عليها الإسلام كما يقوم البنيان على العمود، وكما تقوم الخيمة على العمود، فلو أنك جئت بخيمة فيها أطناب وفيها أوتاد، ولكن ليس معك

(١) أخرجه أبو داود (٤٩٨٥).
(٢) أخرجه أحمد (٢١/ ٤٣٣)، والنسائي في المجتبى (٣٩٣٩، ٣٩٤٠)، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٣) أخرجه الترمذي (٢٦١٦)، والنسائي في الكبرى (١٠/ ٢١٤)، من حديث معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

عمود، لا تستفيد من الخيمة هذه، فإذا كان معك عمود، وأقمتها عليه، استفدت من هذه الخيمة، أظلتك من الحر ومن المطر ومن البرد، أما ما دام ليس معك عمود، فماذا تستفيد من هذه الخيمة؟! كذلك الإسلام هو الخيمة، يعني: شبهه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالخيمة، فإذا أقمت الصلاة، استقام لك الإسلام، وصار وقاية لك من النار ومن عذاب الله عَزَّ وَجَلَّ، أما إسلام بدون صلاة، فإنه لا ينفع صاحبه، إسلام بدون صلاة لا ينفع صاحبه، وإن كان يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله؛ قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**بَيْنَ الرَّجُلِ وَبَيْنَ الْكُفْرِ وَالشِّرْكِ تَرْكُ الصَّلَاةِ**» [رواه مسلم][(١)].

«**بَيْنَ الرَّجُلِ وَبَيْنَ الْكُفْرِ وَالشِّرْكِ تَرْكُ الصَّلَاةِ**»، إذا ترك الصلاة، صار كافرًا، وإن كان يدعي الإسلام، وإن كان يشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، لكنه أفسد الشهادتين، وناقض الشهادتين بتركه للصلاة، فلا دين لمن لا صلاة له، ولا إسلام لمن لا صلاة له.

والصلاة أول ما يحاسب عنه العبد يوم القيامة، فإن قُبلت، قُبل سائر عمله، وإن ردت، رد سائر عمله، أول ما تحاسب عنه يوم القيامة من دينك الصلاة، فإن قُبلت وصحت، قُبل سائر عملك، وإن رُدَّت صلاتك لأنها غير صحيحة، فإنه يرد سائر عملك، فلا تنتفع من أعمالك، وأنت لم تحقق الصلاة[(٢)].

---

(١) أخرجه مسلم (٨٢)، من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) كما في الحديث الذي أخرجه أحمد (٢٨/ ١٥٢- ١٥٣)، وابن ماجه (٧٧٧١)، عَنْ تَمِيمٍ الدَّارِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**أَوَّلُ مَا يُحَاسَبُ بِهِ الْعَبْدُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الصَّلَاةُ، فَإِنْ كَانَ أَكْمَلَهَا كُتِبَتْ لَهُ كَامِلَةً، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ أَكْمَلَهَا قَالَ لِلْمَلَائِكَةِ: انْظُرُوا هَلْ تَجِدُونَ لِعَبْدِي مِنْ تَطَوُّعٍ، فَأَكْمِلُوا بِهَا مَا ضَيَّعَ مِنْ فَرِيضَتِهِ، ثُمَّ الزَّكَاةُ، ثُمَّ تُؤْخَذُ الْأَعْمَالُ عَلَى حَسَبِ ذَلِكَ**». =

وهذه الصلوات جعلها الله كفارة لما بينهن؛ قال تعالى: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴾ [هود:١١٤]، وشبهها النبي صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بالنهر الذي يمشي على بابك، كل يوم تغتسل منه خمس مرات، فلا يبقى من درنك شيء(١)، يعني: لا يبقى من الوسخ على جسمك شيء، إذا كنت تغتسل خمس مرات من النهر، فكذلك الصلاة إذا حافظت عليها وأديتها، لا يبقى من سيئاتك شيء؛ السيئات الصغائر، أما الكبائر فلابد من التوبة، أما الصغائر فإنها تكفر بالصلوات الخمس، تكفر بالجمعة، تكفر برمضان، قال صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ، وَالْجُمْعَةُ إِلَى الْجُمْعَةِ، وَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ، مُكَفِّرَاتٌ مَا بَيْنَهُنَّ إِذَا اجْتَنَبَ الْكَبَائِرَ**»(٢).

= وكما في الحديث الذي أخرجه أحمد (١٣/ ٢٧٨)، وأبو داود (٨٦٤)، والترمذي (٤١٣)، والنسائي في المجتبى (٤٦٥، ٤٦٦، ٤٦٧)، وابن ماجه (١٤٢٥)، عَنْ حُرَيْثِ بْنِ قَبِيصَةَ، قَالَ: قَدِمْتُ الْمَدِينَةَ، فَقُلْتُ: اللَّهُمَّ يَسِّرْ لِي جَلِيسًا صَالِحًا، قَالَ فَجَلَسْتُ إِلَى أَبِي هُرَيْرَةَ، فَقُلْتُ: إِنِّي سَأَلْتُ اللهَ أَنْ يَرْزُقَنِي جَلِيسًا صَالِحًا، فَحَدِّثْنِي بِحَدِيثٍ سَمِعْتَهُ مِنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لَعَلَّ اللهَ أَنْ يَنْفَعَنِي بِهِ، فَقَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يَقُولُ: «**إِنَّ أَوَّلَ مَا يُحَاسَبُ بِهِ الْعَبْدُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ عَمَلِهِ صَلَاتُهُ، فَإِنْ صَلُحَتْ فَقَدْ أَفْلَحَ وَأَنْجَحَ، وَإِنْ فَسَدَتْ فَقَدْ خَابَ وَخَسِرَ، فَإِنْ انْتَقَصَ مِنْ فَرِيضَتِهِ شَيْءٌ، قَالَ الرَّبُّ** عَزَّوَجَلَّ: **انْظُرُوا هَلْ لِعَبْدِي مِنْ تَطَوُّعٍ فَيُكَمَّلَ بِهَا مَا انْتَقَصَ مِنَ الْفَرِيضَةِ، ثُمَّ يَكُونُ سَائِرُ عَمَلِهِ عَلَى ذَلِكَ**».

(١) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (٥٢٨)، ومسلم (٦٦٧)، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، قَالَ: وَفِي حَدِيثِ بَكْرٍ، أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، يَقُولُ: «**أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَنَّ نَهْرًا بِبَابِ أَحَدِكُمْ يَغْتَسِلُ مِنْهُ كُلَّ يَوْمٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ، هَلْ يَبْقَى مِنْ دَرَنِهِ شَيْءٌ**؟ قَالُوا: لَا يَبْقَى مِنْ دَرَنِهِ شَيْءٌ، قَالَ: **فَذَلِكَ مَثَلُ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ، يَمْحُو اللهُ بِهِنَّ الْخَطَايَا**».

(٢) أخرجه مسلم (٢٣٣)، من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

هذه الصلوات عظيمة، وإذا صليت الصبح، فأنت في ذمة الله إلى أن تمسي، إذا صليت الصبح، دخلت في حماية الله وكفالته إلى أن تمسي، «فَلَا يَطْلُبَنَّكُمُ اللهُ بِشَيْءٍ مِنْ ذِمَّتِهِ»[1].

فهذه الصلوات الخمس أمرها عظيم، قدرها كبير، وإذا أردت أن تعرف قدر الإسلام عندك، فانظر إلى قدر الصلاة عندك، فإن كانت الصلاة لها قدر وقيمة عندك، فالإسلام له قيمة عندك وقدر، أما إن كانت الصلاة ليس لها قدر عندك، فليس للإسلام عندك قدر، فالصلاة هي الفارقة بين المسلم والكافر؛ كما سمعتم في الحديث: «بَيْنَ الْعَبْدِ وَبَيْنَ الْكُفْرِ وَالشِّرْكِ تَرْكُ الصَّلَاةِ»[2]، قال صَلَّىٰللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «الْعَهْدُ الَّذِي بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمُ الصَّلَاةُ، فَمَنْ تَرَكَهَا فَقَدْ كَفَرَ»[3].

الصلاة اليوم أصبحت خفيفة على كثير من الناس لا يبالون بها؛ فمنهم من لا يصليها مع الجماعة في المساجد، وهو يسمع الأذان، ومنهم من لا يصليها في وقتها، وإنما يصليها متى ما أراد هو، لا حسب ما أراد الله جَلَّوَعَلَا، حسب ما يريد هو يصلي، ومنهم من لا يصلي مطلقًا، يترك الصلاة نهائيًّا، فماذا بقي من الإسلام عند هؤلاء؟!

الواجب على المسلم أن يعظم الصلاة، وأن يحافظ عليها، وأن يقيمها؛ لأنه إذا حافظ على الصلاة وأقامها، فإنها تنهاه عن الفحشاء والمنكر، فيكون مقيمًا

---

(١) أخرجه مسلم (٦٥٧)، من حديث جندب القسري رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.
(٢) سبق تخريجه (ص٧٧).
(٣) أخرجه أحمد (٣٨/ ٢٠)، والترمذي (٢٦٢١)، والنسائي في المجتبى (٤٦٣)، وابن ماجه (١٠٧٩)، من حديث بريدة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

لبقية دينه، أما إذا ضيعها، فهو لما سواها أضيع، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم!

صلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

الركن الخامس من أركان الإسلام

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين، أما بعد:

فالركن الخامس من أركان الإسلام: الحج إلى بيت الله الحرام، هو الركن الخامس، وقد فُرِض على المسلمين في السنة التاسعة على القول المشهور، فُرِض في السنة التاسعة على القول المشهور، ولكن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يحج في هذه السنة؛ نظرًا لأن المسجد الحرام لم يتخلص من المشركين وشرهم، فتأخر صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن الحج في السنة التاسعة، وأرسل أبا بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يحج بالناس نيابة عنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأرسل عليًّا بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ينادي في الناس: أن لا يحج بعد هذا العالم مشرك، وأن لا يطوف بالبيت عريان(1)؛ وذلك عملاً بقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾ [التوبة:٢٨]، النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نفذ هذا الأمر الإلهي، فمُنِع المشركون من الدخول إلى الحرم؛ لأنهم نجس، بمعنى: أن الشرك نجاسة،

(١) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (٣٦٩)، ومسلم (١٣٤٧)، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: «بَعَثَنِي أَبُو بَكْرٍ فِي تِلْكَ الحَجَّةِ فِي مُؤَذِّنِينَ يَوْمَ النَّحْرِ، نُؤَذِّنُ بِمِنًى: أَنْ لَا يَحُجَّ بَعْدَ العَامِ مُشْرِكٌ وَلَا يَطُوفَ بِالْبَيْتِ عُرْيَانٌ»، قَالَ حُمَيْدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ: «ثُمَّ أَرْدَفَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلِيًّا، فَأَمَرَهُ أَنْ يُؤَذِّنَ بِبَرَاءَةٌ»، قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: «فَأَذَّنَ مَعَنَا عَلِيٌّ فِي أَهْلِ مِنًى يَوْمَ النَّحْرِ: لَا يَحُجُّ بَعْدَ العَامِ مُشْرِكٌ وَلَا يَطُوفُ بِالْبَيْتِ عُرْيَانٌ».

نجاسة في العقيدة، نجاسة معنوية يطهرها التوحيد، هذه النجاسة لا يطهرها الماء كسائر النجاسات، وإنما يطهرها التوحيد، وهو النطق بشهادة أن لا إله إلا الله، والعمل بها، وشهادة أن محمدًا رسول الله، والعمل بالشهادتين، هذا هو الذي يطهر المشرك، ويصير به موحدًا طاهرًا.

فالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نفذ هذا الأمر الإلهي، ومنع المشركين، فلما خلا الحرم من المشركين، حج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في السنة العاشرة من الهجرة، هذا باتفاق أهل العلم، وتسمى حجة الوادع، لم يحج صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد البعثة إلا هذه الحجة، لم يحج إلا مرة واحدة هي حجة الوادع، سُميت حجة الوادع؛ لأنه ودع فيها الناس، وقال: «أَيُّهَا النَّاسُ، خُذُوا مَنَاسِكَكُمْ لِعَلِّي لَا أَلْقَاكُمْ بَعْدَ عَامِي هَذَا»[(١)]، ولما رجع من هذه الحجة، مرض صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وتوفاه الله في شهر ربيع الأول.

وفي هذه الحجة أنزل الله عليه قوله تعالى وهو واقف بعرفة: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة:٣]، نزلت هذه الآية العظيمة على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو واقف بعرفة، ولم يعش بعدها إلا شهرين وزيادة أيام، ولحق بربه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد أن أكمل الله به الدين، وأتم به النعمة، وترك أمته على البيضاء؛ ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك، وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنِّي تَارِكٌ فِيكُمْ مَا إِنْ تَمَسَّكْتُمْ بِهِ لَنْ تَضِلُّوا: كِتَابُ اللهِ وَسُنَّتِي»[(٢)].

أما العُمر: فقد اعتمر صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد البعثة أربع مرات، أربع عُمر[(٣)]:

---

(١) أخرجه النسائي في الكبرى (٤/ ١٦١)، من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه الدارقطني في سننه (٥/ ٤٤٠)، والحاكم في المستدرك (١/ ١٧٢)، والبيهقي في الكبرى (١٠/ ١٩٥)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (٤١٤٨)، ومسلم (١٢٥٣)، عَنْ قَتَادَةَ، أَنَّ أَنَسًا =

العمرة الأولى: عمرته عام الحديبية في السنة السابعة من الهجرة، لما جاء هو وأصحابه، ونزلوا بالحديبية على حدود الحرم من الجهة الغربية الشمالية، تسمى الآن بالشميسي، صده المشركون، ومنعوه من دخول الحرم، وبعد المفاوضات مع المشركين، تم الصلح بينه وبينهم على أن يرجع هذا العام، وأن يعتمر من العام القادم من باب المقاضاة، فنحر صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هديه في الحديبية، وحلق رأسه، وأمر الصحابة أن ينحروا هديهم، ويحلقوا رؤوسهم؛ عملًا بقوله تعالى: ﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ [البقرة:١٩٦]، هذه واحدة، واعتبرت عمرة.

العمرة الثانية: عمرة القضية، أو المقاضاة، وهي التي تصالح مع المشركين عليها أن يعتمر من عامه القادم، فقدم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو وأصحابه، وأدوا العمرة، وخلى المشركون بينه وبين دخول المسجد الحرام، فأدوا عمرتهم؛ ﴿لَّقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّءْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح:٢٧]، والفتح هو صلح الحديبية، سماه الله فتحًا، وأنزل فيه قوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ [الفتح:١]، إلى آخر السورة، هذا صلح الحديبية، سماه الله فتحًا مبينًا؛ لأنه صار في صالح الإسلام والمسلمين، وترتب عليه خيرات كثيرة للمسلمين.

العمرة الثالثة: لما غزا حنينًا بعد فتح مكة، فتح مكة كان في رمضان، ثم غزا حنينًا، قبيلة هوزان في الطائف اجتمعت على غزو الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأنه

= رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَخْبَرَهُ قَالَ: «اعْتَمَرَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَرْبَعَ عُمَرٍ، كُلُّهُنَّ فِي ذِي القَعْدَةِ، إِلَّا الَّتِي كَانَتْ مَعَ حَجَّتِهِ: عُمْرَةً مِنَ الحُدَيْبِيَةِ فِي ذِي القَعْدَةِ، وَعُمْرَةً مِنَ العَامِ المُقْبِلِ فِي ذِي القَعْدَةِ، وَعُمْرَةً مِنَ الجِعْرَانَةِ، حَيْثُ قَسَمَ غَنَائِمَ حُنَيْنٍ فِي ذِي القَعْدَةِ، وَعُمْرَةً مَعَ حَجَّتِهِ».

لما فتح مكة، خافوا على أنفسهم، خافت هوزان، وهي قبيلة عظيمة حوالي مكة، خافوا على أنفسهم، فتجمعوا لغزو رسول الله ﷺ، فلما بلغه الخبر عن تجهزهم، أعلن الغزو، واجتمع معه من المسلمين ما يزيد على عشرة آلاف من المقاتلين، فخرج ﷺ إليهم، والتقى بهم في وادي حنين عند الشرائع، ونصره الله عليهم، وغنم المسلمون منهم مغانم كثيرة، ثم إنهم أسلموا، فرد النبي ﷺ عليهم السبايا التي أُخذت منهم، ثم رجع ﷺ إلى مكة وأحرم بالعمرة من الجعرانة؛ لأنها على طريقه داخلًا إلى مكة، أحرم بعمرة ﷺ.

أما دخوله مكة الأول، فلم يحرم؛ لأنهم كانوا لابسين للسلاح، وجاءوا غزاة، فلم يحرم ﷺ لدخوله مكة في رمضان؛ لأنهم جاءوا غازين ولابسين للسلاح، لكنه اعتمر لما رجع من حنين في شوال، هذه تسمى عمرة الجعرانة، وهي الثالثة.

العمرة الرابعة: العمرة التي قرنها مع حجه ﷺ في حجة الوداع؛ لأنه أحرم قارنًا ﷺ؛ لأنه قد ساق الهدي من المدينة، والذي يسوق الهدي من الحل لا يجوز له أن يحلق رأسه حتى ينحر هديه؛ ﴿وَلَا تَحۡلِقُواْ رُءُوسَكُمۡ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ ٱلۡهَدۡيُ مَحِلَّهُۥ﴾ [البقرة:١٩٦]، فأحرم قارنًا، وكل من ساق الهدي معه أحرموا قارنين، أما الذين لم يسوقوا الهدي، فإنه أمرهم أن يفسخوا الحج إلى عمرة، ثم يحرموا بالحج، ويكونوا متمتعين، تحولوا من قران وإفراد إلى متمتعين، هذا الذي لم يسق الهدي من أصحابه[١].

---

(١) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري -واللفظ له- (١٦٥١)، ومسلم (١٢١٨)، عَنْ جَابِرِ ابْنِ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: «أَهَلَّ النَّبِيُّ ﷺ هُوَ وَأَصْحَابُهُ بِالحَجِّ، وَلَيْسَ مَعَ أَحَدٍ مِنْهُمْ =

الحاصل: أن الحج هو أحد أركان الإسلام؛ لقوله ﷺ: «بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ؛ شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ، وَحَجِّ بَيْتِ اللهِ الْحَرَامِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا»(١)، وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران:٩٧]، فأوجب الله الحج في القرآن، وبيَّن النبي ﷺ أنه ركن من أركان الإسلام الخمسة، ولكن الحج إنما يجب على المستطيع؛ ﴿مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران:٩٧]، وذلك بأن يجد الزاد الذي يبلغه الحج، يعني: يجد النفقة التي تبلغه الحج، وتكفيه في سفره ذهابًا وإيابًا، ويؤمن لأولاده وأهل بيته ما يكفيهم إلى أن يرجع إليهم، ويجد الراحلة والمركوب الذي يبلغه، يجد المركوب الذي يبلغه في كل وقت بحسبه؛ على الدواب، أو على السيارات، أو على الطائرات، في كل وقت بحسبه، أو على البواخر، يجد ما يبلغه، يجد وسيلة النقل التي تبلغه إلى الحج، هذا معنى قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران:٩٧]، أي: وجد الزاد، ووجد الراحلة.

والحج إنما يجب مرة واحدة في العمر، وهذا من رحمة الله عَزَّوَجَلَّ، لما كان الحج يؤتى إليه من مسافات بعيدة، ويحتاج إلى مؤنة، وفيه مشقة، خفف الله عن عباده، فجعل الفريضة مرة واحدة، وما زاد عليها فهو تطوع؛ قال ﷺ:

= هَدْيٌ غَيْرَ النَّبِيِّ ﷺ وَطَلْحَةَ، وَقَدِمَ عَلِيٌّ مِنَ الْيَمَنِ وَمَعَهُ هَدْيٌ، فَقَالَ: أَهْلَلْتُ بِمَا أَهَلَّ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ، فَأَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ أَصْحَابَهُ أَنْ يَجْعَلُوهَا عُمْرَةً، وَيَطُوفُوا ثُمَّ يُقَصِّرُوا وَيَحِلُّوا إِلَّا مَنْ كَانَ مَعَهُ الْهَدْيُ، فَقَالُوا: نَنْطَلِقُ إِلَى مِنًى وَذَكَرُ أَحَدِنَا يَقْطُرُ، فَبَلَغَ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: لَوِ اسْتَقْبَلْتُ مِنْ أَمْرِي مَا اسْتَدْبَرْتُ مَا أَهْدَيْتُ، وَلَوْلَا أَنَّ مَعِي الْهَدْيَ لَأَحْلَلْتُ».

(١) سبق تخريجه (ص٢٥).

«أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ اللهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْكُمُ الْحَجَّ فَحُجُّوا. فَقَالَ رَجُلٌ: أَكُلَّ عَامٍ يَا رَسُولَ اللهِ؟ ثم قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّ اللهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْكُمُ الْحَجَّ فَحُجُّوا. فأعاد الرجل السؤال، وقال: أَكُلَّ عَامٍ يَا رَسُولَ اللهِ؟ فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لَوْ قُلْتُ: نَعَمْ لَوَجَبَتْ، وَلَمَا اسْتَطَعْتُمْ، الْحَجُّ مَرَّةٌ، فَمَنْ زَادَ، فَهُوَ تَطَوُّعٌ، ذَرُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ، فَإِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَثْرَةِ سُؤَالِهِمْ، وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ»(١).

فتقرر بهذا أن الحج فرض على المسلم بشرط: الاستطاعة، الاستطاعة: وجود السبيل إليه.

وأنه مرة واحدة في العمر، وأنه ما زاد على المرة الواحدة، فإنه يكون تطوعًا.

والحج له وقت؛ ﴿ٱلۡحَجُّ أَشۡهُرٞ مَّعۡلُومَٰتٞ﴾ [البقرة:١٩٧]، له وقت محدد، وهذه الأشهر المعلومات هي: شوال، وذو القعدة، وعشرة أيام من ذي الحجة، فمن أحرم بالحج في هذه الفترة، انعقد إحرامه، فلا يحرم بالحج قبلها ولا بعدها، وإنما يكون إحرامه في هذه المدة؛ ﴿ٱلۡحَجُّ أَشۡهُرٞ مَّعۡلُومَٰتٞ﴾ [البقرة:١٩٧].

أما العمرة ليس لها وقت، كل السنة وقت للعمرة، في أي وقت تأتي وتعتمر، فلك ذلك، العمرة مفتوحة طول السنة.

ولكن الناس الآن اعتادوا جعلها في رمضان، والعمرة في رمضان لها فضل، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «عُمْرَةٌ فِي رَمَضَانَ تَعْدِلُ حَجَّةً»، وفي رواية: «حِجَّةً مَعِي»(٢).

---

(١) أخرجه مسلم (١٣٣٧)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٢) سبق تخريجه (ص١١).

فلا شك أن العمرة في رمضان لها فضل، ولكن لا تنحصر في رمضان، كل أشهر السنة وقت للعمرة، والمسلم يتبع الأسهل عليه والأيسر له، إذا كان الاعتمار في رمضان يسيرًا عليه، فهذا أفضل لا شك، وإن كان الاعتمار في غير شهر رمضان أيسر له وأسهل عليه، فإنه يعتمر في غير رمضان.

الأمر -ولله الحمد- على السعة في العمرة والسهولة.

هذا ونؤجل بقية الحديث عن العمرة والحج وأحكامهما إلى الدرس القادم -إن شاء الله-، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين.

إتمام الحج والعمرة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد:

فما زال الكلام موصولًا عن الركن الخامس من أركان الإسلام، وهو الحج؛ قال الله تعالى: ﴿ وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ﴾ [البقرة:١٩٦]، هذا أمرٌ من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ للمسلمين بإتمام الحج والعمرة لله، والإتمام معناه: إيفاء مناسك الحج والإتيان بها تامة.

الحج له مناسك، والعمرة لها مناسك. وبدأ بالحج، ﴿ وَأَتِمُّوا الْحَجَّ ﴾ [البقرة:١٩٦]؛ لأن الحج أهم، فهو ركن من أركان الإسلام، والعمرة هي الحج الأصغر، الحج الأكبر هو الذي يؤدى في أيام الحج، وأما العمرة فإنها تؤدى في كل السنة، وليست خاصة بأيام الحج، بل هي في كل السنة.

والحج ركن من أركان الإسلام -كما سبق-، وأما العمرة فاختلف العلماء فيها؛ هل هي واجبة في العمر مرة مثل الحج، أو هي سنة؟ على خلاف بين العلماء، والصحيح أنها واجبة، أنها واجبة في العمر مرة، وما زاد على المرة فإنه تطوع، فقوله تعالى: ﴿ وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ ﴾ [البقرة:١٩٦]، أي: أدوا مناسك الحج تامة من غير نقص، وأتموا العمرة أي: أدوا مناسكها تامة من غير نقص، وهذا يدل

على أن من أحرم بالحج، أو أحرم بالعمرة أنه يلزمه المضي فيهما حتى يكملهما، ولا يجوز له أن يتراجع بعد الإحرام، لا يجوز له أن يتراجع، ويخلع الإحرام، سواء كان في الحج أو في العمرة، لا يجوز له ذلك؛ لأن الله قال: ﴿ وَأَتِمُّواْ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾؛ لأن بعض الناس يجهل هذا الأمر، ويظن أنه مخير؛ إن شاء مضى وأكمل، وإن شاء رجع، وهذا غلط كبير، ولذلك يحصل من كثير من الناس يحصل منهم خلل عظيم في هذا الأمر، يتحللون من إحرامهم، إذا وجدوا زحمة في الطواف، أو وجدوا مشقة، تحللوا من إحرامهم، ورجعوا إلى بلادهم، وهذا غلط كبير.

فإذا أحرم الإنسان بالحج أو بالعمرة يلزمه المضي فيهما، ولو أنه رفض إحرامه، لا يرفض، الإحرام يبقى عليه، حتى ولو رجع إلى بلده، لو رجع إلى بلده وبقي سنين في بلده، لا يزال محرمًا بالحج والعمرة حتى يؤدي مناسكهما.

فلا يتحلل من الإحرام إلا بأداء المناسك إلا في حالة واحدة، وهي: الإحصار، الإحصار وهو المنع، إذا منعه عدو من الوصول إلى البيت، فإنه يفدي، ويحلق رأسه ويتحلل؛ كما فعل النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في عمرة الحديبية، لما صده المشركون عن الوصول إلى الحرم، ذبح هديه صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في مكانه، وحلق رأسه، وأمر الصحابة بذلك، وتحلل من إحرامه، ورجع إلى المدينة؛ لأنه حُبِس ولم يتمكن؛ ﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ ﴾ [البقرة:١٩٦].

أما الإنسان الذي يتمكن من الوصول إلى الحرم، ويتمكن من أداء الحج والعمرة، ولم يمنعه أحد، فإنه لا يجوز له أن يتنازل عن إحرامه، لا يجوز له ذلك، وإنما هذا خاصٌّ بالمحصر؛ ﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿لِلَّهِ﴾، انتبهوا! ﴿لِلَّهِ﴾، أي: أخلصوا الحج والعمرة لله، لايكون فيهما رياء أو سمعة، أو شرك أكبر أو أصغر؛ لأن هذا لا يكون لله.

فقوله: ﴿لِلَّهِ﴾ يريد الإخلاص بألا يكون في حجه شرك أكبر أو أصغر.

الشرك الأكبر كأن يدعو غير الله، ويستغيث بغير الله، أو يذبح لغير الله، فإن هذا يبطل حجه.

أو شرك أصغر، وهو الرياء؛ بأن يحج من أجل الرياء والسمعة، يمدحه الناس، ويقولون: فلان يحج ويعتمر، إذا كان هذا قصده، فإن هذا شركٌ أصغر يبطل الحج، ويبطل العمرة.

فالشرك الأكبر يبطل جميع الأعمال، ويخرج من الملة، الشرك الأصغر يبطل العمل الذي وقع فيه فقط، ولا يبطل بقية الأعمال، يبطل العمل الذي وقع فيه ولا يخرج من الملة، وإنما يكون صاحبه فاعلًا لكبيرة من الكبائر.

ففي قوله تعالى: ﴿ وَأَتِمُّواْ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ مسألتان:

المسألة الأولى: أنه يجب إتمام مناسك الحج، ولا يتحلل الإنسان من إحرامه إلا إذا أدى مناسك الحج؛ من الوقوف بعرفة، والمبيت بمزدلفة، ورمي الجمار، والمبيت بمنى ليالي أيام التشريق، وطواف الإفاضة والسعي بعده، وطواف الوادع، هذه مناسك الحج.

والعمرة مناسكها: الإحرام، والطواف والسعي، والحلق أو التقصير.

الحج مناسكه: الإحرام أولًا، الوقوف بعرفة، المبيت بمزدلفة، رمي الجمار، المبيت بمنى ليالي أيام التشريق، الحلق أو التقصير، طواف الإفاضة،

السعي بين الصفا والمروة، في النهاية إذا أراد أن يسافر إلى بلده يطوف طواف الوادع، هذه مناسك الحج.

مناسك العمرة هي الإحرام والطواف بالبيت سبعة أشواط، والسعي بين الصفا والمروة سبعة أشواط، والحلق أو التقصير، وليس لها وادع واجب، من أراد أن يطوف للوادع في العمرة، هذا أكمل، ومن لم يطف، فليس عليه شيء؛ الطواف الواجب إنما هو للحج؛ لأن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمر الحجاج ألا ينفروا حتى يكون آخر عهدهم بالبيت، فهذا معنى قوله: ﴿ وَأَتِمُّواْ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾، هذه مسألة أنه يلزم إكمال مناسك الحج وإكمال مناسك العمرة، وأن المحرِم لايتحلل من إحرامه إلا بذلك، إلا في مسألة الإحصار، إذا مُنِع ولم يتمكن، فإنه يفدي ويحلق رأسه ويتحلل.

المسألة الثانية: وجوب الإخلاص لله، إخلاص النية لله في الحج؛ بأن يكون عمله في الحج خالصًا لوجه الله عَزَّوَجَلَّ، وكذلك في العمرة يكون عمله فيها خالصًا لله، وهذا في جميع الأعمال، جميع الأعمال لا تقبل إلا إذا كانت خالصة لله، ليس فيها شرك، لا شرك أكبر ولا شرك أصغر، ما يقبل الله عملًا إلا إذا كان خالصًا لوجهه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ كما قال سبحانه: ﴿ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴾ [الزمر:٢]، ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴾ [البينة:٥]، فالإخلاص شرط لقبول جميع الأعمال من الحج والعمرة وجميع الأعمال، فإذا كان في الأعمال شركٌ، فإن الله لا يقبلها، لا يقبل هذه الأعمال التي فيها شرك؛ كما في الحديث القدسي: أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ

يقول: «أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْته وَشِرْكَهُ»(١)، وفي رواية: «فَأَنَا بَرِيءٌ مِنْهُ، وَهُوَ لِلَّذِي أَشْرَكَ»(٢).

الله لا يقبل من الأعمال إلا ما كان خالصًا لوجهه الكريم.

ولا ننسى -أيضًا- أن الله لا يقبل من الأعمال إلا ما كان صوابًا على سنة رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الحج وفي غيره، في الحج، في العمرة، في كل شيء، في كل العبادات لابد أن تكون صوابًا على سنة رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليس فيها بدعة، وليس فيها خرافات، وإنما هي سنن، هي سنن متبعة عن الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فيحرص المسلم على أن يؤدي أعماله موافقة لسنة رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويتجنب البدع والمحدثات، قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا، فَهُوَ رَدٌّ»(٣)، وفي رواية: «مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ، فَهُوَ رَدٌّ»(٤)، وقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ؛ فَإِنَّ كُل مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُل بِدْعَةٍ ضَلالَةٌ»(٥).

---

(١) أخرجه مسلم (٢٩٨٥)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) هذه الرواية أخرجها أحمد (١٣/ ٣٧٧)، وابن ماجه (٤٢٠٢)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه مسلم (١٧١٨)، ورواه البخاري معلَّقًا في كتاب البيوع - باب النَّجْشِ (٤/ ٣٥٦ مع الفتح)، وفي كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة - باب إذا اجتهد العامل أو الحاكم فأخطأ (١٣/ ٣١٧ مع الفتح).

(٤) أخرجه البخاري (٢٦٩٧)، ومسلم -واللفظ له- (١٧١٨)، من حديث عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا.

(٥) أخرجه أبو داود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦)، وابن ماجه (٤٢، ٤٣، ٤٤)، وأحمد (٢٨/ ٣٧٣)، والدارمي (٩٦)، والطبراني في الكبير (١٨/ ٢٤٥)، وابن حبان (١/ ١٧٨)، والحاكم في المستدرك (١/ ١٧٤)، والبيهقي في الكبرى (١٠/ ١٩٥).

فهكذا يجب على المسلم أن يعتني بأعماله من ناحيتين:

الناحية الأولى: أن يكملها، ولا ينقص منها شيئًا.

والناحية الثانية: أن يخلصها لله عَزَّوَجَلَّ، فلا يكون فيها قصد لغير الله عَزَّوَجَلَّ، هذا في الحج وفي غيره؛ ﴿وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ [البقرة:١٩٦]؛ لأن هناك من يحج لغير الله، يحج للرياء، للسمعة، فلا تقبل حجته، ولا يقبل سعيه.

فيجب على المسلم أن يتنبه لهذا الأمر العظيم؛ ألا تكون أعماله تعبًا بدون فائدة بسبب أنه لم يخلص نيته لله فيها، أو أنه أداها على صفة مخالفة لسنة الرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ﴾، يعني: بلى يدخل الجنة ﴿مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [البقرة:١١١، ١١٢]، ﴿أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ﴾، هذا الإخلاص، ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾، أي: متبع للرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك:٢]، قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف:٧]، ﴿أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾، لم يقل: أيهم أكثر عملًا، بل قال: ﴿أَحْسَنُ عَمَلًا﴾؛ لأن العبرة بالأحسن، وليست العبرة بالأكثر.

ومتى يكون أحسن عملًا؟ إذا توفر فيه الشرطان: الإخلاص لله، والمتابعة للرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

ولما سئل الفضيل بن عياض رَحِمَهُٱللَّهُ، «يا أبا علي ما معنى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود:٧] قَالَ: أَخْلَصُهُ وَأَصْوَبُهُ، قَالَ: إِنَّ الْعَمَلَ إِذَا كَانَ

خَالِصًا، وَلَمْ يَكُنْ صَوَابًا لَمْ يُقْبَلْ، وَإِذَا كَانَ صَوَابًا، وَلَمْ يَكُنْ خَالِصًا، لَمْ يُقْبَلْ حَتَّى يَكُونَ خَالِصًا صَوَابًا، وَالخَالِصُ إِذَا كَانَ للهِ، وَالصَّوَابُ: إِذَا كَانَ عَلَى السُّنَّةِ»[١]، فإن العمل إذا كان خالصًا، ولم يكن صوابًا، لم يقبل، وإذا كان صوابًا، ولم يكن خالصًا، لم يقبل حتى يكون خالصًا صوابًا.

وفق الله الجميع لما يحب ويرضى، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في الإخلاص والنية (ص٥٠-٥١)، وأبو نعيم في الحلية (٨/ ٩٥).

الركن الرابع صيام رمضان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين، أما بعد:

ما زلنا مع أركان الإسلام، تقدم الكلام على الركن الأول، والركن الثاني، والركن الثالث، وها نحن الآن مع الركن الرابع وهو الصيام؛ صيام رمضان، فصيام رمضان هو الركن الرابع من أركان الإسلام، وقد فُرِض على الأمة في السنة الثانية من الهجرة، وصام رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تسعة رمضانات قبل وفاته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، واستمر صيام رمضان في الأمة ويستمر إلى يوم القيامة ما استمر الإسلام.

وصيام رمضان أمرٌ حتم على هذه الأمة، قال الله سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة:١٨٣]، إلى قوله تعالى: ﴿ شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَ ﴾ [البقرة:١٨٥].

والصيام معناه: الإمساك، الصيام في اللغة معناه: الإمساك.

الإمساك عن المشي يسمى صيامًا في اللغة، الإمساك عن الكلام يسمى

صيامًا في اللغة العربية؛ كما أمر الله مريم أن تقول: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾ [مريم:٢٦]، ﴿صَوْمًا﴾، يعني: عن الكلام[١].

وأما الصيام في الشرع: فهو الإمساك عن المفطرات بنية من طلوع الفجر الثاني إلى غروب الشمس[٢]؛ كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ﴾ [البقرة:١٨٧]، هذا هو الصيام في الشرع، الإمساك عن الأكل والشرب والجماع وسائر المفطرات مع النية، لابد من النية، وتكون النية من الليل، لابد أن ينوي من الليل قبل طلوع الفجر في الصوم الواجب -كصيام رمضان، صيام الكفارة، صيام النذر، صيام القضاء-، لابد أن ينويه قبل طلوع الفجر؛ لقوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى**»[٣]، ولقوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لاَ صِيَامَ لِمَنْ لَمْ يُجْمِعْ النية مِنْ اللَّيْلِ**»[٤].

ويجب الصيام على كل مسلم، أما الكافر فإنه لو صام، فصيامه غير صحيح؛ لأنه يشترط في صحة الأعمال الإسلام، فالأعمال لا تصح من الكفار ما داموا على كفرهم؛ لقوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ [إبراهيم:١٨]، وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ

---

(١) انظر: (ص٣١).

(٢) انظر: (ص٣٢).

(٣) أخرجه البخاري (١، ٥٤، ٥٠٧٠)، ومسلم (١٩٠٧)، من حديث عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٤) أخرجه أبو داود (٢٤٥٤)، والترمذي (٧٣٠)، والنسائي في المجتبى (٢٣٣١)، وابن ماجه (١٧٠٠)، عَنْ حَفْصَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا، عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**مَنْ لَمْ يُجْمِعِ الصِّيَامَ قَبْلَ الفَجْرِ، فَلَا صِيَامَ لَهُ**».

كَفَرُوٓاْ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا﴾ [النور:٣٩]، فالكافر لو صلى، لو صام، ولو تصدق، ولو حج واعتمر وفعل الأعمال، لا تقبل منه ما دام كافرًا، سواء كان كافرًا أصليًّا باقيًا على الكفر؛ لم يدخل في الإسلام أصلًا، أو كان مسلمًا وارتد، فإذا ارتد المسلم؛ بأن ارتكب ناقضًا من نواقض الإسلام -والعياذ بالله-، فإنها لا تصح أعماله، وتبطل أعماله بالردة؛ قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة:٢١٧].

وأيضًا لابد أن يكون المسلم بالغًا الحلم، فإن كان صغيرًا دون البلوغ، فإنه لا يجب عليه الصيام؛ لقوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «رُفِعَ الْقَلَمُ عَنْ ثَلَاثَةٍ»[1]، وذكر منهم الصغير حتى يحتلم، لكن يصوم الصغير إذا كان يطيق الصيام من أجل أن يتدرب عليه، ويكون نافلة في حقه، وله فيه الأجر ولوليه الأجر -أيضًا- إذا صوَّمه؛ لأن الصحابة كانوا يصوّمون غلمانهم؛ ليدربوهم على العبادة، وكانوا إذا طلبوا الأكل أو الشراب يلهونهم باللعب التي يعطونهم إياهم يتلهون بها؛ حتى ينتهي اليوم[2].

---

(١) أخرجه أحمد (٤١/ ٢٢٤)، وأبو داود (٤٣٩٨)، والنسائي (٣٤٣٢)، وابن ماجه (٢٠٤١)، من حديث عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا.

(٢) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (١٩٦٠)، ومسلم (١١٣٦)، عَنِ الرُّبَيِّعِ بِنْتِ مُعَوِّذٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: «أَرْسَلَ النَّبِيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غَدَاةَ عَاشُورَاءَ إِلَى قُرَى الأَنْصَارِ: **مَنْ أَصْبَحَ مُفْطِرًا، فَلْيُتِمَّ بَقِيَّةَ يَوْمِهِ وَمَنْ أَصْبَحَ صَائِمًا، فَلْيَصُمْ**. قَالَتْ: فَكُنَّا نَصُومُهُ بَعْدُ، وَنُصَوِّمُ صِبْيَانَنَا، وَنَجْعَلُ لَهُمُ اللُّعْبَةَ مِنَ العِهْنِ، فَإِذَا بَكَى أَحَدُهُمْ عَلَى الطَّعَامِ، أَعْطَيْنَاهُ ذَاكَ حَتَّى يَكُونَ عِنْدَ الإِفْطَارِ».

كما أن الصبي المميز يؤمر بالصلاة؛ ليعتادها، وتكون له نافلة؛ كما قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مُرُوا أَبْنَاءَكُمْ بِالصَّلَاةِ لِسَبْعِ سِنِينَ، وَاضْرِبُوهُمْ عَلَيْهَا لِعَشْرِ سِنِينَ، وَفَرِّقُوا بَيْنَهُمْ فِي الْمَضَاجِعِ**»(١).

كما أن الحج -أيضًا- يصح من الصبي، الحج والعمرة يصحان من الصبي ولو لم يميز، ولو كان دون التمييز، ويكون له هذا نافلة، فإذا بلغ، فإنه يحج حجة الإسلام، ويعتمر عمرة الإسلام.

ومن هنا نعرف أنه يجب على المسلمين أن يربوا أولادهم من الصغر على العبادات؛ ليألفوها، وينشؤوا عليها، ويعتادوها، ولا يهملوهم حتى يكبروا وهم غير معتادين لها، فربما ينفرون منها، ويمتنعون منها، لكن إذا رُبوا عليها من الصغر، ألفوها، واعتادوها، وأحبوها، فإذا بلغوا، فإنهم يسهل عليهم فعل العبادات، ويكون السبب في هذا تربيتهم على الخير، ولأوليائهم الأجر في ذلك؛ لأن هذا من التربية الإسلامية.

هكذا ينبغي للوالدين أن يربيا أولادهما على العبادات من الصغر، وأن يجنبوهم المحرمات والمنهيات من الصغر، وأن يؤدبوهم إذا فعلوا مخالفة ولو كانوا غير مكلفين، يؤدبوهم بأدب خفيف؛ حتى يعلموا أن هذا الشيء لا يجوز، فيكبرون وهم ينفرون من المحرمات.

فلا ينبغي للمسلمين أن يهملوا أولادهم، ويقولوا: هؤلاء صغار، هؤلاء لم يجب عليهم شيء، بل إنه يتأكد في حقهم أن يربوهم على الخير وعلى الأخلاق

---

(١) أخرجه أحمد (١١/ ٣٦٩)، وأبو داود (٤٩٥)، من حديث عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ.

الفاضلة، وعلى الصدق، ويجنبوهم الكذب، قال إبراهيم النخعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كَانُوا يَضْرِبُونَنَا عَلَى الشَّهَادَةِ وَالعَهْدِ وَنَحْنُ صِغَارٌ»(١)، إذا سمعوا الطفل يحلف، ضربوه؛ من أجل أن يعظم اليمين، إذا سمعوا الطفل يشهد بشيء، يضربونه؛ من أجل ألا يتهاون بالشهادة، فينشأ على تعظيم حرمات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، والشيء بالتربية والاعتياد، والإهمال ترك الأولاد بدون تربية صحيحة سليمة ينشئهم على العدوان وعلى المعاصي وعلى كراهية الطاعات والعبادات.

فهذا أمرٌ يجب التنبه له؛ لأنه قد يتهاون به بعض الناس مع أولادهم، ولابد أن يكون الشخص مسلمًا بالغًا مكلفًا، يعني: غير مجنون وغير معتوه، فإن كان زائل العقل، إن كان ليس عنده عقل ولا تفكير، هذا ليس عليه شيء، غير مكلف، فالمجنون الذي جنونه مطبق ودائم، أو المعتوه وهو الذي زال عقله، أو لم يوجد له عقل أصلًا هذا ليس عليه تكليف؛ لقوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**رُفِعَ الْقَلَمُ عَنْ ثَلَاثَةٍ: عَنْ الصَّبِيِّ حَتَّى يَبْلُغَ، وَعَنْ الْمَجْنُونِ حَتَّى يُفِيقَ، وَعَنْ النَّائِمِ حَتَّى يَسْتَيْقِظَ**»(٢).

فالذي بلغ وليس عنده عقل هذا لا يجب عليه شيء من العبادات؛ لأنه لا يتأتى منه النية والقصد، والعبادة لابد فيها من النية والقصد، والمجنون لايعرف النية ولا يعرف القصد؛ فلا تصح منه العبادة؛ لقوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى**»(٣).

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦٥١).
(٢) سبق تخريجه (ص٩٧).
(٣) سبق تخريجه (ص٩٦).

فإذا شفاه الله، وزال جنونه، أو عقل، فإنه تجب عليه الواجبات بعد زوال المانع الذي كان عنده والمرض العقلي؛ التخلف العقلي الذي كان عنده؛ لأنه أصبح أهلًا للعبادات، ولا يقضي ما فات؛ لأنه غير مكلف، فلا يقضيه، وإنما يعمل بالمستقبل بعد شفائه.

هذه شروط وجوب الصيام: أولًا: الإسلام، وثانيًا: البلوغ، وثالثًا: العقل.

فمن دخل عليه شهر رمضان، فإنه يصدق عليه قوله تعالى: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُ﴾ [البقرة:١٨٥]، يعني: حضر الشهر، فيجب عليه الصيام، ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ﴾، أي: شهر رمضان، ﴿فَلۡيَصُمۡهُ﴾ [البقرة:١٨٥]، إلا إذا كان له عذر شرعي كالمسافر والمريض؛ ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا﴾، فمن كان مريضًا، ﴿أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ [البقرة:١٨٤]، فلا يلزمه الصيام أداءً، لا يلزمه أداءً في الشهر؛ لأنه مريض، ولا يستطيع الصيام، أو مسافر، والمسافر يشق عليه الصيام.

فالمريض لا يجتمع عليه مشقة المرض ومشقة الصيام، والمسافر لا يجتمع عليه مشقة السفر ومشقة الصيام.

الله جَلَّوَعَلَا خفف على هذه الأمة؛ ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖ﴾ [الحج:٧٨]، ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٖ﴾ [المائدة:٦].

فالمريض الذي لا يستطيع الصيام أو يشق عليه يفطر، فإذا زال عذره في المستقبل، فإنه يقضي ما أفطره؛ لقوله تعالى: ﴿فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ [البقرة:١٨٤]، أي: عليه أن يصوم عدة ما أفطر من رمضان.

وكذلك المسافر يفطر في أثناء سفره، فإذا انتهى سفره، فإنه يقضي ما أفطره من رمضان؛ لقوله تعالى: ﴿فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ [البقرة:١٨٤].

إذًا فلابد من صيام رمضان؛ إما أداءً لمن كان حاضرًا صحيحًا، حاضرًا يعني: غير مسافر، صحيحًا، يعني: غير مريض، فهذا يجب عليه الصيام أداء في رمضان، وأما من كان فيه مرض لا يستطيع الصيام، أو مسافر، فإنه يفطر ويقضي، فيجب عليه الصيام قضاءً، ولا يجب عليه الصيام أداءً، ولو صام، أجزأ صيامه، لو صام المريض أجزأ صيامه، ولو صام المسافر أثناء السفر، صح صيامه، وأجزأ، لكن الأفضل له والمستحب له ان يفطر؛ أخذًا بالرخصة؛ لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**إِنَّ اللهَ يُحِبُّ أَنْ تُؤْتَى رُخَصُهُ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ تُؤْتَى مَعْصِيَتُهُ**»(١)، فالصوم من المريض ومن المسافر أخذٌ بالعزيمة، والإفطار للمريض والمسافر أخذٌ بالرخصة، والأخذ بالرخصة أفضل من الأخذ بالعزيمة.

هناك صنف ثالث لا يجب عليهم الصيام لا أداء ولا قضاء، وهم:

أولًا: الكبير الهرم الذي معه عقله وتفكيره، لكنه لا يستطيع الصيام أبدًا؛ لا أداء ولا قضاء.

ثانيًا: المريض المرض المزمن، المزمن يعني: الدائم الذي لا يرجى له شفاء، ولا يستطيع الصيام.

فهذان -الكبير والهرم، والمريض المزمن- يقدمان الفدية، وهي إطعام مسكين عن كل يوم بمقدار نصف الصاع، بعض العلماء يقولون بالمد بمقدار ربع الصاع،

---

(١) أخرجه أحمد (١٠/ ١٠٧، ١١٢)، وابن حبان في صحيحه (٦/ ٤٥١)، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

وبعض العلماء يقول: نصف الصاع، وعلى كل حال الأخذ بالاحتياط أحسن؛ أن يخرج نصف صاع بالصاع النبوي عن كل يوم، وليس عليه صيام لا أداء ولا قضاء؛ لقوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ [البقرة:١٨٤]، والذين يطيقونه: هم الكبير الهرم، والمريض المزمن؛ كما فسر ذلك ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا(١).

فيخرج عن كل يوم هذه الفدية؛ طعام مسكين واحد فقير، وله أن يجمع عدد الأيام، ويخرج عنها جميعًا؛ إما قبل الصيام، وإما بعد الصيام، وإما في أثناء الشهر، له أن يجمع عدد الأيام، ويخرج عنها جميعًا دفعة واحدة؛ إما في أول الشهر، وإما في آخر الشهر، وإما بعد الشهر، لا مانع من ذلك، وله أن يدفعها لعدة فقراء، يوزعها على عدة فقراء، وله أن يدفعها إلى فقير واحد، كل ذلك جائز؛ لقوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ [البقرة:١٨٤].

إذًا فيتبين لنا أن الناس على ثلاثة أقسام:

* قسم يجب عليه الصيام أداءَ في رمضان، وهو المقيم الصحيح البالغ، يجب عليه الصيام أداءً في رمضان، ولا يجوز له أن يفطر في رمضان؛ لأن هذا ركنٌ من أركان الإسلام؛ كما أنه يصلي الصلوات الخمس، فإنه لابد أن يصوم رمضان؛ لأنه ركنٌ من أركان الإسلام.

* **القسم الثاني:** من لا يجب عليه الصيام لا أداء ولا قضاء، وهو الكبير الهرم، والمريض المرض المزمن، هذا لا يجب عليه الصيام لا أداء ولا قضاء؛ لأنه لا يستطيعه، وإنما تجب عليه الفدية وهي إطعام مسكين عن كل يوم.

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٣/ ١٧١- ١٧٦)، وتفسير الماوردي (١/ ٢٣٩)، وزاد المسير (١/ ١٤٢)، وتفسير القرطبي (٢/ ٢٨٨- ٢٨٩).

* **القسم الثالث**: من يجب عليه الصيام قضاء، ولا يجب عليه أداء، وهو المريض والمسافر؛ المريض غير المزمن، والمسافر هؤلاء لا يجب عليهم الصيام أداء في أثناء المرض وفي أثناء السفر، وإنما يجب عليهم الصيام قضاء لعدة الأيام التي أفطروها.

هذه أقسام الناس في صيام رمضان.

وينبغي أن نعلم بداية الشهر ونهاية الشهر؛ بماذا يصوم المسلمون؟ وبماذا يفطرون من رمضان؟ يصومون برؤية الهلال، إذا رأوا الهلال، وليس المراد أنه لابد أن يروا الهلال كلهم، بل إذا رآه مسلم واحد، لزم الناس الصيام برؤيته، العمل برؤيته؛ لحديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «تَرَاءَى النَّاسُ الهِلَالَ، فَأَخْبَرْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَنِّي رَأَيْتُهُ فَصَامَهُ، وَأَمَرَ النَّاسَ بِصِيَامِهِ»[١]، فأمر صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الناس بالصيام، مع أنه لم يره إلا واحد، وهو ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

وأما رؤية هلال العيد، فلا يكفي الواحد، لابد من رؤية رجلين عدلين، لا يفطر الناس إلا إذا ثبتت الرؤية برؤية عدلين يشهدان بأنهم رأوا الهلال بأعينهم، أو رأوه بواسطة الآلة المكبرة، لا مانع من استخدام البصريات التي تكبر الشيء، فيستخدم الناس المناظير، يستخدمونها ليروا البعيد، ويروا الهلال، لا مانع من استخدامها؛ لأنها وسائل مباحة، أو إذا لم ير بالمراصد، يرى بالعين المجردة، هذا هو الأصل، الأصل أنه يرى بالعين المجردة، وإذا وُجِدت أشياء تساعد على الرؤية كالمراصد والمناظير الدقيقة، فلا مانع من استخدامها؛ لأنها من الأمور التي أباحها الله لنا جَلَّ وَعَلَا.

---

(١) أخرجه أبو داود (٢٣٤٢)، وابن حبان في صحيحه (٨/ ٢٣١).

ثم لابد أن نبين أن من كان غير أهل للصيام -كالصغير مثلًا، أو الكافر إذا أسلم-، الصغير إذا بلغ في أثناء الشهر، فإنه يصوم الباقي بعد بلوغه، وأما ما مضى قبل بلوغه من الشهر، فإنه لا يصومه؛ لأنه حينذاك غير مكلف، فيصوم ما بقي بعد بلوغه، وكذلك الكافر إذا أسلم في أثناء شهر رمضان، فإنه يصوم ما تبقى من الشهر ولو يوم واحد بعد إسلامه، ولا يقضي ما فات وقت كفره؛ لأنه حينذاك لا يصح منه الصيام.

وكذلك أصحاب الأعذار الذين أبيح لهم الإفطار بسبب أعذارهم كالمسافر إذا قدم إلى البلد، فإنه يصوم بقية الشهر، وأما ما فات وهو مفطر في سفره، فإنه يقضيه، فيصوم ما بقي من الشهر بعد نهاية سفره، وأما ما أفطره في السفر، فإنه يقضيه بعد رمضان.

وكذلك المرأة الحائض والنفساء إذا طهرتا في أثناء الشهر، فإنهما تصومان ما بقي أداء، وإذا انتهى رمضان، يقضيان ما أفطرتاه حالة الحيض وحالة النفاس.

وينبغي أن ننبه إلى أن المسافر إذا نوى إقامة في أثناء السفر في بلد أو في بر، إذا نوى إقامة تزيد على أربعة أيام؛ أنه يلزمه الصوم، ويلزمه إتمام الصلاة، ولا يجوز له القصر؛ لأنه انقطع السفر، وانقطعت أحكامه بالإقامة التي تزيد على أربعة أيام، فيصبح مثل المقيمين، يلزمه إتمام الصلاة، ويلزمه الصيام.

وأما القضاء، من عليه قضاء من رمضان، فالوقت موسع ما بين الرمضانين، لكن إذا بادر بالقضاء، فهو أفضل من أجل إبراء ذمته، والمبادرة بإبراء ذمته، وله أن يؤخر إلى ألا يبقى قبل رمضان القادم إلا قدر الأيام التي عليه، فإذا لم يبق على

رمضان القادم إلا قدر الأيام التي عليه، فإنه يجب عليه حينئذ القضاء؛ لئلا يدخل عليه رمضان الجديد وهو في ذمته صيام من رمضان الماضي؛ لقول عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالت: «كَانَ يَكُونُ عَلَيَّ الصَّوْمُ مِنْ رَمَضَانَ، فَمَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَقْضِيَهُ إِلَّا فِي شَعْبَانَ، الشُّغْلُ مِنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَوْ بِرَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»[(١)].

فدل على أن القضاء وقته موسع ما بين الرمضانين، إلا ألا يبقى على رمضان الجديد إلا قدر الأيام التي عليه، فيتعين عليه أن يصوم، وأن يقضي ما عليه؛ حتى لا يدركه رمضان الجديد وفي ذمته أيام من رمضان القديم، إلا من كان معذورًا لو استمر العذر معه، لو استمر العذر -الذي هو السفر مثلًا أو المرض-، استمر معه إلى أن دخل عليه رمضان الجديد، فهذا لا حرج عليه، يصوم رمضان الجديد، ثم يقضي ما عليه من رمضان الماضي بعد رمضان الذي قدم عليه، وليس عليه إلا القضاء؛ لأنه معذور في عدم قضائه بين الرمضانين.

أما لو أخر القضاء من غير عذر حتى أدركه رمضان الجديد، فإنه يصوم رمضان الذي دخل عليه، فإذا فرغ منه، فإنه يقضي ما عليه من رمضان الماضي، ويطعم عن كل يوم مسكينًا عن التأخير، كفارة عن التأخير من غير عذر.

هذه أمور يجب التنبه لها؛ لأن صيام رمضان ركن من أركان الإسلام، فيجب على المسلم أن يفقهه، ويعرف أحكامه؛ حتى يؤديه على الوجه المشروع.

وهذا الصيام نعمة من الله عَزَّوَجَلَّ على العباد، نعمة دينية ونعمة بدنية؛ أما النعمة الدينية: فالصيام عبادة عظيمة يحصل للمسلم بها الأجر العظيم من الله

---

(١) أخرجه البخاري (١٩٥٠)، ومسلم (١١٤٦).

سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ كما في الحديث القدسي الذي رواه الشيخان عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «**كُلُّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ يُضَاعَفُ، الْحَسَنَةُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ، قَالَ اللهُ** عَزَّ وَجَلَّ: **إِلَّا الصَّوْمَ، فَإِنَّهُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ، يَدَعُ شَهْوَتَهُ وَطَعَامَهُ مِنْ أَجْلِي، لِلصَّائِمِ فَرْحَتَانِ: فَرْحَةٌ عِنْدَ فِطْرِهِ، وَفَرْحَةٌ عِنْدَ لِقَاءِ رَبِّهِ**»(١). «**وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَخُلُوفُ فَمِ الصَّائِمِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللهِ، يَوْمَ الْقِيَامَةِ، مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ**»(٢).

هذا حديث عظيم فيه بشرى للصائمين، يدل على فضيلة الصيام، وأن الله جَلَّ وَعَلَا جعل جزاءه غير محدد بأضعاف؛ لأن الصيام من الصبر؛ لأن الصائم صبر على ألم الجوع، وعلى ألم العطش، وعلى مفارقة زوجته وشهوته مدة الصيام؛ طاعة لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، صبر، فأجره غير محدد بالأضعاف أكثر من سبعمائة ضعف، لا يعلمه إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر:١٠]، وهنا يقول جَلَّ وَعَلَا: «**الصَّوْمُ لِي، وَأَنَا أَجْزِي بِهِ**»، يعني: لا يعلم مقدار جزاءه إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فلا ينحصر تضعيفه بعدد؛ كما أن الصابر المحتسب على طاعة الله جَلَّ وَعَلَا، والصابر عما حرم الله عليه هذا يوفيه الله أجره يوم القيامة بغير حساب؛ ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر:١٠].

نسأل الله جَلَّ وَعَلَا أن يجعل صيامنا وسائر أعمالنا متقبلة لديه، ونسأله سبحانه أن يعفو عن تقصيرنا، وأن يعفو عن زللنا، وأن يوفقنا وإياكم للتوبة والاستغفار، وأن يجعلنا وإياكم في هذا الشهر الكريم من عتقائه من النار، وأن يجعلنا ممن صاموا الشهر، واستكملوا الأجر، وفازوا بجائزة الرب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

---

(١) أخرجه البخاري (١٩٠٤)، ومسلم (١٦٤) (١١٥١)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.
(٢) أخرجه البخاري (١٩٠٤)، ومسلم (١٦٣) (١١٥١)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

الركن الرابع من أركان الإسلام

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، ولى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين.

والكلام اليوم في الركن الرابع من اركان الإسلام، وهو الصيام.

الصيام في اللغة: الإمساك، الإمساك عن الكلام، والإمساك عن المشي، كله يسمى صيامًا، هذا في اللغة كما ذكر الله عن مريم أنها قالت: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾ [مريم:٢٦]، ﴿صَوْمًا﴾، يعني: عن الكلام، فالإمساك عن الكلام يسمى صيامًا، كذلك الإمساك عن المشي، الوقوف يسمى صيامًا، يقال: صامت الشمس، إذا وقفت في كبد السماء، وصامت الفرس إذا وقفت عن العدو، هذا في اللغة[١].

أما الصيام في الشريعة: فهو الإمساك عن المفطرات، الإمساك عن المفطرات مع النية من طلوع الفجر إلى غروب الشمس، هذا هو الصوم الشرعي؛ الإمساك عن المفطرات من الأكل والشرب والجماع، وسائر المفطرات[٢]، ولابد من النية، أما لو أمسك عن الأكل والشرب بدون نية، هذا لا يسمى صومًا

(١) انظر: (ص٣١).
(٢) انظر: (ص٣٢).

شرعيًّا، وإنما يسمى صومًا لغويًّا؛ لأن النية شرط لصحة جميع الأعمال، الإمساك مع النية.

الصيام شرعه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على جميع الأمم، فرضه الله على جميع الأمم؛ كما قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة:١٨٣]، هذا نداء من الله للمؤمنين، يخاطبهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ويخبرهم بأنه كُتِب عليهم الصيام، أي: فرضه الله، فكُتِب معناه: فُرِض؛ كما في قوله تعالى: ﴿ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ ﴾ [البقرة:٢١٦]، يعني: فُرِض، كما في قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَى ﴾ [البقرة:١٧٨]، يعني: فُرِض، وكما في قوله تعالى: ﴿ كُتِبَ عَلَيۡكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ إِن تَرَكَ خَيۡرًا ٱلۡوَصِيَّةُ ﴾ [البقرة:١٨٠]، فـ﴿ كُتِبَ ﴾ في جميع هذه الآيات معناها فُرِض.

الصيام، صيام شهر رمضان فريضة على كل مسلم، وهو ركنٌ من أركان الإسلام؛ كما عده النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقد فُرِض الصيام على هذه الأمة في السنة الثانية من الهجرة، وصام النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تسعة رمضانات.

والصيام عمل جليل فيه فضائل عظيمة، ولهذا أوجبه الله سبحانه على هذه الأمة، فقوله: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ ﴾ [البقرة:١٨٣]، أي: كما فُرِض على الذين من قبلكم، فجميع الشرائع التي جاءت بها الرسل فيها فرضية الصيام على الأمم، وهذا مما يدل على فضل الصيام ومكانته عند الله؛ حيث إنه أوجبه على جميع الأمم، ومنها هذه الأمة المحمدية، فهذا يدل على فضل الصيام؛ حيث إنه شريعة قديمة ومستمرة إلى أن تقوم الساعة على جميع الأمم.

ومن فضائل الصيام: أن الله جعله أحد أركان الإسلام؛ كما بيَّن النبي ﷺ أن الإسلام بُنِي على خمس: «شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَصِيَامِ رَمَضَانَ، وَحَجِّ الْبَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا»(١)، فكونه أحد أركان الإسلام هذا يدل على فضله.

ومن فضائل الصيام: أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ اختصه لنفسه من بين سائر الأعمال، ففي الحديث القدسي أن الله جَلَّ وَعَلَا قال: «الصَّوْمُ لِي، وَأَنَا أَجْزِي بِهِ»(٢)، فكونه اختصه من بين سائر الأعمال دليل على فضله، جميع الأعمال والعبادات لله جَلَّ وَعَلَا، ولكنه اختص الصوم، فقال: «الصَّوْمُ لِي»، فتخصيصه للصوم بأنه له من بين سائر العبادات يدل على فضله، وقوله: «وَأَنَا أَجْزِي بِهِ»، يدل على أن جزاء الصيام يختلف عن جزاء بقية الأعمال.

الأعمال جزاؤها: الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى اضعاف كثيرة، بخلاف الصيام فإنه لا يتقدر تضعيفه بعدد، ولهذا قال: «وَأَنَا أَجْزِي بِهِ»، فلا يعلم جزاء الصيام إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، لا يعلم جزاءه إلا الله.

قالوا: لأن الصيام فيه الصبر بجميع أنواعه؛ الصائم يصبر عن شهواته التي تطلبها نفسه، فيتركها لله عَزَّ وَجَلَّ، ولهذا قال: «تَرَكَ شَهْوَتَهُ وَطَعَامَهُ وَشَرَابَهُ مِنْ أَجْلِي»، فهو يصبر عن متطلبات نفسه، وقد يكون محتاجًا إليها، يكون جائعًا يحتاج إلى الطعام، أو عطشان يحتاج إلى الشراب، وهو بين يديه.

---

(١) سبق تخريجه (ص٢٥).

(٢) سبق تخريجه (ص١٠٦).

الطعام والشراب بين يديه، وهو جائع وعطشان، ولو شاء لأكل وشرب، ولكنه يترك ذلك؛ إرضاء لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فيقدم رضا ربه على شهوة نفسه، ولما كان كذلك، فإن الله جَلَّ وَعَلَا تولى جزاء الصائم؛ بحيث لا ينحصر جزاؤه بأضعاف؛ لأنه فيه الصبر، يصبر عن شهواته ومألوفاته، ويصبر على ما حرم الله، ويصبر على ألم الجوع والعطش، والله جَلَّ وَعَلَا يقول: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر:١٠].

الصبر جزاؤه غير محصور بعدد أو بمضاعفة، لا يعلمه إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾، ومنهم الصائم، فهو من الصابرين، يصبر على ألم الجوع وألم العطش، وفقدان الشهوات التي تطلبها نفسه، يصبر عنها؛ تقربًا إلى الله جَلَّ وَعَلَا، ولما كان كذلك، الله جَلَّ وَعَلَا يجزيه جزاءً لا يعلم قدره إلا الله، ولهذا قال: «**وَأَنَا أَجْزِي بِهِ**»، وقيل المعنى: «**إِلَّا الصَّوْمَ فَإِنَّهُ لِي، وَأَنَا أَجْزِي بِهِ**»، المعنى: أن المؤمن يأتي يوم القيامة بأعمال كثيرة، لكن يكون عليه مظالم للناس، فيقتصون من أعماله، وقد لا يبقى له شيء؛ كما جاء في الحديث أن الإنسان يأتي بأعمال كثيرة يوم القيامة، «**وَيَأْتِي وَقَدْ شَتَمَ هَذَا وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ**»(١)، ولم يُقض ما عليه من المظالم، فإنه يؤخذ من سيئات الآخرين فتطرح عليه، فيطرح في النار، تذهب أعماله للمظلومين، أما الصيام فلا سبيل، لا سبيل للمظلومين إلى الأخذ منه، يحفظه الله لصاحبه، ويدخله به

(١) أخرجه مسلم (٢٥٨١)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الجنة، ولايُقتص منه للمظلومين، هذا معنى -والله أعلم- قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِلَّا الصَّوْمَ فَإِنَّهُ لِي، وَأَنَا أَجْزِي بِهِ».

ومن فضائل الصيام: أن «لَخُلُوفُ فَمِ الصَّائِمِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللهِ مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ»، والخلوف هو الرائحة التي تخرج من فم الصائم؛ لأن الصائم إذا خلت معدته من الطعام، يتصاعد منها أبخرة كريهة الرائحة عند الناس، ولكن لما كانت هذه الرائحة التي يكرهها الناس ناشئة عن طاعة الله، وأثرًا من آثار العبادة، فإنها تكون عند الله أطيب من ريح المسك؛ كما أن غبار المجاهدين في سبيل الله يكون ذريرة أهل الجنة، الناس يتأذون من الغبار، لكن إذا كان غبارًا من الجهاد في سبيل الله، فإنه يكون طيبًا لأهل الجنة يتطيبون به؛ لأنه ناشئ عن عبادة الله عَزَّوَجَلَّ[(١)].

وكذلك دم الشهيد، الشهيد الذي يُقتل في سبيل الله يأتي يوم القيامة يَثْعَبُ دمًا لونه لون الدم، وريحه ريح المسك، لما كان هذا الدم بسبب الجهاد في سبيل اللهن صار يوم القيامة رائحته رائحة المسك، مع أن الدم معروف في الدنيا أنه نجس، وأن رائحته منتنة، لكن لما كان ناشئًا عن الجهاد في سبيل الله، يكون طيب الرائحة يوم القيامة، يأتي به علامة على جهاده وعلى استشهاده في سبيل الله؛ إكرامًا له، يَثْعَبُ دمًا لونه لون الدم، وريحه ريح المسك[(٢)].

---

(١) كما في الحديث الذي أخرجه أبو داود في المراسيل (ص ٢٣٤)، والنسائي في الكبرى (٨/ ١١٤)، عَنْ رَبِيعَةَ بْنِ زِيَادٍ قَالَ: «بَيْنَمَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَسِيرُ إِذْ أَبْصَرَ غُلَامًا مِنْ قُرَيْشٍ شَابًّا مُتَنَحِّيًا عَنِ الطَّرِيقِ يَسِيرُ، فَقَالَ: **أَلَيْسَ فُلَانًا؟** قَالُوا: بَلَى، قَالَ: فَادْعُوهُ. قَالُوا: فَدَعَوْهُ، فَقَالَ: **لِمَ تَنَحَّيْتَ عَنِ الطَّرِيقِ؟** قَالَ: كَرِهْتُ الْغُبَارَ، قَالَ: **لَا تَنَحَّ عَنْهُ، فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ إِنَّهُ لَذَرِيرَةُ الْجَنَّةِ**».

(٢) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (٢٨٠٣)، ومسلم (١٠٥) (١٨٧٦)، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ =

كذلك رائحة فم الصائم تكون عند الله أطيب من ريح المسك؛ لأنها ناشئة عن طاعة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ مثل الشهيد يأتي بدمائه يوم القيامة علامة على شهادته في سبيل الله، ورائحته رائحة المسك، ولهذا لا يُغسل الشهيد، يل يُدفن بدمائه ولا يُغسل؛ لأن هذه الدماء كرامة له عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

فالآثار التي تنشأ عن الطاعات وإن كانت مكروهة عند الناس، فإنها محبوبة إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

ومن فضائل الصيام: ما جاء في الحديث عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «**لِلصَّائِمِ فَرْحَتَانِ: فَرْحَةٌ عِنْدَ فِطْرِهِ، وَفَرْحَةٌ عِنْدَ لِقَاءِ رَبِّهِ**»[(١)]؛ فرحتان: واحدة في الدنيا عندما يفطر ويشرب ويأكل، كان ممنوعًا من الأكل وهو جائع، وممنوعًا من الشراب وهو عطشان، ثم يؤذن له، لا شك أنه يفرح بذلك، الصائمون يفرحون بالإفطار، هذا شيء محسوس، هذا من طبيعة البشر، يفرحون بذلك فرحًا شديدًا؛ كما ترون الصائمين عند الإفطار يفرحون بالأكل والشرب، وهذا فرحٌ طيب ومحمود، ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [يونس:٥٨]، الإنسان يفرح بالإفطار، هذا في الدنيا.

الفرحة الثانية العظيمة: يوم يلقى ربه، ويجد جزاءه عند الله، لا يعلمه إلا الله، فيفرح بذلك فرحًا شديدًا، وقد جاء في الحديث «**إِنَّ فِي الجَنَّةِ بَابًا يُقَالُ لَهُ الرَّيَّانُ، يَدْخُلُ مِنْهُ الصَّائِمُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ، لَا يَدْخُلُ مِنْهُ أَحَدٌ غَيْرُهُمْ، يُقَالُ: أَيْنَ**

= رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يُكْلَمُ أَحَدٌ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَنْ يُكْلَمُ فِي سَبِيلِهِ إِلَّا جَاءَ يَوْمَ القِيَامَةِ، وَاللَّوْنُ لَوْنُ الدَّمِ، وَالرِّيحُ رِيحُ المِسْكِ**».

(١) سبق تخريجه (ص١٠٦).

الصَّائِمُونَ؟ فَيَقُومُونَ لَا يَدْخُلُ مِنْهُ أَحَدٌ غَيْرُهُمْ، فَإِذَا دَخَلُوا أُغْلِقَ فَلَمْ يَدْخُلْ مِنْهُ أَحَدٌ»(١)، فإذا وجد الصائمون هذه الكرامة، وأن الله يميزهم يوم القيامة عن غيرهم، ويدخلهم الجنة من باب خاص بهم، يفرحون بذلك فرحًا لا يعلمه إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فيفرح الصائم عند لقاء ربه في الدار الآخرة إذا وجد جزاءه عند الله؛ «وَأَنَا أَجْزِي بِهِ».

انظروا إلى المقارنة: ترك شيئًا في الدنيا يسيرًا، فعوضه الله عنه في الدار الآخرة خيرًا كثيرًا لا يعلمه إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

فالمسلم إذا تذكر هذا، هان عليه ما يلقى في الدنيا من الشدة، من المشقة، يهون عليه هذا، إذا تذكر جزاءه عند الله، هان عليه تعبه في الدنيا، يهون عليه القتل في سبيل الله، يهون عليه الصيام وترك الشهوات، يهون عليه ترك النوم بالليل والقيام للصلاة والتهجد، يهون عليه ذلك، يهون عليه إنفاق المال الذي هو أحب شيء إليه، إذا تذكر جزاء الإنفاق عند الله، يهون عليه هذا، فهو يعمل عملًا يسيرًا، ويجازيه الله خيرًا كثيرًا، ويعوضه عما قدم ما لا يعلمه إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

من فضائل الصيام: أنه يضيق مجاري الشيطان في البدن؛ لأن الشيطان يُداخل الإنسان، ويجري منه مجرى الدم، والشيطان يأتي مع الشهوات، يأتي مع تناول الشهوات، فإذا كان الإنسان يأكل ويشرب ويتناول ما يشتهي، فإن الشيطان يتسلط عليه، ويحمله على الأشر والبطر، أما إذا صام وكف نفسه عن

(١) أخرجه البخاري (١٨٩٦)، ومسلم (١١٥٢)، من حديث سهل رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

الشهوات، لم يبق للشيطان عنده مطمع، ليس هناك شهوات تجلب له الشيطان، فيبتعد الشيطان عن الصائم؛ لأنه لا يبقى مجال له.

الصائم ترك الشهوات التي تعين الشيطان على الإنسان، فإذا ترك الشهوات، فإن هذا يقطع طمع الشيطان فيه، ولهذا قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة:١٨٣]، قال في ختام الآية: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾، فهذا من فضائل الصيام أنه يسبب التقوى، والتقوى: مصدر اتقى، أي: اتخذ وقاية بينه وبين ما يكره، الصيام يكون وقاية بينك وبين العذاب، وبين السيئات، وقاية في الدنيا من السيئات ومن تسلط الشيطان، ووقاية في الآخرة من النار، ولهذا قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الصَّوْمُ جُنَّةٌ»[(١)]، «جُنَّةٌ»، يعني: سترة، والجنة في الأصل ما يتخذه المقاتل، ما يتقي به المقاتل، يجعله بينه وبين السهام، يقيه من ضرب السهام، كانوا يتخذون الدروع، ويتخذون الأشياء التي يجعلونها أمام وجوههم لتقيهم من ضرب السهام، هذه الجُنة، الجنة: السترة.

«الصَّوْمُ جُنَّةٌ»، يعني: سترة الصائم، سترته من الشيطان، سترته من الشهوات والمحرمات، هذا في الدنيا، وسترته في الآخرة من النار، يقيه من النار، ولهذا قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿لَعَلَّكُمْ﴾، أي: صوموا ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾، لعل الصيام يقيكم في الدنيا من فعل المعاصي، ويقيكم من شر الشيطان، وفي الآخرة يقيكم من عذاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ومن فضائل الصيام، أو من فوائد الصيام: الفائدة الصحية، هناك فائدة صحية للبدن، فإن الصيام حمية، أليس الأطباء إذا جاءهم المريض أوصوه

---

(١) سبق تخريجه (ص٣٥).

بالحمية، وهي ترك بعض المأكولات والمشروبات من أجل صحته؟ فالصيام حمية صحية؛ لأن الإنسان إذا أعطى نفسه الشهوات والشبع والرغب في الأكل، أورثه ذلك التخمة التي ينتج عنها الأمراض -كما هو معلوم-، غالب ما يصيب الناس من الأمراض بسبب المآكل والمشارب، ولهذا يقولون: المعدة بيت الداء، والحمية رأس الشفاء، المعدة بيت الداء؛ بما يجعل الإنسان فيها من المآكل والمشارب، فيؤثر هذا أمراضًا كما هو معلوم ومشاهد.

فالصيام يطهر المعدة؛ كما أنه يفيد الإنسان من ناحية دينه، فهو يفيد الإنسان من ناحية صحته، فالصيام صحة، ورُوِي عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «**صُومُوا تَصِحُّوا**»(١)، الحديث وإن كان فيه مقال، ولكن معناه صحيح أن الصائم يجد الصحة، ويتخلى عن الأخلاق الرديئة التي تسبب له المرض وتورثه المرض.

فلله در الصيام ما أفضله! وما أكثر فوائده وخيراته! ولهذا فرضه الله على هذه الأمة لمصلحتها، الله جَلَّ وَعَلَا لم يفرض علينا الصيام لتعذيبنا، أو لمنعنا من الأكل والشرب، إنما فرضه لمصلحتنا الدينية والدنيوية، فله الحمد والشكر على ذلك، ونسأله سبحانه أن يجعلنا ممن يصوم ابتغاء وجهه وابتغاء مرضاته، وأن يجعل جميع أعمالنا وأقوالنا خالصة لوجهه الكريم، وأن يعيننا وإياكم والمسلمين على ذكره وشكره وحسن عبادته.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله واصحابه أجمعين.

---

(١) أخرجه ابن عدي في الكامل (٣/ ٢٢٧)، عن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الزكـاة ورمضـان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله، وأصحابه أجمعين، أما بعد:

فها هو شهر رمضان المبارك قد شارف على الرحيل، ولم يبق منه إلا القليل، وهو شهر الخيرات والبركات والطاعات والتوبة من الذنوب والسيئات، موسم الغفران، تُغلق فيه أبواب النيران، وتُفتح فيه أبواب الجنان، ويصفد كل شيطان(١)، ها هو على وشك الرحيل، فلنحاسب أنفسنا: ماذا قدمنا فيه؟ فمن كان محسنًا فعليه بالتمام؛ فإن العمل بالختام، ومن كان مسيئًا ومضيعًا، فعليه بالتوبة والمبادرة قبل فوات الأوان؛ فإن الله ﴿يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الشورى:٢٥].

فعلينا أن نحاسب أنفسنا؛ فإن التجار الذين يتاجرون بالأموال إذا دخلوا موسمًا من مواسم التجارة وانتهى ذلك الموسم، جعلوا يحسبون ماذا خسروا وماذا ربحوا من هذا الموسم الذي تاجروا فيه، هذا في أمور الدنيا، وأمور الآخرة أعظم؛ لأن خسارة الدنيا أمرها سهل، لكن المصيبة التي لا تجبر خسارة الآخرة؛

---

(١) أخرجه الترمذي (٦٨٢) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِذَا كَانَ أَوَّلُ لَيْلَةٍ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ صُفِّدَتِ الشَّيَاطِينُ، وَمَرَدَةُ الجِنِّ، وَغُلِّقَتْ أَبْوَابُ النَّارِ، فَلَمْ يُفْتَحْ مِنْهَا بَابٌ، وَفُتِّحَتْ أَبْوَابُ الجَنَّةِ، فَلَمْ يُغْلَقْ مِنْهَا بَابٌ، وَيُنَادِي مُنَادٍ: يَا بَاغِيَ الخَيْرِ أَقْبِلْ، وَيَا بَاغِيَ الشَّرِّ أَقْصِرْ، وَللهِ عُتَقَاءُ مِنَ النَّارِ، وَذَلِكَ كُلُّ لَيْلَةٍ».

﴿خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ [الحج:١١]، فعلينا جميعًا أن نحاسب أنفسنا، ثم لنعلم أن الأعمال الصالحة والتوبة من السيئات ليس ذلك خاصًا في رمضان، وإنما رمضان موسم خير وزيادة للمسلم، وإلا فمطلوب منه في كل حياته العمل الصالح، والتوبة من الذنوب، والمحافظة على الطاعة وأداء الواجبات في رمضان وفي غير رمضان.

وأما الذي يقبل على الطاعة في رمضان، ثم بعد رمضان يترك الطاعة، وينشغل عن العبادة، فهذا خاسر، ولا ينفعه اجتهاده في رمضان.

قيل لبعض السلف: إن ناسًا يجتهدون في شهر رمضان، فإذا انتهى رمضان، عادوا إلى التفريط والإضاعة، وعادوا إلى الكسل؟ فقال: بئس القوم لا يعرفون الله إلا في رمضان!

فأنت عبدٌ لله في كل وقت، وأنت بحاجة إلى العمل الصالح في كل وقت، وانت بحاجة إلى التوبة والاستغفار في كل وقت وأوان؛ ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾ [الحجر:٩٩].

أيها الإخوة! إن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ شرع لنا في ختام هذا الشهر وبعده أعمالًا تتبع رمضان:

أولًا: شرع الله لنا التكبير في نهاية الشهر، إذا ثبت هلال عيد الفطر، فإن الله شرع لنا أن نكبر الله؛ ﴿وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ﴾، فأكثروا من التكبير في ليلة العيد؛ امتثالًا لهذه الآية الكريمة: ﴿وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة:١٨٥].

ثانيًا: شرع لنا في ختام هذا الشهر أن نقدم صدقة الفطر، وهي زكاة للنفس والبدن، تجب على الصغير والكبير، والحر والعبد، والذكر والأنثى، فريضة فرضها الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، ومقدارها صاع من الطعام، صاع من الطعام بالصاع النبوي من الطعام الذي يؤكل في البلد ويقتات في كل بلد بحسبه، صاع ومقداره ثلاثة كيلوات تقريبًا عن كل مسلم، تُدفع إلى الفقراء والمساكين في يوم العيد، ويجوز تقديمها قبل العيد بيومين فقط؛ لفعل الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ، فإن بعضهم كانوا يقدمونها قبل العيد بيومين، ولم يرد أكثر من ذلك.

ويخرجها قبل الخروج لصلاة العيد؛ فإن تأخرت عن صلاة العيد، فإنها تكون صدقة من الصدقات، وإن لم تخرج في يوم العيد، وجب على المسلم إخراجها قضاء ولو بعد يوم العيد؛ لأنها حقٌّ واجب في ذمته، يخرجها ولو بعد يوم العيد، فإن تعمد تأخيرها عن يوم العيد، فإنه يأثم بذلك، ويجب عليه التوبة والاستغفار مع إخراجها وإبراء ذمته منها، فهي صدقة على البدن غير زكاة المال، وقد استدل بعض العلماء لها من القرآن بقوله تعالى: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسۡمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ﴾ [الأعلى:١٤، ١٥]، قالوا: ﴿تَزَكَّىٰ﴾، يعني: دفع صدقة الفطر، ﴿وَذَكَرَ ٱسۡمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ﴾: صلاة العيد[(١)].

والرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فرضها؛ كما في الحديث الصحيح: فرضها[(٢)]، والفرض معناه: الواجب الذي لابد منه، والحكمة في فرضها: أنها «طُهْرَةً

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٢٤/ ٣٢٠)، وتفسير ابن أبي حاتم (١٠/ ٣٤١٨)، وزاد المسير (٤/ ٤٣٢)، وتفسير القرطبي (٢٠/ ٢١).

(٢) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (١٥٠٣)، ومسلم (٩٨٤)، عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا قَالَ: «فَرَضَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ زَكَاةَ الْفِطْرِ، صَاعًا مِنْ تَمْرٍ أَوْ صَاعًا مِنْ شَعِيرٍ، عَلَى الْعَبْدِ وَالْحُرِّ، =

لِلصَّائِمِ مِنَ اللَّغْوِ وَالرَّفَثِ، وَطُعْمَةً لِلْمَسَاكِينِ»(١)؛ طعمة للمساكين، وطهرة للنفس والبدن، فهي عبادة عظيمة، ينبغي للمسلم أن يحرص على إخراجها، بل يجب على المسلم إخراجها، وليس مخيرًا بين أن يخرجها أو يتركها، بل هي فرضٌ وواجب على كل مسلم في يوم العيد، فبادروا -رحمكم الله- بإخراجها طيبة بها نفوسكم؛ تُدفع للفقراء والمساكين والمحتاجين.

وكذلك مما شرعه الله في ختام شهر رمضان: صلاة العيد، وهي شعيرة عظيمة، يخرج المسلمون من جميع البلد، ويجتمعون في صعيد واحد؛ يكبرون الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، ويصلون صلاة العيد، ويستمعون إلى الذكر والموعظة والخطبة، فيرجعون مغفورًا لهم.

وكذلك مما شرعه الله في ختام هذا الشهر: أن يُتبع بصيام ستة أيام من شوال، قال صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «مَنْ صَامَ رَمَضَانَ ثُمَّ أَتْبَعَهُ سِتًّا مِنْ شَوَّالٍ، كَانَ كَصِيَامِ الدَّهْرِ»(٢)، وذلك لأن الحسنة بعشر أمثالها، فشهر رمضان عن عشرة أشهر، وستة الأيام عن شهرين، فيكون المجموع اثني عشر شهرًا، وهذا هو الدهر، يعني: السنة، هذا فضل الله يؤتيه من يشاء.

تصام الست من شوال في أول الشهر، وهذا أفضل، أو تصام في وسط الشهر، أو تصام في آخر الشهر، تصام متتابعة أو متفرقة في شهر شوال، وهي

= وَالذَّكَرِ وَالْأُنْثَى، وَالصَّغِيرِ وَالْكَبِيرِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَأَمَرَ بِهَا أَنْ تُؤَدَّى قَبْلَ خُرُوجِ النَّاسِ إِلَى الصَّلَاةِ».

(١) أخرجه أبو داود (١٦٠٩)، وابن ماجه (١٨٢٧)، من حديث ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا.

(٢) أخرجه مسلم (١١٦٤)، من حديث أبي أيوب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

نافلة بعد الفريضة، فكما أنك تصلي بعد صلاة الفريضة تصلي الراتبة نافلة، فكذلك تصوم بعد صيام رمضان، تصوم الست نافلة تابعة لشهر رمضان؛ «وَأَتْبَعَهُ سِتًّا مِنْ شَوَّالٍ».

أيها الإخوة! يا من تعودتم في هذا الشهر، تعودتم على الطاعات والعبادة -من تلاوة للقرآن، ومن ذكر لله عَزَّوَجَلَّ، ومن محافظة على الصلوات الخمس مع الجماعة-، تعودتم على عمارة المساجد والتردد إليها في هذا الشهر المبارك، يجب عليكم أن تستمروا على هذه الطاعات وهذه العبادات.

يا من تعودتم على قيام شهر رمضان، فإنكم في حاجة إلى القيام في غير شهر رمضان، قوموا من الليل ما تيسر بعد رمضان، أكثروا من تلاوة القرآن بعد رمضان، أكثروا من ذكر الله عَزَّوَجَلَّ، اعمروا المساجد التي هي بيوت الله، اعمروها بطاعة الله في سائر السنة؛ ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [التوبة:١٨]، ﴿فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ۝٣٦ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [النور:٣٦، ٣٧]، لابد لنا من هذا اليوم، لابد لنا من لقاء هذا اليوم الذي تتقلب فيه القلوب من الخوف والوجل، والأبصار تشخص من شدة الخوف، تتقلب فيه القلوب، تطير من أماكنها؛ ﴿إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ﴾ [غافر:١٨]، من شدة الهول يصعد القلب من الصدر، ويكون في الحنجرة من شدة الهول، البصر

يشخص إلى السماء من شدة الهول؛ ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [إبراهيم:٤٢]، لابد لنا أن نلاقي هذا اليوم؛ ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [النور:٣٧].

فهؤلاء الذين يعمرون المساجد، ويترددون عليها، ويعمرونها بذكر الله، وبأداء الصلوات الخمس، هؤلاء يخافون هذا اليوم، فإذا خافوا، وأعدوا له العدة من طاعة الله، وتركوا محارم الله، فإن الله يؤمنهم من الخوف في هذا اليوم؛ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام:٨٢]، فلا أمن يوم القيامة من أهواله وعذابه، لا أمن إلا بطاعة الله والإيمان به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وأما من ضيع طاعة الله، وكفر بالله، فليس له أمن، ليس له أمن في يوم القيامة، من أشرك بالله، وكفر بالله، فإنه ليس له أمنٌ، ليس له أمنٌ أبدًا، وأما من أدى طاعة الله، وأخلص العبادة لله، ولم يشرك بالله، فله الأمن؛ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ﴾ [الأنعام:٨٢].

وأما المؤمن الذي يحصل منه معاص، ولم يتب منها، فإنه لا يحصل له الأمن الكامل، الأمن الكامل إنما يحصل لأهل الإيمان الكامل، أما أهل الإيمان الناقص، فيحصل لهم أمن ناقص، والذين ليس عندهم إيمان لا يحصل لهم أمنٌ أبدًا؛ ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [النور:٣٧].

تنبهوا -وفقنا الله وإياكم- لهذا اليوم وملاقاته؛ ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء:٨٨، ٨٩]، ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس:٣٤-٣٧].

وفقنا الله وإياكم لصالح القول والعمل، ورزقنا وإياكم طاعته في كل زمان وفي كل مكان.

نسأله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أن يثبتنا وإياكم وجميع المسلمين على دين الإسلام، وأن يحفظنا وإياكم وجميع المسلمين بالإسلام، وأن يعيذنا وإياكم وجميع المسلمين من الفتن المضلة والأهواء المضلة، وأن يرزقنا وإياكم البصيرة في دينه، والعلم النافع والفقه في دينه والعمل الصالح.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

الصلوات المفروضة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

حديثنا اليوم عن الركن الثاني من أركان الإسلام -بعد أن تكلمنا في الجلسة الماضية عن الركن الأول-؛ للارتباط العظيم بين هذين الركنين.

الركن الثاني هو الصلاة؛ الصلاة المفروضة، الصلوات الخمس في اليوم والليلة، هذه الصلوات العظيمة التي خصها الله بمنزلة عنده، لم تنلها بقية العبادات، ما عدا الركن الأول وهو التوحيد.

الصلاة -يا عباد الله- لها أهمية عظيمة في الإسلام، وذلك لعدة أمور:

أولًا: أنها أول ما فرض الله بعد التوحيد، أول ما فرض الله من فرائض الإسلام بعد التوحيد هو الصلاة؛ كما قال صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لمعاذ بن جبل: «**إِنَّكَ تَأْتِي قَوْمًا مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ، فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوْهُمْ إِلَيْهِ شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُوْلُ اللهِ، فَإِنْ هُمْ أَجَابُوكَ لِذَلِكَ فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ**»(١).

ومما يدل على أهميتها أن الله فرضها على المسلمين ليلة المعراج، لما أُسري

---

(١) سبق تخريجه (ص٥٧).

بالنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى بيت المقدس، وعُرج به من هناك إلى السماء، فرض الله على رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الصلوات الخمس، وهو في السماء ليلة المعراج، بينما بقية الشرائع تنزل على الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو في الأرض بواسطة جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

الصلاة فُرِضت على النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في السماء ليلة المعراج، وكان ذلك قبل الهجرة، وصلاها النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصلاها أصحابه معه في مكة قبل الهجرة، بينما بقية أركان الإسلام فُرِضت بعد الهجرة في المدينة؛ مما يدل على أهمية هذه الصلوات الخمس.

ومما يدل على أهميتها: أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أمر ببناء المساجد لها، وشرع لها الأذان والإقامة، أمر ببناء المساجد؛ لأجل الصلوات الخمس، وشرع لها الأذان، وهو النداء لحضورها والإقامة؛ قال الله تعالى: ﴿فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ ۙ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [النور:٣٦، ٣٧]، ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ﴾، أي: يُصلى له -الله عَزَّ وَجَلَّ- في هذه المساجد ﴿رِجَالٌ﴾؛ لأن صلاة الجماعة واجبة على الرجال، أما النساء، فلا تجب عليهن صلاة الجماعة، فصلاتهن في بيوتهن أفضل، إنما هذا على الرجال، فالرجل لا يسعه أن يترك صلاة الجماعة وهو يقدر على حضورها؛ فإن ترك صلاة الجماعة وهو يقدر، فإنه يكون تاركًا لواجب عظيم، بل يرى بعض العلماء أنها لا تصح صلاته؛ لقوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ سَمِعَ النِّدَاءَ فَلَمْ يُجِبْ، فَلَا صَلَاةَ لَهُ، إِلَّا مِنْ عُذْرٍ**. قَالُوا: وَمَا الْعُذْرُ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: **خَوْفٌ أَوْ مَرَضٌ**»(١).

---

(١) سبق تخريجه (ص٧٤).

ومما يدل على أهمية الصلوات الخمس أنها لا تسقط عن المؤمن بحال من الأحوال، ما دام عقله ثابتًا، فإنها لا تسقط عنه، فلا تسقط عن أصحاب الأعذار، فالمريض يصلي حسب استطاعته، يصلي قائمًا، فإن لم يستطع فقاعدًا، فإن لم يستطع، فعلى جنب؛ كما في الحديث الصحيح(١).

فلا تسقط عن المريض ولو كان مرضه شديدًا، ما دام أن عقله موجود، فإنه يجب عليه الصلاة حسب استطاعته، فإن كان يقدر على القيام، صلاها قائمًا، فإن لم يستطع، صلاها جالسًا، فإن لم يستطع، صلاها على جنب، فإن لم يستطع، صلاها مستلقيًا ورجلاه إلى القبلة؛ كما في الحديث(٢).

إن كان يستطيع الطهارة بالماء، وجب عليه ذلك، وإن كان لا يستطيع الطهارة بالماء، فإنه يتيمم بالتراب، فإن كان ليس عنده ماء ولا تراب، فإنه يصلي على حسب حاله، ولو بدون وضوء وبدون تيمم، لا تسقط عنه الصلاة أبدًا.

وكذلك في السفر لا تسقط الصلاة عن المسافر، المسافر سبق لنا أنه يفطر في رمضان، ويقضي ما أفطره من رمضان، أما الصلاة، فلا، لابد أن يصلي في اثناء سفره، لكنه رُخِص له في قصر الصلاة الرباعية إلى ركعتين، قال الله سبحانه: ﴿ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُواْ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ ﴾ [النساء:١٠١]، فتصلى الرباعية ركعتين.

وإذا شق عليه كل صلاة في وقتها -على المسافر والمريض-، فإنهما يجمعان بين الصلاتين في وقت إحداهما؛ الظهر مع العصر، المغرب مع العشاء جمع تقديم أو جمع تأخير بحسب الاستطاعة، أو بحسب الأرفق بالمعذور.

---

(١) سبق تخريجه (ص٧٠).

(٢) سبق تخريجه (ص٧٠).

وكذلك لا تسقط الصلاة في حالة الخوف، في حالة الخوف مع العدو، حالة القتال، في حالة القتال لا تسقط الصلاة، قال تعالى: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓاْ﴾، هذا في حالة الجهاد في سبيل الله ﴿وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾ [النساء:١٠٢]، لم تسقط الصلاة في حالة الخوف، فدل على أن الصلاة لا تسقط عن المسلم بحال من الأحوال، لكنه يصليها بحسب استطاعته، قال تعالى: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا﴾ [البقرة:٢٣٨، ٢٣٩]، فإذا اشتد الخوف، فإنه لاتسقط عنه الصلاة، بل يصلي وهو يمشي أو يركض، أو وهو راكب على مركوبه، أو وهو يمشي على قدميه؛ ﴿فَرِجَالًا﴾، يعني: مشاة، ﴿أَوْ رُكْبَانًا﴾، يصلي إلى الجهة التي هو فارٌّ إليها، يسقط عنه استقبال القبلة للعذر، ويصلي راكبًا، إذا كان الركوب أسرع له في الهرب، يصلي وهو راكب، أو إذا كان يعدو على قدميه يصلي وهو يعدو، ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا﴾.

فالخوف على قسمين:

* خوف غير شديد، وهذا هو المذكور في سورة النساء؛ ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ﴾ [النساء:١٠٢]، إذا كان المسلمون مقابلين للعدو، متقابلين مع عدوهم، كل واحد يُتوقع أن ينقض على خصمه، لا تسقط الصلاة، إذا حانت الصلاة، تُصلي على الصفة التي شرعها الله سبحانه، وعلى ما بيَّنه الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

* أما إذا اشتد الخوف، فهذا هو المذكور في سورة البقرة؛ ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا﴾ [البقرة:٢٣٩]، فدل على أن الصلاة لا تسقط في حالة الخوف، سواء كان الخوف شديدًا أو غير شديد، فدل على مكانة الصلاة، وأنها لا تسقط عن المسلم بحال من الأحوال ما دام عقله ثابتًا، أما إذا زال عقله، إذا اختل عقله، ولم يبق معه عقل، فليس عليه شيء؛ لقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «رُفِعَ الْقَلَمُ عَنْ ثَلَاثٍ: عَنْ الصَّبِيِّ حَتَّى يَبْلُغَ، وَعَنْ الْمَجْنُونِ حَتَّى يُفِيقَ، وَعَنْ النَّائِمِ حَتَّى يَسْتَيْقِظَ»(١).

ومما يدل على مكانة الصلاة في الإسلام: أن تارك الصلاة متعمدًا يكفر؛ وذلك لقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «بَيْنَ الْعَبْدِ وَبَيْنَ الْكُفْرِ وَالشِّرْكِ تَرْكُ الصَّلَاةِ»(٢)، هذا في الصحيح، في صحيح مسلم، وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الْعَهْدُ الَّذِي بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ الصَّلَاةُ، فَمَنْ تَرَكَهَا فَقَدْ كَفَرَ»، وهذا الحديث مخرج في السنن(٣).

وفي القرآن، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عن أهل النار: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ﴾ [المدثر:٤٢، ٤٣]، أول إجابة: ﴿قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ﴾، يعني: لايصلون ولا يزكون، ﴿قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ﴾ [المدثر:٤٢-٤٦]، فقرن الله ترك الصلاة مع التكذيب بيوم الدين، والتكذيب بيوم الدين هذا ردة عن الإسلام بالإجماع، فكذلك ترك الصلاة؛ لأنهما ذُكِرا معًا.

---

(١) سبق تخريجه (ص٩٧).
(٢) سبق تخريجه (ص٧٧).
(٣) سبق تخريجه (ص٧٩).

ثم قال سبحانه: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ [المدثر:٤٨]، تارك الصلاة لا تنفعه شفاعة الشافعين، والذي لا تنفعه شفاعة الشافعين هو الكافر، قال تعالى: ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [غافر:١٨].

إنما تنفع الشفاعة العصاة من المؤمنين الذين معصيتهم دون الكفر، فدل على أن الصلاة كفرٌ لا تنفع تاركها شفاعة الشافعين.

وقال تعالى: ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ﴾ [التوبة:٥]، فدل على أن من لا يُصلي لا يُخلى سبيله.

وقال تعالى: ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾ [التوبة:١١]، فدل على أن الذي لا يصلي ليس من إخواننا في الدين، والذي ليس من إخواننا في الدين هو الكافر، فدل هذا على كفر تارك الصلاة الكفر الأكبر المخرج من الملة، هذه الصلاة.

وقد كانت الصلاة لها مكانة عند صحابة رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

قال عبد الله بن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَلْقَى اللهَ غَدًا مُسْلِمًا، فَلْيُحَافِظْ عَلَى هَؤُلَاءِ الصَّلَوَاتِ حَيْثُ يُنَادَى بِهِنَّ، فَإِنَّ اللهَ شَرَعَ لِنَبِيِّكُمْ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ سُنَنَ الْهُدَى، وَإِنَّهُنَّ مَنْ سُنَنَ الْهُدَى، وَلَوْ أَنَّكُمْ صَلَّيْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ كَمَا يُصَلِّي هَذَا الْمُتَخَلِّفُ فِي بَيْتِهِ، لَتَرَكْتُمْ سُنَّةَ نَبِيِّكُمْ، وَلَوْ تَرَكْتُمْ سُنَّةَ نَبِيِّكُمْ لَضَلَلْتُمْ، وَمَا مِنْ رَجُلٍ يَتَطَهَّرُ فَيُحْسِنُ الطُّهُورَ، ثُمَّ يَعْمِدُ إِلَى مَسْجِدٍ مِنْ هَذِهِ الْمَسَاجِدِ، إِلَّا كَتَبَ اللهُ لَهُ بِكُلِّ خَطْوَةٍ يَخْطُوهَا حَسَنَةً، وَيَرْفَعُهُ بِهَا دَرَجَةً، وَيَحُطُّ عَنْهُ بِهَا سَيِّئَةً، وَلَقَدْ رَأَيْتُنَا»، يقول عبد الله بن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «وَلَقَدْ رَأَيْتُنَا وَمَا يَتَخَلَّفُ عَنْهَا إِلَّا

مُنَافِقٌ مَعْلُومُ النِّفَاقِ، وَلَقَدْ كَانَ الرَّجُلُ يُؤْتَى بِهِ يُهَادَى بَيْنَ الرَّجُلَيْنِ حَتَّى يُقَامَ فِي الصَّفِّ»[(١)]. هذه مكانة الصلاة عند صحابة رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وفي الأثر: أن عبد الله بن شقيق العقيلي قال: «كَانَ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا يَرَوْنَ شَيْئًا مِنَ الأَعْمَالِ تَرْكُهُ كُفْرٌ غَيْرَ الصَّلَاةِ»[(٢)]، يعني: لم يكن من الأعمال شيء تركه كفر إلا الصلاة، الصحابة مجمعون على أن تارك الصلاة كافر خارج من الدين، وهذا في كتاب الله -كما سمعتم-، وفي سنة رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا شك فيه.

وقال تعالى: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ [القيامة:٣١، ٣٢]، فقرن ترك الصلاة مع التكذيب، وسماه توليًا عن الدين.

﴿وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾، يعني: ترك الصلاة، ﴿فَلَا صَدَّقَ﴾: هذا يقابله: كذب، ﴿وَلَا صَلَّىٰ﴾: هذا يقابله تولى، تولى عن الدين وأعرض عن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

فالأدلة صريحة في أن تارك الصلاة متعمدًا أنه كافر الكفر الأكبر المخرج من الملة، إلا أن يتوب إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ويحافظ على الصلاة؛ قال تعالى: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾ [البقرة:٢٣٨]، وقال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ﴾ [المؤمنون:٩، ١٠]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ فِي جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ﴾ [المعارج:٣٤، ٣٥].

فلابد من المحافظة على الصلوات كلها، أما الذي يصلي بعض الصلوات، ويترك بعضها، هذا مثل الذي ترك الجميع، من ترك صلاة واحدة متعمدًا حتى

---

(١) سبق تخريجه (ص٧٥).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٦٢٢).

خرج وقتها، فإنه يكفر بذلك، فعليه التوبة إلى الله، والدخول في الإسلام من جديد، فالصلاة شأنها عظيم، الصلاة شأنها عظيم.

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «رَأْسُ الْأَمْرِ: الْإِسْلَامُ، وَعَمُودُهُ: الصَّلَاةُ، وَذِرْوَةُ سَنَامِهِ: الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ»(١)، «وَعَمُودُهُ: الصَّلَاةُ»، فدل على أن الدين لا يقوم إلا على الصلاة؛ كما أن الخيمة والبيت لا يقوم إلا على العمود، فالذي ليس عنده صلاة لا يقوم له دين؛ كما أن من ليس عنده عمود لا يقوم له بنيان، ولا يقوم له خيمة ولا بيت يسكن فيه؛ لأن الصلاة هي عمود الإسلام، والعمود هو ما يقوم عليه الشيء، ما يقوم عليه البنيان، ليس هناك بنيان يقوم على غير عمود، فكذلك ليس هناك دين يقوم على غير صلاة.

فالصلاة أمرها عظيم ومكانتها عند الله عظيمة، وثوابها عظيم عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، قال تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت:٤٥]، فالذي يحافظ على صلاته تنهاه صلاته عن الفحشاء والمنكر، أما الذي يضيع صلاته، فإنه لا يبقى عنده ما ينهاه عن الفحشاء والمنكر.

ومما يدل على مكانة الصلاة في الإسلام أن الصلاة هي أول ما يحاسب عنه العبد يوم القيامة من أمور دينه، أول ما يحاسب عنه: الصلاة، فإن قُبلت، قُبل سائر عمله، وإن رُدَّت، رُدَّ سائر عمله؛ كما في الحديث(٢).

لكن بعض الناس أو كثيرًا من الناس المنتسبين إلى الإسلام لا تهمهم الصلاة؛ إما أنهم لا يصلون أصلًا، وهؤلاء لا شك في كفرهم بموجب الأدلة

---

(١) سبق تخريجه (ص٧٦).

(٢) سبق تخريجه (ص٧٧).

من القرآن والسنة، وإما أنهم يصلون بعض الصلوات ويتركون البعض الآخر، أو ربما إذا صاروا مع الناس صلوا، وإذا صاروا وحدهم تركوا الصلاة؛ كما قال: من رافق المصلين صلى، ومن رافق المولين ولى، بعض الناس يصلي بعض الصلوات، إذا صار مع الناس صلى، وإذا صار وحده أو خاليًا من الناس ترك الصلاة، هذا ليس له صلاة؛ الله جَلَّ وَعَلَا يقول: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ﴾ [البقرة:٢٣٨]، ﴿ٱلصَّلَوَٰتِ﴾، يعني: الصلوات الخمس، وقال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «خَمْسُ صَلَوَاتٍ كَتَبَهُنَّ اللهُ»، «كَتَبَهُنَّ»، يعني: فرضهن «عَلَى الْعِبَادِ»[١]، «فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ»[٢]، كلها مفروضة، كل الصلوات الخمس مفروضة، فلماذا يصلي بعضها ويترك بعضها؟! كلها مفروضة.

﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ﴾: على جميع الصلوات، ﴿وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾ [البقرة:٢٣٨]، خص الصلاة الوسطى -وهي العصر-؛ لأنها تجتمع فيها ملائكة الليل وملائكة النهار الحفظة، ويجتمعون في صلاة الفجر؛ ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء:٧٨]، ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ﴾: هو صلاة الفجر، سماها الله قرآنًا؛ لأنها تطول فيها القراءة، ﴿مَشْهُودًا﴾، يعني: محضورًا، تحضره ملائكة الليل وملائكة النهار الحفظة، ويحضرون -أيضًا- صلاة العصر كما جاء في الحديث[٣].

---

(١) أخرجه أحمد (٣٧/ ٣٦٦)، وأبو داود (١٤٢٠)، من حديث عبادة بن الصامت رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري (٤٦)، ومسلم (١١)، من حديث طلحة بن عبيد الله رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٣) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (٥٥٥)، ومسلم (٦٣٢)، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «يَتَعَاقَبُونَ فِيكُمْ مَلَائِكَةٌ بِاللَّيْلِ وَمَلَائِكَةٌ بِالنَّهَارِ، وَيَجْتَمِعُونَ فِي صَلَاةِ الْفَجْرِ وَصَلَاةِ الْعَصْرِ، ثُمَّ يَعْرُجُ الَّذِينَ بَاتُوا فِيكُمْ، فَيَسْأَلُهُمْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِهِمْ: كَيْفَ تَرَكْتُمْ عِبَادِي؟ فَيَقُولُونَ: تَرَكْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ، وَأَتَيْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ».

فهذه بعض اللمحات عن أهمية الصلاة ومكانتها في الإسلام، التي تساهل فيها كثير من الناس، حتى يقول بعضهم: الدين ليس صلاة، إذا قيل له: صلِّ؟ قال الدين ليس صلاة، يستهزئ. والله جَلَّوَعَلَا يقول عن الكفار: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ﴾ [المرسلات:٤٨]، وهذا مثلهم، إذا قيل له: صلِّ؟ يقول: لا، الدين ليس بصلاة، ويترك الصلاة -والعياذ بالله-، ما الفرق بينه وبين الذين: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات:٤٨، ٤٩]؟!

فلا يتساهل بالصلوات الخمس من في قلبه إيمان، وإذا تُرِكت الصلوات الخمس، لا يبقى من الدين شيء، جاء في الحديث: «**أَوَّلُ مَا تَفْقِدُونَ مِنْ دِينِكُمْ: الْأَمَانَةُ، وَآخِرُ مَا تَفْقِدُونَ مِنْهُ الصَّلَاةَ**»(١).

الصلاة هي وصية الرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ عند موته وهو يغرغر في سكرات الموت، إذا أفاق صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: «**الصَّلَاةَ، وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ**»، فَمَا زَالَ يَقُولُهَا، حَتَّى ثقل لِسَانُهُ عن النطق بها، حتى ثقل لسانه عن النطق بها، وهو يقول: «**الصَّلَاةَ، الصَّلَاةَ، وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ**»(٢).

إذا أردت أن تعرف قدر الإسلام عندك، فانظر إلى منزلة الصلاة عندك؛ فإذا كانت الصلاة لها منزلة في نفسك، فإن الإسلام له منزلة عندك، وإن كانت الصلاة رخيصة عندك، وليس لها منزلة، فالإسلام فليس له منزلة عندك؛ فهي

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (٧/ ٥٠٥)، والطبراني في الكبير (٩/ ١٤١)، من حديث ابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

(٢) أخرجه أحمد (٤٤/ ٨٤)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٨٨- ٣٨٩)، وابن ماجه (١٦٢٥)، عَنِ أُمِّ سَلَمَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا، قَالَتْ: «كَانَتْ عَامَّةُ وَصِيَّةِ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ عِنْدَ مَوْتِهِ: **الصَّلَاةَ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ**. حَتَّى جَعَلَ يُلَجْلِجُهَا فِي صَدْرِهِ وَمَا يُفِيضُ بِهَا لِسَانُهُ».

الميزان، وهي المقياس، وهي العلامة بين المسلم والكافر؛ كما قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الْعَهْدُ الَّذِي بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ: الصَّلَاةُ، فَمَنْ تَرَكَهَا فَقَدْ كَفَرَ**»[١].

نسال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يجعلنا وإياكم من المحافظين على صلواتهم، الدائمين على صلواتهم، ليس بالذين يصلون وقتًا ويتركون وقتًا آخر، بل يداومون عليها، يداومون مدى الحياة من حين يبلغ الرشد إلى أن يتوفاه الله، وهو محافظ على صلواته، هذا هو المسلم.

نسأل الله عَزَّوَجَلَّ أن يجعلنا وإياكم من المصلين المداومين على صلاتهم، المحافظين عليها، وأن يمن علينا بالتوبة، ويمن على الجميع بمعرفة الحق والعمل به. وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين.

---

(١) سبق تخريجه (ص٧٩).

الصلوات النوافل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

أما بعد:

فقد سبق الكلام في الدرس السابق عن الصلوات الخمس، ويكون كلامنا الآن عن صلوات النوافل؛ فإن كل فريضة من أركان الإسلام الخمسة لها نافلة من جنسها، الصلوات الخمس لهن نوافل من جنسهن، الزكاة لها نافلة، وهي صدقة التطوع، والصيام له نافلة، وهو صيام التطوع، الحج والعمرة لهما نوافل، وهو حج التطوع وعمرة التطوع، وذلك لأن المسلم بحاجة إلى الزيادة من الخير.

وأيضًا يكون في فرائضه التي أداها يكون فيها نقص، يعتريها نقص ونقص كثير، فهو بحاجة إلى النوافل؛ لأجل أن يكمل ما في الفرائض من نقص، ولا شك أن الفرائض هي الأصل، ولا تقبل النوافل إذا ضُيِّعت الفرائض.

وفي الحديث القدسي: أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يقول: «مَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُهُ عَلَيْهِ، وَلَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَلَئِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ

عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ المُؤْمِنِ، يَكْرَهُ المَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ»(١)، ولابد له منه.

الشاهد من هذا الحديث: أن أحب شيء إلى الله من العبادات هو الفرائض، أحب العبادات إلى الله: الفرائض، ثم من بعدها النوافل.

فالصلوات الخمس هناك نوافل من الصلوات، وهي على قسمين:

- سنن مؤكدة.
- وسنن مطلقة.

السنن المؤكدة: هي صلاة الكسوف، صلاة الكسوف سنة مؤكدة؛ لقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ آيَتَانِ مِنْ آيَاتِ اللهِ، يُخَوِّفُ اللهُ بِهِمَا عِبَادَهُ، وَإِنَّهُمَا لَا يَنْكَسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ، فَإِذَا رَأَيْتُمْ مِنْهَا شَيْئًا فَصَلُّوا، وَادْعُوا اللهَ حَتَّى يُكْشَفَ مَا بِكُمْ**»(٢)، وقد صلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صلا ة الكسوف، لما كسفت الشمس في عهده صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خرج إلى المسجد، يجر رداءه يخشى أن تكون الساعة، ثم صلى بأصحابه صلاة الكسوف جماعة(٣).

فأفضل صلوات النوافل ما تشرع له الجماعة مثل صلاة الكسوف.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٥٠٢)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري (١٠٥٧)، ومسلم -واللفظ له- (٩١١)، من حديث أبي مسعود الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (١٠٥٩)، ومسلم (٩١٢)، عَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: «خَسَفَتِ الشَّمْسُ، فَقَامَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَزِعًا، يَخْشَى أَنْ تَكُونَ السَّاعَةُ، فَأَتَى المَسْجِدَ، فَصَلَّى بِأَطْوَلِ قِيَامٍ وَرُكُوعٍ وَسُجُودٍ رَأَيْتُهُ قَطُّ يَفْعَلُهُ، وَقَالَ: هَذِهِ الآيَاتُ الَّتِي يُرْسِلُ اللهُ، لَا تَكُونُ لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلَا لِحَيَاتِهِ، وَلَكِنْ يُخَوِّفُ اللهُ بِهِ عِبَادَهُ، فَإِذَا رَأَيْتُمْ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ، فَافْزَعُوا إِلَى ذِكْرِهِ وَدُعَائِهِ وَاسْتِغْفَارِهِ».

* ثم صلاة الاستسقاء، صلاة الاستسقاء تشرع لها الجماعة، عندما يحصل الجدب وانحباس المطر، فإن الله جَلَّ وَعَلَا شرع لعباده صلاة الاستقساء؛ بأن يخرجوا إلى المصلى في الصحراء، ويصلوا ركعتين، يصلون ركعتين جماعة خلف الإمام، ثم يخطب خطبة واحدة يدعو فيها، وهم يؤمّنون كما فعل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ(١)، فصلاة الاستسقاء سنة مؤكدة عندما تجدب الأرض، وينحبس المطر.

* ثم صلاة التراويح؛ أيضًا صلاة التراويح تشرع لها الجماعة، فهي سنة مؤكدة، فعلها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأصحابه ليالي، ثم إنه تأخر عنهم خشية أن تفرض عليهم(٢)، وصلاها المسلمون بعد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ(٣)، ولا يزالون يصلون صلاة التراويح في المساجد في رمضان، فهي سنة مؤكدة.

---

(١) كما في الحديث الذي أخرجه أحمد (١٤/ ٧٣)، وابن ماجه (١٢٦٨)، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: «خَرَجَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمًا يَسْتَسْقِي، فَصَلَّى بِنَا رَكْعَتَيْنِ بِلَا أَذَانٍ وَلَا إِقَامَةٍ، ثُمَّ خَطَبَنَا وَدَعَا اللهَ وَحَوَّلَ وَجْهَهُ نَحْوَ الْقِبْلَةِ رَافِعًا يَدَيْهِ، ثُمَّ قَلَبَ رِدَاءَهُ فَجَعَلَ الْأَيْمَنَ عَلَى الْأَيْسَرِ وَالْأَيْسَرَ عَلَى الْأَيْمَنِ».

(٢) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (٩٢٤)، ومسلم (٧٦١)، عَنِ ابْنِ شِهَابٍ، قَالَ: أَخْبَرَنِي عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ، أَنَّ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أَخْبَرَتْهُ «أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، خَرَجَ مِنْ جَوْفِ اللَّيْلِ، فَصَلَّى فِي الْمَسْجِدِ، فَصَلَّى رِجَالٌ بِصَلَاتِهِ، فَأَصْبَحَ النَّاسُ يَتَحَدَّثُونَ بِذَلِكَ، فَاجْتَمَعَ أَكْثَرُ مِنْهُمْ، فَخَرَجَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي اللَّيْلَةِ الثَّانِيَةِ، فَصَلَّوْا بِصَلَاتِهِ، فَأَصْبَحَ النَّاسُ يَذْكُرُونَ ذَلِكَ، فَكَثُرَ أَهْلُ الْمَسْجِدِ مِنَ اللَّيْلَةِ الثَّالِثَةِ، فَخَرَجَ فَصَلَّوْا بِصَلَاتِهِ، فَلَمَّا كَانَتِ اللَّيْلَةُ الرَّابِعَةُ، عَجَزَ الْمَسْجِدُ عَنْ أَهْلِهِ، فَلَمْ يَخْرُجْ إِلَيْهِمْ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَطَفِقَ رِجَالٌ مِنْهُمْ يَقُولُونَ: الصَّلَاةَ، فَلَمْ يَخْرُجْ إِلَيْهِمْ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى خَرَجَ لِصَلَاةِ الْفَجْرِ، فَلَمَّا قَضَى الْفَجْرَ، أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ، ثُمَّ تَشَهَّدَ، فَقَالَ: **أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّهُ لَمْ يَخْفَ عَلَيَّ شَأْنُكُمُ اللَّيْلَةَ، وَلَكِنِّي خَشِيتُ أَنْ تُفْرَضَ عَلَيْكُمْ صَلَاةُ اللَّيْلِ فَتَعْجِزُوا عَنْهَا**».

(٣) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (٢٠١٠)، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَبْدٍ الْقَارِيِّ، أَنَّهُ قَالَ: =

* ثم صلاة الوتر، صلاة الوتر من الليل؛ لأن صلاة الوتر سنة مؤكدة، بعض العلماء يرى أنه واجب، وقد قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّ اللهَ وِتْرٌ يُحِبُّ الْوِتْرَ. أَوْتِرُوا يَا أَهْلَ الْقُرْآنِ**»(١)، حث صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على صلاة الوتر، وكان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يترك صلاة الوتر لا حضرًا ولا سفرًا، وأقل الوتر ركعة، وأكثره ثلاث عشرة ركعة، وأدنى الكمال ثلاث ركعات، هذا هو الوتر، ويكون بالليل، وإن صلى قبله من النوافل من صلاة الليل، قيام الليل، صلى قبل الوتر ما تيسر، فذلك خير، ويختم قيامه بالوتر، سواء من أول الليل أو من آخر الليل، وآخر الليل أفضل لمن يثق بقيامه، الوتر في آخر الليل أفضل لمن يثق بقيامه قبل طلوع الفجر، أما من لا يثق بقيامه، فإنه يوتر من أول الليل، وإن قُدِّر أنه يقوم آخر الليل، فيصلي ما تيسر، ويكتفي بالوتر الأول، يكتفي بالوتر الذي في أول الليل، وقد أوصى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أبا هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن يوتر قبل أن ينام؛ لأن أبا هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يسهر على حفظ الحديث، وينام في آخر الليل، فأوصاه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يوتر قبل أن ينام؛ محافظة على الوتر(٢).

= «خَرَجْتُ مَعَ عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَيْلَةً فِي رَمَضَانَ إِلَى المَسْجِدِ، فَإِذَا النَّاسُ أَوْزَاعٌ مُتَفَرِّقُونَ، يُصَلِّي الرَّجُلُ لِنَفْسِهِ، وَيُصَلِّي الرَّجُلُ فَيُصَلِّي بِصَلَاتِهِ الرَّهْطُ، فَقَالَ عُمَرُ: إِنِّي أَرَى لَوْ جَمَعْتُ هَؤُلَاءِ عَلَى قَارِئٍ وَاحِدٍ، لَكَانَ أَمْثَلَ. ثُمَّ عَزَمَ، فَجَمَعَهُمْ عَلَى أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ، ثُمَّ خَرَجْتُ مَعَهُ لَيْلَةً أُخْرَى، وَالنَّاسُ يُصَلُّونَ بِصَلَاةِ قَارِئِهِمْ، قَالَ عُمَرُ: نِعْمَ البِدْعَةُ هَذِهِ، وَالَّتِي يَنَامُونَ عَنْهَا أَفْضَلُ مِنَ الَّتِي يَقُومُونَ. يُرِيدُ آخِرَ اللَّيْلِ، وَكَانَ النَّاسُ يَقُومُونَ أَوَّلَهُ».

(١) أخرجه ابن ماجه (١١٧٠)، من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (١١٧٨)، ومسلم (٧٢١)، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «أَوْصَانِي خَلِيلِي بِثَلَاثٍ لَا أَدَعُهُنَّ حَتَّى أَمُوتَ؛ صَوْمِ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ، وَصَلَاةِ الضُّحَى، وَنَوْمٍ عَلَى وِتْرٍ».

ثم الرواتب التي مع الفرائض، الصلوات الرواتب التي مع الفرائض:

- ركعتان قبل الظهر، أو أربع ركعات قبل الظهر.
- ركعتان بعد الظهر، أو أربع ركعات بعد الظهر، وهذا أفضل.
- وركعتان بعد المغرب.
- وركعتان بعد صلاة العشاء.
- وركعتان قبل صلاة الفجر.

هذه هي السنن الرواتب التي مع الفرائض، هذه سنن مؤكدة لا ينبغي للمسلم أن يتركها، بل عليه أن يحافظ عليها مع الفرائض؛ كما وردت عن النبي صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ(١).

ومن الصلوات المستحبة: صلاة الضحى، ووقتها: ما بين ارتفاع الشمس قدر رمح إلى أن تتوسط الشمس في كبد الشمس قبيل الظهر، إلى أن تتوسط الشمس على الرؤوس قبيل الظهر، هذا وقت صلاة الضحى واسع، في أي وقت منه صلاها في أوله أو في وسطه أو في آخره، لكن تأخيرها إلى قبيل الظهر أفضل؛ لقوله صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**صَلَاةُ الْأَوَّابِينَ حِينَ تَرْمَضُ الْفِصَالُ**»(٢).

«**الْفِصَالُ**»: صغار الإبل.

«**تَرْمَضُ**»، يعني: يصيبها الرمضاء، حرارة الشمس، وذلك آخر الضحى،

---

(١) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (١١٨٠)، ومسلم (٧٢٩)، عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا قَالَ: «حَفِظْتُ مِنَ النَّبِيِّ صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ عَشْرَ رَكَعَاتٍ؛ رَكْعَتَيْنِ قَبْلَ الظُّهْرِ، وَرَكْعَتَيْنِ بَعْدَهَا، وَرَكْعَتَيْنِ بَعْدَ المَغْرِبِ فِي بَيْتِهِ، وَرَكْعَتَيْنِ بَعْدَ الْعِشَاءِ فِي بَيْتِهِ، وَرَكْعَتَيْنِ قَبْلَ صَلَاةِ الصُّبْحِ، كَانَتْ سَاعَةً لَا يُدْخَلُ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فِيهَا».

(٢) أخرجه مسلم (٧٤٨)، من حديث زيد بن أرقم رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

آخر الضحى هذا أفضل، وإن صلاها في أول الوقت إذا ارتفعت الشمس أو في وسطه، فالأمر واسع.

وأقل صلاة الضحى: ركعتان، وأكثرها: ثمان ركعات، كل ركعتين بسلام، يعني: أربع تسليمات.

- ثم ذوات الأسباب.

ذوات الأسباب مثل ركعتي الطواف، ركعتا الطواف إذا طاف المسلم بالبيت، سواء كان طواف فريضة كطواف العمرة وطواف الحج، أو نافلة كالطواف الزائد عن طواف العمرة أو طواف الحج، فإنه يصلي ركعتين بعد الطواف؛ لقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ لَا تَمْنَعُوا أَحَدًا طَافَ بِهَذَا الْبَيْتِ وَصَلَّى أَيَّةَ سَاعَةٍ شَاءَ مِنَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ**»(١)، وقد فعلها صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فإنه لما طاف بالبيت طواف العمرة أو طواف الحج، أتى عند مقام إبراهيم، وقرأ قوله تعالى: ﴿**وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى**﴾ [البقرة:١٢٥]، وجعل المقام بينه وبين الكعبة، ثم صلى ركعتين صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ(٢).

وكذلك من السنن ذوات الأسباب التي تفعل عند وجود أسبابها: تحية المسجد؛ لقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِذَا دَخَلَ أَحَدُكُمُ الْمَسْجِدَ، فَلَا يَجْلِسْ حَتَّى يَرْكَعَ رَكْعَتَيْنِ**»(٣)، تحية المسجد سنة مؤكدة لمن يريد الجلوس في المسجد، إذا دخله

---

(١) أخرجه أبو داود (١٨٩٤)، والترمذي (٨٦٨)، والنسائي في المجتبى (٥٨٥)، وابن ماجه -واللفظ له- (١٢٥٤)، من حديث جبير بن مطعم رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) حديث جابر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في صفة حج النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أخرجه مسلم (١٢١٨).

(٣) أخرجه البخاري (١١٦٣)، ومسلم (٧١٤)، من حديث أبي قتادة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

يريد الجلوس، فإنه يصلي ركعتين قبل الجلوس لأمره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أما إذا دخل المسجد مارًا أو لأخذ حاجة، ولا يريد الجلوس، فإنه لا يصلي ركعتين؛ لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**فَلَا يَجْلِسْ**»، فدل على أن تحية المسجد مشروعة في حق من يريد الجلوس.

ومن السنن -أيضًا- ذوات الأسباب، منها: سنة الوضوء، إذا توضأ المسلم، فإنه يستحب له أن يصلي ركعتين، تسميان سنة الوضوء؛ لحديث بلال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ فإن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أخبر أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دخل الجنة، فسمع صوت بلال يمشي أمامه في الجنة، فسأله، فقال: لا أعلم شيئًا إلا أنني كلما توضأت وضوءًا صليت بعده ركعتين(١)، فدل هذا على استحباب سنة الوضوء.

وكذلك من ذوات الأسباب: صلاة الجنازة، صلاة الجنازة فرض كفاية، إذا قام بها من يكفي، سقط الإثم عن الباقين، وإن تركها الكل، أثموا، لابد من صلاة الجنازة، لكن إذا صلى على الميت مسلم ولو واحد، فإنه يسقط الفرض، وتبقى في حق الباقين سنة أن يصلوا عليه، هذا معنى فرض الكفاية؛ فرض الكفاية هو الذي إذا فعله بعض المسلمين، سقط الإثم عن الباقين، وإن تركه الكل أثموا(٢).

---

(١) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (١١٤٩)، ومسلم (٢٤٥٨)، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لِبِلَالٍ عِنْدَ صَلَاةِ الْفَجْرِ: **يَا بِلَالُ، حَدِّثْنِي بِأَرْجَى عَمَلٍ عَمِلْتَهُ فِي الْإِسْلَامِ، فَإِنِّي سَمِعْتُ دَفَّ نَعْلَيْكَ بَيْنَ يَدَيَّ فِي الْجَنَّةِ**. قَالَ: مَا عَمِلْتُ عَمَلًا أَرْجَى عِنْدِي: أَنِّي لَمْ أَتَطَهَّرْ طُهُورًا فِي سَاعَةِ لَيْلٍ أَوْ نَهَارٍ، إِلَّا صَلَّيْتُ بِذَلِكَ الطُّهُورِ مَا كُتِبَ لِي أَنْ أُصَلِّيَ».

(٢) انظر: روضة الناظر (١/ ٥٨٤)، ومذكرة في أصول الفقه (ص٢٣٨)، ومعالم أصول الفقه عند أهل السنة والجماعة (ص٢٩٤).

وكذلك صلاة العيدين، صلاة العيدين فرض كفاية -أيضًا- عند الجمهور، فرض كفاية بمعنى أنه لابد من وجودهما، وإذا فعلهما بعض المسلمين في البلد، سقط الإثم عن الباقين، ويبقى في حق الباقين سنة.

فهذه كلها نوافل، منها ما هي نوافل مقيدة بأوقات أو بأسباب -كما بينا-، ومنها ما هي نوافل مطلقة، وأفضل النوافل المطلقة: صلاة الليل، أفضل النوافل المطلقة: صلاة الليل؛ لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رغب في صلاة الليل، وأيضًا هو صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان لا يترك صلاة الليل، حتى في السفر كان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يصلي بالليل وهو راكبٌ على راحلته أينما توجهت به؛ محافظة على صلاة الليل(١).

فينبغي للمسلم أن يجعل له نصيبًا من صلاة الليل ولو قلَّ، وإذا أكثر، فهو أفضل، لكن لا يفلس من صلاة الليل، خصوصًا في آخر الليل وقت النزول الإلهي إلى السماء الدنيا؛ كما صح في الحديث: «**يَنْزِلُ رَبُّنَا** تَبَارَكَ وَتَعَالَى **كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرُ، فَيَقُولُ: هَلْ مِنْ سَائِلٍ فَأُعْطِيَهُ؟ هَلْ مِنْ دَاعٍ فَأَسْتَجِيبَ لَهُ؟؟ هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ فَأَغْفِرَ لَهُ؟**»(٢).

فينبغي للمسلم أن يكون له نصيبٌ من صلاة الليل -ولو كان قليلًا-، يحافظ عليه، يحافظ عليه ولو قليل، أما أنه يجتهد في بعض الليالي، ويكثر من الصلاة في بعض الليالي، ثم يترك صلاة الليل، وينام، ولا يحافظ، فهذا لا ينبغي

---

(١) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (١٠٠٠)، ومسلم (٧٠٠)، عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: «كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُصَلِّي فِي السَّفَرِ عَلَى رَاحِلَتِهِ، حَيْثُ تَوَجَّهَتْ بِهِ يُومِئُ إِيمَاءً صَلَاةَ اللَّيْلِ، إِلَّا الفَرَائِضَ وَيُوتِرُ عَلَى رَاحِلَتِهِ».

(٢) أخرجه البخاري (١١٤٥)، ومسلم (٧٥٨)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

للمسلم، ينبغي ألا تمر ليلة إلا ويصلي صلاة الليل فيها، ولو كان قليلًا، يحافظ على صلاة الليل.

وصلاة الليل كما قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**صَلَاةُ اللَّيْلِ مَثْنَى مَثْنَى**»(١)، يعني: يُسلم من كل ركعتين، ويختم صلاته بالوتر؛ لقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اجْعَلُوا آخِرَ صَلَاتِكُمْ بِاللَّيْلِ وِتْرًا**»(٢)، فيختم بالوتر.

أما الوتر فلا ينبغي له أن يتركه، سنة مؤكدة، لكن إذا قدم قبله صلاة من صلاة الليل، فهذا أفضل، وإلا على الأقل الوتر لا يتركه، يصليه كل ليلة؛ لأنه سنة مؤكدة، بعض العلماء يرى أنه واجب؛ لأمر النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وتأكيده على ذلك.

فينبغي للمسلم أن يحافظ على هذه النوافل، فإذا حافظ عليها مع الفرائض، فإنه يحصل على خير كثير من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

يحافظ على هذه النوافل؛ لأنها زيادة خير له في ميزان حسناته يوم القيامة، ولأنها تُكمل بها الفرائض، ولأنها تسبب محبة الله لعبده؛ «**وَلَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ**»(٣)، فهي سببٌ لنيل العبد محبة الله له، وهذا فضلٌ عظيم؛ لأن بعض الناس يزهد في النوافل، ويقول: ما دامت ليست واجبة، فأنا لا أفعلها، إذا حافظت على الفرائض، يكفي، بعض الناس يقول هكذا.

نعم، إذا حافظ على الفرائض يكفي، ولكن هو بحاجة إلى النوافل؛ لكثرة ذنوبه، ولكثرة سيئاته؛ ولأنه يعتري الفرائض نقصٌ كثير، فلابد أن يكون له

---

(١) أخرجه البخاري (٤٧٢)، ومسلم (٧٤٩)، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.
(٢) رواية مسلم للحديث السابق (٧٥١)، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.
(٣) سبق تخريجه (ص١٣٥).

رصيد من النوافل يُكمل به ما نقص من الفرائض، فصلوات النوافل فيها خيرٌ كثير، ولهذا قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أم المؤمنين لرجلٍ: «لا تَدَعْ قيامَ الليلِ؛ فإنَّ رسولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان لا يَدَعُهُ، وكان إذا مَرِضَ -أو قالت: كَسِلَ-، صلَّى قاعدًا»[1]. وفي رواية أخرى عنها، قالت: «بلغني عن قومٍ يقولون: إنْ أدَّيْنا الفرائضَ لم نبالِ ألَّا نزدادَ، ولعَمري، لا يسألهم اللهُ إلَّا عمَّا افترضَ عليهم، ولكنَّهم قومٌ يُخطئون بالليل والنَّهارِ، وما أنتم إلا من نبيِّكم، وما نبيُّكم إلَّا منكُم، واللهِ ما تركَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قيامَ الليل»[2]، كان إذا مرض صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أو كسل، صلى قاعدًا، ولا يترك صلاة الليل، ولو يصليها وهو قاعد من حرصه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على قيام الليل، مع أنه قد غُفِر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، لكنه كان يقوم الليل حتى تفطرت قدماه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من طول القيام، فقيل له: لم تفعل هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: «**أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا؟!**»[3].

فإذا كان الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو قد غُفِر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر لا يترك قيام الليل، فكيف بنا نحن المقصرون المفرطون؟! كيف بنا وسيئاتنا كثيرة، وتساهلنا حتى في الفرائض تساهلنا كثيرًا حتى في الفرائض؟!

فنحن بحاجة إلى الإكثار من النوافل؛ لتكون رصيدًا لنا عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء:٨٨، ٨٩].

---

(١) أخرجه أحمد (٤٣/ ٢١٨)، وأبو داود (١٣٠٧).
(٢) انظر: لطائف المعارف (ص٨٩).
(٣) أخرجه البخاري (١١٣٠)، ومسلم (٢٨١٩)، من حديث المغيرة بن شعبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وفق الله الجميع لما يحب ويرضى.

ونسأله سبحانه أن يوفقنا وإياكم للعلم النافع والعمل الصالح، والفقه في دينه، وأن يعلمنا ما ينفعنا، وينفعنا بما علمنا.

اللهم أرنا الحق حقًّا وارزقنا اتباعه، وارنا الباطل باطلًا، وارزقنا اجتنابه.

اللهم حبب إلينا الإيمان وزينه في قلوبنا، وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان، واجعلنا من الراشدين.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

الصوم عن المحرمات

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين، أما بعد:

﴿ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة:١٨٨]، مناسبة هذه الآية -والله أعلم- لآيات الصيام: أنه إذا كان الصائم يمسك عن أكل المباحات في نهار الصيام؛ طاعة لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فإنه يجب عليه أن يمسك عن الحرام دائمًا وأبدًا، فكما أنه يصوم عن المباحات، فإنه يجب أن يصوم عن المحرمات، فقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم ﴾، المراد من ﴿أَمْوَٰلَكُم ﴾، أي: أموال بعضكم بعضًا، ليس من المحرم على الإنسان أنه يأكل من ماله الخاص، لكن يأكل مال غيره، ونسبه إلى المخاطبين؛ لأنه يجب احترام أموال الناس كما يحترم وكما يحافظ على ماله هو، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ [النساء:٢٩]، أي: لا يقتل بعضكم بعضًا.

﴿ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم ﴾، أي: ولا يأكل بعضكم أموال بعض بغير الطرق الشرعية.

﴿ بِٱلْبَٰطِلِ ﴾: والباطل المراد به: غير الطرق الشرعية من بيع أو شراء أو هبة أو ميراث، الطرق الشرعية، يباح ما حصل عليه الإنسان من الأموال بالطرق الشرعية.

أما الطرق المحرمة فإن أموال الناس حرام؛ سواء أخذها عن طريق الغصب والقوة والنهب، أو أخذها عن طريق السرقة، أو أخذها عن طريق المعاملات المحرمة، المعاملات المحرمة كالغش، الخديعة والخيانة في المعاملات حرام هذا، أو أخذها عن طريق الربا، الربا من أشد المحرمات، أشد الخبائث، اقبح الكسب الربا، وكذلك أخذها بطريق الرشوة، وهي المال الذي يُقدم للمسؤولين، للموظفين؛ من أجل أن يعطوه حقوق الناس، بواسطة الموظف، أو القاضي، أو الحاكم، أو مدير الدائرة؛ من أجل أن يعطيه حقوق الناس، أو أن يقدمه على غيره بإنجاز معاملاته، وتأخير معاملات الناس الذين قبله.

فالرشوة هي ما يُدفع للموظفين؛ من أجل أن يحابوا مع الراشي، هذه هي الرشوة، وهي سحت؛ ﴿أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ﴾ [المائدة:٤٢]، يعني: الرشوة، فهي سحت ومال حرام، وقد «لَعَنَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الرَّاشِيَ وَالْمُرْتَشِيَ وَالرَّائِشَ»(١)، وهو الذي يسعى بينهما، ثلاثة ملعونون في الرشوة؛ لأنها تفسد المجتمع، الرشوة تفسد المجتمع، وتعطل الأحكام، وتجرئ الفسقة، وتهين الأخيار، الأخيار الذين لا يدفعون الرشوة يُهانون، وتضيع حقوقهم، والفسقة الذين يدفعون الرشوة يقدمون، ويحصلون على مطالبهم، فهي تفسد المجتمع، وهي مال حرام، لعن الله دافعها، ولعن الله آخذها، ولعن الله من يسعى بين الراشي والمرتشي؛ مما يدل على شناعة الرشوة.

وكذلك أخذ المال بطريقة الميسر والقمار، الميسر هو القمار، وهو المراهنات، الجوائز التي تؤخذ على المراهنات والمسابقات هذه ميسر، إلا ما استثناه النبي

---

(١) أخرجه أحمد (٣٧/ ٨٥)، والطبراني في الكبير (٢/ ٩٣)، والحاكم في المستدرك (٤/ ١١٥)، من حديث ثوبان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الجوائز على المسابقات، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَا سَبْقَ**»، والسبق المراد به الجائزة، «**لَا سَبْقَ**»، يعني: لا يحل السبق «**إِلَّا فِي نَصْلٍ، أَوْ خُفٍّ، أَوْ حَافِرٍ**»[(١)]، يعني: المسابقة على الرماية، النصل المراد به السهم، أخذ الجوائز على الرماية، الذي يفوز في الرماية يأخذ جائزة، أو الخف وهو السباق على الإبل، أو الحافر وهو السباق على الخيل، هذه الثلاث؛ لأن هذه من أدوات الجهاد في سبيل الله، ومن التدرب على الجهاد التدرب على الرماية، التدرب على ركوب الإبل، التدرب على ركوب الخيل، هذه من وسائل الجهاد في سبيل الله، فيباح أخذ الجوائز للفائز فيها.

وألحق بعض العلماء الجوائز التي تؤخذ على المسابقات في العلوم الشرعية، المسائل الشرعية؛ تطرح جائزة: من أجاب على كذا، من حفظ من القرآن كذا وكذا، من حفظ من الأحاديث، من الفقه كذا وكذا يُعطى جائزة.

هذا أباحه بعض العلماء إلحاقًا بما ذكره النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأن تعلم العلم الشرعي من الجهاد في سبيل الله، فيجوز هذا؛ لأنه من الجهاد في سبيل الله.

أما ما عدا هذه الأمور الأربعة، فلا يجوز أخذ الجوائز عليها، وهي الميسر، وهي القمار المحرم، وكل هذه الأمور من أكل المال بالباطل.

وكذلك -وهو سبب نزول هذه الآية-، كذلك أخذ أموال الناس بالخصومات الفاجرة عند القضاة، يغرر بالقاضي، ويزور عليه؛ حتى يظهر أنه

---

(١) أخرجه أحمد (٢٦/ ١٢٩)، وأبو داود (٢٥٧٤)، والترمذي (١٧٠٠)، والنسائي في المجتبى (٣٥٨٥)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

محق في دعواه، فيحكم له لقاضي على ما يظهر منه؛ لأن القاضي لا يعلم الغيب، وإنما يحكم على الظاهر، فإذا تعمد الشخص أن يأخذ مال غيره بطريق الخصومة عند المحاكم، ويزور البينات والشهود من أجل أن يغرر بالقاضي، فإنه يحرم عليه هذا المال؛ قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ وَإِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ، وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ أَلْحَنَ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ، فَأَقْضِي عَلَى نَحْوِ مَا أَسْمَعُ، فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ مِنْ حَقِّ أَخِيهِ شَيْئًا، فَلَا يَأْخُذْهُ فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنَ النَّارِ»[(١)].

فالخصومة الباطلة -وإن حكم بها القاضي- لا تبيح مال الناس، فلايجوز للإنسان أن يخاصم عند المحكمة وعند القاضي إلا إذا كان محقًّا في دعواه، صادقًا في دعواه، أما إذا كان كذابًا ويريد أخذ أموال الناس بحكم القاضي، القاضي الذي لا يعلم الغيب، ولا يدري عن التزوير، فإن حكم القاضي لا يبيح له الحرام، ولابد أن تعاد الخصومة يوم القيامة عند أحكم الحاكمين، فينتصر للمظلوم من الظالم، وتؤدى الحقوق إلى أهلها يوم القيامة عند رب العالمين، وليس هناك أموال.

الدنيا يمكن إذا ظلمت أحدًا وأخذت ماله، ترد عليه المال، أما الآخرة ليس هناك مال ترده، من أين ترده؟ من الحسنات، يؤخذ من حسنات الظالم، فتُعطى للمظلوم، وهو أحوج ما يكون في ذاك الموقف إلى الحسنة الواحدة؛ لينجو بها من النار، فتؤخذ حسناته، ثم يُطرح في النار -والعياذ بالله-؛ كما جاء في الحديث[(٢)].

---

(١) أخرجه البخاري (٧١٦٨)، ومسلم (١٧١٣)، من حديث أم سلمة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا.

(٢) كما في الحديث الذي أخرجه مسلم (٢٥٨١)، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ =

فيدخل في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ ﴾ دخولًا أوليًّا الخصومات الكاذبة المزورة بالحجج الباطلة، ولهذا قال: ﴿وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ ﴾، هذا يحتمل معنيين:

المعنى الأول: ﴿وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ ﴾ المراد به: الرشوة التي تُدفع للحاكم من أجل أن يحكم للراشي بحق غيره.

والمعنى الثاني: ﴿وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ ﴾ أي: بالحجج والبينات الباطلة، فالقاضي لا يعلم الغيب، فيحكم على الظاهر، ويأخذ المحكوم له مال الناس بغير حق.

والآية عامة: ﴿ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ ﴾ [البقرة:١٨٨]، يشمل كل المكاسب المحرمة، كل المكاسب المحرمة تدخل في الباطل، الباطل معناه الذاهب، الذاهب الذي لا حقيقة له، هذا هو الباطل الذي لا حقيقة له، ويدخل في ذلك الخصومات بالباطل، ولهذا قال: ﴿وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ ﴾ [البقرة:١٨٨].

انظر! قال: ﴿مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ ﴾، ليس مالك، مال الناس وإن كنت احتلت عليه وأخذته، فهو مال غيرك، وليس لك؛ ﴿لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ ﴾ [البقرة:١٨٨]،

= قَالَ: «أَتَدْرُونَ مَنِ الْمُفْلِسُ؟ قَالُوا: الْمُفْلِسُ فِينَا يَا رَسُولَ اللهِ مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ وَلَا مَتَاعَ، قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: الْمُفْلِسُ مِنْ أُمَّتِي مَنْ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاتِهِ وَصِيَامِهِ وَزَكَاتِهِ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا فَيَقْعُدُ فَيَقْتَصُّ هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْتَصّ مَا عَلَيْهِ مِنَ الخَطَايَا أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَ عَلَيْهِ ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ».

فالذي يأخذ المال بطريق الخصومة الفاجرة هذا أخذ أموال الناس، وحكم الحاكم لا يحل له الحرام، ولا يجعل المال مالًا له، وإنما هو مال غيره.

﴿لِتَأْكُلُوا۟ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:١٨٨]، تتعمدون هذه الطرق الخبيثة والمكاسب المحرمة، فهذا فيه التحذير لكل مسلم في أن يحذر من المكاسب المحرمة.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟﴾ ليس المراد خصوص الأكل، وإنما يعم أخذ أموال الناس، سواء أكلها، أو شربها، أو لبسها، أو بنى بها بيوتًا، أو جعلها أرصدة له في البنوك، كل يسمى أكل، وإنما عبر بالأكل؛ لأنه أغلب وجوه الانتفاع، وإلا فالآية عامة في كل تمول أموال الناس بغير حق وبغير طريق شرعي.

وجاء في الحديث الصحيح أن أكل الحرام يمنع قبول الدعاء، حتى في حالة الضرورة؛ كما في الحديث عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الرجل يطيل السفر، النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول في الحديث الصحيح: «**أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ اللهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا، وَإِنَّ اللهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ، فَقَالَ:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا﴾ [المؤمنون:٥١]، **وَقَالَ:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ [البقرة:١٧٢]، **ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ، يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ، يَا رَبِّ، يَا رَبِّ، وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ، وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ، وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ، وَغُذِيَ بِالْحَرَامِ، فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ؟**»(١)، لا يستجاب له، ما دام يأكل الحرام لا يستجاب له دعاء، معناه: أنك ليس لك صلة بالله عَزَّوَجَلَّ، انقطعت الصلة بينك وبين الله،

(١) أخرجه مسلم (١٠١٥)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

إذا دعوت في الصلاة، لا يقبل، إذا دعوت في الطواف، لا يقبل، إذا دعوت في السعي، لا يقبل، إذا دعوت في حالة الضرورة، لا يقبل دعاءك، لا يقبل دعاءك حتى يكون مطعومك طيبًا؛ ﴿كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا﴾ [المؤمنون:٥١]، والطيبات معناها: الحلال، حلالًا طيبًا، ففي جميع الدعوات لا يقبل دعاءك؛ في الصلاة وهي أعظم صلة بينك وبين الله، ولا في طوافك، ولا في سعيك، ولا في ركوعك، ولا في سجودك، ولا في أي حالة، ولا في حالة الضرورة، لا يقبل لك دعاء، الصلة منقطعة بينك وبين الله عَزَّوَجَلَّ بسبب أكلك للحرام.

فعلى المسلم أن يتوب إلى الله، على من يستعمل الحرام أن يتوب إلى الله، ويرجع إلى الله، ويرد أموال الناس إليهم، ويطلب منهم المسامحة، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ كَانَتْ لَهُ مَظْلَمَةٌ لِأَخِيهِ مِنْ عِرْضِهِ أَوْ شَيْءٍ، فَلْيَتَحَلَّلْهُ مِنْهُ الْيَوْمَ، قَبْلَ أَنْ لَا يَكُونَ دِينَارٌ وَلَا دِرْهَمٌ**»، يعني: يوم القيامة، «**إِنْ كَانَ لَهُ عَمَلٌ صَالِحٌ أُخِذَ مِنْهُ بِقَدْرِ مَظْلَمَتِهِ، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ لَهُ حَسَنَاتٌ أُخِذَ مِنْ سَيِّئَاتِ صَاحِبِهِ فَحُمِلَ عَلَيْهِ**»(١).

فعلى المسلم أن يتوب إلى الله، وأن يقتنع ويقنع بالكسب الحلال، ولو كان قليلًا، الكسب الحلال -ولو كان قليلًا- فيه بركة وفيه خير، إن أكلته، نفعك، وإن تصدقت به، يُقبل منك، وإن ورثته لورثتك، تؤجر عليه.

أما المال الحرام، فإن أكلته، تغذيت بالسحت، وإن تصدقت منه، لم يُقبل، وإن مت وتركته، صار حسابه عليك، ونفعه لغيرك -ولا حول ولا قوة إلا بالله-، وكان زادك إلى النار؛ كما في الحديث(٢).

---

(١) أخرجه البخاري (٢٤٤٩)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٢) كما في الأثر الذي أخرجه أبو داود في الزهد (ص٣٩٨-٣٩٩)، وأبو نعيم في الحلية =

نسأل الله عَزَّوَجَلَّ أن يغنينا بحلاله عن حرامه، وأن يكفينا بفضله عمن سواه، وأن يقنعنا بالحلال، وأن يباعدنا من الحرام، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله واصحابه أجمعين.

= (٥/ ٢١١)، عَنْ خَالِدِ بْنِ مَعْدَانَ، قَالَ: «شَرُّ أَمْوَالِكُمْ، مَا لَا تَرَاهُ وَلَا يَرَاكَ وَحِسَابُهُ عَلَيْكَ، وَنَفْعُهُ لِغَيْرِكَ».

الصيام فضائل وأحكام

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

نسأل الله أن يتقبل صلاتنا وصيامنا وجميع أعمالنا، وأن يغفر لنا ذنوبنا وخطايانا وتقصيرنا وما أسأنا؛ فإننا ظالمون.

نستغفر الله ونتوب إليه، مقصرون في حق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، نسأله أن يغفر زلتنا، ويكفر خطايانا بمنه وفضله وإحسانه؛ فإنه كريم جواد، وأن يجعل لنا من هذا الشهر أوفر نصيب من الخير والقبول، وأن يجعل هذا الشهر منطلقًا لنا إلى الخير في بقية أعمارنا.

يكون حديثنا في هذه الجلسة -إن شاء الله- عن فضائل الصيام.

بعد أن تكلمنا في الجلسات السابقة على شيء من أحكام الصيام، فإننا في هذه الجلسة نبين فضائل الصيام.

الصيام عبادة عظيمة، ولذلك جعله الله ركنًا من أركان الإسلام، وأوجبه في الكفارات، وشرعه في غير ذلك من التطوعات، فالصيام عبادة عظيمة، يتميز على سائر العبادات بمميزات عظيمة، منها:

أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ اختصه لنفسه من بين سائر الأعمال، فقال سبحانه: «الصَّوْمُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ، تَرَكَ شَهْوَتَهُ وَطَعَامَهُ مِنْ أَجْلِي، وَلَخُلُوفُ فَمِ الصَّائِمِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللهِ مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ، وَلِلصَّائِمِ فَرْحَتَانِ: فَرْحَةٌ عِنْدَ إِفْطَارِهِ، وَفَرْحَةٌ عِنْدَ لِقَاءِ رَبِّهِ»[(١)]، فهذا الحديث العظيم بين فيه صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن الله عَزَّ وَجَلَّ أن الله قال: «الصَّوْمُ لِي»، بمعنى أن الإخلاص في الصوم أكثر من غيره، وإلا فكل الأعمال الصالحة كلها لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولكن الصيام من بين سائر الأعمال له خاصية في أنه سرٌّ بين العبد وبين ربه، لا يطلع عليه إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، الأعمال الأخرى تُرى، يراها الناس، الذي يصلي الناس يرون صلاته، الذي يتصدق الناس يرون صدقته، والذي يدعو الناس يسمعون دعاءه، الذي يحج ويعتمر الناس يدرون عن حجه وعمرته، لكن الصائم لا أحد يدري عنه؛ تجد الصائم والمفطر على حد سواء، لا يتميز هذا عن هذا، الصيام سر، سرٌّ في القلب لا يعلمه إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولهذا قال تعالى: «تَرَكَ شَهْوَتَهُ وَطَعَامَهُ مِنْ أَجْلِي»، فالصائم يترك محبوباته ومستلذاته التي قد يكون في أشد الحاجة إليها، قد يكون عطشان شديد العطش، وعنده الماء البارد، ولا يراه أحد، فلا تمتد يده إلى الشراب، والناس لا يرونه، لو شرب الناس لا يدرون عنه، ولكنه يترك ذلك لله عَزَّ وَجَلَّ، قد يكون جائعًا شديد الجوع، وعنده الطعام الشهي، وقد يكون خاليًا عن الناس، وعنده الطعام وهو جائع، ولا تمتد يده للطعام، يتركه لله عَزَّ وَجَلَّ، بل إنه لو ضُرِب وأُلزم بالأكل والشرب، فإنه لا يقبل ويصبر على الضرب، يصبر على الضرب ولا يفطر.

---

(١) سبق تخريجه (ص١٠٦).

هذا سر الصيام أنه سرٌّ بين العبد وبين ربه عَزَّوَجَلَّ؛ لأنه مكونٌ من نية باطنة لا يعلمها إلا الله، وهو تركٌ للشهوات، والترك أيضًا خفي، الترك خفي لا يراه الناس بخلاف الفعل؛ فإن الناس يرونه، من الذي يدري الناس أنك تركت الشراب لله عَزَّوَجَلَّ، وأنك تركت الطعام لله عَزَّوَجَلَّ، وأنك تركت زوجتك لله عَزَّوَجَلَّ، من الذي يدري عن هذا إلا الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

فهذا -والله أعلم- معنى قوله تعالى: «**الصَّوْمُ لِي**».

وقيل: معناه: أن الصيام لا يصام إلا لله في جميع الخلق، حتى المشركون والكفار لا يصومون للأصنام، لم يذكر أنهم يصومون للأصنام، ولا يصومون للقبور والأضرحة، لم يذكر هذا، بينما يذبحون للقبور والأضرحة والأصنام، ويسجدون لها، ويدعونها ويستغيثون بها، أما الصيام فلم يذكر في أول التاريخ ولا في حديثه أن أحدًا يصوم لغير الله عَزَّوَجَلَّ، قيل: هذا معنى قوله تعالى: «**الصَّوْمُ لِي**» في أنه لم يتقرب بالصوم لغير الله في جميع الخلق، لا يصومون لغير الله عَزَّوَجَلَّ، «**الصَّوْمُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ**».

وقيل: معنى «**الصَّوْمُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ**»: أن أعمال العبد يوم القيامة -انتهبوا لهذا!-، أن أعمال العبد الصالحة يوم القيامة قد تؤخذ للغرماء، يأتي الإنسان عنده أعمال صالحة، ولكنه كان قد ظلم الناس في أموالهم، أو في أعراضهم، أو في دمائهم، فيقتص لهم من أعماله يوم القيامة، وقد لا يبقى له حسنة واحدة يأخذها غرمائه يوم القيامة؛ كما قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ كَانَتْ عِنْدَهُ لِأَخِيهِ مَظْلَمَةٌ مِنْ عِرْضٍ أَوْ مَالٍ فَلْيُحْلِلْهُ مِنْهُ فِي الدُّنْيَا قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَيْسَ هُنَاكَ دِينَارٌ وَلَا دِرْهَمٌ**»، يعني: في يوم القيامة، «**فَإِنْ كَانَتْ لَهُ حَسَنَاتٌ أُخِذَتْ مِنْ حَسَنَاتِهِ**»، فأعطيت

للمظلومين، «وَإِنْ لَمْ تَكُنْ لَهُ حَسَنَاتٌ أُخِذَ مِنْ سَيِّئَاتِ صَاحِبِهِ فَحُمِلَ عَلَيْهِ»[١]، فطرحت عليه، فطرح في النار، فالأعمال يأتي عليها القصاص للمظلومين يوم القيامة، يأخذون حقوقهم من أعمالك إلا الصيام، الصيام لاسبيل لأحدٍ عليك؛ يحفظه الله للصائم، ولا يأخذه المظلومون، فهذا معنى قوله: «الصَّوْمُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ»، في أنه لا أحد يأخذ منه يوم القيامة، وإنما يوفره الله لصاحبه، ويجازيه به، ويدخله به الجنة. قد تذهب أعماله الأخرى للغرماء، ويبقى الصوم له، فيدخله الله به الجنة، فهذا -والله أعلم- معنى قوله: «الصَّوْمُ لِي»، يعني: ليس للغرماء عليه سبيل، ولا للمظلومين يوم القيامة عليه سبيل، بل إنه يدخره الله لصاحبه، ولو أُخِذت حسناته الأخرى، فإن الله يدخر الصوم له، ويدخله به الجنة، فهذا فيه فضل الصيام.

أيضًا من فضائل الصيام: أنه لا تحديد لمضاعفته، الأعمال تُضاعف؛ «الحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ» إلى أضعاف كثيرة، إلا الصيام فإنه لاينحصر تضعيفه عند الله؛ لأنه من الصبر، والصبر كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر:١٠]، ولهذا يسمى شهر رمضان شهر الصبر، فالصيام لا يقدر أجره بأضعاف مثل غيره من الأعمال الأخرى، بل يوفي الله أجر الصائمين بغير حساب، فهذا من فضائل الصيام.

ومن فضائل الصيام: ما جاء في هذا الحديث: أن الصائم له فرحتان[٢]:

* واحدة في الدنيا حينما يفطر، إذا كان جائعًا وعطشان ومحتاجًا إلى

---

(١) سبق تخريجه (ص١٥١).

(٢) سبق تخريجه (ص١٠٦).

زوجته، يفرح عند الإفطار أن الله أباح له هذه الأشياء، فبلا شك النفس البشرية تميل إلى ما يلائمها، وإلى ما تشتهي، فيفرح الإنسان، يفرح عند فطره بما أباح الله له من الرزق الذي كان ممنوعًا منه في أثناء الصيام، طبيعة البشر أنه يفرح بذلك، هذا فرحه في الدنيا وهذا شيء نجده في أنفسنا، نحن نفرح إذا جاء الإفطار، أليس كذلك؟! الصائم يفرح إذا جاء الإفطار، يفرح أنه يشرب ويأكل وينبسط، وهذا فرحٌ محمود؛ لأنه فرح بفضل الله، الله جَلَّوَعَلَا يقول: ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [يونس:٥٨]، وكذلك يفرح الصائم عند الفطر، يفرح بأنه صام هذا اليوم، ويرجو ثوابه، يفرح؛ لأنه أدى هذه العبادة وأكملها، فهو يرجو ثوابها عند الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، هذا فرحه في الدنيا.

* **أما فرحه في الآخرة:** فحينما يلقى جزاء صيامه الذي ليس له حد عند الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، يفرح بذلك يوم القيامة، إذا وجد الثواب والأجر الذي ليس له حد على صيامه الذي صامه في الدنيا حينما يقال للصائمين: ﴿ كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴾ [الحاقة:٢٤]، يعني: في الدنيا، تركتكم شهواتكم في الدنيا؛ طاعة لله عَزَّوَجَلَّ، فالآن يعطيكم الله من النعم ومما تشتهون، ويقال لهم: ﴿ كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ ﴾، يعني: بسبب ما قدمتم ﴿ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴾، أي: الماضية؛ أيام الدنيا، فيفرح الصائم عند ذلك، عند لقاء ربه عَزَّوَجَلَّ.

ومن فضائل الصيام -كما في هذا الحديث-: أن خلوف فم الصائم، والخلوف: هو النفَس؛ نفَس الصائم.

لا شك أنه إذا خلت المعدة من الطعام والشراب، يتصاعد منها أبخرة رائحتها كريهة عند الناس، ولكنها لما كانت هذه الرائحة من أثر الطاعة وأثر

العبادة، صارت عند الله أطيب من ريح المسك، أفخر الأطياب في الدنيا هو المسك، ريح نفس الصائم أطيب عند الله من ريح المسك، لماذا وإن كنا نكرهها نحن؟ لأنها ناشئة عن طاعة الله عَزَّوَجَلَّ، والآثار التي تنشأ عن طاعة الله تكون محبوبة عند الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وإن كانت مكروهة عند الناس في الدنيا؛ مثلًا: الشهيد الذي يُقتل في سبيل الله يأتي يوم القيامة يثعب دمًا، جراحه التي جُرِحت في الدنيا يأتي يوم القيامة على صورته يوم استشهاده، يوم أن يجرح، يثعب دمًا، اللون لون الدم، والريح ريح المسك(١)، لماذا كان هذا الدم؟ الدم نحن نكرهه في الدنيا، لكن لما كان هذا الدم من أثر الشهادة في سبيل الله، صار محبوبًا عند الله، وصار له مظهر في الآخرة يتميز به الشهيد، يأتي يوم القيامة وجرحه يثعب دمًا لونه لون الدم، وريحه ريح المسك، ولهذا الشهيد لا يُغسل(٢)؛ لتبقى عليه آثار الشهادة، وتبقى عليه دماؤه التي نزفت في طاعة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، ويُدفن بها حتى يأتي بها يوم القيامة، فيفرح بها، ويمتاز بها عند الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

وكذلك غبار الجهاد في سبيل الله، غبار المعركة في سبيل الله ورد أنه يكون ذريرة أهل الجنة(٣)، يعني: طيب أهل الجنة، نحن نكره الغبار، لكن إذا كان الغبار هذا ناشئًا عن الجهاد في سبيل الله، فإنه يكون طيبًا لأهل الجنة يوم القيامة،

---

(١) سبق تخريجه (ص١١١).

(٢) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (١٣٤٧)، عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: «أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ كَانَ يَجْمَعُ بَيْنَ الرَّجُلَيْنِ مِنْ قَتْلَى أُحُدٍ فِي ثَوْبٍ وَاحِدٍ، ثُمَّ يَقُولُ: **أَيُّهُمْ أَكْثَرُ أَخْذًا لِلْقُرْآنِ؟** فَإِذَا أُشِيرَ لَهُ إِلَى أَحَدِهِمَا، قَدَّمَهُ فِي اللَّحْدِ، وَقَالَ: **أَنَا شَهِيدٌ عَلَى هَؤُلَاءِ**. وَأَمَرَ بِدَفْنِهِمْ بِدِمَائِهِمْ، وَلَمْ يُصَلِّ عَلَيْهِمْ، وَلَمْ يُغَسِّلْهُمْ».

(٣) سبق تخريجه (ص١١١).

فهذا معنى قوله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فيما يرويه عن ربه: «**وَلَخُلُوفُ فَمِ الصَّائِمِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللهِ مِنْ رِيحِ المِسْكِ**»، فدل على فضل الصيام الذي هذه آثاره، أثرها أطيب عند الله من ريح المسك، إذًا هو كيف يكون؟! هو عملٌ جليل، فهذا فيه فضل الصيام.

ومن فضائل الصيام: أن الله خصص للصائمين بابًا من أبواب الجنة يقال له: الريان، يدخل منه الصائمون، ولا يدخل منه غيرهم، فإذا دخلوا، أُغلق[1]، باب الريان من أبواب الجنة هذا مخصص للصائمين يدخلون منه.

هذه بعض فضائل الصيام ما حضرنا منها.

نسأل الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أن يتقبل منا ومنكم صيامنا وقيامنا، وأن يعيننا على طاعته، على ذكره وشكره وحسن عبادته!

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

---

(١) سبق تخريجه (ص١١٣).

إنما الأعمال بالنيات

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين، أما بعد:

العبادات كلها لا تصح إلا بنية؛ لقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى**»[1]، كل العبادات لا تصح إلا بالنية، وتكون النية خالصة لوجه الله عَزَّوَجَلَّ، والنية محلها القلب، ولا يتلفظ بها؛ فلا يقول: اللهم نويت إني أصوم هذا اليوم، أو يقول: اللهم إني نويت أن أصلي، أو يقول: اللهم إني نويت أن أطوف بالبيت سبعة أشواط. هذا كله من البدع؛ لم يكن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يتلفظ بالنية عند العمل، ولم يكن صحابته يفعلون ذلك، وإنما هذا شيء حدث متأخرًا، صار بعض الناس يتلفظون بالنية عند بداية الأعمال، وهذا زيادة على ما شرعه الله، النية تكفي في القلب، والله يعلم ما في القلوب ولو لم تتلفظ، الله يعلم ما في قلبك ولو لم تتلفظ؛ ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [آل عمران:١٥٤]، ﴿قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحجرات:١٦].

لا يحتاج إلى التلفظ بالنية، وإنما يكفي استحضارها بالقلب عند بداية العبادة، ومنها الصيام، وهذا في صوم الفرض، صوم الفرض لا يصح إلا إذا

(١) سبق تخريجه (ص٩٦).

نويته قبل الفجر، سواء كان صيام رمضان، أو كان صيام كفارة، أو صيام نذر نذرته، كل صوم واجب فلابد فيه من النية قبل الفجر؛ لئلا يمضي وقت من النهار بدون نية، ولو كان قليلًا، هذا معنى قوله ﷺ: «**من لم يبيت النية من الليل**»، وفي الرواية الأخرى: «**قبل الفجر**»[1]، يعني: ليس بلازم أن تنوي من أول الليل، لو أنك بت ليس عندك نية صوم، ولكنك نويت عند الفجر، أجزأ هذا، ويكفي، هذا يكفي، المهم أنه لا يطلع الفجر إلا وأنت قد نويت الصيام، هذا في الفريضة، في كل صوم واجب لابد أن تنويه قبل الفجر؛ حتى تكون النية مصاحبه له من أوله إلى آخر، إلى أن تغرب الشمس، وتكون النية من بداية الصيام إلى نهايته، هذا صوم الفرض، فلو أنك في أثناء النهار نويت الإفطار، بطل صيامك، لو أنك في أثناء النهار وأنت صائم رمضان أو غير رمضان من الكفارات نويت الإفطار، بطل صيامك؛ لأنك قطعت النية، ومرَّ وقت وأنت بدون نية، فلو عزمت بعد ذلك، لا ينفع، ما دام قطعت النية، بطل الصيام، لابد أن تستمر النية معك إلى غروب الشمس؛ حتى يكون الصوم كله بنية من أوله إلى آخره، هذا معنى أنه إذا لم يبيت أو لم ينو قبل الفجر أنه لا صيام له، أي: أن صيامه باطل، هذا نفيٌ للصحة.

«فَلَا صِيَامَ لَهُ»، يعني: يكون صيامه باطلًا، إذا مضى منه وقت بدون نية، سواء كان من أوله، أو من وسطه، أو من آخره، فلابد أن تكون النية من قبل طلوع الفجر إلى أن تغرب الشمس، وأنت باق على نية صيامك؛ لأنه عبادة، والعبادات لا تصح إلا بالنية.

---

(١) سبق تخريجه (ص٩٦).

وكذلك تكون النية خالصة لله عَزَّوَجَلَّ، فلو أنك نويت غير الله بعملك، فإنه باطل، لو نويت الرياء والمدح من الناس والثناء من الناس، أو صمت بقصد دنيوي؛ من أجل أن تعطي من الدنيا، إذا رآك الناس صائمًا، أعطوك، هذا قصدك، فهذا صيام لغير الله عَزَّوَجَلَّ، صيام يقصد به الرياء، أو يقصد به طمع الدنيا.

وكذلك في سائر الأعمال يجب أن تكون الأعمال خالصة لوجه الله عَزَّوَجَلَّ؛ ﴿فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ [الزمر:٢]، ﴿فَٱدْعُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [غافر:١٤]، ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البينة:٥]، والإخلاص: أن يكون عملك لوجه الله، لا تقصد به غير وجه الله، لا تقصد به طمعًا من طمع الدنيا، أو تقصد به رياء، أو تقصد به سمعة من أجل أن يثني الناس عليك أو يمدحوك، أو يكون لك منزلة عندهم، هذا كله عملٌ باطل؛ لأنه لغير وجه الله عَزَّوَجَلَّ.

فيجب على المسلم أن يستحضر هذا الأمر العظيم: أن يخلص أعماله كلها لله عَزَّوَجَلَّ، لا يجعل فيها لأحد شريكًا؛ فإن الله سبحانه يقول في الحديث: «أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنْ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْته وَشِرْكَهُ»(١)، وفي رواية: «فَأَنَا بَرِيءٌ مِنْهُ، وَهُوَ لِلَّذِي أَشْرَكَ»(٢).

وهذا في كل الأعمال تكون خالصة لوجه لله عَزَّوَجَلَّ، هذا شرط لصحة العمل وقبوله: أن يكون خالصًا لوجه الله؛ فإن الله لا يقبل من الأعمال والأقوال إلا ما كان خالصًا لوجهه.

---

(١) سبق تخريجه (ص٩٢).
(٢) سبق تخريجه (ص٩٢).

والشرط الثاني: أن يكون هذا العمل صوابًا على سنة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ ليس فيه بدعة ولا شيء محدث، وإنما يكون موافقًا لسنة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [الملك:٢]، ﴿ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾، لم يقل: أيكم أكثر عملًا، وإنما قال: ﴿ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾؛ لأن العبرة بحسن العمل، وليست العبرة بكثرة العمل، ﴿ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾، ما معنى: ﴿ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾؟ قالوا: معناه: أخلصه وأصوبه؛ أخلصه: أن يكون خالصًا لوجه الله عَزَّ وَجَلَّ، وأصوبه: أن يكون صوابًا على سنة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[1]، فإن العمل إذا لم يكن خالصًا لله، لا يُقبل، وكذلك إذا كان خالصًا لوجه الله، ولكنه على غير سنة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإنه لا يُقبل -أيضًا-، لا يُقبل حتى يكون خالصًا صوابًا، وهذا كما في قوله تعالى: ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة:١١٢]، هذان الشرطان: ﴿ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ ﴾: هذا الإخلاص، يعني: أخلص نيته وعمله لله، ﴿ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ أي: متبع للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

هذا هو العمل الذي يُقبل عند الله؛ إذا كان خالصًا، وكان صوابًا، فإنه يُقبل عند الله عَزَّ وَجَلَّ، ﴿ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة:١١٢]، فإن اختل شرط من هذين الشرطين، فإن عمله يكون باطلًا، ومن ذلك: الصيام، يصوم بنية خالصة لوجه الله عَزَّ وَجَلَّ.

وروت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أم المؤمنين أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دخل بيته ذات يوم، فقال: «هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ شَيْءٍ؟ -يعني: طعام- قُلْنَا: لَا. قَالَ: فَإِنِّي إِذَنْ

---

(١) سبق تخريجه (ص٩٢).

صَائِمٌ»، فهو صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم ينو الصيام إلا بعد أن دخل في النهار، وطلب الطعام ولم يجده، فقال: «**فَإِنِّي إِذَنْ صَائِمٌ**»، هذا دليل على أن الصيام يصح بنية من النهار، ولو لم ينوه قبل الفجر، فكيف تجمع بينه وبين حديث حفصة السابق؟

الجمع: أن حديث حفصة هذا في صوم الفرض، وأما حديث عائشة، فهو في صوم النافلة، فالنافلة أمرها واسع، يجوز أن تصوم بنية من النهار، بشرط ألا تكون قد أكلت أو شربت بعد طلوع الفجر، فإذا أصبحت وأنت لم تأكل ولم تشرب، ولم تتناول مفطرًا، ثم نويت الصيام في أثناء النهار، صح، هذا في صوم النافلة، ودليله هذا الحديث؛ أن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم ينوه إلا بعد أن لم يجد في بيته شيئًا من الطعام، نوى الصيام صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وصح ذلك منه؛ لأن هذا نافلة، فصيام النافلة يصح بنية من النهار، ولو لم تنوه من الليل، ولو لم تنوه عند الفجر، تقول عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: ودخل ذات يوم، فأخبرناه أن عندنا كذا وكذا من الطعام، فقال: «**أَرِينِيهِ، فَلَقَدْ أَصْبَحْت صَائِمًا. فَأَكَلَ**»[1] أكل منه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

هذا دليل -أيضًا- على أن صوم النافلة يجوز للإنسان أن يقطعه، وأن يفطر، يجوز أن يقطعه وأن يفطر؛ لأنه صوم نافلة ليس بواجب؛ إن شاء استمر وأكمله، وإن شاء قطعه؛ فإن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قطع صومه، وأكل من الطعام، فدل على أن صوم النافلة الإنسان بالخيار؛ إن شاء استمر وأكمله، وإن شاء أفطر ولا حرج عليه في ذلك، هذا فرق ما بين صيام النافلة وصيام الفريضة.

---

(١) أخرجه مسلم (١١٥٤)، عَنْ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: «دَخَلَ عَلَيَّ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَاتَ يَوْمٍ، فَقَالَ: **هَلْ عِنْدَكُمْ شَيْءٌ؟** فَقُلْنَا: لَا، قَالَ: **فَإِنِّي إِذَنْ صَائِمٌ**. ثُمَّ أَتَانَا يَوْمًا آخَرَ فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ، أُهْدِيَ لَنَا حَيْسٌ/ فَقَالَ: **أَرِينِيهِ، فَلَقَدْ أَصْبَحْتُ صَائِمًا**. فَأَكَلَ».

صيام الفريضة: لابد أن ينوى قبل الفجر، وأن تستمر النية إلى غروب الشمس، ولا يقطعه.

أما صوم النافلة: فيجوز فيها الأمران، يجوز أن يصوم، وينوي بعد الفجر، ويجوز له أن يقطعه إذا أراد، ولا حرج عليه في ذلك، ولا يقضيه.

إذا أفطر في صوم النافلة، فإنه لا يقضيه، إنما القضاء في صوم الفريضة خاصة، فيجب على المسلم أن يعرف هذه الأمور حول النية في الصيام -صيام الفريضة، صيام النافلة-، ويفرق بينهما؛ كما فرقت الأدلة في ذلك.

فصوم النافلة أوسع من صوم الفريضة، وأما صوم الفريضة فهو لابد أن يكون بنية من طلوع الفجر إلى غروب الشمس، لا تنقطع النية حتى يكون صومه صحيحًا مجزئًا.

وعلى كل حال هذا يدل على أهمية النية في الأعمال، وأن العبرة بالنية والاتباع للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ليست العبرة بصورة الأعمال أو كثرة الأعمال، قد تكون أعمال كثيرة وهي غير صحيحة؛ إما لأن نية صاحبها غير خالصة لله، وإما أن تكون على غير سنة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، تكون مبتدعة لا دليل عليها من الكتاب والسنة، فتكون باطلة ولو كثرت. فالعبرة ليست بكثرة العمل أو صورة العمل، وإنما العبرة بالعمل الذي يكون خالصًا لوجه الله، سالمًا من الشرك والرياء والسمعة، ويكون صوابًا على هدي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، خاليًا من البدعة والإحداث في الدين ما ليس منه.

هذا والله أعلم.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين.

تفسير آيات الصيام ١

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين، أما بعد:

ما زلنا مع قوله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ﴾ [البقرة:١٨٧]، وقد انتهينا إلى قوله تعالى في هذه الآية: ﴿فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ ۚ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ۖ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾ [البقرة:١٨٧]، وقلنا: إن هذه الآية نزلت بعدما شُرِع الصيام في أول الأمر في فترة تشمل الليل والنهار ما عدا ما بين العشاءين، وكان المسلمون يفطرون ويأكلون ويشربون ما بين العشاءين -المغرب والعشاء-، ومن نام قبل صلاة العشاء، حرم عليه الأكل والشرب، هذا في أول الأمر، ولما شق ذلك على المسلمين، نسخه الله بهذه الآية؛ تخفيفًا عنهم، فهذا من نسخ الحكم الأثقل بالحكم الأخف.

والنسخ جائز في القرآن الكريم، ينسخ الله ما يشاء سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يشرع ما يشاء، ثم ينسخ ما يشاء؛ لأجل مصالح العباد.

لما كانت مصلحة العباد في أن يكون الصيام من الفجر إلى الليل، وتتاح لهم الفرصة في كل الليل الفطر، رحمهم الله سبحانه، فنقلهم من الصيام الطويل إلى

الصيام القصير، فقال: ﴿فَٱلۡـَٰٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ﴾، بعد نزول الآية: ﴿بَٰشِرُوهُنَّ﴾، أي: النساء اللاتي كنتم ممنوعين من مباشرتهن بعد العشاء.

﴿فَٱلۡـَٰٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ﴾؛ لأن كلًّا من الزوجين يحتاج إلى الآخر لقضاء وطره، شيءٌ أباحه الله جَلَّوَعَلَا للعباد لحاجتهم إليه.

﴿فَٱلۡـَٰٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ﴾، قلنا: إن الله سبحانه في القرآن يعبر عن الأشياء المستكرهة بألفاظ كنايات يحصل بها المقصود، فعبر عن الجماع بالمباشرة.

﴿فَٱلۡـَٰٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ وَٱبۡتَغُواْ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ﴾، ﴿مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ﴾، أي: ما قدره لكم، أو ما شرعه لكم، وهذا فيه فعل الأسباب، وأن الإنسان لا يتكل على ما كُتِب له، ويقول: المقدر حاصل، ويعطل الأسباب. لا، الله أمرنا باتخاذ الأسباب، وفي هذه الآية: ﴿وَٱبۡتَغُواْ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ﴾: اطلبوا، فهذا فيه فعل السبب، وأنه لا ينافي التوكل على الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ، ولا ينافي القضاء والقدر، بل إنه يتماشى مع القضاء والقدر، فلا يتكل الإنسان على ما كُتِب له في القدر، ويترك فعل الأسباب.

﴿وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ﴾: هذا أمر إباحة، هذا يسميه العلماء أمر الإباحة؛ لأن الأمر إذا جاء بعد حظر، فهو للإباحة، وهنا جاء الأمر بعد الحظر؛ لأنهم كانوا ممنوعين من الأكل والشرب بعد العشاء، ثم إن الله أمرهم أن يأكلوا ويشربوا إلى طلوع الفجر، فهذا أمر إباحة[1]؛ مثل قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [الجمعة:١٠]،

---

(١) انظر: الإحكام لابن حزم (٣/ ٣٦)، والعدة في أصول الفقه (٣/ ٧٨٥)، والمستصفى (ص٦١).

ومثل قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡتُلُواْ ٱلصَّيۡدَ وَأَنتُمۡ حُرُمٞ ﴾ [المائدة:٩٥]، ثم قال: ﴿ وَإِذَا حَلَلۡتُمۡ فَٱصۡطَادُواْ ﴾ [المائدة:٢]، هذا أمر إباحة.

﴿ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ ﴾، ﴿ وَكُلُواْ ﴾ مما أباح الله جَلَّوَعَلَا من الطعام، من الفواكه، ومما أباح الله من الأرزاق التي تحصل بأيديكم.

﴿ وَٱشۡرَبُواْ ﴾ من المباحات، من الأشربة المباحات، من كل شراب أباحه الله من الطيبات.

﴿ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلۡخَيۡطُ ٱلۡأَبۡيَضُ مِنَ ٱلۡخَيۡطِ ٱلۡأَسۡوَدِ مِنَ ٱلۡفَجۡرِ ﴾ [البقرة:١٨٧]، أي: حتى يطلع الفجر الثاني، وهو البياض المعترض في الأفق الذي لا يأتي بعده ظلام، هذا هو الفجر الثاني الذي يحرم على الصائم الطعام والشراب ومباشرة الأهل، طلوع الفجر. أما ما لم يطلع الفجر، فإن المسلم مباحٌ له أن يأكل ويشرب ويباشر أهله إلى آخر الليل؛ ولهذا قال صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «**إِنَّ بِلَالًا يُؤَذِّنُ بِلَيْلٍ، فَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يُؤَذِّنَ ابْنُ أُمِّ مَكْتُومٍ**»، وَكَانَ ابْنُ أُمِّ مَكْتُومٍ رَجُلًا أَعْمَى، لَا يُؤَذِّنُ حَتَّى يُقَالَ لَهُ: أَصْبَحْت، أَصْبَحْت»[1].

فهذا يوافق قوله تعالى: ﴿ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلۡخَيۡطُ ٱلۡأَبۡيَضُ مِنَ ٱلۡخَيۡطِ ٱلۡأَسۡوَدِ مِنَ ٱلۡفَجۡرِ ﴾ [البقرة:١٨٧]، فيباح الأكل والشرب والجماع إلى آخر لحظة من الليل، فإذا طلع الفجر وتبين، قال: ﴿ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ ﴾، فلابد أن يتبين الفجر بيانًا لا لبس فيه؛ ﴿ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلۡخَيۡطُ ٱلۡأَبۡيَضُ ﴾، وهو بياض النهار ﴿ مِنَ ٱلۡخَيۡطِ ٱلۡأَسۡوَدِ ﴾، وهو ظلام الليل ﴿ مِنَ ٱلۡفَجۡرِ ﴾.

---

(١) أخرجه البخاري (٦١٧)، ومسلم (١٠٩٢)، من حديث ابن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمَا.

فهذا فيه أن طلوع الفجر هو المحرم للأكل والشرب والجماع بالنسبة لمن يريد أن يصوم.

ويُعرف طلوع الفجر بالمشاهدة، ويُعرف بالأذان، إذا كان المؤذن يتقيد بطلوع الفجر، يتقيد بالتوقيت، فإنه يُعمل بأذانه، فإذا شرع في الأذان، يمتنع الأكل والشرب؛ لأن أذانه علامة على طلوع الفجر، ولهذا قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يُؤَذِّنَ ابْنُ أُمِّ مَكْتُومٍ**»، فإذا كان المؤذن حاذقًا عارفًا بالوقت، فإنه يُعمل بأذانه، ويُعتمد في الصيام.

وكذلك يستعان بالتقويم؛ التوقيت الذي يسمى بالتقويم، وهو الحساب الفلكي الذي يذكر وقت طلوع الفجر، يحدد وقت طلوع الفجر بالساعة والدقيقة، يُعمل به؛ لأنه قرينة على طلوع الفجر.

وكذلك يُعمل بالخبر -خبر الثقة-، إذا أخبره ثقة بأن الفجر قد طلع، فإنه يُمسك؛ لأن ابن أم مكتوم يعتمد على خبر المخبرين له؛ لأنه رجلٌ أَعْمَى، «لَا يُؤَذِّنُ حَتَّى يُقَالَ لَهُ: أَصْبَحْت، أَصْبَحْت»، فيعتمد على خبر المخبرين له.

هذه الأمور يعتمد عليها في معرفة طلوع الفجر:

أولًا: المشاهدة؛ إن كان يشاهد طلوع الفجر.

ثانيًا: أذان المؤذن.

ثالثًا: خبر الثقة.

رابعًا: تقويم الحساب الفلكي المحدد في النتائج اليومية.

فهذه الأمور يُعتمد عليها، منها ما هو قطعي مثل: مشاهدة الفجر، وخبر الثقة، ومنها ما هو قرينة قوية، فالصائم يعتمد على هذه الأمور.

﴿وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾ [البقرة:١٨٧]، فحينئذ يمتنع الأكل والشرب والمفطرات.

﴿ثُمَّ أَتِمُّواْ الصِّيَامَ إِلَى الَّيْلِ﴾، الصيام: الإمساك عن المفطرات مع النية؛ لقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى»(١).

هذا عامٌّ في جميع الأعمال والصيام خاصة، صيام الفرض ورد فيه دليل خاص؛ لقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا صِيَامَ لِمَنْ لَمْ يُجْمِعِ النية مِنَ اللَّيْلِ»(٢)، أو يعزم النية من الليل.

فالصيام هو الإمساك عن المفطرات مع النية من طلوع الفجر الثاني إلى غروب الشمس، ولابد أن تستمر النية إلى غروب الشمس -نية الصيام-، فلو نوى الإفطار في أثناء النهار، بطل صيامه -صيام الفرض-؛ لأنها عُدمت النية، ومضى جزء من النهار ليس فيه نية، فلو نوى الإفطار، أفطر حتى ولو لم يأكل ولم يشرب لانقطاع النية، فلو نوى الإفطار، ثم أراد أن يرجع إلى الصيام، وقال: أنا لن أفطر، أنا سأكمل، نقول: لا، أنت قطعت النية، فبطل صيامك، فلابد من قضاء هذا اليوم، إنما هذا في صيام النفل هو الذي يصح بنية من النهار، أما صيام الفرض فلا يجوز قطع النية فيه، بل لابد أن تستمر النية من طلوع الفجر إلى غروب الشمس مع الإمساك عن المفطرات.

وفي قوله تعالى: ﴿وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾ [البقرة:١٨٧] فائدة عظيمة، وهي: أن الإنسان له أن يجامع

(١) سبق تخريجه (ص٩٦).
(٢) سبق تخريجه (ص٩٦).

زوجته إلى أن يطلع الفجر، إذا طلع الفجر يُمسك؛ لأن الله حدد ذلك، قال: ﴿فَٱلْـَٔـٰنَ بَـٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُواْ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۚ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾ [البقرة:١٨٧]، فلو انتهى من معاشرة زوجته عند طلوع الفجر، فإن صيامه يصح، ولو لم يغتسل، فيصوم، يتسحر ويصوم، ثم يغتسل بعد طلوع الفجر.

أما إذا طلع الفجر وهو مع زوجته يباشرها، واستمر إلى ما بعد طلوع الفجر، ولم ينته إلى بعد طلوع الفجر، فإنه فسد صيامه؛ لأنه مضي جزءٌ من النهار وهو في حالة مع زوجته؛ كما لو تعمد الأكل والشرب بعد طلوع الفجر، فإن صيامه لا يصح، لو تعمد الأكل والشرب، وأكمل، قال: سأكمل إلى أن أشبع، وأنا لم أشرب الماء، سأشرب، وقد طلع الفجر، ثم أراد أن يستدرك.

نقول: لا، ما دام طلع الفجر، انتهى كل شيء، أمسك عن هذه الأمور.

قال: لم أستيقظ إلا متأخرًا، ولم أتسحر ولم أشرب.

نقول: انتهى، ليس هناك سحور الآن، وليس هناك شرب، إذا طلع الفجر، الله حدد لك هذا، ﴿فَٱلْـَٔـٰنَ بَـٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُواْ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۚ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ حَتَّىٰ﴾؛ لأن ﴿حَتَّىٰ﴾ غاية يخالف ما بعدها ما قبلها.

﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾؛ لأن بعض الناس وكثيرًا ما يسألون، يقول: والله أنا لم استيقظ إلا متأخرًا، وعندما استيقظت كنت جائعًا، فكيف أصوم وأنا جائع، عطشان، كيف أصوم وأنا لم أشرب الماء؟ نقول: فات الأكل والشرب بطلوع الفجر، فلا يجوز لك أن تأكل وتشرب، ولو

أنك جائع ولو أنك عطشان، أنت الذي فوت على نفسك هذا الشيء، الله حدد لك حدًا واضحًا لا لبس فيه، فلاتتعد حدود الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

فإذا طلع الفجر في رمضان أو في غير مضان لمن يريد الصيام، لمن يريد الصيام فرضًا أو نافلة، إذا طلع الفجر، انتهى وقت تناول الأكل والشرب وما في معناه.

لكن لو انتهى الفجر، لو طلع الفجر وهو عليه جنابة، حصل منه جماع في الليل، حتى ولو قرب الفجر، أو احتلم في الليل، ولم يستيقظ إلا قبيل طلوع الفجر بيسير، وقت يمكنه أن يتسحر فقط، نقول: ابدأ بالسحور، تسحر، كل واشرب، واجعل الاغتسال بعد الفجر، لا بأس بذلك؛ لأن الله جَلَّ وَعَلَا يقول: ﴿فَٱلْـَٔـٰنَ بَـٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۚ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾ [البقرة:١٨٧]، فكل واشرب، واجعل الاغتسال بعد الفجر، يصح الصيام ولو أنك لست على طهارة، الصيام لا تشترط له الطهارة، تسحر وكل واشرب، ثم بعد ذلك تغتسل، وهذا كان يفعله الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كان يدركه الفجر وهو جنب صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فيتسحر، ثم يغتسل بعد طلوع الفجر، هذا ثبت عن الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ(١).

ومثله الحائض: الحائض والنفساء إذا انقطع دمهما عند طلوع الفجر، فإنهما يتسحران ويتركان الاغتسال إلى ما بعد الفجر، الحائض والنفساء إذا طهرت عند الفجر، تبدأ بالسحور، وتنوي الصيام، ثم تغتسل عن الحيض وعن النفاس

---

(١) سبق تخريجه (ص٥).

بعد طلوع الفجر؛ لأن الاغتسال لا علاقة له بالصيام، والاغتسال للصلاة وليس للصيام.

﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِۖ ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ﴾ [البقرة:١٨٧]: هذا وقت الصيام: ما بين طلوع الفجر الثاني إلى غروب الشمس، والمراد بالليل: غروب الشمس.

النهار يبدأ بطلوع الفجر، والليل يبدأ بغروب الشمس، والصيام ما بين هذين الحدين؛ ما بين طلوع الفجر وغروب الشمس، ويؤخذ من هذا التحديد الإلهي المبادرة بالإفطار عند غروب الشمس، السُّنة أن الصائم يبادر بالإفطار إذا غربت الشمس، ولا يقل: أريد زيادة الأجر، سأصبر إلى صلاة العشاء، أو إلى منتصف ما بين العشاءين، سأصبر وزيادة أجر. نقول: لا، ليس لك أجر في هذا، هذا بدعة، هذا بدعة، إذا غربت الشمس، هذا هو الحد الفاصل؛ قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِذَا أَقْبَلَ اللَّيْلُ مِنْ هَهُنا، وَأَدْبَرَ النَّهارُ مِنْ هَهُنَا، وغَرَبَتِ الشَّمْسُ، فَقَدْ أَفْطَرَ الصَّائِمُ»(١).

«أَفْطَرَ»، انتهى، حتى ولو لم يأكل ولم يشرب، أفطر، انتهى الصيام.

فلا يقل: أريد زيادة أجر، وسأصبر إلى بعد ساعة، أو نصف ساعة، أو إلى صلاة العشاء. نقول: لا، هذا مخالف للسنة؛ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يروي عن ربه عَزَّ وَجَلَّ: «يَقُولُ اللهُ: إِنَّ أَحَبَّ عِبَادِي إِلَيَّ أَعْجَلُهُمْ فِطْرًا»(٢)، فإذا غربت الشمس، بادر بالإفطار؛ كما كان النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يبادر بذلك؛ بقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فَقَدْ أَفْطَرَ الصَّائِمُ»، وبفعله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فكان يفطر إذا غربت الشمس مباشرة.

---

(١) سبق تخريجه (ص٤٧).

(٢) سبق تخريجه (ص٤٧).

هذا لمن لا يريد الوصال، أما الذي يريد الوصال.

والوصال معناه: أن يصل صيامًا بصيام، ولا يفطر بينهما، هذا هو الوصال، يعني: يصوم يومين، ثلاثة، أربعة، أكثر بدون أن يفطر بين الأيام، هذا يسمى بالوصال، وكان النبي ﷺ يفعله، كان يواصل ﷺ، لكنه نهى أمته عن الوصال، قالوا: «**إِنَّك تُوَاصِلُ. قَالَ: إِنَّكُمْ لَسْتُمْ فِي ذَلِكَ مِثْلِي** -أو: **إِنِّي لَسْتُ كَهَيْئَتِكُمْ**-، **إِنِّي أَبِيتُ يُطْعِمُنِي رَبِّي وَيَسْقِينِي**»[(١)].

فهذا خاص بالرسول ﷺ، الوصال بين الأيام بالصيام هذا خاصٌ بالرسول ﷺ، فلا يجوز لأحدٍ أن يواصل أيامًا، ولا يفطر، ويقول: الرسول فعل هذا. نقول: نعم، الرسول ﷺ فعل هذا، لكنه خاصٌ به، ونهى الأمة عن الوصال، إلا أنه رخص بالوصال إلى السَّحر فقط، فقال: «**فَأَيُّكُمْ أَرَادَ أَنْ يُوَاصِلَ فَلْيُوَاصِلْ حَتَّى السَّحَرِ**»[(٢)]، من كان مواصلاً، وإلا الأفضل أنه لا يواصل، ولكن إن كان ولابد فليواصل إلى السَّحر، هذه رخصة لمن يريد الوصال أن يواصل إلى السَّحر، والأفضل أن يفطر عند غروب الشمس، هذا هو الأفضل، أما أنه يواصل اليومين والثلاثة، فهذا لا يجوز، هذا خاصٌ بالرسول ﷺ: «**إِنِّي لَسْتُ كَهَيْئَتِكُمْ، إِنِّي أَبِيتُ يُطْعِمُنِي رَبِّي وَيَسْقِينِي**»، والله أعلم ما هو هذا الطعام وهذه السقيا، الله أعلم بها لا ندري، هذا خاص بالرسول ﷺ.

فهذا تحديد الإفطار، وينبغي تأخير السحور إلى آخر الليل؛ ليكون آخر السحور عند طلوع الفجر؛ لأن هذا أقوى للصائم، ولأنه عملٌ بقوله تعالى:

---

(١) سبق تخريجه (ص٥٢).

(٢) سبق تخريجه (ص٥٣).

﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾ [البقرة:١٨٧]، والسنة تأخير السحور، وتعجيل الإفطار، هذه هي السنة تأخير السحور.

بعض الناس الآن يخالفون هذه السنة مع الأسف، يسهرون الليل، فإذا أقبل الفجر، أكلوا وشبعوا، ثم ناموا، وقد يتركون صلاة الفجر مع الجماعة، أو يؤخرونها عن وقتها، هذا يفعله بعض الناس الذين يسهرون الليل على أعمال الدنيا، أو على القيل والقال، واللهو واللعب، أو اليوم على مشاهدة الشاشات الفضائية وما يبث فيها، يسهرون، أو مع المسلسلات التي تبث الآن وشغلت الناس، يتابع هذه الأمور في الليل، ثم إذا انتهى، أو هو انتهى منها؛ لأن بعضها لا ينتهي ليل نهار، لكن هو انتهى منها يأكل ويشرب ويملأ بطنه، ويحتاط لبطنه، ثم ينام ويترك السحور عند طلوع الفجر، ويترك ما هو أشد وهو صلاة الفجر مع الجماعة، أو ما هو أشد وهو الصلاة في وقتها، ولا يصليها إلا في الضحى، وقد يضيع معها فرائض النهار -أيضًا-، فينام إلى غروب الشمس، لايقوم إلا للإفطار، هذه مصيبة، أي صيام هذا؟!! يصوم ويضيع الفرائض، الصلوات آكد من الصيام، الصلاة هي الركن الثاني من أركان الإسلام بعد الشهادتين، وهي عمود الإسلام، الصيام هو الركن الرابع، يضيع الصلاة ويصوم، أي صيام هذا؟!

الواجب على المسلم أن يتقي الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وأن يقف عند حدوده، وأن يؤدي فرائضه، ولا يتلاعب بدين الله عَزَّوَجَلَّ، لا يتلاعب بالدين، بل يعمل بالدين كما شرعه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

فالسحور ينبغي أن يؤخر إلى آخر الليل، وينتهي عند طلوع الفجر، النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يقول: «**تَسَحَّرُوا؛ فَإِنَّ فِي السَّحُورِ بَرَكَةً**»(١)، وسماه الغداء المبارك(٢)، السحور غداء مبارك؛ لأنه يستعان به على الصيام، على طاعة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

فينبغي للمسلم أن يفطن لهذا الأمر، ويتقيد به؛ حتى يكون صيامه وعباداته على الوجه المشروع؛ حتى ينتفع بها، ولا تكون تعبًا بدون فائدة.

نسأل الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أن يوفقنا وإياكم وجميع المسلمين لصالح القول والعمل، وأن يرزقنا وإياكم العلم النافع والعمل الصالح، والفقه في الدين، والعمل بالسنة، والابتعاد عن البدع والمحدثات.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

---

(١) سبق تخريجه (ص٥٣).

(٢) كما في الحديث الذي أخرجه أحمد (٢٨/ ٤٢٨)، والنسائي في المجتبى -واللفظ له- (٢١٦٤)، عَنْ المِقْدَامِ بْنِ مَعْدِ يكَرِبَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، قَالَ: «**عَلَيْكُمْ بِغَدَاءِ السُّحُورِ فَإِنَّهُ هُوَ الْغَدَاءُ الْمُبَارَكُ**».

تفسير آيات الصيام ٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على عبده ورسوله نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين، أما بعد:

ما زلنا في أحكام الصيام، ومع الآية الكريمة، وهي قوله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ﴾ [البقرة:١٨٧]، فقد بينا بعض ما يؤخذ من الأحكام من هذه الآية الكريمة، خصوصًا مفسدات الصيام التي تبطل الصيام، ويلزم معها القضاء، ويلزم مع بعضها الكفارة.

والآن نكمل هذا الموضوع في بيان أشياء يتساهل فيها كثير من الصائمين، ويظنون أنهم إذا تركوا الطعام والشراب والشهوة أن هذا هو الصيام، وينسون أن هناك أشياء تخل بالصيام يتساهل فيها كثير من الناس، وهي المعاصي.

المعاصي محرمة في كل وقت، وفيها إثم وعقوبة، ولكنها إذا حصلت من الصائم، فإنها تؤثر على صيامه، وقد تذهب بأجره، ولا يبقى له أجرٌ، وإنما يكون حظه من صيامه الجوع والعطش(١)، فينبغي التنبه لذلك؛ فإن كثيرًا من الناس يسهل عليه ترك الطعام والشراب والشهوة، ولكنه لا يسهل عليه ترك ما اعتاده من المخالفات الشرعية.

(١) سبق تخريجه (ص٣٦).

وقد شبه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الصيام بالجُنَّة، فقال: «**الصِّيَامُ جُنَّةٌ**»[1].

والجُنَّة: هي الشيء الذي يستتر به المقاتل من عدوه، الجُنَّة هي الشيء الذي يتخذه المقاتل ليدفع عنه سهام عدوه، فالصيام يشبه هذه الجنة في أنه يدفع عن الصائم الآثام، ويدفع عنه العقوبات، فإذا حافظ على صيامه، صار جنة واقية له من عذاب الله، وإذا لم يحافظ على صيامه من المخالفات، فإن هذه الجنة تتخرق، فلا تقيه من المحظورات.

قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الصَّوَمُ جُنَّةٌ مَا لَمْ يَخْرِقْهَا**»، قالوا: يا رسول الله! وكيف يخرقها؟ قال: «**بغيبة أو نميمة**»[2]، فيجب التنبه لذلك.

الصائم يجب عليه أن يصوم لسانه، وأن يصوم سمعه، وأن يصوم نظره، وأن يصوم سمعه عن المحرمات، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ لَمْ يَدَعْ**»، يعني: يترك «**قَوْلَ الزُّورِ، وَالْعَمَلَ بِهِ، وَالْجَهْلَ، فَلَيْسَ للهِ حَاجَةٌ فِي أَنْ يَدَعَ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ**»[3]، فيجب على الصائم أن يحفظ لسانه، وهذا واجب على المسلم في كل وقت أن يحفظ لسانه عن الكلام المحرم، ولكن الصائم أولى بذلك؛ لأن الكلام المحرم يفسد صيامه من ناحية أنه يذهب بأجره وثوابه، فلا يبقى له به أجره، إذا لم يحفظ لسانه عن الكلام المحرم من شتم وسباب وقول زور وغيبة ونميمة؛ قال الله سبحانه: ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [ق:١٨]، قال سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ

---

(١) سبق تخريجه (ص٣٥).
(٢) سبق تخريجه (ص٣٥).
(٣) سبق تخريجه (ص٣٥).

ذُنُوبَكُمْۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب:٧٠، ٧١]، ﴿وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا﴾: الإنسان لابد له أن يتكلم، ولكن لا يتكلم إلا بالكلام الذي يفيده -كذكر الله، والتسبيح، التهليل، تلاوة القرآن، الأمر بالمعروف، النهي عن المنكر، تعليم العلم النافع-، أو يتكلم بالكلام المباح الذي يحتاج إليه، يتكلم بالكلام المباح في حوائجه وطلباته مع الناس، ليس ممنوعًا أنه يتكلم في حوائجه مع الناس بالبيع والشراء والمعاملات وسؤال الناس عن الأشياء التي هو بحاجة إليها، ليس ممنوعًا من هذا، لكنه ممنوع من الكلام المحرم كالغيبة، الغيبة بيّنها الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقوله: «**ذِكْرُكَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُ**، قالوا: يَا رَسُولَ اللهِ، أَفَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ فِي أَخِي مَا أَقُولُ؟ قَالَ: **إِنْ كَانَ فِيهِ مَا تَقُولُ فَقَدِ اغْتَبْتَهُ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ مَا تَقُولُ فَقَدْ بَهَتَّهُ**»(١).

فالغيبة هي الكلام في أعراض الناس وهم غائبون عنك، ليسوا معك، تتكلم في أعراضهم بتنقصهم وبيان عيوبهم، وهم غافلون عنك، أنت لا تضرهم، وإنما تضر نفسك، أنت تهدي إليهم حسناتك، فإنك إذا تكلمت فيهم، فإنهم يأخذون يوم القيامة من حسناتك؛ لأنك ظلمتهم، ويوم القيامة لابد من القصاص، فيقتصون من أعمالك في مقابل ما تكلمت في أعراضهم.

الله جَلَّ وَعَلَا يقول: ﴿وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا فَكَرِهۡتُمُوهُۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٞ رَّحِيمٞ﴾ [الحجرات:١٢]، فصور سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الغيبة بأكل لحم الميت، ومن يطيق أنه يجلس على جثة أخيه ليأكل من

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٨٩)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

لحمه؟! هذا شيء تنفر منه الطباع، فالغيبة مثل أكل لحمه وهو ميت، ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾ [الحجرات:١٢]، هذا تنفير من الغيبة.

كثير من الناس لا ينتبهون للغيبة، بل لا يتفكهون في مجالسهم إلا بالغيبة؛ فلان كذا، وفلان كذا، ويستعرضون الناس في مجالسهم، ويظنون أن هذا الكلام ذهب وانتهى، لا يعلمون أن هذا الكلام يُسجل ويُكتب في صحائفهم، لا يفكرون في هذا، ويظنون أن هذا الغائب لا يدري عنهم، هو لايدري عنهم، لكن يوم القيامة يدري عنهم، إذا حضروا عند علام الغيوب عند الحكم العدل، اقتص للمظلوم من الظالم، ومن أين يقتص؟ دراهم؟ لا، من الحسنات، من الحسنات التي فيها نجاة الإنسان من النار، يأخذها هؤلاء، ويبقى بدون حسنات، فلنفكر في العواقب!

اللسان هذا خطره عظيم، ولهذا يقول جَلَّوَعَلَا: ﴿وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾ [النور:١٥]، ويقول الرسول صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**إِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللهِ لَا يُلْقِي لَهَا بَالًا يَرْفَعُهُ اللهُ بِهَا دَرَجَاتٍ، وَإِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ، مَا يَتَبَيَّنُ مَا فِيهَا، يَهْوِي بِهَا فِي النَّارِ، أَبْعَدَ مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ**»(١)؛ الكلمة الواحدة، فكيف بالكلمات الكثيرة؟!

فالغيبة خطرها عظيم، وإن كان كثير من الناس يتساهلون في شأنها، خصوصًا في حالة الصيام؛ يترك الطعام والشراب والشهوة، لكنه لا يترك الغيبة؛ لأنه معتادٌ عليها أو متساهل بها، فلا يتركها.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤٧٨)، ومسلم (٢٩٨٨)، من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

كذلك من آفات اللسان: النميمة، وهي: نقل الحديث بين الناس على وجه الوشاية، فيأتي إلى شخص، ويقول له: إن فلانًا يقول فيك: كذا وكذا، فلان يتنقصك، فلان يعيبك، ثم يذهب للآخر يقول له: إن فلانًا يقول فيك: كذا وكذا، فيفسد ما بين الناس، ويوقع العداوة بين الناس، قال بعض السلف: «النَّمَّامُ يُفْسِدُ فِي سَاعَةٍ مَا لَا يُفْسِدُ السَّاحِرُ فِي شَهْرٍ»[١]، الساحر يفسد بين الناس، يُفَرِّقُ بين المرء وزوجه؛ كما قال الله جَلَّوَعَلَا، النمام أشد، يفسد في ساعة ما يفسده الساحر في شهر؛ قد يقتل الرجل أخاه بسبب النميمة، قد تقوم الحروب بين المسلمين بسبب النمام الذي يوقع بينهم، قال الله جَلَّوَعَلَا: ﴿ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ۝١٠ هَمَّازٍ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٍ﴾ [القلم:١٠، ١١]، قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ نَمَّامٌ»[٢]، وفي رواية: «لاَ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ قَتَّاتٌ»[٣]، والقتَّات هو النمام.

ومرَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على قبرين، فقال: «إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ»، أطلعه الله عَزَّوَجَلَّ على حالة القبرين ومن فيهما، هذا من معجزاته صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال: «إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ، وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ، أَمَّا أَحَدُهُمَا فَكَانَ لَا يَسْتَتِرُ مِنَ الْبَوْلِ، وَأَمَّا الآخَرُ فَكَانَ يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ»[٤]، وفي رواية: «فَكَانَ لاَ يَسْتَنْزِهُ مِنَ الْبَوْلِ»[٥]، فهذا الحديث يدل على أن النميمة سببٌ لعذاب القبر -والعياذ بالله.

---

(١) أخرجه البيهقي في الآداب (ص ٤٤)، وفي شعب الإيمان (١٣/ ٤٤٧)، وأبو نعيم في الحلية (٣/ ٧٠)، عن يحيى بن أبي كثير.

(٢) أخرجه مسلم (١٦٨) (١٠٥)، من حديث حذيفة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه البخاري (٦٠٥٦)، ومسلم (١٦٩) (١٠٥)، من حديث حذيفة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٤) أخرجه البخاري (٢١٨)، ومسلم (١١١) (٢٩٢)، من حديث ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

(٥) هذه الرواية أخرجها أحمد (٣/ ٤٤١)، وأبو داود (٢٠)، من حديث ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

فعلى المسلم أن يترك النميمة، وألا يحترفها أبدًا، خصوصًا في حالة الصيام؛ فإنها تذهب بثواب الصيام.

يُروى عن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَنَّ امْرَأَتَيْنِ صَامَتَا عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فعطشتا عطشًا شديدًا، كادتا أن تموتا من العطش، فذُكِرتا له، فأعرض عنهما، ثم ذُكِرتا له، وقيل: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّهُمَا وَاللهِ قَدْ مَاتَتَا أَوْ كَادَتَا أَنْ تَمُوتَا من العطش، فدعا بهما النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -وهذا الحديث في مسند الإمام أحمد-، فأحضرهما النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: فَجِيءَ بِقَدَحٍ أَوْ عُسٍّ، فَقَالَ لِإِحْدَاهُمَا: «قِيئِي»، يعني: استفرغي ما في بطنكِ، فَقَاءَتْ قَيْحًا أَوْ دَمًا وَصَدِيدًا وَلَحْمًا عَبِيطًا، حَتَّى قَاءَتْ نِصْفَ الْقَدَحِ، ثُمَّ قَالَ لِلْأُخْرَى: «قِيئِي»، فَقَاءَتْ مِنْ قَيْحٍ وَدَمٍ وَصَدِيدٍ وَلَحْمٍ عَبِيطٍ وَغَيْرِهِ حَتَّى مَلَأَتِ الْقَدَحَ، ثُمَّ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«إِنَّ هَاتَيْنِ صَامَتَا عَمَّا أَحَلَّ اللهُ لَهُمَا، وَأَفْطَرَتَا عَلَى مَا حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِمَا، جَلَسَتْ إِحْدَاهُمَا إِلَى الْأُخْرَى، فَجَعَلَتَا يَأْكُلَانِ لُحُومَ النَّاسِ»**[(١)]، يعني: اشتغلتا بالغيبة، لحوم الناس يعني: الغيبة.

فالواجب على المسلم أن يحفظ لسانه، ولهذا قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«مَنْ لَمْ يَدَعْ قَوْلَ الزُّورِ»**؛ الكذب والتزوير، **«مَنْ لَمْ يَدَعْ قَوْلَ الزُّورِ وَالْعَمَلَ بِهِ، وَالْجَهْلَ، فَلَيْسَ للهِ حَاجَةٌ أَنْ يَدَعَ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ»**[(٢)].

وحتى لو أن أحدًا تطاول على الصائم، وتكلم فيه وسبَّه وشتمه، فإن الصائم لا يرد عليه؛ قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«فَإِنْ سَابَّهُ أَحَدٌ أَوْ قَاتَلَهُ فَلْيَقُلْ إِنِّي امْرُؤٌ**

---

(١) أخرجه أحمد (٣٩/ ٥٩)، من حديث عُبَيْدٍ مَوْلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

(٢) سبق تخريجه (ص٣٥).

صَائِمٌ إِنِّي امْرُؤٌ صَائِمٌ»[(١)]، فلا يرد عليه؛ لأنه صائم، فإذا كان هذا في القصاص، فكيف بالاعتداء والظلم؟! إذا كان المعتدى عليه لا يرد على المعتدي بالكلام، ويعلن ويقول: «إِنِّي امْرُؤٌ صَائِمٌ إِنِّي امْرُؤٌ صَائِمٌ»، فإن المبتدئ بالكلام السيء وهو صائم أشد إثمًا.

هذا اللسان، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَهَلْ يُكِبُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ -أَوْ قَالَ: عَلَى مَنَاخِرِهِمْ- إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ»[(٢)].

يقول الشاعر[(٣)]:

احْفَظْ لِسَانَك أَيُّهَا الْإِنْسَانُ ... لَا يَلْدَغَنَّكَ إِنَّهُ ثُعْبَانُ
كَمْ فِي الْمَقَابِرِ مِنْ صَرِيعِ لِسَانِهِ ... كَانَتْ تَهَابُ لِقَاءَهُ الشُّجْعَانُ

ويقول الآخر[(٤)]:

يَمُوتُ الْفَتَى مِنْ عَثْرَةٍ بِلِسَانِهِ ... وَلَيْسَ يَمُوتُ الْمَرْءُ مِنْ عَثْرَةِ الرِّجْلِ
فَعَثْرَتُهُ مِنْ فِيهِ تَرْمِي بِرَأْسِهِ ... وَعَثْرَتُهُ بِالرِّجْلِ تَبْرَا عَلَى مَهْلِ

---

(١) سبق تخريجه (ص٣٤).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٦١٦)، وابن ماجه (٣٩٧٣)، والنسائي في الكبرى (١١٣٣٠)، وأحمد في المسند (٣٦/ ٣٤٤)، وعبد الرزاق في مصنفه (١١/ ١٩٤)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٥/ ٣٢٠)، والطبراني في الكبير ((١١٦)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٤٤٧)، والبيهقي في شعب الإيمان (٣/ ٣٩) من حديث معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) البيتان ينسبان للإمام الشافعي كما في مناقب الشافعي للبيهقي (٢/ ٨٧)، وفي حسن السمت في الصمت للسيوطي (ص٢٧).

(٤) البيتان ينسبان للمعتصم بن هارون الرشيد في بعض المصادر، وينسبان لأبي عبد الله المعتز في مصادر أخرى. انظر: المحاسن والأضداد (ص٤٣)، وتاريخ دمشق (٧٣/ ٢٣٧)، والدر الفريد (١١/ ٤٢٦).

عثرة اللسان خطيرة، ولهذا رأى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيما رأى: أن ثورًا يخرج من صدع في جدار أو في مكان، ثم يريد أن يرجع، فلا يستطيع، «**فَقَالَ: مَا هَذَا يَا جِبْرِيلُ؟ قَالَ: هَذَا الرَّجُلُ يَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ الْعَظِيمَةِ فَيَنْدَمُ عَلَيْهَا فَيُرِيدُ أَنْ يَرُدَّها فَلَا يَسْتَطِيعُ**»(١)، يتكلم بكلمة سيئة، ثم يريد أن يسترجع هذا الكلمة، لا يتمكن، هذا مثال وضحه الله لنبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

هذه آفات اللسان، وهي محرمة دائمًا وأبدًا، ولكنها في حالة الصيام أشد؛ لأنها تذهب بثواب الصيام، ويصبح الصيام تعبًا لا فائدة فيه.

كذلك يحفظ الصائم بصره عن الحرام، أما الذي يصوم عن الطعام والشراب، ولكن لا يصوم بصره عن الحرام، يطلق نظره في الحرام؛ يخرج إلى الأسواق، وينظر إلى النساء، ويلاحق النساء بنظراته وهو صائم، هذا لا يبقى له ثواب في صيامه، يتعب بدون فائدة، هذا النظر المحرم يذهب بثوابه، فلايبقى له أجر عند الله.

الله جَلَّ وَعَلَا يقول: ﴿**قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ**﴾ [النور:٣٠، ٣١]، ويقول النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**النَّظْرَةُ سَهْمٌ مَسْمُومٌ مِنْ سِهَامِ إِبْلِيسَ**»(٢).

كُلُّ الحـوادِثِ مَبْدَأُهَا مِـنَ النَّظَرِ ... وِمُعْظَمُ النَّارِ من مُسْتَصْغَرِ الشَّرر
كَمْ نَظْرة فَتَكت في قَلْب صَاحِبِها ... فتكَ السِّهَامِ بِلا قَوس ولا وَتَر(٣)

---

(١) أخرجه البزار في مسنده (١٧/ ٦)، والحافظ ابن حجر في مختصر زوائد مسند البزار (١/ ٨١).
(٢) أخرجه القضاعي في مسنده (١/ ١٩٦)، وأبو نعيم في الحلية (٦/ ١٠١).
(٣) البيتان ذكرهما ابن القيم في كتبه بلا نسبة. انظر: روضة المحبين (ص٩٧)، والجواب الكافي (ص١٥٣)، وبدائع الفوائد (٢/ ٢٧١).

النظرة سهم يصيب قلبك، يصيب قلب الناظر، سهم مسموم يصيب قلب الناظر؛ لأنه إذا نظر متعمدًا بشهوة إلى النساء، فإنه ذلك يورث الشهوة في قلبه، ثم يجره إلى الوقوع في الحرام، أما إذا غض بصره، ولم ير ولم ينظر، فإن هذا يحفظ قلبه، ولهذا يقول جَلَّوَعَلَا: ﴿ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [النور:٣٠]، ويقول جَلَّوَعَلَا: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ﴾ [غافر:١٩]، ما هي ﴿خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ﴾؟ خائنة الأعين: هي التي تنظر إلى الحرام، إذا كان في حضور من الناس، لا ينظر وهم ينظرون إليه، لكن إذا غفلوا عنه، صار ينظر إلى الحرام، يسارق النظر إلى الحرام، يخشى الناس، ولا يخشى الله جَلَّوَعَلَا.

الناس لا يدرون عنك إذا سارقت النظر، ولكن الله يراك؛ ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي ٱلصُّدُورُ﴾ [غافر:١٩]، فاحفظ بصرك من النظر إلى الحرام، خصوصًا الصائم؛ لأن هذا يؤثر على صيامه، ويجرح صيامه.

وكذلك النظر إلى الصور الفاتنة في الجرائد والمجلات، ينظرون إلى الصور -صور النساء-، هذا يجرهم إلى الشهوة، وهذا ما يقصده المصورون، المصورون الذين يصورون النساء والجميلات، يصورون الجميلات في الجرائد والمجلات هؤلاء رسل إبليس، هو الذي جندهم لهذا الشيء؛ من أجل أن يفتنوا الناس بهذه الصور.

وكذلك النظر إلى الشاشات التلفزيونية، الشاشات التي تجلب البث الفضائي من بيوت الدعارة في الخارج، تجلب العري المكشوف، تجلب فعل الفواحش بالإنترنت أو بالشاشات، وقد كثر هذا وأصبح خطرًا مهددًا للمسلمين، فعلى المسلمين أن يحذروا من النظر في هذه الأشياء الخبيثة الفاتنة.

وقد لا يخرج إلى الأسواق، يجلس في بيته، وتأتيه هذه الأشياء بواسطة هذا التلفزيون، أو هذا الفيديو، أو هذا الإنترنت الذي يذكرون عنه أنه أشد من التلفزيون، فتأتيه هذه المناظر الخبيثة في بيته، فيصاب بالمرض في القلب، يصاب بمرض قلبه -والعياذ بالله-، وإذا كان صائمًا، فإنه لا يبقى له أجرٌ عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

كذلك السمع يجب على الصائم أن يصون سمعه عن استماع الأغاني والمزامير، واستماع الغيبة والنميمة وقول الزور، يصون سمعه، لا يستمع إلى الباطل؛ لأن السمع يؤثر في القلب، فإذا سمع هذه الأشياء، سمع الأغاني، سمع المزامير وآلات اللهو، فإن هذا يؤثر في قلبه، ويزرع في قلبه الفتنة، ولهذا يقول جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء:٣٦].

فالواجب على المسلم أن يصون هذه الحواس؛ أن يصون اللسان، أن يصون النظر، أن يصون السمع عما حرم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وأن يستعمل هذه الأشياء فيما يفيده، يستمع لكلام الله، يستمع للذكر، يستمع للعلم، يستمع للبرامج الدينية، يستفيد منها، ولا يستمع للأغاني والمزامير والمسرحيات، والأشياء التي يعملها الشياطين بالناس، يعرض عنها؛ ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ [المؤمنون:٣]، واللغو هو: كل لهو وباطل، كل لهو وباطل أهل الإيمان يعرضون عنه، يترفعون عنه.

أنت مؤمن، أنت صائم، أنت مسلم، ترفَّع عن هذه السفليات وعن هذه الأشياء التافهة، الله أعزك بالإسلام، ورفعك بالإيمان، ورفعك بالصيام، فلماذا تنزل نفسك إلى هذه الترهات والأباطيل؟!!! ترفع بنفسك.

وليس هذا خاصًا برمضان أو وقت الصيام، وإنما هذا عامٌ في جميع الحياة، في جميع العمر، ولكنه من الصائم أشد؛ لأنه مع كونه محرمًا وإثمًا، هو أيضًا يؤثر على الصيام.

أنت صائم لأي شيء؟ تريد الأجر من الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، إذا لم تصن سمعك وبصرك ولسانك، لا يبقى لك أجر، الأجر الذي تطلبه لا تجده، انتهى، ولم يبق لك إلا الجوع والعطش، ولهذا يقول صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**رُبَّ صَائِمٍ حَظُّهُ مِنْ صِيَامِهِ الْجُوعُ وَالْعَطَشُ، وَرُبَّ قَائِمٍ حَظُّهُ مِنْ قِيَامِهِ السَّهَرُ**»(١).

الواجب على المسلم أن يخلص عمله لله، وألا يخلط السيئات مع الأعمال الصالحة؛ فإن هذا قد يتغلب على أعماله الصالحة، وقد ينجرف الإنسان ويفسق ويخرج عن طاعة الله بسبب إطلاقه لسمعه ولبصره وللسانه، ثم في النهاية يخرج عن طاعة الله عَزَّوَجَلَّ.

فعليك -أيها المسلم- أن تحافظ على دينك عمومًا، وعلى صيامك خصوصًا، وأن تتقي الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وأن تتجنب ما حرم الله.

هناك صيام مؤقت، وهناك صيام مؤبد؛ الصيام المؤقت هو الصيام عن الطعام والشراب والشهوة، هذا مؤقت من طلوع الفجر إلى غروب الشمس، وأيضا شهر رمضان، وأما الصيام المؤبد، فهو الصيام عن الحرام، هذا تصوم عنه طول عمرك، ولا تفطر إلا إذا توفاك الله عَزَّوَجَلَّ.

هناك صيام ليس منه إفطار إلا بالموت، وهو تجنب المحرمات والمعاصي، وهناك صيام مؤقت بالنهار، وهو ترك الطعام والشراب والشهوة، هذا مؤقت،

---

(١) سبق تخريجه (ص٣٦).

لكن الصيام عن المحرمات هذا مؤبد، من حين أن تبلغ الحلم إلى أن يتوفاك الله وأنت صائم بجوارحك عن الحرام.

نسأل الله عَزَّوَجَلَّ أن يوفقنا وإياكم لمعرفة الحق والعمل به، وأن يحفظ لنا ديننا، ويحفظ لنا صيامنا، ويحفظ لنا جميع أعمالنا الصالحة، إنه سميع مجيب، وأن يغفر لنا زللنا وخطأنا، وأن يوفقنا وإياكم للتوبة والإخلاص، وأن يجعلنا وإياكم في هذا الشهر من الرابحين الغانمين المأجورين الذين حازوا على فضائل هذا الشهر، أن يجعلنا وإياكم ممن يصوم هذا الشهر، ويقومه احتسابًا لوجه الله عَزَّوَجَلَّ.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين.

تفسير آيات الصيام ٣

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين، أما بعد:

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَٱلْـَٰٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَٰجِدِ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [البقرة:١٨٧]، هذه آخر آية من آيات الصيام في هذا السياق الذي يذكره الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في سورة البقرة؛ صيام رمضان، وأما صيام التطوع، صيام الكفارة، صيام الكفارة فيه آيات أخر، صيام التطوع ورد في قوله تعالى: ﴿وَأَن تَصُومُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة:١٨٤]، وورد في السنة ما يرغب في صيام التطوع.

وقوله سبحانه: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ﴾، أي: أُبيح لكم ما كان ممنوعًا في الأول من الأكل والشرب والجماع، كان الصيام في أول الإسلام أنهم يصومون إلى أن تغرب الشمس، ثم يفطرون إلى وقت العشاء الآخر، فإذا دخل وقت العشاء الآخرة، صاموا، أو إذا نام أحدهم، فإنه يلزمه الصيام.

كان الصيام في أول الإسلام يلزم بأحد الأمرين:

* إما بدخول وقت العشاء الآخرة.

* أو النوم قبله، فمن نام قبل العشاء الآخرة، فإنه يدخل في الصيام.

وكان وقت الإفطار هو ما بين العشاءين فقط، فشق ذلك على المسلمين مشقة شديدة من ناحيتين:

الناحية الأولى: أنهم كانوا لا يصبرون عن نسائهم، فيحصل منهم بعض الخلل من المخالفة للصيام مع النساء، ﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ﴾ [البقرة:١٨٧].

والناحية الثانية: المشقة من طول الصيام، لا سيما أن أكثرهم كانوا أصحاب أعمال في النهار، كانوا أهل زراعة وأهل نخيل، وكانوا يحترفون ويكتسبون في النهار، فيشق عليهم الصيام الطويل، عند ذلك خفف الله عنهم، فأباح لهم نساءهم، وأباح لهم الأكل والشرب إلى طلوع الفجر، واستقر الأمر على ذلك -والحمد لله.

﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ﴾: هذا نسخٌ على ما كان قبل ذلك من تحريم هذه الأشياء بعد العشاء، نسخ الله ذلك، فأباحها لهم طوال الليل؛ تيسيرًا منه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عليهم، وتخفيفًا عنهم، ورحمة بهم؛ لأن الله سبحانه يريد بعباده اليسر، ولا يريد بهم العسر، ولم يجعل عليهم في الدين من حرج.

﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ﴾، الرفث: هو الجماع ودواعيه(١)؛ كما قال تعالى في الحج: ﴿فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ

(١) انظر مادة (رفث) في: تهذيب اللغة (١٥/ ٥٨)، والصحاح (١/ ٢٨٣)، ومقاييس اللغة (٢/ ٤٢١)، والغريبين في القرآن والحديث (٣/ ٧٥٩).

﴿وَلَا جِدَالَ فِي ٱلْحَجِّ﴾ [الحج:١٩٧]، ﴿فَلَا رَفَثَ﴾: المراد به الجماع ودواعيه؛ لأن المحرم ممنوع من الجماع ودواعيه مدة إحرامه، كذلك هنا الرفث: المراد به الجماع ودواعيه.

ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ﴾: هذا في الليل فقط، وأما في وقت الصيام، فإن هذ حرام، ويبطل الصيام، الجماع في وقت الصيام يبطل الصيام، وهو حرام، وإنما أباحه الله في الفترة ما بين غروب الشمس إلى طلوع الفجر، ولهذا قال: ﴿لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ﴾؛ فرقًا بينها وبين يوم الصيام.

ثم قال: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾: الزوجان أحدهما لباس للآخر، أحد الزوجين لباسٌ للآخر؛ لتمام الملاصقة بينهما والتقارب بينهما، ولاستمتاع كل منهما بالآخر والملازمة، فالملازمة: اللباس.

وكذلك الرجل سترٌ للمرأة، والمرأة سترٌ للرجل، بمعنى أن أحدهما يعف الآخر عن الحرام، ويقصر نظره عن الحرام، فهذا من تمام الحكمة في الزواج في أنه يعف الزوجين، ويغني الزوجين كلًّا منهما بالآخر، وهذا من نعمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم:٢١]، فهذا بيان للحكمة في الزواج، النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ، مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمُ الْبَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ، فَإِنَّهُ أَغَضُّ لِلْبَصَرِ، وَأَحْصَنُ لِلْفَرْجِ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ، فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ، فَإِنَّهُ لَهُ وِجَاءٌ**»(١)، الزواج «**أَغَضُّ لِلْبَصَرِ، وَأَحْصَنُ لِلْفَرْجِ**»، فكل من الزوجين يغض بصر الآخر

(١) أخرجه البخاري (١٩٠٥)، ومسلم -واللفظ له- (١٤٠٠)، من حديث ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

عن التطلع إلى ما لا يحل له، ويعف فرجه عن الحرام، فهذا من مصالح الزواج العظيمة.

﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ﴾، اللباس: ما يلبسه الإنسان ويستتر به ويغطيه، وسمى الله الليل لباسًا، ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴾ [النبأ:١٠]، بمعنى أنه يستر الناس بظلامه[١].

﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ ﴾، أي: أزواجكم لباس لكم أيها الأزواج الرجال، ﴿ وَأَنتُمْ ﴾، أيها الرجال، ﴿ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ﴾: لأزواجكم.

ثم قال سبحانه: ﴿ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ ﴾: هذا بيان للحكمة من تمديد فترة الفطر طوال الليل؛ لأن الله علم أن بعض الرجال يختانون أنفسهم، فيقعون على زوجاتهم في وقت الصيام بالليل؛ لأن طول الصيام يشق عليهم، وربما يحملهم ذلك على المخالفة وعدم الصبر.

﴿ عَلِمَ ٱللَّهُ ﴾: بعلمه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الذي لا يخفى عليه شيء، الله يعلم كل شيء قبل وقوعه، ويعلمه إذا وقع، يعلم الشيء قبل وقوعه، قد علم الله ما كان وما يكون في الأزل قبل أن يخلق السماوات والأرض، ويعلم ذلك -أيضًا- عند وقوع الشيء وحدوثه، فهو علمٌ متجدد من العلم الشامل العام.

﴿ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ ﴾ أيها الرجال ﴿ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ ﴾، الخيانة: المخالفة، فيحصل من بعضكم معاشرة لزوجته في الليل مع أنه ممنوع؛

---

(١) انظر مادة (لبس) في: العين (٧/ ٢٦٢)، وتهذيب اللغة (١٢/ ٣٠٧)، والصحاح (٣/ ٩٧٣)، ومقاييس اللغة (٥/ ٢٣٠).

لأن البشر ضعيف، الإنسان بشر ضعيف، قد تتغلب عليه نفسه وشهوته، لا سيما إذا مُنِع من الشيء الذي يشتهيه ويريده، والإنسان بطبيعته البشرية قد لا يصبر ولايتحمل، ولما علم الله ذلك منهم، رحمهم، وهذا من حلمه سبحانه ورحمته؛ حيث لم يعاجلهم بالعقوبة، بل تاب عليهم؛ ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾: التوبة هي الرجوع، والتوب هو الرجوع، والأَوْبُ هو الرجوع، آب، أي: رجع، وتاب، أي: رجع، والمراد به هنا الرجوع من الحكم الشديد إلى الحكم الخفيف.

وأيضًا التوبة من الله هو رجوعه على عباده بالمغفرة، رجوعه وعوده سبحانه إلى عباده بالمغفرة والرحمة.

والتوبة من العبد: هي الرجوع من المعصية إلى الطاعة، ومن المخالفة إلى الموافقة.

فالله يتوب، والعبد يتوب، الله يتوب على عبده، بمعنى أنه يرجع عليه بالرحمة والمغفرة والعتق من النار، يعود عليه بالفضل والإحسان، والله هو التواب كثير التوبة، ويقبل التوبة عن عباده، هذه التوبة من الله.

التوبة من العبد: هي الرجوع من المعصية إلى الطاعة، ومن المخالفة إلى الموافقة، وإذا تاب الله على عبده، تاب العبد من ذنبه، إذا تاب الله على عبده، فإن العبد يتوب من ذنبه بتوفيق من الله سبحانه وتيسير من الله، ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [التوبة:١١٨].

﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ﴾: ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾، أي: رجع عليكم بفضله وإحسانه، ولم يؤاخذكم بما حصل منكم، بل وزادكم سبحانه بأن ﴿وَعَفَا

عَنكُمْ ﴾: عفا عما حصل منكم، فجمع سبحانه لهم بين التوبة والعفو عنهم، تاب عليهم؛ رجع إليهم بالفضل والإحسان والعطف والرحمة، ولم يعاجلهم، وعفا عنهم؛ بأن محا أثر المعصية، ومحا ما يترتب عليها من العقوبة؛ فضلًا منه وإحسانًا سبحانه.

والعفو يقال: عفا الأثر، إذا انمحى وزال[1]، أي: أن الله محا أثر هذه المعصية وهذه المخالفة، محا أثرها وما يترتب عليها من العقوبة، وأبدلهم بالثواب، هذا كله فضل من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على عباده.

ثم قال: ﴿ فَٱلْـَٔـٰنَ بَـٰشِرُوهُنَّ ﴾، الآن، يعني: بعدما أحل الله لكم ذلك، دل على أنهم قبل الآن كانوا ممنوعين، وبعد أن تاب الله عليهم، وعفا عنهم أباح لهم ما كانوا ممنوعين منه في الأول مع نسائهم.

﴿ فَٱلْـَٔـٰنَ بَـٰشِرُوهُنَّ ﴾، بمعنى: أنه يجوز للرجل أن يمس زوجته، وأن يضاجعها، وأن يجامعها بالليل بكل ما أباح الله للرجل من زوجته، فإنه مباحٌ له في ليل الصيام.

والقرآن الكريم يأتي بالتعبير فيه عن الأشياء المستكرهة بألفاظ طيبة وكنايات؛ فإنه لا يصرح بذكر الشيء المستكره، لا يصرح بالجماع، وإنما يأتي بلفظ يكني عنه كناية؛ ﴿ بَـٰشِرُوهُنَّ ﴾، ولم يقل: جامعوهن.

فالقرآن دائمًا يأتي بكنايات عن الأشياء المستكرهة والأشياء التي لا ينبغي التلفظ بها صراحة، فقال: ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ ﴾، ولم يقل: الجماع،

---

(١) انظر مادة (عفو) في: العين (٢/ ٢٥٨)، ومقاييس اللغة (٤/ ٥٦)، ومادة (عفا) في: تهذيب اللغة (٣/ ١٤١)، والصحاح (٦/ ٢٤٣١).

الرفث كناية، ﴿بَٰشِرُوهُنَّ﴾، ولم يقل: جامعوهن، مع أن هذا هو المقصود، ولكنه سبحانه يأتي بألفاظ طيبة نزيهة مما يدل على أن الأشياء التي يستحيا منها لا تُذكر صراحة، وإنما تُذكر بألفاظ كناية، فهذا من الأدب الشرعي.

﴿فَٱلۡـَٰٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ وَٱبۡتَغُواْ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ﴾: اطلبوا، ﴿وَٱبۡتَغُواْ﴾، يعني: اطلبوا، ﴿مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ﴾: ما قدره لكم سبحانه، ما قدره لكم وشرعه لكم.

وما هو هذا الشيء الذي كتبه الله لنا، وأمرنا أن نطلبه؟

قيل: هو ليلة القدر، ﴿وَٱبۡتَغُواْ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ﴾، أي: ليلة القدر؛ لأن ليلة القدر في رمضان، وهي ليلة عظيمة ينبغي للمسلم أن يحرص على طلبها؛ لأنها خيرٌ من ألف شهر.

وقيل: ﴿وَٱبۡتَغُواْ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ﴾، أي: من الولد والنسل(١)، وهذا من مقاصد الزواج طلب الذرية وطلب النسل.

﴿وَٱبۡتَغُواْ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡۚ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ﴾: هذا عطف على ﴿بَٰشِرُوهُنَّ﴾، ﴿وَكُلُواْ﴾: مما أباح الله لكم من الطعام، وما تيسر لكم، ﴿وَٱشۡرَبُواْ﴾: من الأشربة المباحة الطيبة.

﴿وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ﴾، ﴿حَتَّىٰ﴾: حرف غاية ونهاية.

﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ﴾: يتضح.

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٣/ ٢٤٤- ٢٤٦)، وتفسير ابن أبي حاتم (١/ ٣١٧)، وتفسير الماوردي (١/ ٢٤٥)، وزاد المسير (١/ ١٤٨- ١٤٩)، وتفسير القرطبي (٢/ ٣١٨).

﴿لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾: المراد بهما: بياض النهار وسواد الليل، حتى يتميز بياض النهار حين طلوعه من سواد الليل.

هذا فيه دليل على أن بداية الصيام تكون بطلوع الفجر الثاني الذي ليس بعده ظلمة؛ لأن الفجر فجران:

الفجر الأول: هذا لا صيام عليه؛ لأنه يأتي بعده ظلام.

الفجر الثاني: هو الذي عليه صيام، وهو البياض المعترض في الأفق.

والفجر الأول بياض مستطيل، عمود مستطيل، ثم يأتي بعده ظلمة.

أما الفجر الثاني فهو البياض المعترض في الأفق الذي لا يأتي بعده ظلمة، وهذا هو بداية الصيام ونهاية الفطر.

﴿وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ حَتَّىٰ﴾، أي: إلى أن ﴿يَتَبَيَّنَ﴾، أي: يتضح ﴿لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ﴾، وهو النهار، ﴿مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾، وهو الليل.

فدل هذا على أن نهاية الأكل والشرب والجماع هو طلوع الفجر الثاني، ثم يبدأ الصيام.

ونترك بقية الكلام على ما تبقى من الآية إلى درس قادم -إن شاء الله.

ونسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لنا ولكم ولجميع المسلمين التوفيق بالعلم النافع والعمل الصالح، ونسأله القبول والمغفرة والتوبة والستر علينا وعليكم وعلى جميع المسلمين.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

تفسير قوله تعالى: ﴿ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ ﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

تقدم الكلام على قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ ﴾ [البقرة:١٨٣، ١٨٤]، وقفنا عند هذا: ﴿ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ ﴾.

﴿ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ ﴾، ﴿ أَيَّامًا ﴾: منصوب على أنه مفعول ثان لقوله: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ﴾؛ لأنه ينصب مفعولين، ولما كان مبنيًّا للمجهول، جُعِل المفعول الأول نائبًا عن الفاعل، والثاني بقي على أصله منصوبًا.

﴿ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ ﴾: اختلف المفسرون في هذه الأيام المعدودات ما هي؟

- فقال بعضهم: هي ثلاثة أيام، وكان هذا أول ما فُرِض الصيام كان ثلاثة أيام، ثم بعد ذلك نُسِخ هذا الحكم، وهو صيام ثلاثة أيام، وأوجب الله صوم شهر رمضان، فيكون قوله تعالى: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ ﴾ [البقرة:١٨٥] ناسخًا لقوله تعالى: ﴿ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ ﴾، وكان هذا من باب التدرج بالمسلمين؛ لأنهم لم يألفوا الصيام، فالله شرعه على التدرج شيئًا فشيئًا، فلما ألفوا صيام ثلاثة الأيام، نقلهم إلى صيام الشهر كاملًا، فهذا قول.

- والقول الثاني: أن قوله تعالى: ﴿ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ ﴾ [البقرة:١٨٤]، فسرها قوله تعالى: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ﴾ [البقرة:١٨٥]؛ أن هذه الأيام المعدودات هي شهر رمضان، ويكون قوله تعالى: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ﴾ مفسرًا ومبينًا لقوله تعالى: ﴿ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ ﴾، وليس هناك نسخ، ولعل هذا هو الصحيح -إن شاء الله(١).

ثم إنه سبحانه ذكر أصحاب الأعذار الذين يرخص لهم بالإفطار، فقال: ﴿ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ﴾، رخص للمريض أن يفطر، ويقضي ما أفطره من أيام أُخر، والمراد بالمرض: الذي لا يستطيع معه الصيام، أو يشق عليه، يستطيعه لكن مع المشقة، الذي لا يستطيع معه الصيام هو المرض الشديد، والذي يستطيع معه الصيام هو المرض الذي ليس شديدًا، ولكن الصيام يشق عليه، ولو صام استطاع، الله جَلَّوَعَلَا رخص للمريض أن يفطر.

والمرض على أربعة أقسام:

القسم الأول: المرض اليسير المعتاد كالصداع ووجع الضرس والحمى الخفيفة، فهذا لا يعذر الإنسان بترك الصيام من أجله، هذا مرض يسير، لايُرخص لصاحبه بالإفطار.

النوع الثاني: المرض الشديد الذي يشق معه الصيام.

النوع الثالث: المرض الذي لا يستطيع معه الصيام؛ لقوة شدته عليه ووطئته عليه.

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٣/ ١٥٧- ١٥٩)، وتفسير ابن أبي حاتم (١/ ٣٠٦)، وتفسير الماوردي (١/ ٢٣٧)، وزاد المسير (١/ ١٤١- ١٤٢).

ففي هاتين الحالتين -المرض الشديد الذي يستطيع معه أن يصوم مع المشقة، والمرض الذي لا يستطيع أن يصوم معه-، ففي هاتين الحالتين يرخص له بالإفطار، ويقضي من أيام أُخر عدد ما أفطره.

والنوع الرابع من أنواع المرض: المرض المزمن الذي لا يُرجى معه شفاء، مرض مزمن وهو الذي ليس له علاج، ولا يستطيع أن يصوم معه، فهذا ليس عليه صيام، وإنما عليه الفدية: طعام مسكين؛ ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدۡيَةٌ طَعَامُ مِسۡكِينٍ﴾، ﴿يُطِيقُونَهُۥ﴾، يعني: لا يستطيعونه، وفي قراءة: (وعلى الذين يطوقونه)[1]، أي: لا يستطيعون الصيام معه، ولا يرجى زواله، فهذا ليس عليه صيام؛ لا أداء ولا قضاء، ولكن عليه الفدية، وهي طعام مسكين عن كل يوم، له أن يجمعها جميعًا ويدفعها دفعة واحدة عن كل الأيام؛ في أول الشهر، أو في وسطه، أو في آخره، وله أن يفرقها، له أن يفرقها ويخرجها متفرقة، لكن لابد أن تشمل جميع الأيام، هذا المريض.

الثاني من الذين يُعذرون بالفطر: المسافر عن بلده، فهذا يفطر في أثناء السفر؛ لأن السفر فيه مشقة؛ فلا يجتمع عليه مشقة السفر ومشقة الصيام، الله رخص له في أن يفطر، ويقضي بدل الأيام التي أفطرها في سفره.

والمراد ما يُطلق عليه اسم السفر مما يؤخذ له الزاد والمزاد، ما يطلق عليه اسم السفر، وهو الذي يحتاج إلى زاد واستعداد للسفر، وبعض العلماء حدده

---

(١) انظر: المصاحف لابن أبي داود (ص٢٢٠-٢٢١)، والمحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها (١/ ٢٠٦- ٢٠٧).

بالمدة، حدده بالزمن، فقال: السفر الذي زمنه طويل، ويحتاج إلى عدة وزاد، هذا هو السفر، أما السفر اليسير والقريب، فهذا مثل المقيم.

وبعضهم حدده بالمسافة، ولم يحدده بالزمن، بعضهم قال: مسيرة يومين للراحلة؛ لقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَا تُسَافِرِ الْمَرْأَةُ مَسِيرَةَ يَوْمَيْنِ إِلَّا وَمَعَهَا زَوْجُهَا أَوْ ذُو مَحْرَمٍ**»(١)، فدل على أن مسيرة اليومين للراحلة أنها سفر تحتاج إلى محرم.

وبعضهم حدده بثلاثة أيام؛ ثلاثة أيام للراحلة(٢).

وبعضهم حدده بيوم وليلة(٣).

وعلى كل حال: السفر معروف عند الناس، الذي يغادر بلده محل إقامته إلى بلد آخر بعيد، فهذا هو المسافر، له أن يفطر في رمضان، وله أن يقصر الصلاة الرباعية؛ ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾، يعني: سافرتم، ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُواْ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ [النساء:١٠١]، النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما سافر في رمضان في غزوة الفتح -فتح مكة-، فلما بلغ كُرَاعَ الْغَمِيمِ -اسم موضع-، وكان صائمًا، بدأ الصيام في المدينة، وسافر في أثناء النهار، فلما بلغ موضعًا يقال له: كُرَاعَ الْغَمِيمِ، دعا بماء فشرب صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والناس ينظرون إليه؛ من أجل أن يفطروا، أراد أن

---

(١) أخرجه البخاري (١٩٩٥)، ومسلم (٨٢٧)، من حديث أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (١٠٨٦)، ومسلم (١٣٣٨)، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «**لَا يَحِلُّ لِامْرَأَةٍ، تُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، تُسَافِرُ مَسِيرَةَ ثَلَاثِ لَيَالٍ، إِلَّا وَمَعَهَا ذُو مَحْرَمٍ**».

(٣) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (١٠٨٨)، ومسلم (١٣٣٩)، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**لَا يَحِلُّ لِامْرَأَةٍ تُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، تُسَافِرُ مَسِيرَةَ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ إِلَّا مَعَ ذِي مَحْرَمٍ عَلَيْهَا**».

يُظهر لهم الإفطار حتى يفطروا؛ عملًا بقوله تعالى: ﴿أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾، ولما بقي بعض الصحابة على صومه ولم يفطر، وبلغ ذلك النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «أُولَئِكَ العُصَاةُ»[١]، الذين لم يفطروا، والرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد أفطر، قال: «أُولَئِكَ العُصَاةُ»، فدل على أنه يستحب للمسافر أن يفطر؛ أخذًا بالرخصة، والله جَلَّ وَعَلَا «يُحِبُّ أَنْ تُؤْتَى رُخَصُهُ، كَمَا يَكْرَهُ أَنْ تُؤْتَى مَعْصِيَتُهُ»[٢].

وإذا أقام المسافر في أثناء سفره -إما في بر أو في بلد-، أقام إقامة لا يدري متى تنتهي، فإن له أن يفطر، وإذا عرف المدة التي يقيمها، فإن كانت أربعة أيام فأقل، فإنه يفطر -أيضًا-، وإذا عرف أنها تزيد على أربعة أيام، فليس له أن يفطر؛ لأنه أصبح مقيمًا، فيأخذ حكم المقيمين، هذا ما عليه جمهور أهل العلم في مسألة الإقامة في أثناء السفر، أو الإقامة التي تقطع أحكام السفر، ما زاد عن أربعة أيام وهو يدري أنه سيقيمها، فهذا يتم الصلاة، ولا يفطر.

وهذا مثل الذين يسافرون للدراسة في الخارج أو للتجارة ويقيمون هناك مدة، أو بعضهم يقيم مدة سنتين، بعضهم يقيم مدة أكثر من سنتين، هؤلاء مثل الذين لم يسافروا، يلزمهم إتمام الصلاة، ويلزمهم صيام رمضان؛ لأنهم مقيمون، وليسوا مسافرين.

﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ﴾، أي: يصوم، عليه أن يصوم عدد الأيام التي أفطرها في حال سفره، أو في حال مرضه.

﴿مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾: من غير رمضان؛ من شوال، من ذي الحجة، محرم، من

---

(١) أخرجه مسلم (١١١٤)، من حديث جابر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٢) سبق تخريجه (ص١٠١).

أي شهر، شريطة ألا يؤخرها إلى ما بعد رمضان الثاني، يعني: ما بين الرمضانين كله وقت للقضاء، وكلما بادر بالقضاء، فهو أحسن، ولكن له أن يؤخر إلى ألا يبقى إلى رمضان القادم إلا عدد الأيام التي عليه، حينئذ يجب عليه القضاء؛ لقول عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «كَانَ يَكُونُ عَلَيَّ الصَّوْمُ مِنْ رَمَضَانَ، فَمَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَقْضِيَهُ إِلَّا فِي شَعْبَانَ، الشُّغْلُ مِنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَوْ بِرَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»(١)، فدل على جواز تأخير القضاء ما بين الرمضانين، إلى ألا يبقى عليه قبل قدوم رمضان الجديد إلا عدد الأيام التي عليه، فيجب عليه القضاء حينئذ؛ لئلا يحل عليه الشهر الثاني وعليه أيام من الشهر الأول، إلا إذا كان معذورًا، استمر العذر معه بين الرمضانين، استمر عذر المرض معه إلى أن جاء رمضان الثاني، استمر معه السفر إلى أن جاء رمضان الثاني، فهذا معذور في تأخير القضاء إلى ما بعد رمضان؛ لأنه ترك القضاء بين الرمضانين لعذر، فيكفي منه القضاء بعد رمضان الثاني؛ لأن هذا الدين دين اليسر، يرفع الحرج عن الأمة.

ثم قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ﴾، عرفنا هذا، الذين يطوقونه قسمان، ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ﴾، يعني: لا يستطيعون الصيام -لا حاضرًا ولا مستقبلًا-، وهم قسمان:

القسم الأول: المريض المرض المزمن الذي لا يُرجى له شفاء، وهذا عرفناه.

القسم الثاني: الشيخ الكبير الهرم الذي معه عقله وتفكيره، لكن لايستطيع أن يصوم، هذا يُطعم عنه عن كل يوم مسكين، وليس عليه صيام لا أداء ولا قضاء.

---

(١) سبق تخريجه (ص١٠٥).

ثم لما بيَّن سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ المرخص لهم بالفطر في رمضان، قال: ﴿فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ﴾، رغب في فعل الخير من الصدقات ومن صيام التطوع، ومن سائر الأعمال الصالحة، كلما عملت خيرًا، فهو محفوظ لك عند الله، بل ومضاعف لك؛ «الْحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ»[(١)]، إلى أضعاف كثيرة، ﴿فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ﴾.

ثم قال: ﴿وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾: هذ حثٌّ على الصيام؛ كما قال في الآية الأولى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة:١٨٣]، فالصيام فيه خير، وفيه تقوى لله عَزَّوَجَلَّ، فيه بر، وفيه تهذيب للنفس، تطهير للنفس، ففيه خيرات كثيرات، ﴿وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾: ولم يحدد الخير؛ لأنه كثير، الصيام فيه خيرات كثيرة -ولله الحمد-، ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾: تعلمون فضل الصيام، وتعلمون فضل الأعمال الصالحة، فلا تبخلوا على أنفسكم من التزود من الخيرات، والله جَلَّوَعَلَا جعل بعد كل فريضة نافلة من جنسها، فجعل بعد صيام الفرض صيام التطوع، وجعل بعد الزكاة صدقة تطوع، وجعل بعد الصلاة صلاة تطوع، وجعل بعد حج الفريضة حج تطوع.

فكل عمل مفروض فإنه هناك عمل من جنسه مستحب؛ وذلك لأجل التزود من الخير، وأن المسلم لا يقتصر على الفرائض فقط.

الفرائض فيها خير، لكن من الذي يضمن أنك أديت الفرائض كاملة، لابد فيها من نقص، فيجبر هذا النقص من النوافل، إذا لم يكن هناك نوافل وعليك نقص من الفرائض، فمن أين يُجبر؟!

---

(١) سبق تخريجه (ص١٠٦).

ولو فرضنا أنك أكملت الفرائض، وليس فيها نقص، فأنت بحاجة إلى الزيادة من الخير والزيادة من الأجر، فلا تحرم نفسك من الأعمال الصالحة فريضة كانت أو تطوعًا.

وفق الله الجميع لما يحب ويرضى، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين.

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين، أما بعد:

ما زال الكلام مع قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ [البقرة:١٨٦]، وسبق أول الكلام على معنى هذه الآية الكريمة، فهي آية عظيمة تدل على فضل الدعاء، كل العباد بحاجة إلى الدعاء، إلى دعاء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ ﴿ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ ﴾ [النمل:٦٢]، الله جَلَّ وَعَلَا أمرنا بدعائه، وجعل الدعاء هو العبادة؛ لأنه أعظم أنواع العبادة، فقال سبحانه: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي ﴾، أي: عن دعائي، ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ [غافر:٦٠]، فسمى الدعاء عبادة.

والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سمى الدعاء عبادة، فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الدُّعَاءُ هُوَ الْعِبَادَةُ»(١).

كما أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ سمى الدعاء دينًا، فقال سبحانه: ﴿فَادْعُوا اللَّهَ

---

(١) أخرجه أحمد (٣٠/ ٢٩٧)، وأبو داود (١٤٧٩)، والترمذي (٢٩٦٩)، والنسائي في الكبرى (١٠/ ٢٤٤)، وابن ماجه (٣٨٢٨)، من حديث النعمان بن بشير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [غافر:١٤]، مخلصين له الدعاء، فلابد من الإخلاص في الدعاء، وقد تقدم بيان شيء من أسباب إجابة الدعاء.

ومن أسباب إجابة الدعاء -بل هو أعظمها-: الإخلاص لله عَزَّوَجَلَّ بالتوحيد.

فالمشرك لا يستجاب له دعاء، الذي يدعو الله ويدعو غيره لا يستجيب الله دعاءه إلا عند الضرورة؛ لأن المشرك عند الضرورة يخلص وينسى معبوداته الأخرى، ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلۡبَحۡرِ ضَلَّ مَن تَدۡعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ أَعۡرَضۡتُمۡۚ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾ [الإسراء:٦٧]، أخبر سبحانه أن المشركين في حالة الضرورة إذا أشرفوا على الهلاك، عرفوا أنه لاينجي من الضرر، ولا ينجي من الخطر إلا الله، وأن الأصنام والمعبودات الأخرى لا تنجي من الضرر، ولذلك يلجؤون إلى الله، فيدعونه مخلصين؛ ﴿فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلۡفُلۡكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [العنكبوت:٦٥].

فسبب إجابة الله لدعاء المشركين في حالة الضرورة أنهم يخلصون، يخلصون الدعاء في هذه الحالة، وينسون معبوداتهم، إذاً هذا دليل على أن الإخلاص في الدعاء سببٌ للإجابة حتى من المشرك، فكيف بالمؤمن إذا أخلص الدعاء لله وهو مؤمن، فهذا يستجاب دعائه.

أما الذي يدعو الله ويدعو غيره، فهذا لا يستجيب الله دعاءه؛ كما أنه لا يتقبل جميع أعماله، الله لا يتقبل أعمال المشركين التي يتقربون بها إليه؛ لأنهم لم يخلصوا لله العبادة، الله جَلَّوَعَلَا قال: ﴿وَأَنَّ ٱلۡمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدۡعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن:١٨]، ﴿وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّن يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسۡتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَهُمۡ

عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ﴾، انظر! سمى الدعاء عبادة -أيضًا.

﴿وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ﴾، أي: بدعائهم، ﴿كَٰفِرِينَ﴾ [الأحقاف:٥، ٦].

فالذين يدعون الأموات الآن، ويستغيثون بالقبور، ويستنجدون بالأضرحة هؤلاء مشركون لا يستجاب لهم دعاء، وإن حصل لهم شيء من قضاء حاجاتهم، فإنما هو ابتلاء وامتحان واستدراج لهم -نسأل الله العافية!

فيجب إخلاص الدعاء لله وجميع أنواع العبادات؛ فلا يُدعى مع الله غيره، لا يُدعى الأولياء، ولا يدعى الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولا جبريل، ولا الملائكة، ولا الأولياء، ولا الصالحين.

الدعاء عبادة، بل هو أعظم أنواع العبادة، فلا يكون إلا لله جَلَّ وَعَلَا، فمن دعا غير الله، فهو مشرك الشرك الأكبر الذي يخرج من الملة، فكيف إذا ذبح لغير الله، إذا نذر لغير الله، إذا استغاث بغير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله؟! كل هذه أنواع من الشرك.

لا يجوز للمسلم أن يدعو غير الله عَزَّ وَجَلَّ بأي حال من الأحوال.

الله قريب مجيب، الله غنيٌ كريم، الله عنده كل ما تريد من حاجاتك ومن مطلوباتك، الله قريب مجيب يسمع دعاءك، فلماذا تلجأ إلى غيره؟! لماذا تلجأ إلى القبور، إلى الأضرحة، إلى الأولياء والصالحين، الى، إلى، إلى الأشجار والأحجار، لماذا؟! إلا لأن الشيطان استحوذ على كثير من الناس، فزين لهم دعاء غير الله عَزَّ وَجَلَّ، وقلد بعضهم بعضًا، وعاشوا على هذه الأمور، وطبع الله

على قلوبهم، فصاروا لا يستجيبون للقرآن، ولا يسمعون من القرآن سماع قبول، ولا يتدبرون القرآن، إنما يقرؤونه على ألسنتهم، وأما العمل، فهو بغير القرآن.

هذه هي الأسباب التي رانت على قلوب كثير من الأمة، فصاروا يدعون غير الله، ويذبحون لغير الله، وينذرون لغير الله، ويستغيثون بغير الله.

ومن العجيب أن المشركين الأولين إنما يشركون في حالة الرخاء، أما في حالة الشدة، فإنهم يخلصون الدعاء لله، أما أهل هذا الزمان المنتسبون إلى الإسلام، فشركهم دائم في الرخاء والشدة، بل إنهم إذا اشتد بهم الأمر، زاد شركهم ودعاؤهم لغير الله، إذا وقعوا في الخطر، ينادون الأموات، وينادون الأولياء والصالحين، المشركون الأولون لم يكونوا يعملون هذا، فدل على أن شرك هؤلاء أغلظ من شرك الأولين -ولا حول ولا قوة إلا الله-، لكن أين من يتدبر؟! أين من يعقل؟! أين من يفهم القرآن؟! أين من يفهم ما خُلِق له؟!

الله جَلَّوَعَلَا خلقك لعبادته؛ ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦]، فكيف تعبد غير الله ممن لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًا، ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا؛ من هو ضعيف مثلك، أو أضعف منك؟!! لكن العقول والتقليد الأعمى هو الذي ران على عقول كثير من الناس -والعياذ بالله.

كذلك من أسباب قبول الدعاء: التوسل إلى الله بأسمائه وصفاته سبحانه، قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف:١٨٠].

﴿فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾، فتقول: يا رحمن، ارحمني! يا غفار، اغفر لي! يا تواب، تب

علي! تتوسل إلى الله بأسمائه وصفاته سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وتدعوه بها، ولاتتوسل إليه بغير أسمائه وصفاته وما شرع الله التوسل به.

الله شرع لنا التوسل بأسمائه وصفاته، فندعوه بأسمائه وصفاته؛ كما قال أيوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الأنبياء:٨٣]، توسل إلى الله بأنه أرحم الراحمين، فرحمه الله وشفاه من مرضه؛ ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ﴾ [الأنبياء:٨٤]، لما دعا الله، وتوسل إليه بأنه أرحم الراحمين، كشف الله ما به من الضر.

وذو النون يونس عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لما وقع في بطن الحوت، لما التقمه الحوت، ودخل الحوت في البحر، وصار يونس عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في الظلمات -في ظلمة الليل، وظلمة البحر، وظلمة بطن الحوت-، نادى ربه، وتوسل إليه؛ ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء:٨٧، ٨٨]، توسل إلى الله بالتوحيد: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ﴾، وتوسل إلى الله بتسبيحه: ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾، والتسبيح معناه: التنزيه، توسل إلى الله باعترافه بذنبه: ﴿إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء:٨٧]، اعترف بذنبه، فكانت النتيجة أن الله استجاب له، ونجاه من الظلمات، وقصته مذكورة في مواضع من القرآن للعبرة والاتعاظ بها.

آدم وحواء عَلَيْهِمَا ٱلسَّلَامُ لما وقعا في الذنب، توسلا إلى الله عَزَّوَجَلَّ؛ بأن اعترفا بذنبهما، وطلبا من الله المغفرة؛ ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف:٢٣]، توسلا إلى الله باعترافهما بالذنب؛ ﴿ظَلَمْنَآ

أَنفُسَنَا ﴾، ﴿ وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا ﴾: توسلا إلى الله بالمغفرة، بمغفرة الله عَزَّوَجَلَّ، ﴿ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [الأعراف:٢٣].

وكذلك الأنبياء يتوسلون إلى الله جَلَّوَعَلَا بأسمائه وصفاته.

فالتوسل المشروع أنواع:

النوع الأول: التوسل إلى الله بأسمائه وصفاته سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

النوع الثاني: التوسل إلى الله بالتوحيد؛ ﴿ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ ﴾ [الأنبياء:٨٧]، هذا توحيد.

النوع الثالث: التوسل إلى الله بالاعتراف بالفقر والحاجة والمرض، فتذكر حاجتك، تذكر حاجتك في دعائك، هذا من التوسل إلى الله، الاعتراف بالفقر والحاجة إلى الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ هذا نوع من التوسل.

وكذلك التوسل إلى الله باتباع رسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ؛ ﴿ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ [آل عمران:٥٣].

هذه أنواع التوسل الجائزة في الدعاء المشروع لنا.

أما التوسل المبتدع المخترع الذي ما أنزل الله به من سلطان، فهو التوسل بالأشخاص، التوسل بالأولياء والصالحين، التوسل بالأشخاص؛ بأن تجعل بينك وبين الله واسطة تتوسل به إلى الله، هذا لم يشرعه الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، الله لم يشرع لنا أن نجعل بيننا وبينه واسطة في الدعاء، وإنما أمرنا بدعائه مباشرة؛ ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [غافر:٦٠]، ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ [البقرة:١٨٦].

فالتوسل إلى الله بالوسائل المبتدعة، التوسل بالجاه -جاه الرسول-، أو التوسل بالشخص، أو بالعباد، كل هذا توسل ممنوع، ومنه ما هو شرك، ومنه ما هو بدعة وموصل إلى الشرك ووسيلة إلى الشرك.

فعلي المسلم أن يتجنب هذه الأمور، وأن يأخذ دينه من الكتاب والسنة، ولا يأخذ دينه بالتقليد الأعمى، ومن أقوال الناس والمخرفين وأهل الضلال، يترك هذه الأمور، ويأخذ دينه من كتاب الله وسنة رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ حتى يكون على طريق بين واضح من دينه، وحتى يستجاب دعاؤه.

وكذلك من أسباب قبول الدعاء: أن الإنسان يجزم بالدعاء، ولا يتردد، يجزم بأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ غنيٌّ كريم، ولا يكون عنده فتور وعنده تردد؛ هل يستجاب له أو لا يستجاب؟ هذا أمرٌ لا يجوز؛ «**ٱدْعُوا اللهَ وَأَنْتُمْ مُوْقِنُوْنَ بِالإِجَابَةِ**»(١)، اعزم؛ فإن الله قريب مجيب.

وقد جاء في الحديث: «**لَا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي إِنْ شِئْتَ، اللَّهُمَّ ارْحَمْنِي إِنْ شِئْتَ**»، لا يعلق الدعاء بالمشيئة، نهى الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن ذلك، «**لَا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي إِنْ شِئْتَ، اللَّهُمَّ ارْحَمْنِي إِنْ شِئْتَ؛ لِيَعْزِمِ المَسْأَلَةَ**»، قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فَإِنَّ اللهَ لَا مُكْرِهَ لَهُ**»، وفي رواية: «**فَإِنَّ اللهَ لَا يَتَعَاظَمُهُ شَيْءٌ أَعْطَاهُ**»(٢)، فادع الله بالجزم واليقين، ولا تقل: «**إِنْ شِئْتَ**»، هذا نهى عنه الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأنه يدل على أحد أمرين:

- إما أنك تظن أنك تكره الله، وتقول له: «**إِنْ شِئْتَ**»، ليس بلازم إن كان

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٤٧٩)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري (٦٣٣٩)، ومسلم (٢٦٧٩)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

هذا يشق عليك، هذا معناه، إن كان هذا يشق عليك، فلا تستجب لي، هذا معناه، إذا قلت: «إِنْ شِئْتَ»، معناه أنك تخاطب الله، وتقول: أنا لست ملزمًا لك؛ إن شت اغفر لي، وإن لم تشأ لا تغفر لي، هذا معناه. هل هذا يقوله مسلم؟! لا، قل: اللهم اغفر لي، اللهم ارحمني، ولا تقل: إن شئت، لا تقل: إن شئت؛ لأن هذا يدل على أمرين:

الأمر الأول: أنك تعتقد أن الله يكره دعاءك، أو أنه يثقل عليه إجابتك.

والأمر الثاني: أن هذا يدل على فتورك، تقول: إن حصل لي الإجابة وإلا ليس بلازم، هذا معناه عندك فتور في الطلب، هذا لا يستجاب دعاؤه.

فعلى المسلم أن يدعو الله عازمًا وجازمًا، ولا يعلق ذلك بالمشيئة، فلا يقل: «**اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي إِنْ شِئْتَ؛ اللَّهُمَّ ارْحَمْنِي إِنْ شِئْتَ**»، بل يقول: اللهم اغفر لي، اللهم ارحمني، اللهم ارزقني، اللهم أعطني كذا وكذا. الله غنيٌّ كريم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

كذلك من أسباب قبول الدعاء: تحري أوقات الإجابة؛ كما جاء في الحديث الصحيح: «**يَنْزِلُ رَبُّنَا** تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ **كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرُ، فَيَقُولُ: هَلْ مِنْ سَائِلٍ فَأُعْطِيَهُ؟ هَلْ مِنْ دَاعٍ فَأَسْتَجِيبَ لَهُ؟ هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ فَأَغْفِرَ لَهُ؟**»(١)، استيقظ في آخر الليل، صلِّ، تهجد وادع الله عَزَّوَجَلَّ، هذا وقت الإجابة، لا تنم آخر الليل، إذا كنت تريد لنفسك الخير والنجاة، فلا تغفل عن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

نم أول الليل، فإذا جاء آخر الليل، تقوم في وقت السَّحر؛ ﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران:١٧]، ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ

---

(١) سبق تخريجه (ص١٤١).

يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذاريات:١٧، ١٨]، فتقوم من الليل، خصوصًا من آخر الليل، الثلث الأخير، تصلي وتتهجد، وتوتر، ثم تدعو الله عَزَّوَجَلَّ، وتستغفر، ثم تصلي صلاة الفجر، خير مع خير متواصل.

أما هذا الذي ينام آخر الليل، وربما لا يقوم لصلاة الفجر، حرم نفسه من هذه الساعة العظيمة آخر الليل، وحرم نفسه من صلاة الفجر، فماذا تكون حال هذا الشخص؟! نسأل الله الهداية لنا وللمسلمين!

الله يفتح لك الأبواب، وأنت تغلقها عن نفسك؟! هذا ليس من فعل أهل الإيمان وأهل العقل واليقين.

فمن أسباب الإجابة أن تتحرى أوقات الإجابة بالأسحار، تحرَّ أوقات الإجابة في يوم الجمعة؛ فإن «**فِي يَوْمِ الْجُمُعَةِ سَاعَةً لَا يُوَافِقُهَا عَبْدٌ مُسْلِمٌ، وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي، يَسْأَلُ اللهَ شَيْئًا، إِلَّا أَعْطَاهُ إِيَّاهُ**»(١)، فيوم الجمعة يوم عظيم، فيه صلاة الجمعة، وفيه ساعة الإجابة، أخفاها الله في هذا اليوم؛ من أجل أن تجتهد بالدعاء في سائر اليوم؛ حتى تصادف هذه الساعة.

وكذلك في ليلة القدر، ليلة القدر وقت لإجابة الدعاء، وليلة القدر أخفاها الله في رمضان؛ من أجل أن تجتهد في كل الشهر بالدعاء والصلاة والعبادة وقيام الليل، قيام ليالي رمضان مع الإمام مع المسلمين؛ حتى تستكمل فضائل هذا الشهر، ولا تخصص ليلة واحدة أو ليالي من رمضان وتترك البقية، ربما تكون ليلة القدر في الأيام التي تركتها، فإذا اجتهدت في كل الشهر من أوله إلى آخره

---

(١) أخرجه البخاري (٩٣٥)، ومسلم (٨٥٢)، من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

بالصلاة والدعاء والعبادة، فلابد أن تكون قد صادفت ليلة القدر، ومعها زيادة بقية الشهر كله من أوله إلى آخره، أدركت ليلة القدر، وأدركت فضل الشهر كله.

هذا خيرٌ عظيم، الأبواب مفتحة بين الله وبين عباده، لكن العباد هم الذين يغفلون عن هذ الفرص وعن هذه الأبواب.

أيضًا من أسباب قبول الدعاء: أنك تدعو بالأدعية الشرعية الواردة في كتاب الله، أو في سنة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، تتحراها، تدعو بدعاء القرآن، أو بدعاء الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أو الأدعية التي علمها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأمته، فتدعو بالدعاء الشرعي، ولا تبتكر أدعية من عندك، بل احرص على أن تدعو بالأدعية الشرعية الواردة في الكتاب والسنة، أو الأدعية التي لا تخالف الكتاب والسنة، لا تخالف منهج الكتاب والسنة، هذا من أسباب الإجابة.

كذلك تتحرى الجوامع من الأدعية، تتحرى الأدعية الجوامع التي تجمع لك الخير -خير الدنيا والآخرة-؛ تدعو لنفسك ولوالديك ولإخوانك المسلمين، تجتهد في الدعاء.

كل هذه أسباب إذا توفرت للمسلم، ودعا الله بها، فإن الله جَلَّ وَعَلَا قريب مجيب، وإنما يأتي النقص من انفسنا، ويأتي الكسل من عندنا، ويأتي الحرمان منا نحن من أفعالنا.

فعلينا أن ننتهز هذه الفرص، أن ننتهز فرص الحياة، وأن نكثر من الدعاء والتضرع إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وأن نخلص الدعاء لله، وأن نتحرى أوقات

الإجابة أكثر من غيرها، وإلا الدعاء مفتوح في أي وقت؛ ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر:٦٠]، في كل وقت باب الله مفتوح الليل والنهار، ولكن تحري الأوقات الفاضلة فيه زيادة رجاء لقبول الدعاء من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

نسأل الله سبحانه بأسمائه الحسنى وصفاته العلى أن يمن علينا وعليكم وعلى جميع المسلمين بالتوفيق والهداية، وأن يوفقنا وإياكم لصالح القول والعمل، وأن يوفقنا وإياكم للعلم النافع والعمل الصالح، وأن يصلح أحوال المسلمين، نعوذ بالله من شر نفوسنا ومن سيئات أعمالنا، نعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين:

نواصل الكلام في درسنا على التفسير، قد انتهى بنا الكلام إلى قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ ۚ وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُواْ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة:١٨٣-١٨٥].

في هذه الآيات الكريمة ابتدأها الله جَلَّوَعَلَا بنداء المؤمنين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؛ لأن المؤمنين هم الذين يمتثلون أوامر الله، ويجتنبون ما حرم الله، فهم الذين ينتفعون بأوامر الله ونواهيه، أما الكفار والمنافقون فإنهم لايلتفتون إلى أوامر الله ونواهيه، وإنما يناديهم الله بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ [البقرة:٢١]؛ لإقامة الحجة عليهم وتبليغهم، ثم بعد ذلك أمرهم إلى الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

فقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ ﴾، ﴿كُتِبَ﴾: تكرر في أن الله ذكر هذا في آيات سابقة: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ ﴾ [البقرة:١٨٠]، ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ﴾ [البقرة:٢١٦]، ومعنى ﴿كُتِبَ﴾: فُرِض، فالكتب معناه الفرض، أي: فُرِض عليكم الصيام.

والصيام في اللغة: هو الإمساك، هو الإمساك عن الكلام، والإمساك عن المشي؛ كما ذكر الله عن مريم أنها قالت: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴾ [مريم:٢٦]، ﴿صَوْمًا ﴾، يعني: عن الكلام، كذلك الإمساك عن المشي، قال الشاعر(١):

خَيْلٌ صِيَامٌ وَخَيْلٌ غَيْرُ صَائِمَةٍ ....

فمعنى: (خَيْلٌ صِيَامٌ)، يعني: واقفة، (وَخَيْلٌ غَيْرُ صَائِمَةٍ)، يعني: تجري.

.... تَحْتَ العَجَاجِ وأخرَى تَعْلُكُ اللُّجُمَا

فهذا في اللغة.

ويقال: النجوم صائمة، يعني: واقفة في نظر العين، يستبطئ الناس سيرها، ويقولون: صائمة، يعني: كأنها ممسكة عن الجريان، هذا في اللغة(٢).

أما في الشرع: فالصيام هو الإمساك عن المفطرات الحسية والمعنوية بنية، الإمساك بنية؛ لأن الصيام الشرعي عبادة، والعبادة لا تصح إلا بنية، فهو: الإمساك عن المفطرات بنية من طلوع الفجر الثاني إلى غروب الشمس، هذا هو الصيام الشرعي(٣)، وهو المقصود هنا.

---

(١) سبق عزوه: (ص٣٢).

(٢) انظر: (ص٣١-٣٢).

(٣) انظر: (ص٣٢).

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ ﴾، أي: فرض الله عليكم أن تتركوا المفطرات من الفجر إلى غروب الشمس.

ولما كان الصيام شاقًّا على النفوس؛ لأن فيه تركًا لمألوفاتها، وتركًا لشهواتها، وقد تكون محتاجة إليها، ففيه جوع، وفيه عطش، وفيه ضعف بدني، شاق على النفوس.

قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ ﴾، فالصيام ليس خاصًّا بهذه الأمة، وإنما هو عامٌّ لجميع الأنبياء وأممهم، ﴿كَمَا كُتِبَ ﴾، أي: كما فُرِض ﴿ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ ﴾، وهذا مما يسهل على المسلمين مشقة الصيام؛ لأنه ما دام أنه مفروض على جميع الأمم قبلنا، فإن هذا يُقنع النفوس، ويُسهل مشقة الصيام؛ لأن الشيء إذا عمَّ سهل، وإن كان الصيام عند الأمم السابقة يختلف عن الصيام عند المسلمين؛ ﴿ لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗا ﴾ [المائدة:٤٨]، ولكن فرضيته أو وجوبه عامٌّ لجميع الأمم المتبعة للأنبياء عَلَيۡهِمُ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

والصيام فُرِض في السنة الثانية من الهجرة، وصام صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ تسعة رمضانات، ثم توفاه الله عَزَّوَجَلَّ.

والصيام فيه فضل عظيم؛ للحديث القدسي: أن الله جَلَّ وَعَلَا يقول: «**كُلُّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ لَهُ، الْحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعِ مِائَةِ ضِعْفٍ، إِلَّا الصِّيَامَ، فَإِنَّهُ لِي، وَأَنَا أَجْزِي بِهِ، تَرَكَ شَهْوَتَهُ وَطَعَامَهُ وَشَرَابَهُ مِنْ أَجْلِي، وَلَخُلُوفُ فَمِ الصَّائِمِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللهِ مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ**»[(١)].

---

(١) سبق تخريجه (ص١٠٦).

فهذا الحديث فيه أن أجر الصيام لا يعلم مقداره إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، أضافه إلى نفسه، فقال: «**الصَّوْمُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ**»، ولم يبين سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مقدار الجزاء؛ لأن أجر الصيام لا يتحدد بعدد، وإنما هو بغير حساب؛ لأن الصيام فيه الصبر، والله جَلَّ وَعَلَا يقول: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر:١٠]؛ «**أَنَّهُ تَرَكَ شَهْوَتَهُ وَطَعَامَهُ وَشَرَابَهُ مِنْ أَجْلِي**»، أي: من أجل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فآثر رضا الله على ما تشتهيه نفسه، فلهذا صار عمله من أفضل الأعمال، ووعد الله عليه بالجزاء الذي لا يعلم مقداره إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وقد خصص الله بابًا في الجنة للصائمين يقال له: الريان، يدخل منه الصائمون، لا يدخل منه غيرهم، فإذا دخلوا، أُغلق[١]، هذا مما يدل على فضل الصيام وتميزه من بين سائر الأعمال.

الصيام عبادة عظيمة، وفيه أسرار عظيمة وحكم عظيمة، فهو:

أولًا: يدل على صدق الإيمان؛ فإن الصائم إذا ترك ما تشتهيه نفسه وقد يكون بحاجة شديدة إليه؛ كأن يكون ظمأنًا ويترك الماء البارد عنده، ويكون جائعًا ويترك الطعام عنده، ويصبر على الجوع ويصبر على العطش؛ ابتغاء مرضاة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فهذا فيه تعويد للنفس على الصبر والطاعة.

وأيضًا الصيام يضيق مجاري الشيطان من ابن آدم؛ فـ«**إِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِنَ ابْنِ آدَمَ مَجْرَى الدَّمِ**»[٢]، فإذا كان الإنسان مفطرًا، فإن الشيطان يسول له، ويغريه بالمعاصي، ويثبطه عن الطاعات، فإذا صام، فإن هذا يطرد الشيطان عنه،

---

(١) سبق تخريجه (ص١١٣).

(٢) أخرجه البخاري (٧١٧١)، من حديث علي بن حسين.

الصيام يطرد الشيطان عنه؛ لأنه ترك شهواته، والشيطان إنما يأتي مع الشهوات، فإذا تركها المسلم سد الطريق على الشيطان، ولهذا جاء في الحديث أن شهر رمضان تُصَفَّدُ فيه الشياطين وتغل، فلا يستطيعون أن يتمكنوا من المؤمنين في صيامهم[1].

والصيام يعود الإنسان على الإحسان؛ لأنه إذا ذاق طعم الجوع، عطف على الجائعين والمحتاجين، وإذا ذاق طعم العطش، فإنه يعطف على العطشان ويسقيه؛ لأنه جرب العطش، وجرب الجوع، فيسبب ذلك رقة في قلبه نحو الجائعين والعطشى، فيعطف عليهم.

وأيضًا الصيام يقوي على الطاعات، فالصائم أنشط على العبادة من المفطر؛ لأنه يطهر القلب وينقيه، ويرقق القلوب، فلذلك تجدون الصائمين أنشط على العبادات من غيرهم؛ لأن الصوم هذبهم وعودهم، وفرغ قلوبهم عن الشواغل، فأقبلوا على الله عَزَّوَجَلَّ، وسهلت عليهم العبادات -من صلاة، وتلاوة للقرآن، وذكر لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وصدقات، وبر وإحسان-، هذا يكون عند الصائمين أكثر وأسهل من غيرهم، فهذا من بركات الصيام، ولهذا قال: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة:١٨٣]، هذا فيه بيان للحكمة من الصيام، وهو أن الصيام يسبب تقوى الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، والإقبال على طاعته؛ لأن التقوى معناها: اتخاذ الوقاية بين العبد وبين النار وغضب الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وهذه الوقاية: هي فعل الطاعات وتجنب

---

(١) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (١٨٩٩)، ومسلم (١٠٧٩)، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «**إِذَا جَاءَ رَمَضَانُ فُتِّحَتْ أَبْوَابُ الجَنَّةِ، وَغُلِّقَتْ أَبْوَابُ النَّارِ، وَصُفِّدَتِ الشَّيَاطِينُ**».

المحرمات، فالصيام يسبب التقوى بالمعاني التي ذكرنا لكم بعضها؛ فليس الصائم كالمفطر في الإقبال على تقوى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، والبعد عن معاصيه، فالصيام تربية عظيمة للنفوس يكسبها تقوى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، والرغبة في العبادات والبعد عن المعاصي.

ثم قال سبحانه: ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ﴾، هذا -أيضًا- من التسهيل والامتنان على العباد في أن الله لم يجعل الصيام في كل السنة، وإنما جعله في أيام معدودات، ولو شاء لجعله في كل السنة، لوشاء لأمركم أن تصوموا دائمًا، ولا تفطروا، ولكن من رحمته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أنه جعله في أيام معدودات، إذا انتهت فإنكم ترجعون إلى فطركم، وإلى تناول ما مُنِعتم منه من المباحات والطيبات.

﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ﴾: وقد اختلف العلماء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ في هذه الأيام المعدودات: ما المراد بها؟ فبعض العلماء قال: هذه الأيام هي ثلاثة أيام، هذا في بداية تشريع الصيام أنه جعله ثلاثة أيام، ثم لما ألفوا الصيام وتعودوه، نقلهم الله إلى صيام الشهر؛ ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾، إلى قوله: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ [البقرة:١٨٥]، فلما تعودوا الصيام ثلاثة الأيام، نقلهم الله إلى صيام الشهر، وهذا من باب التدرج في التشريع؛ لأن العبادات الشاقة يشرعها الله جَلَّ وَعَلَا بالتدرج شيئًا فشيئًا؛ رحمة بعباده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، هذا قول.

والقول الثاني: أن الأيام المعدودات هي شهر رمضان، فيكون قوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ﴾ مبينًا لهذه الأيام المعدودات، وشهر رمضان أيام معدودات، شهر واحد من اثني عشر شهرًا، وهو أيام معدودات، وهو قليل بالنسبة للأشهر

الإحدى عشر، فعلى هذا يكون قوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ﴾، بيانًا لقوله: ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾، وعلى القول الأول يكون قوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ﴾ ناسخًا لقوله: ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾؛ أنها ثلاثة في الأول، ثم نُسِخت وجُعِلت شهرًا كاملًا، فيكون ذلك من باب النسخ[1]، والله جَلَّ وَعَلَا ينسخ ما يشاء من أوامره ونواهيه، وذلك لمصالح العباد وتربيتهم والتدرج بهم شيئًا فشيئًا بما هو شاق عليهم ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾.

ثم -أيضًا- الله جَلَّ وَعَلَا سهل تسهيلًا آخر في الصيام، فقال: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾، يعني: أن هذا الصيام في هذه الأيام المعدودات إنما يجب على الإنسان المقيم الصحيح، فالمقيم الصحيح يلزمه الصيام أداء، أما المسافر أو المريض الذي يلحقه بالصوم مشقة، فإنه يفطر في وقت الصيام، ويقضي ما أفطره من أيام أُخر، يفطر وقت سفره، ويفطر وقت مرضه، فإذا انتهى سفره، فإنه يقضي ما أفطر، وإذا شُفِي من مرضه، فإنه يقضي ما أفطر.

﴿فَعِدَّةٌ﴾، يعني: فيصوم عدة أيام بقدر الأيام التي أفطرها، هذا تيسير من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

ثم -أيضًا- ذكر تيسيرًا ثالثًا، فقال: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾، ﴿الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ﴾، أي: الذين لا يستطيعون الصيام، يطيقونه يعني: لا يستطيعون الصيام؛ لأن في القراءة الثانية: وعلى الذين يطوقونه[2]،

(١) سبق بيانه (ص١٩٧-١٩٨).
(٢) سبق (ص١٩٩).

يعني: يشق عليهم، ولا يستطيعون الصيام، وهم: الكبير الهرم، والمريض مرضًا مزمنًا، فهؤلاء لا صيام عليهم لا أداء ولا قضاء، وإنما يقدمون الفدية.

الفدية: ﴿فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾: عن كل يوم أفطره، فالعاجز عن الصيام دائمًا لكبرٍ أو مرض لا يرجى برؤه، هؤلاء ليس عليهم صيام، وإنما عليهم الفدية، وهي إطعام مسكين عن كل يوم، ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾.

إذًا فالناس بالنسبة للصيام على ثلاثة أقسام:

القسم الأول: من يستطيع الصيام أداء، وهو المقيم الصحيح، فهذا يلزمه الصيام أداء، ولا يجوز له الفطر.

الثاني: من لا يستطيع الصيام أداء، ولكنه يستطيعه قضاء، فهذا يفطر وقت العذر -وهو المرض و السفر-، ويقضي من أيام أُخر بعدد ما أفطر.

القسم الثالث: من لا يستطيع الصيام لا أداء ولا قضاء، وهو الكبير الهرم الذي معه عقله وتفكيره، والمريض المرض المزمن، يعني: المرض الذي لا يرجى له شفاء، ولا يستطيعان الصيام، هذان يقدمان الفدية، وهي طعام مسكين عن كل يوم، هذا من تيسير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لعباده ورحمته بهم.

ثم قال: ﴿فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا﴾، يعني: زاد على إطعام المسكين؛ بأن أطعم عدة مساكين، ﴿فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ﴾: زيادة من الخير خير.

الواجب الذي لابد منه إطعام مسكين عن كل يوم، وإذا زاد وأطعم عدة مساكين، فإن هذا زيادة خير وتطوع؛ ﴿فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ﴾، يعني: زيادة خير.

ثم قال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:١٨٤]، هذا فيه بيان ما في الصيام من الخير، وما فيه من الأجر، ﴿وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾: هذا على القول بأن الله خَيَّرَ المسلمين في أول الأمر بين الصيام والإطعام، قال: ﴿وَأَن تَصُومُواْ﴾، يعني: أن الصيام خيرٌ من الإطعام، هذا على القول بأن الله جَلَّوَعَلَا جعل الصيام في أول الأمر على التخيير، خَيَّرَ بين الصيام والإطعام، ثم قال: الصيام خيرٌ من الإطعام، هذا على القول بالتخيير.

أما على القول بعدم التخيير، فيكون معنى قوله: ﴿فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ﴾، يعني: زاد في الإطعام، ﴿وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾: هذا فيه ما في الصيام من الخير، وما فيه من البركات، ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

فهذا ترغيبٌ في الصيام وحثٌ عليه، وأن الإنسان وإن ترك شهواته، وترك مألوفاته، وحمّل نفسه المشقة، فإن ذلك خيرٌ له من الإفطار وتناول الشهوات العاجلة، ما عند الله من الأجر خيرٌ له من شهواته التي تركها في مدة يسيرة، يعوضه الله عنها خيرات كثيرة في الجنة.

﴿وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾: هذا ترغيبٌ في الصيام.

﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾: تعلمون ما عند الله جَلَّوَعَلَا من أجر الصائم، وما له عند الله من الخير؛ فإنكم حينئذ تفرحون بالصيام، بدل أن تكرهوه تفرحون به؛ رجاء لما عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

ثم قال جَلَّوَعَلَا: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾، شهر رمضان معروف، هو الشهر

التاسع من شهور السنة، السنة اثنا عشر شهرًا: المحرم، وصفر، والربيعان، والجمادان، ورجب، وشعبان، ورمضان، وشوال، وذو القعدة، وذو الحجة، اثنا عشر شهرًا، وشهر رمضان هو التاسع منها، ما بين شعبان وبين شوال، هو الشهر التاسع من السنة.

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾: هذا مدح لهذا الشهر، وبيان لفضله، وترغيب بصيامه، وترغيب بالمسابقة في الخيرات فيه؛ لأن هذا الشهر يمتاز على غيره من شهور السنة بميزة عظيمة، وهي أن الله أنزل فيه القرآن.

وفي الآية الأخرى يقول الله جَلَّوَعَلَا: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِي لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ [القدر:١]، ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ [الدخان:٣]، وليلة القدر هي في رمضان، فالقرآن أُنزل في ليلة القدر وفي رمضان، ولكن هل معنى هذا أن القرآن أُنزل كله في شهر رمضان أو في ليلة القدر؟ مع العلم بأن القرآن أُنزل في ثلاث وعشرين سنة، ولم ينزل عليه جملة واحدة، ولهذا لما اقترح المشركون واعترضوا، وقالوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً﴾، قال الله جَلَّوَعَلَا: ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾ [الفرقان:٣٢]، يعني: فرقناه في النزول، ﴿وَرَتَّلْنَٰهُ﴾، يعني: فرقناه، وجعلناه متتابعًا، ولم ننزله جملة واحدة؛ لحكمة عظيمة، وهي التسهيل على الأمة، لو نزل عليهم جملة واحدة، لشق عليهم العمل به، الله جَلَّوَعَلَا فرقه؛ ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾ [الإسراء:١٠٦]، فمن حكمة الله أنه لم ينزل القرآن على الرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ جميعًا في جملة واحدة؛ لأجل أن يُسهل على الناس العمل به، ولأجل أن يُسهل على الرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ تلقيه، وحفظه.

إذًا فالقرآن لم ينزل جملة واحدة، وإنما نزل منجمًا ومُفرقًا في ثلاث وعشرين سنة، إذًا، ما معنى قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ [البقرة:١٨٥]؟ ظاهره: أن القرآن أُنزل كله في شهر رمضان، وليس الأمر كذلك بالإجماع.

فالجواب: أن القرآن يُطلق على بعضه، ويطلق على كله، فيطلق على السورة أنها قرآن، ويطلق على الآية الواحدة أنها قرآن، فمعنى قوله: ﴿أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾، أي: اُبتدئ نزول القرآن في رمضان، في ليلة القدر، أُنزل عليه شيء من القرآن ابتداءً، والقرآن يسمى به كل القرآن، ويسمى به بعض القرآن، هذا هو الجواب الصحيح الذي يتضح به المعنى، فقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾، أي: اُبتدئ فيه إنزال القرآن، فهذا شرفٌ عظيم لهذا الشهر أن الله ابتدأ إنزال القرآن فيه على رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وفي قوله: ﴿أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾: ترغيب بتلاوة القرآن في شهر رمضان، والإكثار من تلاوته؛ لأن تلاوة القرآن في شهر رمضان لها خاصية على غيره؛ فهو شهر القرآن، ولهذا كان صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يتفرغ في رمضان لتلاوة القرآن، وكان ينزل إليه جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ فيدارسه القرآن في شهر رمضان، يعرض القرآن على جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ(١)، وفي السنة التي توفي فيها صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عرض القرآن في رمضان مرتين على جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ(٢)، فالرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يخص

---

(١) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (٣٢٢٠)، ومسلم (٢٣٠٨)، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «أَجْوَدَ النَّاسِ، وَكَانَ أَجْوَدُ مَا يَكُونُ فِي رَمَضَانَ حِينَ يَلْقَاهُ جِبْرِيلُ، وَكَانَ جِبْرِيلُ يَلْقَاهُ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ مِنْ رَمَضَانَ، فَيُدَارِسُهُ الْقُرْآنَ، فَلَرَسُولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ يَلْقَاهُ جِبْرِيلُ أَجْوَدُ بِالْخَيْرِ مِنَ الرِّيحِ الْمُرْسَلَةِ».

(٢) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (٣٦٢٣)، ومسلم (٢٤٥٠)، من حديث عَائِشَةَ =

شهر رمضان بالتلاوة أكثر من غيره ويتدارس هو وجبريل - عليهما الصلاة والسلام- يتدارسان القرآن في رمضان.

وكان السلف الصالح من هذه الأمة -ومن علمائها بالخصوص- كانوا يتفرغون في شهر رمضان لتلاوة القرآن، فكانوا يتركون حِلق الذكر ومجالس العلم والتعليم الذي كانوا يزاولونه في السنة، كانوا يتركون ذلك في شهر رمضان، ويتفرغون لتلاوة القرآن؛ لأن الله جَلَّوَعَلَا قال: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ ﴾، فله خاصية بتلاوة القرآن فيه.

ثم قال جَلَّوَعَلَا: ﴿ هُدًى لِّلنَّاسِ ﴾: هذا بيان للحكمة من إنزال القرآن، الحكمة من إنزال القرآن: هداية الناس؛ هدايتهم إلى الحق، هذه هي الحكمة في إنزال القرآن، فالقرآن نزل لهداية الناس من الكفر إلى الإيمان، ومن الضلال إلى الهدى، فالقرآن هو الهادي، قال الله جَلَّوَعَلَا: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾ [الإسراء:٩]، فالله أنزل هذا القرآن لهداية الناس؛ ﴿ هُدًى لِّلنَّاسِ ﴾، انظر! ﴿ هُدًى لِّلنَّاسِ ﴾: المؤمنين والكفار؛ لأن لفظ الناس يشمل المؤمنين والكفار، فالمؤمنون يكون هدى لهم باتباعه والعمل به، والكفار يهتدون به هداية الدلالة والإرشاد وإقامة الحجة عليهم، فهو هدى للكفار بمعنى: أنه يدلهم على طريق الحق لو أرادوه، أو يقيم الحجة عليهم إذا عاندوا.

= رَضِيَٱللَّهُعَنهَا، وفيه: «...فَأَخْبَرَنِي أَنَّ جِبْرِيلَ كَانَ يُعَارِضُهُ الْقُرْآنَ فِي كُلِّ سَنَةٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ، وَإِنَّهُ عَارَضَهُ الْآنَ مَرَّتَيْنِ...».

في أول السورة يقول جَلَّوَعَلَا: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة:٢]، خص المتقين، وهنا يقول: ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ [البقرة:١٨٥]، ما الجواب؟ الجواب عن هذا: أن المتقين هدى لهم في أنهم ينتفعون به، ويؤمنون به، وأما الكفار فهو هدى لهم بمعنى: أنه يبين لهم الطريق الصحيح من الطريق الباطل لو أرادوا الحق، فإن لم يريدوا، فإنه يكون حجة عليهم يوم القيامة؛ لئلا يقولوا: ﴿مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾ [المائدة:١٩].

﴿هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ﴾، أي: دلالات واضحة.

﴿مِّنَ ٱلْهُدَىٰ﴾: القرآن فيه دلالات واضحة، فيه آيات بينات، يعني: واضحة الدلالة والإفادة والهداية إلى طريق الحق.

﴿وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾: الفرقان يعني: بين الحق والباطل، فالقرآن فرقان، ومن أسماء القرآن: الفرقان؛ لأنه يفرق بين الحق والباطل، وبين الهدى والضلال.

ثم قال سبحانه: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾، ما الحكمة في أن الله كرر هذه الجملة مرتين؛ في قوله في أول الآيات: ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ [البقرة:١٨٤]، ولما ذكر شهر رمضان، قال: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ [البقرة:١٨٥]؟ هذا لتأكيد الرخصة.

وعلى القول بأن الآية الأولى منسوخة بهذه الآية، ففيه أن الرخصة بالإفطار

للمسافر والمريض لم تنسخ، كررها لبيان أنها لم تنسخ من الآية السابقة، أو أنه كررها للتأكيد.

﴿وَمَن كَانَ مَرِيضًا﴾، والمراد بالمرض: المرض الذي لا يستطيع معه الصيام، أو يشق عليه مشقة كبيرة، أو يسبب له مضاعفة المرض، أو يؤخر عنه البرء، فإذا نصح الأطباء أن الصيام يضر المريض، ويؤخر عليه البرء، أو يزيد في مرضه، فإنه يفطر، أو هو وجد من نفسه أنه لا يستطيع الصيام، فإنه يفطر، ويأخذ بالرخصة، وكذلك المسافر.

أما المرض اليسير -مثل وجع الضرس، مثل الحمى اليسيرة-، فهذه لاتبيح الإفطار، الأمراض اليسيرة المعتادة عند الناس التي تتكرر هذه لا تبيح الإفطار، إنما المراد المرض الذي يشق معه الصيام مشقة ظاهرة، أو يسبب له زيادة في المرض، هذا هو المقصود.

﴿أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾: السفر ضد الإقامة، السفر: من سفَرَ الشيء إذا برز، سُمِّي المسافر مسافرًا؛ لأنه برز من البلد، وسفر من البلد إلى البر، هذا معنى السفر، وقيل: سُمِّي السفر؛ لأنه يسفر عن أخلاق الرجال، فالرجال تُعرف أخلاقهم في الأسفار، تُعرف شهامتهم وكرامتهم وصبرهم وتحملهم في الأسفار(١).

﴿أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾: أطلق السفر هنا، فمعناه أن مطلق السفر يبيح الإفطار، ولكن العلماء رَحِمَهُمُ اللَّهُ بينوا أن السفر الذي يبيح الإفطار له شروط:

---

(١) انظر مادة (سفر) في: العين (٧/ ٢٤٦)، وتهذيب اللغة (١٢/ ٢٧٨)، والصحاح (٢/ ٦٨٥)، ومقاييس اللغة (٣/ ٨٢).

أولًا: أن يكون مسيرة يومين، بعضهم يقول: مسيرة ثلاثة أيام للرواحل. ومسيرة اليومين تعادل ثمانين كيلو بالتقدير المعاصر، ثمانين كيلو عبارة عن مرحلتين للإبل والأقدام، كل مرحلة أربعون كيلو، يكون المجموع ثمانين كيلو؛ لأنه جاء في الحديث الصحيح: «**لَا يَحِلُّ لِامْرَأَةٍ تُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، أَنْ تُسَافِرَ مَسِيرَةَ يَوْمَيْنِ إِلَّا وَمَعَهَا ذُو مَحْرَمٍ**»[١]، هذا دليل الحنابلة، قالوا: السفر الذي يحتاج إلى محرم مسيرة يومين؛ كما قال الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ودل على أن السفر الذي دون مسيرة يومين للراحلة لا يحتاج إلى محرم، هذه مسافة السفر عند الحنابلة[٢].

أما عند الحنفية فيقولون: مسيرة السفر الذي يبيح الإفطار ثلاثة أيام؛ الحنفية استدلوا بالرواية الثانية للحديث: «**لَا يَحِلُّ لِامْرَأَةٍ تُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، أَنْ تُسَافِرَ مَسِيرَةَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ إِلَّا وَمَعَهَا ذُو مَحْرَمٍ**»[٣].

وبعض العلماء يقول: مطلق السفر الذي يسميه الناس سفرًا، ويأخذون له الاستعداد، هذا هو السفر؛ لأنه جاء في الرواية الصحيحة: «**لَا يَحِلُّ لِامْرَأَةٍ تُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، أَنْ تُسَافِرَ إِلَّا وَمَعَهَا ذُو مَحْرَمٍ**»[٤]، ولم يذكر يومين ولا ثلاثة، بل قال: لا يحل لها أن تسافر. والحكم الشرعي إذا أُطلق، يرجع فيه إلى العرف، فما عده الناس سفرًا، وأخذوا له أهبة السفر، فإنه يبيح الإفطار، وما لم يعدوه سفرًا، فإنه لا يبيح الإفطار، هذا شرط، هذا هو الشرط الأول: أن يبلغ السفر المسافة المحددة شرعًا.

---

(١) سبق تخريجه (ص٢٠٠).
(٢) انظر: الجامع لعلوم الإمام أحمد -الفقه (٦/ ٥٤٧، ٥٦٣).
(٣) سبق تخريجه (ص٢٠٠).
(٤) سبق تخريجه (ص٢٠٠).

الشرط الثاني: أن يكون سفرًا مباحًا؛ سفرًا مباحًا؛ إما لنزهة، وإما لتجارة، وإما لطلب علم، أو لصلة رحم، سفر مباح، أو يكون سفر طاعة كالسفر للحج والعمرة، أما إن كان السفر محرمًا، فإنه لا يجيز الإفطار في رمضان؛ وذلك كالسفر إلى بلاد الكفار لأجل النزهة فيها والجلوس فيها مع الكفار، هذا سفر محرم، أو السفر لزيارة القبور أو المشاهد، فهذا سفر محرم؛ لأنه وسيلة إلى الشرك، فلا تباح فيه الرخصة.

يشترط في السفر: أن يكون سفرًا مباحًا، أو سفرًا مشروعًا، أما إن كان سفرًا محرمًا كالذين يسافرون إلى بلاد الكفار لمجرد النزهة، فإن هذا سفرٌ محرم؛ لأنه وسيلة إلى الحرام، ويسبب الوقوع في الحرام، فهو سفرٌ محرم، لا يجوز للمسافر فيه أن يفطر في رمضان، ولا يقصر الصلاة -أيضًا-؛ لأن الرخص لاتستباح بالمعاصي، وإنما تستباح الرخص في المباحات والمشروعات.

﴿وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾: هذا فيه دليل على وجوب القضاء على من أفطر من أجل المرض أو من أجل السفر، وسواء كان السفر أو المرض من بداية الشهر أو أنه طرأ في أثناء الشهر، فلو أنه صام أول الشهر، ثم سافر في أثنائه، يفطر، ولو أنه صام أول الشهر، ثم مرض في أثنائه، فإنه يفطر، مثل من كان معه العذر من أول الشهر.

﴿وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾، يعني: يجب عليه أن يقضي ما أفطره في سفره أو في مرضه من أجل أن يكمل عدد الشهر.

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ﴾، ما معنى ﴿شَهِدَ﴾؟ يعني: حضر، دخل عليه الشهر وهو حاضر مقيم، وليس به مرض، فإنه يصوم.

ثم أيضًا هنا سؤال، وهو: بماذا يثبت دخول الشهر؟ هذا بيَّنه الرسول صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بقوله: «صُومُوا لِرُؤْيَتِهِ وَأَفْطِرُوا لِرُؤْيَتِهِ، فَإِنْ غُبِّيَ عَلَيْكُمْ فَأَكْمِلُوا عِدَّةَ شَعْبَانَ ثَلَاثِينَ»(١)، فيصام رمضان؛ إما برؤية الهلال، وإما بإكمال شعبان ثلاثين يومًا إذا لم ير الهلال؛ بعلامتين واضحتين.

وأيضًا لا يشترط في رؤية الهلال أن يراه الناس كلهم، بل إذا رآه مسلم واحد -ولو امرأة-، فإنه يصام برؤيته؛ لحديث ابن عمر رَضِيَاللَّهُعَنْهُمَا، قال: «تَرَاءَى النَّاسُ الهِلَالَ، فَأَخْبَرْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، أَنِّي رَأَيْتُهُ فَصَامَهُ، وَأَمَرَ النَّاسَ بِصِيَامِهِ»(٢)؛ برؤية رجل واحد، وهو ابن عمر رَضِيَاللَّهُعَنْهُمَا، ليس من شرطه أن كل الناس يرون الهلال، بل إذا رآه مسلم عدل واحد، يكفي ولو امرأة.

«صُومُوا لِرُؤْيَتِهِ»، رؤيته يعني: سواء رآه واحد أو أكثر، فيجب الصيام.

فإن لم ير -لغيم أو قتر، أو شيء حجب الرؤية ليلة الثلاثين من شعبان-، فإنه يُكمل شعبان ثلاثين يومًا، ثم يصام رمضان، هذه هي العلامة الفارقة لدخول الشهر.

الله جَلَّوَعَلَا جعل الأهلة مواقيت للناس؛ قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾ [البقرة:١٨٩]، الأهلة جعلها الله لمعرفة

(١) أخرجه البخاري (١٩٠٩)، ومسلم (١٠٨١)، من حديث أبي هريرة رَضِيَاللَّهُعَنْهُ.
(٢) سبق تخريجه (ص١٠٣).

بداية الشهور؛ بداية شهر الصيام، وبداية شهر الحج، وبداية شهور السنة للمداينات والآجال والعدد وغير ذلك من مصالح الناس؛ ﴿قُلۡ هِيَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلۡحَجِّ﴾.

ثم قال سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ في ختام الآية مبينًا الحكمة في كونه سبحانه أباح للمسافر والمريض أن يفطرا، وأن يقضيا من أيام أُخر، بيَّن الحكمة بقوله: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ﴾، هذا من رحمة الله جَلَّوَعَلَا أنه خفف عن المسافر، وخفف عن المريض؛ بأن يفطر كل منهما في رمضان، ويقضي بعد رمضان ما أفطر، هذا من تيسير الله، ولم يحتم الصيام على المسافر، ولم يحتم الصيام على المريض؛ رحمة منه سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ.

﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ﴾، هذه الرخصة، ﴿وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ﴾: وهو إيجاب الصيام على المريض، وإيجاب الصيام على المسافر، هذا العسر، والله لا يريده سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ، ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖ﴾ [الحج:٧٨].

﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ وَلِتُكۡمِلُواْ ٱلۡعِدَّةَ﴾: هذه الحكمة الثانية، يعني: وأمركم بالقضاء؛ من أجل أن تكملوا العدة، عدة الشهر، وعدة الشهر إما أن تكون تسعة وعشرين إذا رُؤي الهلال، وإما أن تكون ثلاثين إذا لم ير الهلال، فالذي يقضي يبني على ذلك، إن كان الشهر رؤي هلاله تسع وعشرين، يصوم تسعة وعشرين، يكمل تسعة وعشرين مثل الناس، وإن كان لم ير، وصام الناس ثلاثين يومًا، فهو مثلهم يكمل ثلاثين يومًا.

﴿وَلِتُكۡمِلُواْ ٱلۡعِدَّةَ﴾: تسعة وعشرين، أو ثلاثين يومًا.

ثم قال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ﴾، ﴿وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ﴾: هذا فيه مشروعية التكبير في نهاية الصيام ليلة العيد، فإذا ثبت هلال شوال، وانتهى شهر رمضان، فإنه يستحب للمسلمين أن يظهروا التكبير في ليلة العيد ووقت خروجهم لصلاة العيد إلى أن يحضر الإمام، فيكبرون الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، فهذا فيه مشروعية التكبير في ليلة العيد ويوم العيد بعد نهاية شهر رمضان؛ ﴿وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ﴾.

﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ الله على هذه النعمة التي أنعمها عليكم، وهي أنه شرع لكم الصيام زيادة في حسناتكم، وتكفيرًا لسيئاتكم، خصكم بهذا الشهر العظيم المتوفر على الأجور الكثيرة؛ يمر في عمر المسلم كل سنة، فيستفيد منه حسنات، وتكفر عنه سيئات، ويتوب إلى الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، هذا من النعم التي يستحق عليها الشكر سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ على ما شرع لكم، وعلى ما يسر لكم، وعلى ما رفع عنكم من الحرج والمشقة.

هذا مختصر تفسير هذه الآيات الكريمات.

ونسأل الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أن يرزقنا وإياكم العلم النافع والعمل الصالح، والصدق في القول والعمل، نسأله سبحانه أن ينصر دينه، وأن يعلي كلمته، وأن يولي على المسلمين خيارهم، وأن يكفيهم شر شرارهم!

اللهم اجعل ولايتنا فيمن خافك واتقاك، واتبع رضاك يا رب العالمين!

اللهم انصر من نصر الدين، واخذل من خذل الدين!

اللهم ولِّ علينا خيارنا، واكفنا شر شرارنا، ولا تسلط علينا بذنوبنا من لا يخافك ولا يرحمنا، وقنا شر الفتن ما ظهر منها وما بطن عن بلدنا هذا خاصة وعن بلاد المسلمين عامة يا رب العالمين!

اللهم انصر الإسلام والمسلمين في كل مكان!

اللهم ولِّ عليهم خيارهم في كل مكان!

اللهم اجعلهم هداة مهتدين غير ضالين ولا مضلين!

اللهم اصلح بطانة ولاة أمور المسلمين!

اللهم ارزقهم البطانة الصالحة، وابعد عنهم بطانة السوء والمفسدين، إنك على كل شيء قدير!

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

ختام شهر رمضان المبارك

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على عبده ورسوله نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين، أما بعد:

فإننا في ختام هذا الشهر العظيم -شهر رمضان- الذي لم يبق منه إلا القليل، وهكذا الدنيا مرور أيام وانقضاء أعمار؛ ﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [النور:٤٤]، والسعيد من وفقه الله لاغتنام هذه الأعمار وهذه الأيام وهذه المواسم، اغتنمها لنفسه، وقدم فيها خيرًا يجده عند الله.

والشقي من حُرِم الخير، ومرت عليه هذه الأيام، ومرت عليه الأعمار وهو في غفلة مع الغافلين؛ ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ [الزمر:١٥]، نسأل الله العافية!

أيها الإخوة! من كان محسنًا في هذا الشهر، فعليه بالإتمام، عليه بإتمام الإحسان، ومن كان مسيئًا، فعليه بالتوبة؛ فإن الأعمال بالخواتيم، وباب التوبة مفتوح، ولا تقنطوا من رحمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فلا يزال أمام المسلم فسحة للتوبة ما لم تغرغر روحه بالموت؛ فإن التوبة مقبولة ليلًا ونهارًا، ولكن المبادرة؛ لأن الإنسان لا يدري ما بقاؤه في هذه الحياة، هل هو سنون، أو شهور، أو أيام، أو ساعات، أو دقائق؟ لا يدري منا أحد، فلنبادر بالتوبة إلى الله، وتصفية حسابنا

من هذه الدنيا. قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الْكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ، وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ، وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا، ثُمَّ تَمَنَّى عَلَى اللهِ الْأَمَانِيَّ»(١).

أيها الإخوة! إن الأعمال الصالحة تُختم بالاستغفار، ومنها شهر رمضان يختم بالاستغفار، العبادات والأعمال الصالحة تُختم بالاستغفار؛ لأن التقصير حاصل، والاستغفار يجبر النقص، النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -وهو أفضل الخلق، وهو أعبد الخلق لله عَزَّوَجَلَّ- كان يكثر من الاستغفار، فيستغفر الله ويتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة(٢).

وكان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا انصرف من صلاة الفريضة، إذا سلم من صلاة الفريضة وهو مستقبل القبلة قبل أن ينصرف إلى الناس بوجهه الشريف كان يستغفر الله ثلاثًا، فيقول: «أَسْتَغْفِرُ اللهَ، أَسْتَغْفِرُ اللهَ، أَسْتَغْفِرُ اللهَ»(٣)، فدل على أن الصلاة الفريضة تُتبع بالاستغفار قبل الذكر.

وقيام الليل يُختم بالاستغفار؛ قال تعالى: ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذاريات:١٧، ١٨]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران:١٧].

---

(١) أخرجه أحمد (٢٨/ ٣٥٠)، والترمذي (٢٤٥٩)، وابن ماجه (٤٢٦٠)، عَنْ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الْكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ، وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ، وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا، وَتَمَنَّى عَلَى اللهِ».

(٢) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (٦٣٠٧)، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «وَاللهِ إِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ فِي الْيَوْمِ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّةً».

(٣) أخرجه مسلم (٥٩١)، عَنْ ثَوْبَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إِذَا انْصَرَفَ مِنْ صَلَاتِهِ، اسْتَغْفَرَ ثَلَاثًا وَقَالَ: «اللهُمَّ أَنْتَ السَّلَامُ وَمِنْكَ السَّلَامُ، تَبَارَكْتَ ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ».

والاستغفار يُختم به الحج، قال تعالى: ﴿ ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [البقرة:١٩٩].

الاستغفار تُختم به المجالس، من جلس مجلسًا، ثم قام، ثم قال عند قيامه: «سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ. أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ. أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ»(١)، كان كفارة لهذا المجلس؛ إن كان مجلس خير، كان هذا الدعاء وهذا الاستغفار كالطابع عليه، وإن كان مجلس غيبة أو نميمة أو مجلس شر، فإن الله يغفر ما حصل فيه بهذا الدعاء وهذا الاستغفار.

والاستغفار يُختم به العمر؛ فإن الله قال لنبيه صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ١ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ﴾ [النصر:١-٣].

هذه السورة -كما قال ابن عباس رَضِيَاللَّهُعَنْهُمَا-: بينت للرسول صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أن عمره قد وافى على الانتهاء(٢)، هذه علامة، ما ذكره الله في هذه السورة هو علامة على قرب وفاته صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴾، يعني: فتح مكة.

﴿ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ﴾؛ لأنه لمّا فُتِحت مكة، جاءت الوفود إلى رسول الله صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ تعلن إسلامها.

---

(١) أخرجه أحمد (٣٣/ ١٥)، وأبو داود (٤٨٥٩)، والنسائي في الكبرى (٩/ ١٦٣)، من حديث أبي برزة الأسلمي رَضِيَاللَّهُعَنْهُ.

(٢) انظر: تفسير الطبري (٢٤/٧٠٨)، وأحكام القرآن لابن العربي (٤/ ٢٠١)، وتفسير القرطبي (١٧/ ٣٠٠)، ومدارج السالكين (٣/ ٤٠٣).

﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا ﴾، فكان صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول في الركوع بعدما نزلت عليه هذه السورة، يقول في الركوع: «**سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي، يَتَأَوَّلُ الْقُرْآنَ**»(١)، يعني: يفسر القرآن، يفسر هذه السورة.

فعلينا بالاستغفار، والإكثار من الاستغفار.

وأيضًا شهر رمضان يُختم بالتكبير، وذلك في ليلة العيد، قال تعالى: ﴿وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [البقرة:١٨٥]، فيشرع التكبير في ليلة العيد، إذا أُعلن رؤية الهلال -هلال شوال-، فإن المسلمين يكبرون، وصفة التكبير أن يقول: «**اللهُ أَكْبَرُ، اللهُ أَكْبَرُ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ، اللهُ أَكْبَرُ وَللهِ الْحَمْدُ**»(٢)، يكرر هذا، ويرفع به صوته في الطرقات وفي البيوت وفي المساجد، وفي خروج الناس لصلاة العيد، إلى أن يحضر الإمام، هذا هو التكبير المشروع، وكل مسلم يكبر لنفسه.

أما التكبير الجماعي، فهو بدعة، التكبير الجماعي جماعة يجتمعون ويكبرون بصوت واحد هذا بدعة، وقد قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا، فَهُوَ رَدٌّ**»(٣)، وقال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدِثَاتِ الْأُمُورِ، فَإِنَّ شَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلُّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ**»(٤).

---

(١) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (٨١٧، ٤٩٦٨)، ومسلم (٤٨٤): عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: «كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ فِي رُكُوعِهِ وَسُجُودِهِ: **سُبْحَانَكَ اللهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ، اللهُمَّ اغْفِرْ لِي** «يَتَأَوَّلُ الْقُرْآنَ»».

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (٩/ ٣٠٧)، من حديث ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٣) سبق تخريجه (ص٩٢).

(٤) سبق تخريجه (ص٩٢).

فكل مسلم يكبر، ولا يكبرون جماعة بصوت واحد، هذا لم يكن السلف يفعلونه، كان السلف يكبرون ويرفعون أصواتهم، ولا يعقدون هذه الجماعات للتكبير وهذا الصوت الواحد، هذا يحول التكبير إلى ما يشبه الغناء ويشبه الأناشيد، ولا يكون تكبيرًا، وإنما يكون تطريبًا.

فالواجب على المسلم أن يجتنب البدع والمحدثات، وأن يلزم السنة؛ ففيها الخير الكثير، والبدع لا خير فيها، قال صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**إِنَّ أَحْسَنَ الحَدِيثِ: كِتَابُ اللهِ، وَأَحْسَنَ الهَدْيِ: هَدْيُ مُحَمَّدٍ** صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، **وَشَرَّ الأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلُّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ**»(١).

ومما يُتبع به هذا الشهر المبارك: صدقة الفطر، زكاة الفطر، هذه تجب على كل مسلم، على الذكر والأنثى، والحر والعبد، والصغير والكبير.

وهي زكاة للبدن غير زكاة المال، زكاة للبدن؛ فإن الزكاة معناها: الطهارة وحلول البركة، والزكاة ثلاثة أنواع:

- زكاة النفس: وذلك بطاعة الله جَلَّوَعَلَا؛ ﴿ **قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا** ﴾ [الشمس:٩]، ﴿ **زَكَّىٰهَا** ﴾ بالتقوى، وطاعة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، فالنفوس تُزكى بالطاعات والحسنات وفعل الخيرات، هذه زكاة النفوس.

- وزكاة المال، وهذا في أموال الأغنياء، وهي معروفة، وهي أحد أركان الإسلام كما سبق.

- والثالثة: زكاة البدن، وهي زكاة الفطر.

---

(١) أخرجه مسلم (٨٦٧)، من حديث جابر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

زكاة الفطر في نهاية رمضان، وهي «**طُهْرَةً لِلصَّائِمِ مِنَ اللَّغْوِ وَالرَّفَثِ، وَطُعْمَةً لِلْمَسَاكِينِ**»(١)، ففيها خيرٌ للصائم وخيرٌ للفقراء والمساكين؛ الصائم تطهره من اللغو ومن الرفث الذي قد يحصل في صيامه، وهي طعمة للمساكين يستفيدون منها في يوم العيد؛ لأن يوم العيد ليس هناك عمل، وليس هناك كسب، الناس يتعطلون عن العمل، وليس هناك أعمال، فيعطون هذه الصدقة؛ لأجل أن يفرحوا مع الناس في هذا اليوم، وأن يطعموا مع الناس في هذا اليوم، فهي مواساة للفقراء.

وهذا من كمال هذا الدين وفضل هذا الدين، وأنه دين التراحم ودين التعاطف، فصدقة الفطر واجبة، وفرضٌ على كل مسلم يوافي نهاية رمضان يوافي هلال الفطر.

هي تجب بغروب الشمس ليلة العيد، فمن مات قبل غروب الشمس ليس عليه شيء، من مات قبل غروب الشمس هذا ليس عليه شيء؛ لأنه لم يدرك وقت الوجوب، وكذلك من وُلِد بعد الغروب، المولود الذي يولد بعد الغروب ليس عليه شيء؛ لأنه لم يدرك وقت الوجوب.

وكذلك من أسلم بعد غروب الشمس ليس عليه شيء؛ لأنه لم يدرك وقت الوجوب، لكن لو أسلم قبل الغروب، وجبت عليه صدقة الفطر، فوقت وجوبها بغروب الشمس ليلة العيد.

وأما إخراجها: فالأفضل أن يخرجها عند خروجه لصلاة العيد، هذا هو الأفضل، ويجوز أن يخرجها من أول الليل -ليلة العيد- بعد غروب الشمس،

---

(١) أخرجه أبو داود (١٦٠٩)، وابن ماجه (١٨٢٧)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

يجوز أن يخرجها بعد غروب الشمس، وفي أول الليل، أو في وسطه، أو في آخره، ولكن تأخيرها إلى عند خروج الناس لصلاة العيد أفضل إذا أمكن ذلك.

ويجوز أن يقدمها قبل العيد بيوم أو يومين؛ لفعل السلف؛ كانوا يقدمونها قبل العيد بيوم أو يومين، يوم ثمان وعشرين، يوم تسع وعشرين، لابأس أن يخرجها في هذين اليومين، وأما الوقت الأفضل فهو في ليلة العيد إلى خروج الناس لصلاة العيد.

ومن لم يخرجها قبل صلاة العيد، فإنه يخرجها، يخرجها في بقية اليوم، وتكون صدقة، ولا يتركها، من لم يخرجها قبل الصلاة، فإنه يخرجها في بقية اليوم، ولكن لا تأخذ أجر زكاة الفطر، وإنما تأخذ أجر الصدقات.

وحتى لو مضى يوم العيد ولم يخرجها، فات يوم العيد ولم يخرجها، فإنه يخرجها قضاء، يقضيها قضاء، فلا يترك صدقة الفطر، لا يتركها حتى لو فات وقتها، فإنه يخرجها وتكون قضاء، فإن كان متعمدًا تأخيرها، فهو يأثم، وإن لم يكن متعمدًا، فإنه لا حرج عليه، ولكن لابد من إخراجها.

قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ﴾ [الأعلى:١٤، ١٥]، قال بعض المفسرين: المراد زكاة الفطر، وصلاة العيد؛ ﴿مَن تَزَكَّىٰ﴾، يعني: أخرج زكاة الفطر.

﴿فَصَلَّىٰ﴾، يعني: صلاة العيد، فيكون هذا دليلًا من القرآن على صدقة الفطر[1].

---

(١) سبق بيانه (ص١١٨).

ومن السنة ما صح عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه أمر بإخراجها، وفرضها على المسلمين، وبين مقدارها، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**صَاعًا مِنْ بُرٍّ، أَوْ صَاعًا مِنْ تَمْرٍ، أَوْ صَاعًا مِنْ شَعِيرٍ، أَوْ صَاعًا مِنْ زَبِيبٍ، أَوْ صَاعًا مِنْ أَقِطٍ**»[(١)].

فمقدارها صاع بالصاع النبوي، وهو ثلاثة كيلوات تقريبًا، فمن أخرج ثلاثة كيلوات، فإنه أخرج الواجب عليه، ومن نقص عن ثلاثة كيلوات، فلايَضمن أنه أخرج الصدقة كاملة، ثلاثة الكيلوات فيها احتياط، وإن كالها بالصاع، يخرج صاعًا.

وأما ما تُخرج منه صدقة الفطر، فهو قوت البلد، إذا كان الناس يقتاتون الأرز، يخرج من الأرز، إذا كان أهل البلد يقتاتون الذرة، يخرج من الذرة، إذا كانوا يقتاتون الدُّخْنَ، يخرج من الدُّخْن، فهي من قوت البلد، يخرجها من قوت البلد المعتاد في البلد، هذا هو الواجب عليه.

وتجب على الصغير والكبير، والذكر والأنثى، والحر والعبد، حتى الحمل الذي في البطن يستحب أن تُخرج عنه صدقة الفطر؛ لأنها زكاة للبدن.

ويخرج المسلم عن نفسه، ويخرج عمن ينفق عليهم ولو شهر رمضان، من تلزمه نفقتهم كزوجته وأولاده، ووالديه وأقاربه فإنه تلزمه فطرتهم؛ تبعًا للنفقة.

ومن تبرع بالإنفاق على شخص، فإنه يستحب له أن يخرج عنه صدقة الفطر ولو شهر رمضان، لو أن إنسانًا ينفق على شخص في شهر رمضان الغداء والعشاء، من باب الإحسان والتبرع يستحب له أن يخرج عنه صدقة الفطر؛

(١) سبق تخريجه (ص١١٨).

لقوله ﷺ: «أَدُّوا صَدَقَةَ الْفِطْرِ عَمَّنْ تَمُونُونَ»(١)، أي: عمن تنفقون عليهم، فهي تابعة للنفقة.

ويجوز للإنسان أن يخرج عن غيره ولو لم تلزمه نفقته، لكن يستأذنه، ويقول: أنا سأخرج عنك صدقة الفطر، فإذا أذن له، أجزأت، يجوز للإنسان أن يخرج عن غيره ولو لم تلزمه نفقته.

ومحل إخراجها، محل إخراج صدقة الفطر في البلد الذي وافاه تمام الشهر وهو فيه؛ لأنها تابعة للبدن، فتخرج في فقراء البلد الذي فيه الإنسان الذي تلزمه الفطرة، تابعة للبدن، وإن وُكل من يخرجها عنه في بلد آخر -كما لو كان هو في بلد وأهله في بلد آخر، فوكلهم أن يخرجوا عنهم وعنه-، فلا بأس بذلك، ولكن الأفضل أن كلًا يخرج في البلد الذي هو فيه، هذا هو الأفضل، وهذا هو الأحسن.

وتخرج من القوت ومن الطعام؛ لأن النبي ﷺ نص على الطعام، وقدرها بالصاع، فلا يجوز إخراج القيمة، إخراج القيمة -الدراهم- عن صدقة الفطر لا يجزئ؛ لأنها خلاف ما أمر به الرسول ﷺ، وكانت النقود موجودة على عهد النبي ﷺ، ولم يأمر بإخراجها من النقود، بل أمر بإخراجها من الطعام، فيجب أن تكون من الشيء الذي نص عليه الرسول ﷺ.

---

(١) أخرجه الدارقطني في سننه (٣/ ٦٧)، والبيهقي في الكبرى (٤/ ٢٧٢)، عَنِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: «أَمَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِصَدَقَةِ الْفِطْرِ عَنِ الصَّغِيرِ وَالْكَبِيرِ وَالحُرِّ وَالْعَبْدِ مِمَّنْ تَمُونُونَ».

ولما ذُكِر للإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن قومًا يخرجون القيمة، فيقولون: إن فلانًا يقول: تخرج بالقيمة، قال: يتركون سنة رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويأخذون بقول فلان؟!

فلا يجوز مخالفة السنة ومخالفة النص، فلا تجزئ القيمة في صدقة الفطر عند جمهور أهل العلم، ومن أفتى بإخراج القيمة، فقد خالف الدليل.

وكلٌّ يؤخذ من قوله ويرد إلا رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والمجتهد يخطئ ويصيب، والصواب ما وافق الدليل، والخطأ ما خالف الدليل.

وهذا شيء في الذمة، يجب على الإنسان أن يبرئ ذمته، ولا يتبع قول فلان أو علان، وفتوى فلان، بل يتبع ما يبرئ ذمته بيقين، وهو أن ينفذ السنة التي وردت عن الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهي إخراج الطعام في صدقة الفطر، هذا هو الواجب.

ويجب أن تدفع إلى الفقير في وقت إخراجها، أو تدفع إلى وكيله إذا كان له وكيل، فهي تدفع إلى وكيله؛ لأن الوكيل يقوم مقام الموكل، فلابد من إخراجها في وقت الإخراج، وتدفع إلى الفقير بيده، أو تدفع إلى وكيله المعتمد، هذا هو الواجب.

أما أن يبقي صدقة الفطر عنده، ويقول: أنتظر فلانًا يأتي، ويتركها عنده، ويفوت وقت إخراج صدقة الفطر، وفلان لم يحضر، هذا لا يجوز؛ لأنه لا يجوز إخراجها عن وقتها، فإن وجدت الفقير الذي تريده في يوم العيد، أو وجدت وكيله، فادفعها له، وإذا لم تجده، أعطها لغيره.

ويتحرى بها الإنسان المحتاجين الذين لا يسألون، يتحرى بها المحتاج الذي لا يسأل، ويدفعها إليه، ويجوز دفعها للسائل الذي يسأل، ولكن الأفضل أن يتحرى الفقير الذي لا يسأل، ويدفعها إليه.

وعلى كل حال فهذه عبادة عظيمة لا يجوز التساهل في شأنها، ولا يجوز أن الإنسان يعتمد على غيره ممن لا يثق به؛ لأن بعض الناس يعتمد على غيره في إخراج صدقة الفطر -ولو كان هذا الغير لا يوثق به-، أما إذا كان هذا الغير يوثق به، فإنه لا بأس، يكون وكيلًا عنه، هذا هو الواجب على المسلم في هذه العبادة العظيمة صدقة الفطر.

ومما يتبع به شهر رمضان: صلاة العيد؛ فإن صلاة العيد مشروعة بعد نهاية رمضان؛ شكرًا لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وهي شعيرة من شعائر الإسلام، يخرج المسلمون إلى المصلى، وقد أمر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بإخراج النساء حتى العواتق، يعني: المخَدَّرات الشابات، وحتى الحُيَّض، ويعتزل الحُيَّض المصلى، ويشهدن دعوة المسلمين.

البروز يوم العيد -بروز المسلمين يوم العيد- لصلاة العيد هذا شعار من شعائر الإسلام، فينبغي العناية بصلاة العيد، وحضورها، واغتنام أجرها.

ومما يُتبع به شهر رمضان المبارك: صيام ستة أيام من شوال؛ قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ صَامَ رَمَضَانَ ثُمَّ أَتْبَعَهُ سِتًّا مِنْ شَوَّالٍ، كَانَ كَصِيَامِ الدَّهْرِ»(١)، يعني: السنة؛ لأن الحسنة بعشر أمثالها، فشهر رمضان عن عشرة أشهر، وستة الأيام عن شهرين،

---

(١) سبق تخريجه (ص١١٩).

فيكون المجموع اثني عشر شهرًا، وهذه أشهر السنة، فكانه صام السنة كلها في الأجر والثواب، وهذا فضل الله يؤتيه من يشاء سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فيصوم ستة أيام من شوال، سواء في أول الشهر أو في وسطه أو في آخره؛ لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «مِنْ شَوَّالٍ»، ولم يحدد، لكن صومها في أول الشهر أفضل بعد العيد، المبادرة بها بعد العيد أفضل.

وكذلك لا بأس أن يصومها متتابعة، أو يصومها متفرقة في الشهر؛ لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أطلق، فقال: «سِتًّا مِنْ شَوَّالٍ»، ولم يقل: متتابعة، ولم يقل: في أوله.

فدل على جواز التتابع والتفريق، ودل على جواز صيامها في أول الشهر، وفي آخره، أو في وسطه، ولكن كلما بادر الإنسان وصامها أول الشهر بعد العيد، فهو أفضل.

نسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يمن علينا وعليكم بالقبول، وأن يجعل صيامنا وقيامنا متقبلين لديه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وأن يختم لنا هذا الشهر بخير ختام بالعتق من النار والتوبة؛ أن يتوب علينا وعليكم وعن جميع المسلمين، وأن يغفر لنا ذنوبنا، وخطايانا.

ثم أيها الإخوة! ليس المطلوب أن المسلم يجتهد في رمضان، ويتوب في رمضان، ثم إذا خرج رمضان، عاد إلى التساهل، وعاد إلى المعاصي، فينقض ما بنى، فيكون ﴿كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا﴾ [النحل:٩٢].

ما رمضان إلا معود على الخير، ومربٍ على الخير، والله جَلَّوَعَلَا هو رب الشهور كلها، وليس ربًا لشهر رمضان فقط، بل هو رب الشهور، والأعمال محصاة، وفضلها باق، وشرها باق في رمضان وفي غيره، فلا يظن أحد أنه إذا انتهى رمضان أن الإنسان أصبح طليقًا في المعاصي والكسل، والعودة إلى التفريط والإساءة، لا، بل عليه أن يواصل الطاعة، وأن يواصل الابتعاد عن المعاصي في كل حياته وفي كل عمره؛ حتى يكون رمضان زيادة خير له، وإلا فإنه إذا عاد إلى المعاصي والذنوب وتضييع الفرائض وفعل المحرمات، فإن رمضان يضيع عليه، ويضيع جهده، ويضيع تعبه، ولكن إذا واصل الخير، فإنه ينمي عمله، ويضيف خيرًا إلى خير وحسنات إلى حسنات.

الله جَلَّوَعَلَا يقول لنبيه محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴾ [الحجر:٩٩]، أي: الموت. قال بعض السلف عند هذه الآية: لم يجعل الله للعمل غاية دون الموت. فغاية العمل هو الموت، وليس غاية العمل شهر رمضان، وإنما غايته، أي: نهاية العمل بالموت، قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِذَا مَاتَ ابْنُ آدَمَ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ: صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ**»(١).

فعلينا بمواصلة الأعمال الصالحة بعد رمضان وفي كل الأوقات؛ لأنك عبدٌ لله في كل وقت، لأنك محتاج إلى الله في كل وقت، وليست حاجتك إلى الله في رمضان، وليست الأعمال لا تتقبل إلا في رمضان، وليست المحرمات لاتترك إلا في رمضان، بل الواجب على المسلم أن يكون مسلمًا في كل حياته وفي كل

---

(١) سبق تخريجه (ص٨).

أوقاته، وإنما رمضان زيادة خير في حسناتك ومرجح لأعمالك وموازينك عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

نسأل الله عَزَّوَجَلَّ أن يوفقنا وإياكم لصالح القول والعمل، وأن يختم لنا شهرنا بالتوبة والعتق من النار، وأن يجعل هذا الشهر مباركًا علينا وعليكم، أن يجعله سببًا في استمرارنا على طاعة الله، وترك ما حرم الله إلى الوفاة.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين.

فرضية الحج

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على عبده ورسوله نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين:

وبقي الكلام على الركن الخامس من أركان الإسلام، وهو الحج والعمرة.

الحج: فُرِض على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعلى أمته في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران:٩٧]، في قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الحديث الذي نحن بصدد شرحه: «**بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ؛ شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَصِيَامِ رَمَضَانَ، وَحَجِّ الْبَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا**»(١).

وتأخرت فرضية الحج إلى السنة التاسعة من الهجرة، فُرِض على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعلى أمته في السنة التاسعة من الهجرة، ولكن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يحج هذه السنة -السنة التاسعة-؛ نظرًا لأن المشركين يطوفون بالبيت وهم عراة، كان المشركون الذين يقدمون من خارج الحرم إن وجدوا من أهل الحرم من يعطيهم ملابس يلبسونها، وإلا فإنهم يخلعون ثيابهم، ويأتون إلى البيت عراة؛ لأن الشيطان زين لهم ذلك، وقال لهم: لا يليق بكم أن تطوفوا بأثواب عصيتم

---

(١) سبق تخريجه (ص٢٥).

الله فيها. فيخلعونها قبل أن يدخلوا الحرم، ولهذا يقول سبحانه: ﴿ وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَاۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف:٢٨].

والفاحشة والفحشاء هي العُري، التعري، كشف العورة فاحشة، سماه الله فاحشة، واليوم المتحضرون من العالم والمتمدنون من العالم يعتبرون العري من التقدم والحضارة، خصوصًا تعري النساء يعتبرونه من الحضارة والتقدم.

وهذا من دين الجاهلية التي أخبر الله عنها، وأخبر أن ذلك فاحشة؛ لأنه مدعاة إلى الوقوع في الحرام والزنا واللواط، فهو سبيل إلى الفاحشة، ولذلك جاء الإسلام بطلب الستر -ستر العورات-؛ ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِي سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ﴾ [الأعراف:٢٦]، إلى قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ﴾، والمراد بالزينة هنا: ستر العورة، ﴿خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف:٣١]، أي: عند كل صلاة، ولذلك صار ستر العورة من شروط صحة الصلاة.

فالإسلام جاء بالأمر بالستر والحشمة وستر العورات، وأما دين الجاهلية ودين الشيطان، فهو كشف العورات، وهو الذي يعده المتحضرون اليوم والمتقدمون -بزعمهم-، يعدونه من الرقي والتقدم، وأن التستر من الرجعية، وأن حجاب المرأة من الرجعية والجمود، وأن سفورها وإبراز مفاتنها ومحاسنها هذا من الفضيلة والتقدم عندهم، هذا نفس ما زينه الشيطان لأهل الجاهلية حتى اتخذوه دينًا، اتخذوه دينًا يعبدون الله به، وقالوا: والله أمرنا بها. كذبوا على الله، قالوا: الله شرع لنا هذا. نسأل الله العافية!

الشاهد من هذا: أنه لما كان المشركون يطوفون بالبيت، ويعلنون شركهم، وكان العراة يطوفون بالبيت، النبي ﷺ لم يباشر الحج في هذه السنة، وأنزل الله قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾ [التوبة:٢٨]، فأرسل النبي ﷺ أبا بكر الصديق رضي الله عنه يحج بالناس، وأرسل معه علي بن أبي طالب رضي الله عنه من أجل أن ينادي «**أَلَا لَا يَحُجُّ بَعْدَ العَامِ مُشْرِكٌ، وَلَا يَطُوفُ بِالْبَيْتِ عُرْيَانٌ**»(١)، فأعلن ذلك على الناس، وامتنع المشركون، ومُنِعوا من دخول الحرم، ومُنِع التعري الذي هو من دين الجاهلية ومن دين الشيطان.

ولكن لا يزال شيء من الجاهلية في بعض الناس اليوم، لا تزال بعض خصال الجاهلية في بعض النساء اللاتي لا يحرصن على التستر، حتى في الطواف يتجملن ويتبرجن، ويظهرن محاسنهن حتى في الطواف والمسجد الحرام، وهذا من رواسب الجاهلية، الواجب على المسلمين أن يمنعوا هذا الشيء، وأن يحجبوا نساءهم، ويستروا نساءهم في كل مكان، وفي المسجد الحرام على الخصوص.

فلما طهر الله البيت من المشركين، وطهره من التعري، حج النبي ﷺ في السنة العاشرة حجة الوداع، سُمِّيت حجة الوداع؛ لأنه ﷺ ودع فيها الناس، وقال: «**أَيُّهَا النَّاسُ، خُذُوا عَنِّي مَنَاسِكَكُمْ؛ لِعَلِّي لَا أَلْقَاكُمْ بَعْدَ عَامِي هَذَا**»(٢).

وتوفي ﷺ بعد رجوعه من هذا الحج، فلذلك سُمِّيت حجة الوداع، ولم يحج النبي ﷺ بعد البعثة إلا هذه الحجة، لم يحج بعد بعثته

---

(١) سبق تخريجه (ص٨١).
(٢) سبق تخريجه (ص١١).

ﷺ إلا هذه الحجة مرة واحدة، وأما العُمَر فقد اعتمر ﷺ أربع عمر[(١)]:

* عمرته التي صده المشركون عنها في الحديبية في السنة السابعة من الهجرة.

* وعمرته عمرة القضية التي تقاضى مع المشركين أن يرجع عام الحديبية، وأن يعتمر من العام القادم، تسمى عمرة القضية، أو عمرة القضاء.

* **والعمرة الثالثة**: عمرته لما رجع من حنين، لما رجع من غزوة حنين، أحرم من الجعرانة على حدود الحرم في شوال، وأدى العمرة ﷺ في دخوله إلى مكة، قافلًا من حنين.

* **العمرة الرابعة**: عمرته التي قرنها مع الحج؛ فإنه ﷺ أحرم قارنًا بين الحج والعمرة؛ لأنه قد ساق الهدي معه من المدينة، فأحرم ﷺ قارنًا، أما الذين لم يسوقوا هديًا، فأحرموا متمتعين بالعمرة إلى الحج.

فالحج ركن من أركان الإسلام، لكنه ليس كل سنة، وإنما هو مرة واحدة في العمر، وهذا من تيسير الله سبحانه؛ لما كان الحج يحتاج إلى سفر وقطع مسافات، تعرض لأخطار ومشقات، جعله الله مرة واحدة في العمر؛ تيسيرًا على الناس؛ لأنه لو وجب كل سنة على الأفراد، لشق ذلك عليهم، ولهذا لما قال ﷺ: «**أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ فَرَضَ اللهُ عَلَيْكُمُ الْحَجَّ، فَحُجُّوا**»، فقام الأقرع بن حابس فَقَالَ: أَكُلَّ عَامٍ يَا رَسُولَ اللهِ؟ فَسَكَتَ النبي ﷺ، ثم قال النبي ﷺ: «**أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ فَرَضَ اللهُ عَلَيْكُمُ الْحَجَّ، فَحُجُّوا**»، فقال الأقرع: أَكُلَّ عَامٍ يَا رَسُولَ اللهِ؟ فَسَكَتَ عنه النبي ﷺ، وفي المرة الثالثة قال ﷺ: «**لَوْ**

---

(١) سبق تخريجه (ص٨٢).

قُلْتُ: نَعَمْ لَوَجَبَتْ، وَلَمَا اسْتَطَعْتُمْ، ذَرُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ، فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِكَثْرَةِ سُؤَالِهِمْ وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ، فَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ، وَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَدَعُوهُ»[١].

والحج مرة واحدة في العمر، وما زاد فهو تطوع، وهذا من تيسير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ورحمته بالأمة.

وأيضًا على المستطيع؛ ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران:٩٧]، أما الذي لا يستطيع، فليس عليه حج.

والاستطاعة المراد بها: الاستطاعة في الزاد والراحلة، ﴿مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾، أي: الزاد والراحلة؛ الزاد الذي يبلغه إلى الحج، ويرجعه إلى بلده، فاضلًا عن كفايته، وكفاية من يمونه، وفاضلًا عن سداد ديونه الحالة، فإذا كان عند الإنسان ما يبلغه إلى الحج ذهابًا وإيابًا، وأمَّن لأولاده وأهل بيته ما يكفيهم حتى يرجع، وسدد ما عليه من الديون الحالّة، فإنه يحج، يجب عليه الحج بما معه، هذا هو الزاد.

والراحلة: المراد بها المركوب الذي يحمله إلى مكة، المركوب في كل زمان بحسبه، قد يكون المركوب من الدواب، وقد يكون من البواخر والمراكب البحرية، قد يكون من السيارات والطائرات، في كل زمان بحسبه، المركوب اللائق به في كل زمان بحسبه.

---

(١) سبق تخريجه (ص٢٦).

فإذا توفر له الزاد، وتوفر له وسيلة النقل، فإنه يجب عليه الحج مرة واحدة في عمره.

- ويشترط لوجوب الحج -أيضًا-: أن يكون مسلمًا؛ الإسلام شرط لجميع الأعمال، ومنها الحج، فلا يصح الحج من المشرك، فلو حج وهو مشرك، ثم تاب وأسلم، فلابد من أن يحج، ولا تصح حجته التي أداها وهو على الشرك؛ لأن الشرك لا يصح معه عمل، ولا تُقبل معه عبادة.

- ويشترط -أيضًا-: البلوغ، الصبي لا يجب عليه الحج، ولكنه إذا حج، صح حجه تطوعًا، إذا حج الصبي -مميزًا كان أو غير مميز-، صح حجه، ويكون له نافلة؛ لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما كان يسير في السفر «لَقِيَ رَكْبًا بِالرَّوْحَاءِ، فَقَالَ: مَنِ الْقَوْمُ؟ قَالُوا: الْمُسْلِمُونَ، فَقَالُوا: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: رَسُولُ اللهِ. فَرَفَعَتْ إِلَيْهِ امْرَأَةٌ صَبِيًّا، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَلِهَذَا حَجٌّ؟ قَالَ: نَعَمْ، وَلَكِ أَجْرٌ»[(١)]، فيصح الحج من الصبي نافلة، ولكنه إذا بلغ، يجب عليه حجة الإسلام.

- وكذلك يشترط الحرية؛ فالمملوك لا يجب عليه الحج، ولكنه لو حج، صح، وصار نافلة في حقه، فإذا عتق وتحرر من الرق، فإنه يؤدي حجة الإسلام.

- ويشترط لوجوبه على المرأة زيادة على هذه الشروط التي هي: الإسلام والبلوغ، والحرية، ووجود الزاد، والراحلة، يشترط شرطٌ خامس، وهو وجود المحرم الذي يسافر معها للحج، فإن لم تجد محرمًا، فإنها تنتظر حتى يتوفر لها

---

(١) أخرجه مسلم (١٣٣٦)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

المحرم، ولا يجوز لها تحج بدون محرم؛ لقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا يَحِلُّ لِامْرَأَةٍ تُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، أَنْ تُسَافِرَ إِلَّا وَمَعَهَا ذُو مَحْرَمٍ»[(١)].

وجاء رجلٌ يريد الجهاد والغزو مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأخبره أن امرأته خرجت حاجة، وهو جاء يريد الاكتتاب في الغزو، فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «انْطَلِقْ فَحُجَّ مَعَ امْرَأَتِكَ»[(٢)]، أرجعه من الغزو والجهاد في سبيل الله ليحج مع امرأته، ويكون محرمًا لها؛ لأن المرأة بحاجة إلى المحرم؛ لأنها ضعيفة، وقد يعتريها مرض، ويعتريها ضعف، فلابد من وجود المحرم معها؛ يصونها ويحميها، ويعينها، ويحافظ عليها، عكس ما يقوله المخدوعون بحضارة الغرب اليوم، الذين يسفرون النساء بدون محارم، مخالفين بذلك أمر الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهذا من جملة سفاهاتهم، ومن جملة تفاهاتهم، ويقولون: المرأة الآن تعلمت، والمرأة تقدمت، ولا خطر عليها، يريدون أن يحرروا المرأة من أحكام الدين بزعمهم؛ لأن أحكام الدين عندهم قيود وأغلال، فيريدون أن يحرروها، وهو في الواقع هو عين هلاكها، الدين جاء بحمايتها وإكرامها، وهم يريدون إذلالها، ويريدون إهلاكها، ويريدون أن يتسلط عليها ذئاب البشر، هكذا يريدون.

فلا يجوز للمرأة أن تسافر للحج -الذي هو عبادة وطاعة لله- إلا ومعها محرم، فكيف تسافر المرأة لغير الحج بدون محرم؟! تذهب المسافات البعيدة، يقولون: إن الطائرات لا تحتاج إلى محرم؛ لأنها مملوءة بالناس، ولأنها سريعة.

نقول: لا، تحتاج إلى محرم بأي وسيلة سافرت، سواء بالطائرة أو بالسيارة

---

(١) سبق تخريجه (ص٢٠٠).

(٢) أخرجه البخاري (٣٠٠٦)، ومسلم (١٣٤١)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

أو على الدابة، فلابد من المحرم؛ لأن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يستثن، أوجب المحرم مطلقًا في كل سفر؛ في طائرة، أو في سيارة، أو في باخرة، أو على بعير، فالرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أوجب المحرم، قال: «**لَا يَحِلُّ لِامْرَأَةٍ تُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، أَنْ تُسَافِرَ إِلَّا وَمَعَهَا ذُو مَحْرَمٍ**»[(١)].

وهم يقولون: لا تحتاج إلى محرم؛ على قولهم: إن الطائرة مأمونة، وإنها سريعة، وإنه بإمكان محرمها أن يذهب بها إلى المطار، وبإمكان محرمها الآخر أن يستقبلها.

نقول: أولًا: هذا خلاف الحديث، الحديث اشترط المحرم.

وثانيًا: من الذي يؤمّن أن الطائرة أنها تسلم في رحلتها ولا يعتريها شيء، ولا تغير المسار إلى مطار آخر؟ كثيرًا ما يقع هذا، كثيرًا ما تتغير الرحلات لسبب من الأسباب، تذهب الطائرة إلى بلد آخر ليس فيه محرم للمرأة، فأين تذهب؟ فمغالطاتهم باطلة.

وبعضهم يقول: إذا كانت مع جماعة من النساء، فإنها لا تحتاج إلى محرم.

نقول: يا سبحان الله! هذا خلاف الحديث، وهل المرأة التي خرجت للحج في زمن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أليست مع جماعة، جماعة يعني: من النساء، مع جماعة من النساء، ومع هذا ردَّ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ محرمها -زوجها- من الغزو، وهي مع جماعة من النساء، أرجع زوجها من الغزو، وقال: «**انْطَلِقْ فَاحْجُجْ مَعَ امْرَأَتِكَ**».

فهذه مغالطات يجب رفضها والعمل بحديث الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ففيه الخير والبركة، وفيه الأمان للمرأة والحفاظ عليها.

---

(١) سبق تخريجه (ص٢٠٠).

قد يستطيع الإنسان الحج، الناس بالنسبة للاستطاعة للحج على أقسام:

* منهم من لا يستطيع الحج لا بدنيًّا ولا ماليًّا، هذا ليس عليه حج، لا يستطيع الحج لا بدنيًّا ولا ماليًّا، هذا ليس عليه حج.

* ومنهم من يستطيع الحج بدنيًّا وماليًّا، هو قوي في بدنه مستطيع السفر، وغنيٌ في ماله، هذا يجب عليه الحج مرة واحدة في العمر؛ لأنه توفر له الزاد والراحلة، وهو قوي في بدنه.

* ومنهم من يستطيع الحج ماليًّا، ولكنه لا يستطيعه بدنيًّا كالمريض مثلًا، هذا ينتظر؛ إن كان يرجى زوال عذره، فإنه يؤجل الحج هذا العام، فإذا قدر عليه يحج، إذا كان يرجى زوال عذره، وإذا كان لا يرجى زوال عذره كالمريض المزمن الذي لا يرجى له شفاء، والشيخ الهرم الذي عنده مال، ولكن لا يستطيعه بدنيًّا، فهذا يوكل، هذا يوكل من يحج عنه؛ لأن امرأة جاءت إلى النبي ﷺ، فقالت: «إِنَّ أَبِي قَدْ أَدْرَكَتْهُ فَرِيضَةُ اللهِ فِي الْحَجِّ وَهُوَ شَيْخٌ كَبِيرٌ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَسْتَوِيَ عَلَى ظَهْرِ بَعِيرِهِ، قَالَ: **فَحُجِّي عَنْهُ**»(١).

فإذا كان يستطيع الحج ماليًّا ولا يستطيعه بدنيًّا، وعجزه مستمر، فإنه يُحج عنه، يوكل من يحج عنه؛ إما تبرعًا، وإما بأن يدفع له تكاليف الحج.

* ومن الناس من يستطيع الحج بدنيًّا، بدنه صحيح وقوي، لكن لا يستطيعه ماليًّا، هذا مثل النوع الثاني الذي لا يستطيع الحج بدنيًّا ولا ماليًّا، هذا ليس عليه حج؛ لأنه لا يجد الزاد والراحلة.

---

(١) أخرجه البخاري (١٥١٣)، ومسلم (٤٠٧)(١٣٣٤) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

ويجوز للإنسان أنه يؤجر نفسه، إذا صار ليس عنده شيء يحج، يجوز أنه يؤجر نفسه مع الحجاج، ويشتغل مع الحجاج، ويحج، لا بأس بذلك أنه يؤجر نفسه لهم، ويصاحبهم، ويؤدي الحج، لكن ليس هذا بلازم عليه، لكن لو فعله، فلا بأس، ويصح حجه.

والمرأة إذا لم تجد محرمًا، هي قادرة على الحج بمالها، ولكنها لا تقدر على مباشرة الحج؛ لعدم المحرم، فهذه تنتظر؛ فإن وجدت محرمًا في المستقبل، فإنها تحج، وإن أيست من وجود المحرم وأنها لا تستطيع مباشرة الحج بنفسها، فتوكل من يحج عنها.

هذا وللكلام بقية في بيان مناسك الحج والعمرة وتفاصيل هذه الأمور في الدروس القادمة -إن شاء الله.

وصلى الله وسلم على عبده ورسوله نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

فضائل شهر رمضان من القرآن الكريم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على عبده ورسوله نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

كنا مع الآية، وهي قوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ﴾ [البقرة:١٨٥].

والآن نعود لنستجلي من هذه الآية الكريمة فضائل شهر رمضان.

شهر رمضان له فضائل عظيمة، أودعه الله خيرات كثيرة لهذه الأمة، يمر عليها كل سنة كما تمر عليها في اليوم والليلة الصلوات الخمس، وكما تمر عليها الجمعة في كل أسبوع، ويمر عليها شهر رمضان في كل سنة، وقد قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ، وَالْجُمْعَةُ إِلَى الْجُمْعَةِ، وَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ، كَفَّارَاتٌ لِمَا بَيْنَهُنَّ إِذَا اجْتَنَبَ الْكَبَائِرَ»(١).

فهذه المواسم اليومية -الصلوات الخمس، والأسبوعية: الجمعة، والسنوية: شهر رمضان- كلها يكفر الله بها السيئات عن العباد، تطهرهم من ذنوبهم إذا هم حافظوا عليها، حافظوا على الصلوات الخمس في اليوم والليلة، حافظوا على صلاة الجمعة، حافظوا على صيام شهر رمضان، واستغلوا ما فيه

---

(١) سبق تخريجه (ص٧٨).

من الخير، فإن الله سبحانه يطهرهم من ذنوبهم؛ لأنهم يخطئون بالليل والنهار، فمن رحمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن جعل لهم هذه المواسم يطهرهم بها من ذنوبهم.

والمراد بالذنوب التي تكفر بالصلوات الخمس وبالجمعة وبشهر رمضان، المراد بها: الذنوب الصغائر، أما الذنوب الكبائر فإنها لا تكفر إلا بالتوبة، قال الله سبحانه: ﴿ إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ ﴾ [النساء:٣١]، فشرط في تكفير السيئات: تجنب الكبائر، ﴿ إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ ﴾ [النساء:٣١]، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَـٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴾ [هود:١١٤].

فهذا الشهر العظيم -شهر رمضان- اجتمعت فيه فضائل لا توجد في غيره:

الفضيلة الأولى: أن الله أنزل فيه القرآن؛ كما قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ ﴾ [البقرة:١٨٥]، فإنزال القرآن في هذا الشهر يدل على فضله على غيره، ولذلك صارت تلاوة القرآن في هذا الشهر أفضل من تلاوته خارج هذا الشهر، فتلاوة القرآن في هذا الشهر لها مزية؛ كان رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يدارس جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ القرآن في شهر رمضان، كان جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ينزل فيدارس محمدًا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ القرآن، كان رسولنا محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يعرض القرآن على جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في شهر رمضان(١)، وكانت المدارسة بين محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبين جبريل صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كانت في الليل في ليالي رمضان.

(١) أخرجه البخاري (٦)، ومسلم (٢٣٠٨) عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: «كَانَ رَسُولُ اللهِ =

وكان السلف الصالح يقبلون على تلاوة القرآن في شهر رمضان، ويتركون دروس العلم، يتركون حِلق الذكر التي كانوا يعقدونها على طول السنة، ويقبلون على تلاوة القرآن، ويجلسون في المساجد، ويحضرون المصاحف، ويتفرغون لتلاوة القرآن في شهر رمضان؛ لأنه شهر القرآن.

فينبغي للمسلمين أن يكثروا من تلاوة القرآن في هذا الشهر المبارك؛ لأنه الشهر الذي أُنزل فيه القرآن، ولابد أن تكون التلاوة مع التدبر والتفكر في معانيه، قال سبحانه: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [ص:٢٩]، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء:٨٢]، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُواْ ٱلْقَوْلَ ﴾ [المؤمنون:٦٨]، يعني: القرآن، والتدبر معناه: التفكر في معانيه، وإحضار القلب عند تلاوته، ليس المراد من التلاوة مجرد المرور على الآيات وعلى السور، وإنما المراد القراءة مع التدبر والتفكر في معانيه.

وكلٌّ يستفيد من هذا القرآن -العامي والمتعلم والعالم-، كل من قرأ القرآن وتفكر فيه، فإنه يستفيد، ويتأثر، لكن إذا كان هذا مع حضور القلب.

وتلاوة القرآن في رمضان وفي غيره فيها فضلٌ عظيم؛ قال صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «مَنْ قَرَأَ حَرْفًا مِنْ كِتَابِ اللهِ فَلَهُ بِهِ حَسَنَةٌ، وَالحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا، لَا أَقُولُ: ﴿ الٓمٓ ﴾ حَرْفٌ، وَلَكِنْ أَلِفٌ حَرْفٌ، وَلَامٌ حَرْفٌ، وَمِيمٌ حَرْفٌ»(١).

= صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أَجْوَدَ النَّاسِ، وَكَانَ أَجْوَدُ مَا يَكُونُ فِي رَمَضَانَ حِينَ يَلْقَاهُ جِبْرِيلُ، وَكَانَ يَلْقَاهُ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ مِنْ رَمَضَانَ فَيُدَارِسُهُ القُرْآنَ، فَلَرَسُولُ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أَجْوَدُ بِالخَيْرِ مِنَ الرِّيحِ المُرْسَلَةِ».

(١) أخرجه الترمذي (٢٩١٠)، من حديث ابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الْمَاهِرُ بِالْقُرْآنِ»، الماهر، يعني: الذي يجيد التلاوة، «الْمَاهِرُ بِالْقُرْآنِ مَعَ السَّفَرَةِ الْكِرَامِ الْبَرَرَةِ»، يعني: مع الملائكة، «وَالَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَيَتَتَعْتَعُ فِيهِ، وَهُوَ عَلَيْهِ شَاقٌّ، لَهُ أَجْرَانِ»[١].

إذًا المسلم يقرأ القرآن، سواء كان يجيد التلاوة -وهذا أحسن-، أو كان عليه بعض الأخطاء في القراءة، الأخطاء التي لا تحيل المعنى، والذي يقرأ القرآن بالتهجي بالحروف هذا له أجران: أجر التلاوة، وأجر المشقة؛ «وَالَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَيَتَتَعْتَعُ فِيهِ، وَهُوَ عَلَيْهِ شَاقٌّ، لَهُ أَجْرَانِ»: أجر التلاوة، وأجر المشقة.

فالمسلم يحاول تلاوة القرآن حسب استطاعته، وكلما أتقن التلاوة، فإنه أفضل، ويكون مع السفرة الكرام البررة، فهذا فيه الحث على تعلم القرآن، فيه الحث على تعلم القرآن وتعليم القرآن، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ»[٢]، فينبغي العناية بكتاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وتكون التلاوة متوسطة بين الهذرمة -والهذ السرعة- وبين التمطيط والمدود الزائدة والغنة الزائدة، لا ينبغي هذا، ينبغي الوسط في التلاوة، وأن يقرأ القرآن مترسلًا، لا يستعجل فيه، الله جَلَّ وَعَلَا يقول لنبيه: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ [المزمل:٤]، والترتيل معناه: أن يقرأه مترسلًا آية آية، ويقف على رؤوس الآيات، هذا هو الترتيل.

القرآن مرتل في نزوله، ومرتل في تلاوته، وهذا هو الترتيل المطلوب أن الإنسان يقرأ القرآن بتؤدة، ويقرأ القرآن بترسل، ويقف على رؤوس الآيات، ويتفكر ويتدبر في كتاب الله.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٩٣٧)، ومسلم -واللفظ له- (٧٩٨)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.
(٢) أخرجه البخاري (٥٠٢٧)، من حديث عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

السرعة لا يحصل معها تدبر، التمطيط والمدود الزائدة والغنة الزائدة يشغلان الإنسان عن التدبر؛ ينشغل بتطبيق المدود وتطبيق الغنة، وتطبيق كذا وكذا، ولا يتدبر القرآن، كل شيء بمقدار؛ لا إسراف ولا تفريط؛ لا إفراط ولاتفريط، خير الأمور أوسطها في كل شيء، وفي تلاوة القرآن من باب أولى؛ لأن بعض الناس يعتنون بالألفاظ ويعتنون بالتجويد، ولكن لا يتدبرون القرآن، ولا يتفكرون في معانيه، وإنما يكونون مشغولين بالأداء وتطبيق قواعد التجويد فقط، وليس هذا هو المطلوب، المطلوب التدبر والتمهل في القراءة وعدم السرعة وعدم العجلة، وعدم التباطؤ في القراءة هذا هو المطلوب.

هذا من فضائل هذا الشهر: العناية بكتاب الله، والإقبال على تلاوته.

ثم ليس المقصود التلاوة والتدبر فقط، المقصود العمل، العمل بالقرآن، القرآن ينهاك عن الكذب، فلا تكذب، القرآن ينهاك عن الشرك بالله عَزَّوَجَلَّ فلا تشرك بالله.

القرآن ينهاك عن الربا، فلا تستعمل الربا، ولا تأخذ الربا.

القرآن ينهاك عن الغش والخديعة للناس، فلا تغش ولا تخدع.

القرآن يأمرك بالصدق، فعليك أن تصدق مع الله، تصدق مع الناس.

القرآن يأمرك بمكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال، فامتثل.

أما أنك تقرأ القرآن مجرد قراءة، تختمه ختمات كثيرة، ولكنك لا تعمل به، ولا تلتفت إلى ما يأمرك به وما ينهاك عنه، بل تستمر على حالك السيئة فإنك لن تستفيد من القرآن ولو قرأته في الليل والنهار؛ القرآن يجب عليك أن تقيم حروفه، وأن تقيم حدوده، يعني: أوامره ونواهيه، وما فيه من الخير، أما من يقيم

الحروف فقط، ولا يقيم الحدود، يعني: لا يمتثل أوامر القرآن ولاينزجر عن نواهي القرآن، ولا يتعظ بمواعظه، فهذا لا يكفيه أنه يجيد القراءة، ولو كان يقرأ بالقراءات العشر، أو الخمس عشرة، أو يجيد التجويد، لايفيده هذا شيئًا، هذا يقيم الحروف فقط، وقد جاء في الحديث أن قومًا في آخر الزمان يقرؤون القرآن، يقيمونه إقامة السهم، يعني: يجيدون القراءة، لكنه لايتجاوز حناجرهم، يعني: لا يعملون به، ولا يتفقهون في معانيه، وإنما يقرؤون الحروف، ويعتنون بالقراءة -التجويد-، لكن المعاني والعمل والتدبر ليس لهم منه نصيب(١).

فيجب علينا أن نعتني بالقراءة، ونعتني بالمعاني، ونعتني بالعمل بالقرآن؛ حتى نستفيد منه.

ثم قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُ﴾، من فضائل هذا الشهر وخصائصه أن الله أوجب صيامه على المسلمين، وجعله ركنًا من أركان الإسلام؛ كما قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ: شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَصَوْمَ رَمَضَانَ، وَحَجِّ بَيْتِ اللهِ الْحَرَامِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا**»(٢).

---

(١) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (٥٠٥٨)، ومسلم (١٤٧) (١٠٦٤)، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «**يَخْرُجُ فِيكُمْ قَوْمٌ تَحْقِرُونَ صَلَاتَكُمْ مَعَ صَلَاتِهِمْ، وَصِيَامَكُمْ مَعَ صِيَامِهِمْ، وَعَمَلَكُمْ مَعَ عَمَلِهِمْ، وَيَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ، يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ، يَنْظُرُ فِي النَّصْلِ فَلَا يَرَى شَيْئًا، وَيَنْظُرُ فِي الْقِدْحِ فَلَا يَرَى شَيْئًا، وَيَنْظُرُ فِي الرِّيشِ فَلَا يَرَى شَيْئًا، وَيَتَمَارَى فِي الْفُوقِ**».

(٢) سبق تخريجه (ص٢٥).

فجعل صيام هذا الشهر ركنًا من أركان الإسلام، فهذا يدل على فضل هذا الشهر.

ومما يختص به هذا الشهر: صلاة التراويح جماعة في المساجد، هذا لايكون إلا في شهر رمضان، ولو صلاها الإنسان في بيته، فلا بأس، ولكن كونه يصليها في المسجد ومع المسلمين هذا أفضل، قال ﷺ: «**مَنْ قَامَ مَعَ الْإِمَامِ حَتَّى يَنْصَرِفَ، كُتِبَ لَهُ قِيَامُ لَيْلَةٍ**»(١)، وقال ﷺ: «**مَنْ قَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ**»(٢)، يعني: إذا قمت ليالي رمضان، وحضرت صلاة التراويح مع المسلمين، ولم تنصرف إلا مع الإمام، فإنك تحصل على هذه الفضائل؛ أنه يحصل لك قيام ليلة كاملة، وأنه يُغفر لك ما تقدم من ذنبك، وهذا خيرٌ عظيم لمن وفقه الله، فينبغي الحرص على صلاة التراويح، وقد صلاها النبي ﷺ بأصحابه ليالي، ثم تأخر عنهم؛ خشية أن تفرض عليهم، فلما صلى بهم، واجتمعوا عليه ﷺ، استقرت السنة، ثم تأخر عنهم؛ لئلا تفرض عليهم فيعجزوا عنها، وبيَّن ﷺ لماذا تأخر أنه خشية أن تفرض عليهم(٣)، فدل على أن صلاة التراويح سنة، وهي سنة مؤكدة، وليست فرضًا، وليست واجبة، واستمر المسلمون يصلونها جماعات في عهده ﷺ، كانوا يصلونها جماعات أوزاعًا متفرقين في المسجد، ثم في خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه بقوا يصلون التراويح جماعات متفرقين في المسجد، يصلي الرجل، ويصلي خلفه

---

(١) أخرجه أحمد (٣٥/ ٣٣١)، وأبو داود (١٣٧٥)، والترمذي (٨٠٦)، والنسائي في المجتبى (١٦٠٥)، وابن ماجه (١٣٢٧)، من حديث أبي ذر رضي الله عنه.
(٢) سبق تخريجه (ص٤٢).
(٣) سبق تخريجه (ص١٣٦).

الرجلان والثلاثة والعشرة وأكثر وأقل، ثم في خلافة عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لما رآهم على هذه الصورة، قال: لو جمعتهم على إمام واحد؛ كما كانوا يصلونها مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فجمعهم على إمام واحد، واستمروا يصلونها في مسجد الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بمحضر من المهاجرين والأنصار والخلفاء الراشدين، كانوا يصلونها خلف أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ جماعة واحدة(١)؛ كما كانوا يفعلون ذلك مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الليالي التي صلاها بهم، واستمرت سنة مؤكدة عند المسلمين يصلونها في المساجد، وهي شعيرة من شعائر الإسلام الظاهرة، فلا ينبغي للمسلم أن يفرط في صلاة التراويح، ويقول: إنها سنة. نعم، هي سنة، ولكن لا ينبغي لك أن تفرِّط في هذه السنة، وتُحرم من هذا الأجر، وهو قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ قَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ**»(٢)، هل أنت لست بحاجة إلى المغفرة؟ نستغفر الله ونتوب إليه، ما من أحد يستغني عن مغفرة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولكن المغفرة لها أسباب، ومن أسبابها: صلاة التراويح، وقيام رمضان؛ «**مَنْ قَامَ رَمَضَانَ**»، هذا هو السبب، «**مَنْ قَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ**»، المغفرة لا تحصل إلا بسبب، ومن أسباب

---

(١) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (٢٠١٠)عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَبْدٍ القَارِيِّ، أَنَّهُ قَالَ: «خَرَجْتُ مَعَ عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، لَيْلَةً فِي رَمَضَانَ إِلَى المَسْجِدِ، فَإِذَا النَّاسُ أَوْزَاعٌ مُتَفَرِّقُونَ، يُصَلِّي الرَّجُلُ لِنَفْسِهِ، وَيُصَلِّي الرَّجُلُ فَيُصَلِّي بِصَلاَتِهِ الرَّهْطُ، فَقَالَ عُمَرُ: إِنِّي أَرَى لَوْ جَمَعْتُ هَؤُلاَءِ عَلَى قَارِئٍ وَاحِدٍ، لَكَانَ أَمْثَلَ، ثُمَّ عَزَمَ، فَجَمَعَهُمْ عَلَى أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ، ثُمَّ خَرَجْتُ مَعَهُ لَيْلَةً أُخْرَى، وَالنَّاسُ يُصَلُّونَ بِصَلاَةِ قَارِئِهِمْ، قَالَ عُمَرُ: نِعْمَ البِدْعَةُ هَذِهِ، وَالَّتِي يَنَامُونَ عَنْهَا أَفْضَلُ مِنَ الَّتِي يَقُومُونَ. يُرِيدُ آخِرَ اللَّيْلِ وَكَانَ النَّاسُ يَقُومُونَ أَوَّلَهُ».

(٢) سبق تخريجه (ص٤٢).

المغفرة صلاة التراويح في رمضان، فهي سنة مؤكدة، وهي من محاسن هذا الدين ومن خصائص هذا الشهر المبارك.

أما في غير رمضان فلا تُصلى التراويح، لا تُصلى إلا في رمضان، ولكن قيام الليل على مدار السنة، كلٌّ يصلي ما تيسر له من قيام الليل؛ التهجد والوتر.

فالتهجد وقيام الليل ليس خاصًّا برمضان، وإنما الخاص برمضان هو صلاة التراويح؛ لأنها من فضائل شهر رمضان المبارك، وصلاة التهجد في غير رمضان لا تُصلى جماعة، يداوم على الجماعة فيها، يصلي المسلم في بيته، أو في أي مكان منفردًا، ولو أن جماعة صلوها بعض الليالي جماعة من غير ترتيب ومن غير استمرار، فلا بأس.

أما الاستمرار على صلاة الجماعة في التهجد هذا خاص برمضان، وغير رمضان كلٌّ يصلي لنفسه، ولو صادف أن جماعة في بعض الأحيان صلوا صلاة التهجد جماعة، فلا بأس بذلك من غير استمرار، ومن غير مداومة؛ فقد صلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صلاة النافلة جماعة في بعض الأحيان، فدل على جواز ذلك من غير استمرار، إنما الاستمرار على الجماعة في صلاة التراويح والتهجد خاصٌّ برمضان المبارك، وهذا من فضائل هذا الشهر.

ومن فضائل هذا الشهر: أن الله جعل فيه ليلة واحدة خيرًا من ألف شهر، وهي ليلة القدر، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝١ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ﴾ [القدر:١، ٢]، هذا تفخيم، تعظيم لشأنها، ﴿لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ [القدر:٣]، أي: العمل في هذه الليلة، العمل الصالح في هذه الليلة خيرٌ من العمل الصالح في ألف شهر.

وألف الشهر: ثلاث وثمانون سنة وزيادة أشهر، وهذا عمرٌ طويل لو افناه الإنسان كله في طاعة الله، فليلة القدر تعادل هذا العمل العظيم.

﴿لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝٣ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ۝٤ سَلَـٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ﴾ [القدر:٣-٥]، هذه ليلة عظيمة، وهي في شهر رمضان قطعًا، لا تخرج عن رمضان، ولكن الله أخفاها؛ لأجل أن يجتهد المسلمون في قيام رمضان كله؛ تحريًا لليلة القدر، فمن قام جميع ليال رمضان، فقد وافق ليلة القدر؛ لأنها لا تخرج عن رمضان.

فإذا قمت جميع الليالي مع الإمام ومع الجماعة، فإنك تكون قد صادفت ليلة القدر، أما لو أنك تركت بعض الليالي، وقمت بعض الليالي، فلا يُضمن أنك وافقت ليلة القدر؛ لأنها ربما تكون في الليالي التي تركتها، فمن يريد أن يوافق هذه الليلة بإذن الله، فليحافظ على قيام رمضان من أوله إلى آخره جميع لياليه؛ حتى يُضمن له أن صادف ليلة القدر.

ومن فضائل هذا الشهر العظيم: أنه تغلق فيه أبواب النيران كل ليلة، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِذَا كَانَ أَوَّلُ لَيْلَةٍ مِنْ رَمَضَانَ صُفِّدَتِ الشَّيَاطِينُ وَمَرَدَةُ الْجِنِّ، وَغُلِّقَتْ أَبْوَابُ النَّارِ فَلَمْ يُفْتَحْ مِنْهَا بَابٌ، وَفُتِحَتْ أَبْوَابُ الْجِنَانِ فَلَا يُغْلَقْ مِنْهَا بَابٌ وَنَادَى مُنَادٍ: يَا بَاغِيَ الْخَيْرِ أَقْبِلْ، وَيَا بَاغِيَ الشَّرِّ أَقْصِرْ، وَللهِ عُتَقَاءُ مِنَ النَّارِ، وَذَلكَ كُلَّ لَيْلَةٍ**»(١)، تغلق أبواب النيران، ما معناه؟ النيران -والعياذ بالله- لها أبواب، ويدخلها الناس بحسب أعمالهم من الكفر والشرك والمعاصي، يدخلون النار؛

(١) سبق تخريجه (ص١١٦).

﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ [الحجر:٤٤]، في رمضان تُغلق؛ لأن الناس يقبلون على طاعة الله، ويتركون معاصي الله عَزَّوَجَلَّ، فتُغلق عنهم أبواب النار؛ لأن أبواب النار إنما تكون لأصحاب الذنوب وأصحاب الشرك والكفر والنفاق والمعاصي.

في رمضان تكثر الطاعات، تكثر الخيرات، ويكثر الإقبال على الله، تكثر التوبة، فتُغلق أبواب النار، وتفتح أبواب الجنان؛ لأن الجنة إنما تحصل بالعمل الصالح، قال الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل:٣٢]، العمل، لا تُدخل الجنة بدون عمل، العمل سببٌ لدخول الجنة، فإذا كنت تريد دخول الجنة، فاعمل السبب، وهو الأعمال الصالحة، أما من يتمنى دخول الجنة، وهو لا يعمل الأعمال الصالحة، وهو مقيم على الذنوب والسيئات، فهذا إنما يتمنى على الله الأماني، قد قال صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**الْكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ**»، يعني: حاسب نفسه، والكيس معناه: العاقل، العاقل من دان نفسه، يعني: حاسب نفسه، «**الْكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ**»، أي: العاقل من حاسب نفسه، «**الْكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ، وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ**»، هذا هو الكيس: دان نفسه، ولم يزكِ نفسه، ولم يمدح نفسه، ولم يكمل نفسه، وإنما يعتبره مقصرًا ومذنبًا ومخطئًا، فيتوب إلى الله، ويحاسب نفسه، ويعمل لما بعد الموت، هذا هو العاقل، «**الْكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ، وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ، وَالْعَاجِزُ، مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا**»، يعني: لم يحاسبها، تركها تعمل ما تشاء من الذنوب والسيئات، وترك الواجبات، تركها تعمل ما تشاء، «**الْكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ، وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ، وَالْعَاجِزُ، مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا، ثُمَّ**

تَمَنَّى عَلَى اللهِ الْأَمَانِيَّ»(١)، هذا هو العاجز، عاجز لأنه أهمل نفسه، «ثُمَّ تَمَنَّى عَلَى اللهِ الْأَمَانِيَّ»، يعني: يتمنى أنه يدخل الجنة، لكن يدخلها بدون عمل؟! هذا ليس بصحيح، الجنة لا تُدخل إلا بالعمل الصالح.

«وَالْعَاجِزُ، مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا، ثُمَّ تَمَنَّى عَلَى اللهِ الْأَمَانِيَّ»، هذا ليس عنده عقل، وليس عنده تفكير، يريد الجنة بدون عمل، هذا ليس بصحيح، الجنة لا تُدرك إلا بالأعمال الصالحة والتوبة إلى الله والاستعداد قبل الموت، هؤلاء هم أصحاب الجنة.

وهنا يقول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَغُلِّقَتْ أَبْوَابُ النَّارِ فَلَمْ يُفْتَحْ مِنْهَا بَابٌ، وَفُتِحَتْ أَبْوَابُ الْجِنَانِ فَلَا يُغْلَقْ مِنْهَا بَابٌ»، للأعمال الصالحة، ولأعمال البر في هذا الشهر المبارك -من صلاة، وصيام، وذكر لله، وتلاوة للقرآن، وصدقات، وإحسان إلى المحتاجين، واستغفار وتوبة-، هؤلاء هم أصحاب الجنان، تُفتح لهم أبواب الجنان لأعمالهم الصالحة التي يقدمونها.

ومن مزايا هذا الشهر: أنه تُغل فيه الشياطين، الشيطان يتسلط على الإنسان، ويجري من ابن آدم مجرى الدم، يلابس الإنسان، ويجري منه مجرى الدم، ويغريه بالمعاصي والذنوب والسيئات، ولكن إذا صام المسلم في شهر رمضان، صام، ترك الشهوات، ابتعد عنه الشيطان؛ لأن الشيطان يأتي مع الشهوات، ويأتي مع الشبع، ومع الأشر والبطر، فإذا صام الإنسان؛ ترك طعامه، وترك شرابه، وترك شهوته لله عَزَّوَجَلَّ، فإنه لا يبقى للشيطان مجال معه، فيُغل بالأغلال، ولا يتمكن

(١) سبق تخريجه (ص٢٣٧).

الشيطان من إغواء المسلمين في شهر رمضان؛ لأنهم مقبلون على الله، مقبلون على الطاعات وعلى فعل القربات، فالشيطان ليس له سبيل عليهم؛ لأنهم انشغلوا بطاعة الله عَزَّوَجَلَّ.

فهذه فضائل عظيمة في هذا الشهر المبارك الذي منَّ الله به على هذه الأمة؛ ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ [البقرة:١٨٥].

هذا شهر رمضان، وهذه بعض فضائله كما جاءت في القرآن وفي السنة، فلنحمد الله على هذه النعمة، ولنسأل الله أن يوفقنا لاستغلال هذا الشهر المبارك في طاعة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ لأن بعض الناس لا يعرفون شهر رمضان إلا أنه شهر للسهر بالليل على القيل والقال، والخروج للأسواق، ومغازلة النساء في الأسواق، والنظر الحرام، أو يجلسون على لعب ولهو، أو يجلسون أمام الشاشات التلفزيونية التي تجلب لهم القنوات من الخارج، ويأتيهم، وينظرون إلى ما يُعرض فيها من المجون ومن الخلاعة، يسهرون ليلهم على هذه الشاشات عاكفين عليها، ثم يملؤون بطونهم من آخر الليل بالطعام والشراب، ثم ينامون جميع النهار، ولا يقومون لصلاة الفريضة؛ لايقومون لصلاة الفجر، لايقومون لصلاة الظهر، لا يقومون لصلاة العصر، وإنما يقومون إذا جاء الأكل عند المغرب، يقومون إذا حان وقت الأكل ووقت الإفطار عند صلاة المغرب، وقد ضيعوا فرائض الله عَزَّوَجَلَّ.

فما هو هذا الصوم؟! وما قيمة رمضان عند هؤلاء؟! سهرٌ بالليل على غير فائدة أو على محرم، ونومٌ بالنهار، وتضييع لفرائض الله؟!

الصلوات آكد من الصيام؛ لأن الصلوات هي الركن الثاني من أركان الإسلام، والصيام هو الركن الرابع من أركان الإسلام، فإذا ضيع الركن الثاني، فكيف يأتي بالركن الرابع؟! لا يُقبل منه عمل وهو مضيعٌ للصلوات -والعياذ بالله-، لا يُقبل منه صيام، لا يُقبل منه عمل حتى يحافظ على الصلوات.

فما قيمة رمضان عند هؤلاء المحرومين الذين يعتبرونه شهرًا للأكل والشرب والتوسع في المأكولات والمشتهيات، وشهرًا للسهر بالليل، وشهرًا للنوم بالنهار؟ ماذا استفادوا من رمضان؟ لا يصلون صلاة التراويح، لايقرؤون القرآن، لا يصلون الفرائض مع الجماعة في النهار.

إذًا لم يستفيدوا من شهر رمضان، لم يستفيدوا منه إلا الآثام، وسيكون شهر رمضان شاهدًا عليهم يوم القيامة بما ضيعوه من أوقاته.

فشهر رمضان إما شاهدٌ لك عند الله، وإما شاهدٌ عليك؛ شاهد لك إذا حافظت عليه بطاعة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وشغلت أوقاته بما ينفعك عند الله من الأعمال الصالحة، أو شاهد عليك إذا ضيعته، إذا فرطت فيه، إذا مرَّ عليك ولم تستفد منه.

صعد النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المنبر يومًا، فقال: «آمِينَ، آمِينَ، آمِينَ»، ثلاث مرات. فسأله الصحابة عن ذلك، فَقَالَ: «**إِنَّ جِبْرِيلَ** عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ **أَتَانِي، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، مَنْ أَدْرَكَ شَهْرَ رَمَضَانَ وَلَمْ يُغْفَرْ لَهُ فَمَاتَ، فَدَخَلَ النَّارَ فَأَبْعَدَهُ اللهُ، قُلْ: آمِينَ، فَقُلْتُ: آمِينَ**».

«**مَنْ أَدْرَكَ شَهْرَ رَمَضَانَ وَلَمْ يُغْفَرْ لَهُ**»، خرج شهر رمضان وهو عليه ذنوبه وعليه معاصيه، وعليه آثامه، لم ينفعه رمضان، «**فَمَاتَ، فَدَخَلَ النَّارَ فَأَبْعَدَهُ اللهُ،**

قُلْ: آمِينَ، فَقُلْتُ: آمِينَ»، قال: «وَمَنْ أَدْرَكَ أَبَوَيْهِ أَوْ أَحَدَهُمَا فَلَمْ يَبَرَّهُمَا، فَمَاتَ فَدَخَلَ النَّارَ فَأَبْعَدَهُ اللهُ، قُلْ: آمِينَ، فَقُلْتُ: آمِينَ، وَمَنْ ذُكِرْتُ عِنْدَهُ -يَا مُحَمَّدُ- فَلَمْ يُصَلِّ عَلَيْكَ فَمَاتَ فَدَخَلَ النَّارَ فَأَبْعَدَهُ اللهُ، قُلْ: آمِينَ، فَقُلْتُ: آمِينَ»(١).

الشاهد من هذا: «مَنْ أَدْرَكَ شَهْرَ رَمَضَانَ وَلَمْ يُغْفَرْ لَهُ»، يعني: دخل عليه الشهر وخرج وهو محملٌ بالذنوب والمعاصي، لم يتب، ولم يغيِّر من أحواله شيئًا، ثم مات على هذه الحالة -والعياذ بالله-، دخل النار؛ لأنه لم يعمل الأسباب التي تنجيه من النار، مات بذنوبه، والذنوب هي الزاد إلى النار -والعياذ بالله.

أما من مات على الطاعة، فالطاعات زادٌ إلى الجنة؛ ﴿وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [البقرة:١٩٧].

أسال الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أن يمنَّ علينا وعليكم من بركات هذا الشهر العظيم، وأن يجعله شاهدًا لنا عنده بالخير والعمل الصالح والحسنات والتوبة من السيئات، وألا يجعله شاهدًا علينا بالتفريط والغفلة والإعراض، وألا يحرمنا من فضائل هذا الشهر، لا يحرمنا من صيامه ومن قيامه ومن ليلة القدر، لا يحرمنا من تلاوة القرآن، لا يحرمنا مما جعله في هذا الشهر من الخيرات الكثيرة؛ فإنه روضة من رياض الجنة، فيه كل خير، وفيه كل بر وكل عمل صالح.

الرياض المعشبة إذا دخلتها البهائم الصحيحة ترعى منها وتستفيد منها، لكن إذا دخلتها البهائم المريضة، فإنها لا تستفيد منها شيئًا؛ لأن المرض شغلها،

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (ص ٢٢٥)، والترمذي (٣٥٤٥)، من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

والألم شغلها عن الأكل، كذلك ابن آدم المريض، ليس المريض بالبدن، بل المريض بالقلب، الذي في قلبه مرض لا يستفيد من خيرات هذا الشهر مثل البهيمة المريضة لا تستفيد من الرياض المعشبة، تمر بها وتخرج منها لم تستفد؛ مشغولة بالمرض -والعياذ بالله-، كذلك ابن آدم يمر عليه هذا الشهر وفي قلبه مرض، لا يستفيد من هذا الشهر، إنما يستفيد المؤمن الذي ليس في قلبه مرض، بل في قلبه إيمان، وفي قلبه يقين، وفي قلبه صدقٌ مع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فإنه يستفيد بإذن الله من هذا الشهر.

نسأل الله عَزَّوَجَلَّ ألا يحرمنا وإياكم وجميع المسلمين من خيرات هذا الشهر، وأن يجعله شهرًا مباركًا علينا وعلى جميع المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

فضل العشر الأواخر من رمضان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على عبده ورسوله نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين:

جعل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في مرور الليالي والأيام عبرة لأولي الألباب؛ فشهر رمضان الكريم هلَّ على المسلمين، وفرحوا به، وارتبطوا به، ثم طُويت أيامه بسرعة، ولم يبق منه إلا القليل، ولكن من كان مجتهدًا في هذا الشهر كله، فعليه بالإتمام، عليه بإتمام ما أسلف في هذا الشهر، ومن كان مقصرًا، فعليه بالتوبة، وختام الشهر بالتوبة؛ فإنما الأعمال بالخواتيم.

هذا شهر عظيم مرَّ بنا أكثره، ولم يبق إلا قليله، ونحن الآن في أخريات العشر الأواخر التي هي أفضل الشهر، هذه العشر هي أفضل الشهر؛ بدليل أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يعتكف فيها، وأنه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يزيد اجتهاده فيها بالعبادة؛ صلاة الليل وإحياء الليل، والحث على قيام الليل، على قيام هذه الليالي بالخصوص؛ مما يدل على فضل هذه العشر المباركة.

من فضائلها: أنها هي العشر التي أحرى ما تكون لليلة القدر التي فضلها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وسيأتي الكلام عنها -إن شاء الله.

إن هذا الشهر يُتبع بالطاعة، يُتبع بالعبادات:

أولًا: يُتبع بالتكبير؛ قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة:١٨٥]، والتكبير يكون في ليلة العيد، إذا ثبت هلال شوال، يبدأ التكبير إلى أن يخرج الإمام لصلاة العيد؛ كله وقتٌ للتكبير؛ عملًا بقوله تعالى: ﴿وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة:١٨٥].

ومما يُتبع به هذا الشهر ويُختم به: صدقة الفطر، صدقة الفطر وهي زكاة عن النفس زكاة عن البدن، ولذلك تجب على الغني والفقير؛ الفقير الذي عنده ما يكفي ليومه وليلته، فإذا كان عنده فاضل عن قوت يومه وليلته وقوت من يمونهم، فإنه تجب عليه صدقة الفطر.

تجب على الذكر والأنثى، والحر والعبد، على الصغير والكبير؛ لأنها زكاة عن البدن، وهي طهرة للصائم مما قد يكون علق به من التقصير في هذا الشهر في الصيام، فهي طهرة له، وهي طعمة للمساكين؛ لأن يوم العيد ليس هناك عمل يقتات منه المساكين، ليس هناك عمل، الأعمال تُعطل، والمحلات تُغلق، فالمساكين بحاجة إلى أن يُعطوا ما يكفيهم هذا اليوم الذي ليس فيه طلب للرزق، وليس فيه كسب؛ لأن محلات الأعمال تُعطل يوم العيد، فيُعطون ما يكفيهم لأجل أن يفرحوا مع الناس في هذا اليوم(١).

---

(١) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (١٥١١)، ومسلم (١٤) (٩٨٤) عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: «فَرَضَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَدَقَةَ الفِطْرِ -أَوْ قَالَ: رَمَضَانَ- عَلَى الذَّكَرِ، وَالأُنْثَى، وَالحُرِّ، وَالمَمْلُوكِ صَاعًا مِنْ تَمْرٍ، أَوْ صَاعًا مِنْ شَعِيرٍ، فَعَدَلَ النَّاسُ بِهِ نِصْفَ صَاعٍ مِنْ بُرٍّ، فَكَانَ =

ومقدارها صاع بالصاع النبوي، مقدار الفطرة صاع بالصاع النبوي الذي هو أربعة أمداد، وبالكيلو ثلاثة كيلوات تقريبًا، وزن ثلاثة كيلوات تقريبًا، فإذا أخرج ثلاثة كيلوات، فقد أخرج الصاع النبوي؛ لأنه عندما حُرِر وُجِد أنه يقارب ثلاثة كيلوات، فإذا جعله ثلاثة كيلوات، يكون أحوط، هذا مقدار الصاع.

ويُخرج من قوت البلد؛ إن كان البلد يقتات بالبر، يُخرج البر، إن كان بالشعير، يُخرج الشعير، إن كان بالذرة، يُخرج الذرة، إن كان بالأرز، يخرج الأرز؛ من قوت البلد، صاع من قوت البلد.

وتُعطى للفقراء، صدقة الفطر تُعطى للفقراء، ولا بأس أن يجمع أهل البيت زكاتهم، ويدفعوها لفقير واحد، ليس هناك بأس، أو لجماعة من الفقراء، سواء دفعوها لواحد من الفقراء، أو لجماعة من الفقراء.

ويخرجها في البلد الذي وافاه تمام الشهر وهو فيه؛ لأنها تابعة للبدن، فيخرجها في البلد الذي أدركه انتهاء شهر رمضان فيه، هذا هو الأصل والسنة، فيعطيها لفقراء ذلك البلد الذي هو فيه، ولو لم يكن بلدًا له في الأصل؛ لأنها تابعة للبدن، وإن أخرجها في بلد آخر، وَكَّلَ من يخرجها عنه في بلد آخر، أجزأ ذلك، المهم أنه يخرجها، ولكن الأفضل أن يخرجها في البلد الذي يوافيه العيد وهو فيه، وإن أخرجها في بلد آخر، فلا بأس، يعطيها للفقراء في أي بلد من فقراء المسلمين.

= ابْنُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، يُعْطِي التَّمْرَ، فَأَعْوَزَ أَهْلُ المَدِينَةِ مِنَ التَّمْرِ، فَأَعْطَى شَعِيرًا، فَكَانَ ابْنُ عُمَرَ يُعْطِي عَنِ الصَّغِيرِ، وَالكَبِيرِ، حَتَّى إِنْ كَانَ لِيُعْطِي عَنْ بَنِيَّ، وَكَانَ ابْنُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يُعْطِيهَا الَّذِينَ يَقْبَلُونَهَا، وَكَانُوا يُعْطُونَ قَبْلَ الفِطْرِ بِيَوْمٍ أَوْ يَوْمَيْنِ».

ووقت إخراجها يبدأ من غروب الشمس ليلة العيد، غروب الشمس ليلة واحد من شوال، ويستمر إلى أن يخرج الناس لصلاة العيد، فلا يذهب إلى صلاة العيد إلا وقد أخرج صدقته، ولا يؤخرها إلى ما بعد صلاة العيد، وكونه يخرجها عند خروجه لصلاة العيد أفضل من إخراجها في أول الليل، ويجوز أن يخرجها قبل ليلة العيد بيوم أو يومين؛ الثامن والعشرين من رمضان، أو التاسع والعشرين من رمضان لا بأس، يوم أو يومين كما كان السلف يفعلون ذلك.

ومما يُختم به هذا الشهر العظيم: صلاة العيد؛ يخرج المسلمون إلى المصلى، ويصلون العيد إذا ارتفعت الشمس، ويخطب الإمام خطبتين بعد الصلاة، يُذكر الناس، فيُتبع شهر رمضان بصلاة العيد، وهي سنة مؤكدة، وبعض العلماء يرى أنها واجبة، بعضهم يرى أنها فرض كفاية، بعض العلماء يرى أنها واجبة على الأعيان على كل مسلم، بعضهم يرى أنها فرض كفاية إذا قام بها من يكفي، سقط الإثم عن الباقين، بعضهم يرى أنها سنة، والصحيح -إن شاء الله- أنها فرض، وأن الإنسان لا يتركها؛ لأنها شعيرة عظيمة من شعائر الإسلام، فيخرج إليها، ولا يتكاسل؛ لأنها ختام الشهر، مشهد عظيم يخرج المسلمون لربهم، بعد أن أدوا ركنًا من أركان الإسلام يخرجون لصلاة العيد.

قد جعل الله بعد كل أداء ركن عيدًا، جعل بعد الوقوف بعرفة الذي هو ركن الحج الأعظم، جعل عيد الأضحى، وجعل بعد رمضان الذي صيامه ركنٌ، جعل عيد الفطر، فهذان العيدان كل منهما بعد أداء ركن من أركان الإسلام، هذا بعد أداء ركن الصيام، وذاك بعد أداء ركن الحج -عيد الأضحى-، وليس للمسلمين أعياد غير العيدين عيد الفطر وعيد الأضحى، هذه أعياد المسلمين.

يوم الجمعة يسمى عيدًا، عيد الأسبوع، ولذلك يجتمع المسلمون، ويصلون الجمعة، فهي عيد الأسبوع، وليس هناك للمسلمين أعياد غير هذه الأعياد الشرعية، ما كان من أعياد غير هذه الأعياد الشرعية، فهو من أعياد الجاهلية، وهو مبتدع، بدعة في الإسلام.

ومما يُتبع به هذا الشهر العظيم: صيام ستة أيام من شوال، قال ﷺ: **«مَنْ صَامَ رَمَضَانَ، وَأَتْبَعَهُ سِتًّا مِنْ شَوَّالٍ، فَكَأَنَّمَا صَامَ الدَّهْرَ»**(١)، يعني: السنة؛ لأن الحسنة بعشر أمثالها، فرمضان عن عشرة أشهر، وستة أيام عن شهرين، كل يوم عن عشرة أيام، فيكون المجموع اثني عشر شهرًا، هذا هو السنة.

فإذا صام رمضان، وأتبعه ستًّا من شوال، فكأنما صام السنة كلها في الفضل، له أجر، يعني: له أجر من صام السنة كلها، هذا فضل من الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ.

ويجوز صيامها -صيام الست- متتابعة، ويجوز صيامها متفرقة، ويجوز صيامها في أول الشهر بعد العيد مباشرة -وهذا أفضل-، ويجوز صيامها في وسط الشهر، ويجوز صيامها في آخر الشهر؛ لقوله ﷺ: **«وَأَتْبَعَهُ سِتًّا مِنْ شَوَّالٍ»**، وهذا يشمل كل شوال، إذا صامها من شوال في أوله، في وسطه، في آخره، متتابعة، متفرقة، كل ذلك يحصل به إقامة السنة، ويحصل به الأجر الذي بيَّنه الرسول ﷺ: **«فَكَأَنَّمَا صَامَ الدَّهْرَ»**.

إن المسلم لا ينتهي عمله برمضان مثلما يفعل بعض الناس المغرورين، المسلم يستمر عمله إلى الموت، وإنما رمضان زيادة خير له، وإلا فالمسلم يستمر

---

(١) سبق تخريجه (ص١١٩).

عمله إلى الموت؛ «إِذَا مَاتَ ابْنُ آدَمَ انْقَطَعَ عَمَلُهُ»(١)، أما قبل الموت فعمله لاينقطع، متواصل، قال تعالى: ﴿ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ﴾ [الحجر:٩٩].

وما رمضان إلا زيادة خير، وما رمضان إلا تدريب، تدريب على الخير؛ يتدرب الإنسان على قيام الليل، يتدرب على الصيام، يتدرب على الصدقة، فهو شهر تدريب على العبادة، أما الذي يجتهد في رمضان، وإذا خرج رمضان، ضيع، فهذا لا يحصل له المطلوب.

سئل بعض السلف عن قوم إذا دخل شهر رمضان، اجتهدوا في العبادة، ثم إذا خرج، تكاسلوا وضيعوا، فقال: بئس القوم لا يعرفون الله إلا في رمضان.

الواجب على المسلم أن يستمر عمله في كل السنة؛ يكون له نصيب من قيام الليل، لا يتركه كل ليلة، لا سيما في آخر الليل وقت السَّحر.

يكون له نصيب من صيام التطوع، صيام الاثنين والخميس من كل أسبوع، صيام ثلاثة أيام من كل شهر، صيام شهر المحرم، وأفضله العاشر والتاسع، يوم عاشوراء هذا أفضل شهر محرم، وإن صام كل شهر محرم فذلك حسن؛ لقوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ: «أَفْضَلُ الصِّيَامِ بَعْدَ شَهْرِ رَمَضَان، شَهْرُ اللهِ الَّذِي يَدْعُوْنَهُ الْمُحَرَّمَ»(٢)، يصوم ثلاثة أيام من كل شهر؛ كما أوصى النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ أبا هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ: أن يصوم ثلاثة أيام من كل شهر(٣).

---

(١) سبق تخريجه (ص٨).

(٢) أخرجه مسلم (١١٦٣)، وابن ماجه -واللفظ له- (١٧٤٢)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ.

(٣) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (١١٧٨)، ومسلم (٧٢١)، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ قَالَ: «أَوْصَانِي خَلِيلِي بِثَلَاثٍ لَا أَدَعُهُنَّ حَتَّى أَمُوتَ؛ صَوْمِ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ، وَصَلَاةِ الضُّحَى، وَنَوْمٍ عَلَى وِتْرٍ».

وإذا كان عنده رغبة في الصيام، زيادة رغبة، فيصوم صيام داود عَلَيْهِ السَّلَامُ، «يَصُوم يَوْمًا وَيُفْطِرُ يَوْمًا»؛ كما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَحَبُّ الصِّيَامِ إِلَى اللهِ صِيَامُ دَاوُدَ، كَانَ يَصُومُ يَوْمًا وَيُفْطِرُ يَوْمًا»[(١)].

كذلك لا يكون آخر عهدك بالقرآن انتهاء شهر رمضان، اجعل لك حزبًا من القرآن تقرؤه كل يوم، وتداوم عليه؛ حتى تختم القرآن، تختم القرآن في شهر، تختم القرآن في كل عشرة أيام، تختم القرآن في كل ثلاثة أيام، أما أنك لا تقرأ القرآن إلا في رمضان، هذا حرمان، لا تحرم نفسك من تلاوة القرآن، وتظن أنه لا يُتلى القرآن إلا في رمضان.

كذلك الصدقات؛ أن تتصدق في رمضان، تصدق في غير رمضان؛ لأن الفقراء موجودون في رمضان وفي غيره، وحاجتهم باقية في رمضان وغيره، فلاتظن أن الصدقة إنما محصورة في شهر رمضان، لكن هي في رمضان أفضل، وإلا فشرعية الصدقة باقية طول السنة على حسب الحاجة.

أنت تعودت في هذا الشهر، تعودت الآداب الشرعية، أمسكت لسانك عن الكلام المحرم، أمسكت بصرك عن النظر المحرم، أمسكت سمعك عن السماع المحرم، فليكن هذا صفتك كل السنة، أمسك لسانك عن الآثام والفحش، أمسك بصرك عن النظر إلى ما حرم الله؛ ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ﴾ [النور:٣٠]، هذا عام في شهر رمضان وغيره.

تجنبت سماع المعازف والمزامير والأغاني في رمضان، تجنبها في كل وقتك؛ لأنها خسارة وإثم، والأغاني والمزامير تزرع الشر في القلوب، تزرع الشهوة

(١) أخرجه البخاري (٣٤٢٠)، ومسلم (١١٥٩)، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

في القلب، وتدعو إلى فساد الأخلاق؛ لأن أغلبها في العشق والغرام ووصف النساء، وصف الخدود والقدود وهكذا، كل الأغاني التي تذاع الآن والتي تُسجل لا تجدها إلا في النساء، كلها في وصف النساء والغرام والعشق وغير ذلك؛ لأنها هي قرآن الشيطان، الأغاني هي قرآن الشيطان.

وأما كلام الله جَلَّوَعَلَا فهو قرآن الله جَلَّوَعَلَا، ولهذا يقول العلامة ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]:

حُـبُّ الكِتَابِ وَحُـبُّ ألحَـانِ الغِنَا   فِي قَـلْـبِ عَـبْـدٍ لَـيْـسَ يَجْـتَـمِـعَـانِ

لا يجتمع في قلب واحد حب الأغاني وحب القرآن؛ لأنهما ضدان، الضدان لا يجتمعان، لا يجتمع في قلب مسلم حب قرآن الشيطان وقرآن الرحمن، لابد أن يكون مع أحدهما، فعليك أن تحفظ سمعك عن هذا الإثم وهذا اللغو؛ ﴿ وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ ﴾ [القصص:٥٥]. وفق الله الجميع لما يحب ويرضى، وتقبل منا صيامنا وقيامنا وسائر أعمالنا، ووفقنا لمواصلة الأعمال الصالحة إلى أن نلقاه سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

---

(١) انظر: النونية مع شرحها لابن عيسى (٢/ ٥٢١).

فضل شهر رمضان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على عبده ورسوله نبينا محمد النبي المختار وعلى آله وأصحابه البررة الأطهار، أما بعد:

فإن شهر رمضان شهر عظيم، فضله الله على سائر الشهور بفضائل عظيمة، وإن كان كل الوقت ثمين، وكل الحياة مجال للخير، وكل العمر مكسب لمن وفقه الله، إلا أن الله خصص بعض الأوقات بمزيد فضل؛ رحمة بعباده من أجل أن يتزودوا لآخرتهم من دنياهم، فتمر بهم هذه الأوقات الفاضلة، فيجتهدون فيها بالأعمال الصالحة، فتضاعف لهم حسناتهم، وتُغفر لهم سيئاتهم، ويحصلون في الوقت القصير على خير كثير لمن وفقه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وشهر رمضان فضله الله على شهور العام بفضائل كثيرة، من أهمها:

أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أنزل فيه القرآن، فقال سبحانه: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ [البقرة:١٨٥]، فقوله: ﴿ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ [البقرة:١٨٥] هذا تفضيل له، وتمييز له على غيره بهذه الميزة العظيمة، وهي إنزال القرآن فيه.

وكذلك مما ميز الله به هذا الشهر: أن الله أوجب صيامه، فقال تعالى: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ [البقرة:١٨٥]، فإيجاب صيامه على الأمة تفضيل له

على غيره؛ حيث جعل صيامه أحد أركان الإسلام، فهو شهر يؤدى فيه ركن من أركان الإسلام، وهو الصيام، فهذا تفضيل له على غيره من الشهور.

وكذلك من فضائل هذا الشهر: أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شرع لأمته قيامه، فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ قَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ**»(١)، وقيام رمضان يحصل بصلاة التراويح وصلاة التهجد في آخر الشهر، فالقيام معناه: الصلاة فيه، صلاة التراويح جماعة في المساجد، صلاة التهجد في آخر الليل في العشر الأواخر، هذا مما شرعه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأمته في هذا الشهر.

في سائر السنة يُشرع قيام الليل، لكن على غير الصفة التي تحصل بقيام رمضان؛ قيام رمضان يكون في المساجد، ويكون جماعة، وأما قيام الليل في غير شهر رمضان، فإنه لا تُشرع له الجماعة، ولا يكون في المساجد، بل يكون في البيوت أفضل؛ لقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَفْضَلُ صَلَاةِ الْمَرْءِ فِي بَيْتِهِ إِلَّا الْمَكْتُوبَةَ**»(٢)، أما رمضان فيختص في أنه يُصلى فيه القيام جماعة في المساجد؛ إظهارًا لهذه الشعيرة في هذا الشهر المبارك.

ومن فضائل شهر رمضان: أن الله جَلَّ وَعَلَا يعتق عبيده فيه من النار، ويغفر لهم، فهو شهر مغفرة وعتق ورحمة، فقد صعد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يومًا المنبر، فقال: «**آمِينَ، آمِينَ، آمِينَ**»، ثلاث مرات، ثم أخبر أصحابه لماذا قال: «**آمِينَ**»؛ أن جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ قال له: «**يَا مُحَمَّدُ، مَنْ أَدْرَكَ أَبَوَيْهِ أَوْ أَحَدَهُمَا، فَلَمْ يُغْفَرْ لَهُ فَأَبْعَدَهُ اللهُ، قُلْ:**

---

(١) سبق تخريجه (ص٤٢).

(٢) أخرجه البخاري (٧٣١)، ومسلم (٧٨١)، من حديث زيد بن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

آمِينَ، فَقُلْتُ: آمِينَ. قال: مَنْ أَدْرَكَ شَهْرَ رَمَضَانَ، فَصَامَ نَهَارَهُ، وَقَامَ لَيْلَهُ، ثُمَّ مَاتَ فَلَمْ يُغْفَرْ لَهُ، فَدَخَلَ النَّارَ، فَأَبْعَدَهُ اللهُ، قُلْ: آمِينَ، قُلْتُ: أَمِينَ. قال: يَا مُحَمَّدُ، مَنْ ذُكِرْتَ عِنْدَهُ فَلَمْ يُصَلِّ عَلَيْكَ فَمَاتَ وَلَمْ يُغْفَرْ لَهُ فَدَخَلَ النَّارَ، فَأَبْعَدَهُ اللهُ، قُلْ: آمِينَ، فَقُلْتُ: آمِينَ»(١)، ثلاث مسائل دعا فيها جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ على من لم يستفد منها ودخل النار، وأمن الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على دعائه، ومن ذلك: شهر رمضان؛ من أدرك شهر رمضان فلم يغفر له، إذا لم يُغفر له في شهر رمضان وهو شهر المغفرة والقرب من الله جَلَّ وَعَلَا، فإنه فاته موسم عظيم، قد لا يتكرر له مرة ثانية، فهذا فيه ميزة لهذا الشهر على غيره: أنه شهر المغفرة، ومن فاتته المغفرة في شهر رمضان، فحريٌّ أن تفوته المغفرة في غيره من باب أولى.

وقد جاء في الحديث أن ثلاثة من المسلمين -من المؤمنين- كانوا مجتهدين في العبادة، ومتساويين في العبادة والجهاد في سبيل الله، فاستشهد اثنان في سبيل الله، وبقي الثالث بعدهما، ومات على فراشه، فرُوِي أنه سبق أخويه الشهيدين، فتعجب الناس، كيف الذي مات على فراشه يسبق الشهيد؟ فقال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مِنْ أَيِّ ذَلِكَ تَعْجَبُونَ؟ فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ هَذَا كَانَ أَشَدَّ الرَّجُلَيْنِ اجْتِهَادًا، ثُمَّ اسْتُشْهِدَ، وَدَخَلَ هَذَا الْآخِرُ الجَنَّةَ قَبْلَهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَلَيْسَ قَدْ مَكَثَ هَذَا بَعْدَهُ سَنَةً؟ قَالُوا: بَلَى، قَالَ: وَأَدْرَكَ رَمَضَانَ فَصَامَ، وَصَلَّى كَذَا وَكَذَا مِنْ سَجْدَةٍ فِي السَّنَةِ؟ قَالُوا: بَلَى، قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: فَمَا بَيْنَهُمَا أَبْعَدُ مِمَّا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ»(٢).

---

(١) سبق تخريجه (ص٢٧٤).

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٢١)، وابن ماجه (٣٩٢٥)، من حديث طلحة بن عبيد الله رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

أدرك شهر رمضان بعدهما وصامه وقامه، ففاز على أخويه الشهيدين، هذا دليل على فضل هذا الشهر العظيم لمن وفقه الله، أما من لم يوفقه الله، فإنه يمر عليه هذا الشهر كغيره من الشهور، ولا يتنبه لنفسه، يمر عليه ولا يستفيد منه، أدرك شهر رمضان فلم يغفر له، الذي لا يتنبه لهذا الشهر، ولا يستغله في طاعة الله هذا خاسر.

ومن مزايا هذا الشهر العظيم: أن الله جعل فيه ليلة واحدة خيرًا من ألف شهرًا، وهي ليلة القدر، هذه في رمضان، هذه إحدى ليالي رمضان، وهي خير من ألف شهر بنص القرآن العظيم؛ قال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴾ [الدخان:٣، ٤]، وهي ليلة القدر؛ كما قال تعالى: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝١ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ﴾: هذا تفخيم لها، تفخيم، ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ۝٢ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝٣ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا ﴾، ﴿وَٱلرُّوحُ ﴾، قيل: هو جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ لأن جبريل هو الروح الأمين، وقيل: ﴿وَٱلرُّوحُ ﴾، طائفة من الملائكة، طائفة خاصة من الملائكة[(١)].

﴿بِإِذْنِ رَبِّهِم ﴾: بأمره سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

﴿ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ۝٤ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ﴾ [القدر:١-٥]، فهي سلامٌ، وهي ليلة خيرٌ من ألف شهر، وهي ليلة تتنزل فيها الملائكة بالرحمة وإعانة بني آدم على القيام والدعاء.

---

(١) انظر: تفسير الماوردي (٦/ ٣١٣)، وزاد المسير (٤/ ٤٧٣)، وتفسير القرطبي (٢٠/ ١٣٣)، وتفسير ابن كثير (٨/ ٤٤٤).

وألف شهر إذا حُسِبت، صارت ثلاثًا وثمانين سنة وزيادة أشهر، يعني: من وُفِق في هذه الليلة وقامها، وعمل فيها خيرًا، فإن عمل هذه الليلة يعادل عمل ثلاث وثمانين سنة وزيادة أشهر، هذا خيرٌ عظيم لمن وفقه الله.

وهي في هذا الشهر، ليلة القدر لا شك أنها في شهر رمضان، لكنها أُخفيت فيه من أجل أن يجتهد المسلم في جميع ليالي الشهر؛ حتى يفوز بهذه الليلة، ويفوز ببقية ليالي رمضان زيادة خير، فمن قام جميع ليالي رمضان، فلاشك أنها مرت عليه ليلة القدر وقامها، وأما من لم يقم إلا بعض الليالي، فلايُضمن أنه أدرك ليلة القدر؛ فقد تكون في الليالي التي تركها، مما يؤكد على المسلم أن يجتهد، وأن يقوم جميع ليالي رمضان؛ حتى يفوز بهذه الليلة، ويفوز بقيام شهر رمضان، يكون قام شهر رمضان وقام ليلة القدر، وقد قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ قَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ**»[(١)]، وقال: «**وَمَنْ قَامَ لَيلَةَ الْقَدْرِ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ**»[(٢)].

فيحصل له قيامان: قيام ليالي شهر رمضان، وقيام ليلة القدر.

شهر رمضان يأتي على الأمة، فمنهم من الأمة من هو محسن في كل السنة؛ يصوم من السنة، ويقوم ليالي السنة، لا يترك ليلة من ليالي السنة إلا ويقوم فيها، فإذا جاء رمضان، زاد قيامه، فازداد خيرًا إلى خير، قيام ليالي السنة وقيام شهر رمضان، وقيام ليلة القدر، خيرٌ إلى خير.

---

(١) سبق تخريجه (ص٤٢).

(٢) سبق تخريجه (ص٤٢).

ومن الناس من يكون غافلًا ومقصرًا في سنته، فإذا جاء شهر رمضان، انتبه لنفسه، واستيقظ لنفسه، فاجتهد في شهر رمضان؛ فصار شهر رمضان منبهًا له، فتغفر له ذنوبه؛ لأن رمضان شهر مغفرة، تُغفر له ذنوبه التي كان مسيئًا بها في سنته، إذا وفقه الله لشهر رمضان، فتنبه وتاب واستغفر، غفر الله له ذنوبه، وجاء في الحديث أن: **«الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ، وَالْجُمُعَةُ إِلَى الْجُمُعَةِ، وَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ، مُكَفِّرَاتٌ لِمَا بَيْنَهُنَّ مَا اجْتُنِبَتِ الْكَبَائِرُ»**(١).

ومن الناس صنف ثالث كان هالكًا بذنوبه؛ يرتكب الكبائر والموبقات التي استحق بها دخول النار، فلما جاء شهر رمضان، تاب إلى الله، تنبه وتاب إلى الله من الذنوب الكبائر، فأعتقه الله من النار بعدما استحق دخولها، لما تاب في رمضان، أعتقه الله من النار.

فهذه أقسام المسلمين في شهر رمضان ثلاثة اقسام:

* المحسنون الذين ليس لهم ذنوب، وكانوا صالحين في كل السنة، واكتسبوا في شهر رمضان زيادة صلاح وخير.

* والمذنبون الذين كانت لهم ذنوب صغائر لو بقيت عليهم لأهلكتهم، ثم لما جاء رمضان وصاموا وقاموا، غُفِرت لهم ذنوبهم.

* والمستوجبون لدخول النار بكبائر وموبقات اقترفوها، فتابوا إلى الله منها في شهر رمضان، فغفر الله لهم، وأعتقهم من النار.

هناك صنف رابع لم يتنبه في رمضان، صنف رابع مسرف على نفسه بالذنوب والمعاصي، ومستغرق في غفلته وشهواته المحرمة، وجاء شهر رمضان، ولم يتغير

---

(١) سبق تخريجه (ص٧٨).

حاله، ولم يتنبه، بل بقي على سوئه، أو ازداد سوءًا أكثر، فهذا لم ينتفع في شهر رمضان، وهذا هو الذي أدركه شهر رمضان، فلم يُغفر له، وهو الذي أخبر عنه جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، وأمن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على حالته؛ «**مَنْ أَدْرَكَ شَهْرَ رَمَضَانَ فَصَامَ نَهَارَهُ، وَقَامَ لَيْلَهُ ثُمَّ مَاتَ فَلَمْ يُغْفَرْ لَهُ فَدَخَلَ النَّارَ، فَأَبْعَدَهُ اللهُ، قُلْ: آمِينَ، قُلْتُ: آمِينَ**»[١]، نسأل الله العافية!

إذًا: فهذا الشهر شهر عظيم، وموسم كريم، ووافد خير على هذه الأمة، يتكرر عليها كل سنة.

من رحمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أنه جعل هذا الشهر في السنة مطهرة للعباد، وسوقًا من أسواق الجنة، يتاجرون فيه بالأعمال الصالحة، الناس الآن في أمور الدنيا تفتح لهم أسواق تجارية ومعارض تجارية، تعرض فيها السلع النفيسة، ويحصل فيها تنزيلات، فيتسابق الناس إلى هذه الأسواق وهذه المعارض ليستفيدوا منها ومن تخفيضاتها ومن الحصول على معروضاتها، شهر رمضان جعله الله سوقًا للصالحين، سوقًا للآخرة، ليس سوقًا للدنيا، بل هو سوق للآخرة، تُعرض فيها الأعمال الصالحة، تُعرض فيه الجنة، تُفتح فيه أبواب الجنة؛ كما في الحديث، وتُغلق فيه أبواب النار، ويصفد فيه الشيطان[٢].

---

(١) سبق تخريجه (ص٢٧٤).

(٢) أخرجه الترمذي (٦٨٢) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِذَا كَانَ أَوَّلُ لَيْلَةٍ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ صُفِّدَتِ الشَّيَاطِينُ، وَمَرَدَةُ الجِنِّ، وَغُلِّقَتْ أَبْوَابُ النَّارِ، فَلَمْ يُفْتَحْ مِنْهَا بَابٌ، وَفُتِّحَتْ أَبْوَابُ الجَنَّةِ، فَلَمْ يُغْلَقْ مِنْهَا بَابٌ، وَيُنَادِي مُنَادٍ: يَا بَاغِيَ الخَيْرِ أَقْبِلْ، وَيَا بَاغِيَ الشَّرِّ أَقْصِرْ، وَللهِ عُتَقَاءُ مِنَ النَّارِ، وَذَلكَ كُلُّ لَيْلَةٍ**».

فهو موسم عظيم وسوق من أسواق الجنة، تُعرض فيه الجنة للبيع، من يشتري؟ الناس لو تُعرض أمامهم عمارات أو شقق للبيع، رأيتهم يتسابقون إليها، كلٌّ يريد أن يحصل له منزل، كلٌّ يريد أن يحصل له دار يسكنها.

في رمضان تُعرض الجنة، الجنة تُعرض بأرخص الأسعار لمن وفقه الله، وأيسر الأثمان لمن وفقه الله، لكن قلَّ من يشتري، قلَّ من يسوم من العباد، بينما لو عُرِض لهم طمع من مطامع الدنيا، لبادروا إليه، يقولون: من أجل ألا يفوت هذا السوق، ألا يفوت هذا المعرض، يتسابقون إليه، يتسابقون إلى أمور الدنيا وطمع الدنيا، والذي لم يحصل منه على شيء، يندم ويتحسر.

أما سوق رمضان، سوق الجنة، سوق الأعمال الصالحة، فقلَّ من يتنبه له، مع أن أسواق الدنيا التجارية قد يكون كثير من الناس ليس بأيديهم نقود يشترون منها، ليس بأيديهم نقود يشترون من هذه المعروضات، بينما سلع الجنة وأسواق الجنة كلٌّ يستطيع أن يشتري منها، ميسرة، كلٌّ يستطيع، أما أسواق الدنيا، لا يستطيع إلا الذي عنده دراهم، أما أسواق الجنة، كلٌّ يستطيع بأيسر الأثمان، ميسرة لمن وفقه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ﴾ [الصف:١٠]، تجارة، يمكن أن تقول: أنا ليس عندي مال، أنا فقير، هذه تجارة، وأنا ليس عندي مال؛ قال الله تعالى: ﴿ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾، لست بحاجة إلى دراهم، ﴿ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ١١ يَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ وَيُدۡخِلۡكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖ ﴾؛ جنات عدن إقامة

دائمة، ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصف:١١-١٣].

فأسواق الجنة ميسورة، وكلٌّ عنده ثمن يستطيع أن يشتري، يستطيع أن ينافس، ينافس فيها وإن كان ليس عنده دراهم، عنده صلاة، عنده صيام، عنده ذكر لله عَزَّوَجَلَّ، جهاد في سبيل الله بنفسه أو بماله، ثم يحصل على المساكن في الجنة، وأعظم من الجنة: رضوان الله جَلَّوَعَلَا؛ ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة:٧٢]، أكبر من الجنة.

فهذه مواسم الآخرة، وفي مقدمتها هذا الشهر، شهر رمضان الذي هو بين أيدينا الآن، نسأل الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أن يوقظنا جميعًا لاغتنامه والعمل الصالح فيه، وأن يجعله شاهدًا لنا عند الله جَلَّوَعَلَا بما يرضيه، لا شاهدًا علينا بالتضييع، ولكن الموفق من وفقه الله والمحروم من حرم.

«الْكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ، وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ»، هذا هو الكيّس، يعني: العاقل الحازم، «مَنْ دَانَ نَفْسَهُ»، يعني: حاسبها على عثراتها وزلاتها، دانها، لايزكيها ويمدحها، بل يدينها ويحاسبها، «مَنْ دَانَ نَفْسَهُ، وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ»؛ لأن المطلوب العمل لما بعد الموت، هو المطلوب، ولا يبقى لك إلا العمل الذي بعد الموت، هو الذي يبقى لك، أما عمل الدنيا هذا أنت ذاهب وتاركه لغيرك، أنت تعبت فيه وجمعته، ولكنك تذهب وتتركه لغيرك، أما العمل لما بعد الموت، هذا يبقى لك، لا أحد يأخذه، ولا تؤخذ أنت منه، بل تبقى ويبقى لك دائمًا وأبدًا؛ «وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ»، «وَالْعَاجِزُ»، هذا ضد الكيس، «وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا»، كل شيء تريده نفسه يعطيها إياه -من الكفر والشرك والمعاصي

والزنا والسرقة والخمر والمخدرات-، وكل بلاء يعطيها، كل ما تريد يعطيها؛ «أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا، ثُمَّ تَمَنَّى عَلَى اللهِ الْأَمَانِيَّ»(١)، يتمنى أنه من أهل الجنة بدون أعمال وبدون شيء، هذا عاجز، هذا العجز الذي يلام صاحبه، وهو الكسل، أما العجز الذي لا يستطيع الإنسان معه شيء، فهو معذور، العجز الذي لا يستطيع معه الإنسان هذا معذور، لكن العجز الذي يستطيع أن يعمل لو أراد، لكنه تكاسل، هذا هو العجز الذي استعاذ منه الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ العَجْزِ وَالكَسَلِ، وَالجُبْنِ وَالهَرَمِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ المَحْيَا وَالمَمَاتِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ القَبْرِ»(٢).

العجز، يعني: الكسل الذي يستطيع صاحبه أن يعمل، لكنه تكاسل، هذا هو الملوم، أما العاجز الذي ليس عنده استطاعة هذا معذور؛ ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة:٢٨٦].

نسأل الله أن يمنَّ علينا وعليكم بالتوفيق والهداية والخاتمة الطيبة، وأن يجعل لنا من هذا الشهر أوفر نصيب، وأن يغفر لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين، وأن ينصر الإسلام والمسلمين، وأن يذل الشرك والمشركين وأعداء الدين.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

---

(١) سبق تخريجه (ص٢٣٧).
(٢) أخرجه البخاري (٢٨٢٣)، ومسلم (٢٧٠٦)، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فضل ليلة القدر

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين:

قال الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ ١ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ ٢ لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ ٣ تَنَزَّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذۡنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمۡرٖ ٤ سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطۡلَعِ ٱلۡفَجۡرِ﴾ [القدر:١-٥]، قال سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ٣ فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ﴾ [الدخان:٣، ٤].

هذه السورة الكريمة وهذه الآيات فيها بيان فضل ليلة القدر، وهذه الليلة في رمضان، هي إحدى ليالي رمضان، ولكن الله أخفاها لحكمة، وهي أن المسلم يجتهد في كل ليالي الشهر؛ من أجل أن يحصل على ثواب الشهر وثواب ليلة القدر؛ تفضلًا منه سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ على عباده؛ لأنه يريد لهم الخير، يريد لهم الزيادة من الخير، وإلا فهذه الليلة هي في رمضان بلا شك؛ لأن الله قال: ﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ﴾ [البقرة:١٨٥]، وقال: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ﴾ [القدر:١]، فقوله: ﴿أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ﴾، بيَّنه قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ﴾، فالقرآن أُنزل في ليلة القدر، وهي من ليالي رمضان، ومعنى إنزال القرآن فيها: ابتداء إنزال القرآن فيها، والقرآن يطلق على كله، ويطلق على بعضه، فيطلق على

الآية الواحدة أنها قرآن، ويطلق على السورة أو السور أنها قرآن، ويطلق على جميع القرآن أنه قرآن.

وهذه الليلة ذكر الله لها صفات عظيمة:

أولًا: سماها ليلة القدر، وسماها ليلة مباركة؛ ليلة القدر؛ لأنها تُقدر فيها أعمال السنة، وهو تقدير خاص مأخوذ من التقدير العام الذي في اللوح المحفوظ، فيُقدر فيها ما يجري في السنة، ولذلك سُمِّيت ليلة القدر، يوضح هذا قوله تعالى: ﴿ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴾ [الدخان:٤]، معنى ﴿يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴾: يُقدر فيها ما يجري في السنة على جميع الناس وعلى الأفراد في هذه السنة[١].

من شرف هذه الليلة أن الله خصّها بإنزال القرآن فيها، ومن فضلها أنها تقدر فيها مجريات السنة كلها، ومن فضلها أن الله قال: ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ﴾ [القدر:٢]، هذا تفخيم، تفخيم لها، تعظيم لها، وما عظمه الله فإنه عظيم.

ومن فضلها: أن العمل فيها خيرٌ من العمل في ألف شهر، العمل في هذه الليلة الواحدة، العمل الصالح في هذه الليلة خيرٌ وأفضل من العمل في ألف شهر، وألف الشهر إذا حسبتها بالسنين، تزيد على ثلاث وثمانين سنة، يعني: العمل في هذه الليلة خيرٌ من العمل في ثلاث وثمانين سنة لمن وفقه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهذا فضل عظيم، ﴿لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ [القدر:٣].

ثم وصفها بأنها تتنزل فيها الملائكة من السماء، تتنزل الملائكة بأوامر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وتتنزل على المؤمنين في هذه الليلة لإيقاظهم وتنشيطهم على الصلاة، والقيام والدعاء.

---

(١) انظر: شرح النووي على مسلم (٨/ ٥٧)، والبحر المحيط في التفسير (١٠/ ٥١٤)، واللباب في علوم الكتاب (٢٠/ ٤٢٧).

والله يُنزل الملائكة على المؤمنين في المواقف المهمة:

* يُنزل الملائكة بالوحي، ﴿ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ ﴾ [النحل:٢]، بالوحي على الرسل.

* ويُنزل الملائكة في القتال بين المسلمين والكفار، يُنزل الملائكة تساعد المسلمين وتقويهم على قتال أعدائه الكفار؛ ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ [الأنفال:١٢]، فتنزل الملائكة في الجهاد في سبيل الله تقوي المؤمنين وتؤيدهم، وتثبط الكفار، ﴿فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ ﴾ [الأنفال:١٢]؛ بما أشركوا بالله، فتنزل الملائكة في المعارك بين المسلمين والكفار لتقوية المسلمين، وتأييدهم وتنشيطهم، وتنزل لإلقاء الرعب في قلوب الكفار.

* ﴿ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾، وتتنزل كذلك في ليلة القدر مثلما تتنزل في الجهاد؛ لتقوية المسلمين وإيقاظهم، وتنشيطهم على القيام والدعاء في هذه الليلة، فتجد أهل الإيمان في هذه الليلة نشطاء لا يميلون إلى النوم والكسل، وإنما يرغبون في القيام والركوع والسجود، والدعاء توفيق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

﴿ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا ﴾، ﴿وَٱلرُّوحُ ﴾، قيل: أنه جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، يسمى الروح الأمين، ﴿ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا ﴾، أي: الملائكة وجبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وقيل: ﴿وَٱلرُّوحُ ﴾: نوعٌ من الملائكة؛ ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّاۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النبأ:٣٨]، نوع من الملائكة يسمونه الروح، أو هو جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ[١].

---

(١) سبق بيانه (ص٢٨٧).

﴿ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم ﴾ [القدر:٤]: بأمره سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ كما قال تعالى عن الملائكة: ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴾ [مريم:٦٤]، فالملائكة إنما تنزل بأمر الله جَلَّ وَعَلَا.

ثم أخبر جَلَّ وَعَلَا أنها كلها سلام من أولها إلى آخرها؛ ﴿ سَلَـٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ﴾ [القدر:٥]، تنتهي الليلة بطلوع الفجر، من أولها إلى آخرها وهي سلام؛ سلام من الذنوب والشرور والآفات على أهل الإيمان، أما أهل الكفر وأهل الفسق، فليست سلامًا عليهم، إنما هي سلامٌ على أهل الإيمان والطاعة والرغبة فيما عند الله عَزَّوَجَلَّ.

وفي الآيات الأخرى وصفها بأنها مباركة، مبارك العمل فيها؛ لأن العمل فيها أكثر من العمل في ألف شهر، العمل فيها مبارك، يُضاعف في ليلة مباركة.

ثم قال: ﴿ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴾ [الدخان:٤]، أي: تُقدر فيها أعمال السنة، وهذا شرف لها وبيان لفضلها، فهذا يستدعي من المسلم أن يهتم بتحري هذه الليلة، وكان النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يتحراها، ويعتكف العشر الأواخر تحريًا لها؛ لأن من ظفر بها وأدركها ووفقه الله للعمل فيها، حصل على أكثر من العمل في ألف شهر، وألف الشهر عمرٌ كامل ثلاث وثمانون سنة وزيادة أشهر، قليل من الناس من يُعمر إلى ثلاث وثمانين سنة، فالعمل فيها خيرٌ من العمل في العمر الطويل، ثلاث وثمانين سنة وأشهر، فينبغي للمسلم أن يتحراها.

وكما ذكرنا أن الله أخفاها، أن الله جَلَّ وَعَلَا أخفاها في هذا الشهر، كل ليلة من ليالي رمضان يحتمل أنها هي ليلة القدر، وهذا مما يستدعي من المسلم أن يجتهد

في كل ليالي رمضان، ولكنها أحرى ما تكون -وليس هذا على سبيل الجزم، وإنما هو على سبيل التحري-، أحرى ما تكون في العشر الأواخر، وتكون في الأوتار، في الأوتار من العشر الأواخر؛ ليلة إحدى وعشرين، ليلة ثلاث وعشرين، ليلة خمس وعشرين، ليلة سبع وعشرين، ليلة تسع وعشرين، هذه الأوتار، أحرى ما تكون في الأوتار(١).

قد اختلف العلماء في تحريها؛ منهم من يقول: أنها هي ليلة إحدى وعشرين، ومنهم من يقول: إنها ليلة ثلاث وعشرين، منهم من يقول إنها ليلة سبع وعشرين، وهذا الأخير أرجح -والله أعلم- أنها ليلة سبع وعشرين، وإن كان يحتمل أنها في غير سبع وعشرين، لكن أرجح ما يكون تحريًا لها أنها ليلة سبع وعشرين(٢).

ثم إن عمل المسلم لا ينحصر في ليلة واحدة، أو في شهر واحد، عمل المسلم مستديم من حين يبلغ سن التكليف إلى أن يتوفاه الله، ولكن هذه المواسم زيادة، زيادة خير له، يضيفها إلى عمره، فهي زيادة خير له، لا على أنه يقتصر عليها فقط.

فالمسلم لا يمل من فعل الخير، ولا يجعل عمله مؤقتًا بليلة، أو بشهر، أو بأسبوع، أو بيوم، لا، المسلم دائمًا يعمل، دائمًا يعبد الله عَزَّوَجَلَّ، هذه ثمرة الحياة،

---

(١) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (٢٠٢١)، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «**التَمِسُوهَا فِي العَشْرِ الأَوَاخِرِ مِنْ رَمَضَانَ لَيْلَةَ القَدْرِ، فِي تَاسِعَةٍ تَبْقَى، فِي سَابِعَةٍ تَبْقَى، فِي خَامِسَةٍ تَبْقَى**».

(٢) كما في الحديث الذي أخرجه مسلم (٧٦٢)، عَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ أُبَيٌّ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ: «وَاللهِ إِنِّي لَأَعْلَمُهَا، وَأَكْثَرُ عِلْمِي هِيَ اللَّيْلَةُ الَّتِي أَمَرَنَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِقِيَامِهَا هِيَ لَيْلَةُ سَبْعٍ وَعِشْرِينَ».

ثمرة الحياة: العمل الصالح، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**خَيْرُكُمْ مَنْ طَالَ عُمْرُهُ، وَحَسُنَ عَمَلُهُ**»(١)، فالعمر إنما يُفرح به في طاعة الله، أما العمر الذي يخلو من طاعة الله، فهو وبالٌ على صاحبه، لو لم يعش، لكان احسن له، ﴿**وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْۚ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًاۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ**﴾ [آل عمران:١٧٨]، فطول العمر مع الأعمال السيئة وبالٌ على صاحبه، لو سلم منه، لكان أحسن، أما المؤمن فطول العمر مع العمل الصالح خيرٌ له، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**خَيْرُكُمْ مَنْ طَالَ عُمْرُهُ، وَحَسُنَ عَمَلُهُ**».

والسلف الصالح لم يكونوا يفرحون بطول العمر إلا لأجل العمل الصالح، ليسوا يفرحون بطول العمر من أجل الأكل والشرب والتجارة، وإنما يفرحون بطول العمر للعمل الصالح.

يُروى أن سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ مرَّ بجنوده؛ لأنه نبي وملك، مرَّ بجنوده العظيمة، «**فَمَرَّ بِحَرَّاثٍ، فَنَظَرَ إِلَيْهِ الْحَرَّاثُ، فَقَالَ: لَقَدْ أُوتِيَ آلُ دَاوُدَ مُلْكًا عَظِيمًا، فَحَمَلَتِ الرِّيحُ كَلَامَهُ، فَأَلْقَتْهُ فِي أُذُنِ سُلَيْمَانَ** عَلَيْهِ السَّلَامُ **قَالَ: فَنَزَلَ حَتَّى أَتَى الْحَرَّاثَ، فَقَالَ: إِنِّي سَمِعْتُ قَوْلَكَ، وَإِنَّمَا مَشَيْتُ إِلَيْكَ لِئَلَّا تَتَمَنَّى مَا لَا تَقْدِرُ عَلَيْهِ، لَتَسْبِيحَةٌ وَاحِدَةٌ يَقْبَلُهَا اللهُ** عَزَّ وَجَلَّ **خَيْرٌ مِمَّا أُوتِيَ آلُ دَاوُدَ، فَقَالَ الْحَرَّاثُ: أَذْهَبَ اللهُ هَمَّكَ، كَمَا أَذْهَبْتَ هَمِّي**»(٢).

التسبيحة الواحدة خيرٌ من الملك والجنود والثروة، التسبيحة الواحدة تُكتب في ديوان العبد المؤمن خيرٌ من ملك سليمان بن داود -عليهما الصلاة والسلام.

---

(١) أخرجه أحمد (٢٩/ ٢٤٠)، والترمذي (٢٣٢٩)، من حديث عبد الله بن بسر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٢). أخرجه أحمد في الزهد (ص ٣٦)، من حديث وهب بن منبه.

فالحاصل من هذا: أن العمر إنما يفرح به المؤمن لعمل الصالحات، لا يفرح به للأكل والشرب وجمع المال؛ لأن هذا زائل، وإنما الذي لا يزول ويبقى ويضاعف هو العمل الصالح، هذه الثمرة من حياة الإنسان: العمل الصالح، يسبح الله، ويذكره، ويصلي، ويصوم، ويجاهد في سبيل الله، ويدعو إلى الله، يطلب العلم، هذه الثمرة من حياة المسلم، هذه الحياة الطيبة؛ ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل:٩٧].

الحياة الطيبة في العمل الصالح، أما الحياة في العمل السيء، فهي حياة رديئة، ليست طيبة.

والإنسان يعيش ما يعيش من هذه الدنيا، ولكن لا يبقى له من عمره إلا ما قدم لآخرته؛ «**يَقُولُ الْعَبْدُ: مَالِي، مَالِي، إِنَّمَا لَهُ مِنْ مَالِهِ ثَلَاثٌ: مَا أَكَلَ فَأَفْنَى، أَوْ لَبِسَ فَأَبْلَى، أَوْ أَعْطَى فَاقْتَنَى، وَمَا سِوَى ذَلِكَ فَهُوَ ذَاهِبٌ، وَتَارِكُهُ لِلنَّاسِ**»(١)، ليس له من ماله إلا هذه الأمور، وما عداه فهو لغيره، ما عداه فهو زائل وتاركه لغيره.

الحياة حياة المؤمن خيرٌ له، وخيرٌ للبشرية، ولو خلت الدنيا من المؤمنين، لو خلت الدنيا من أهل الإيمان، لدمرها الله على أهلها، وإنما تبقى ببقاء أهل الإيمان، ولذلك «**لَا تَقُومُ السَّاعَةُ إِلَّا عَلَى شِرَارِ الْخَلْقِ**»(٢)، «**لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى لَا يُقَالَ فِي الْأَرْضِ: اللهُ، اللهُ**»(٣)، إذا خلت الدنيا من أهل الإيمان، حينئذ آن خرابها

---

(١) أخرجه مسلم (٢٩٥٩)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم (١٩٢٤)، من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه مسلم (١٤٨)، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وزوالها، فالمؤمنون خيرٌ لأنفسهم وخيرٌ لأهل الأرض؛ لأنهم يعمرون الأرض بطاعة الله وذكر الله عَزَّوَجَلَّ، فوجودهم خير؛ خيرٌ لأنفسهم، وخيرٌ لغيرهم، وخير حتى للدواب والبهائم والحشرات؛ لأن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ يُنزل الأرزاق والأمطار بدعوات هؤلاء ورحمة بهؤلاء.

فالحاصل: أن ليلة القدر ليلة عظيمة، وهي غنيمة لمن وفقه الله لها، وأعانه على استغلالها في طاعة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، تضاف إلى حسناته، وتكون زيادة على عمله المستمر، لا أنها تُغني عن العمل في غيرها؛ كما يفهم بعض الجهال؛ يقول: أنا إذا قمت ليلة القدر تكفيني. ليلة القدر إنما هي خير لأهل الإيمان والعمل الصالح المستمر، أما الذي لا يعرف الله إلا في ليلة القدر أو في شهر رمضان فقط، فهذا لا يعرف الله عَزَّوَجَلَّ، الواجب أن الإنسان يعرف الله جَلَّوَعَلَا بالعمل الصالح في كل حياته؛ «**تَعَرَّفْ إِلَى اللهِ فِي الرَّخَاءِ يَعْرِفْكَ فِي الشِّدَّةِ**»(١).

فنسأل الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أن يمنَّ علينا وعليكم بإدراك هذه الليلة، والعمل الصالح فيها، وأن يجعلها زيادة لنا من الخير، ومنبهة لنا من الغفلة؛ ربما يتوب الإنسان في هذه الليلة توبة مستمرة، يتنبه ويتوب، فتكون خيرًا له، وموقظة له في المستقبل، لكن الذي ينام عنها، يتكاسل عنها، وتكون هذه الليلة وغيرها سواء هو في لهوه سادِر ولعبه وغفلته، هذا لا يستفيد من مواسم الخير، ويحرم منها، هذا مثل المريض الذي تقدم عنده الأطعمة الشهية، ولا يستطيع أن يأكل منها بسبب المرض، هذا مثل المريض، تقدم له ليلة القدر، تقدم له مواسم الخير، ولا يستفيد منها؛ لأنه مريض القلب، فلا يستفيد من مواسم الخير إلا من قلبه

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ١٨)، والطبراني في الكبير (١١/ ٢٢٣)، من حديث ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا.

حي، إلا من في قلبه إيمان، وإلا فليلة القدر تمر على كل الناس، تمر على كل من على وجه الأرض من بني آدم، لكن من الذي يستفيد منها؟ لا يستفيد منها إلا أهل الخير وأهل الإيمان، أما أكثر الخلق، فلايرفعون بها رأسًا، وليس لها قيمة عندهم؛ لأنهم محرومون، مرضى، لا يجدون لذة العبادة ولذة الطاعة، لا يجدون لها طعمًا ولا لذة؛ لأنهم مرضى مثل المريض الذي لا يدرك طعم الطعام لمرضه، هؤلاء مثل المرضى، مرضى قلوب، وليسوا مرضى أبدان، مرضى شهوات وشبهات -ولا حول ولا قوة إلا بالله!

نسأل الله أن يجعلنا وإياكم ممن صام الشهر، وأدرك ليلة القدر، وفاز بجائزة الرب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وأن يمتعنا وإياكم على طاعته، ونيل مرضاته، وأن يجعل الحياة مغنمًا لنا من كل خير، والموت راحة لنا من كل شر.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين.

قبول العمل وردّه

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على عبده ورسوله نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين، أما بعد:

فنسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن يتقبل منا ومنكم ومن جميع المسلمين صيامنا وقيامنا، وأن يختم لنا هذا الشهر بخير ختام، وأن يجعلنا من عتقائه من النار، ووالدينا وإخواننا المسلمين.

إنه شهرٌ قد ودع ورحل، ولكن بماذا رحل عنا؟ لا ندري.

والمسلم لا يقنط من رحمة الله، ولكنه لا يزكي نفسه، بل يخاف من التقصير، ويخاف من الذنوب، وأعظم من ذلك يخاف ألا يتقبل منه عمله؛ لأن الله تعالى قال: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة:٢٧].

كان السلف الصالح إذا عملوا العمل، وقع عليهم الخوف؛ هل يُقبل منهم أو لا يُقبل؛ كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ﴾ [المؤمنون:٦٠]، قالت عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا: «أَهُمُ الَّذِينَ يَشْرَبُونَ الخَمْرَ وَيَسْرِقُونَ؟ قَالَ: لَا يَا بِنْتَ الصِّدِّيقِ، وَلَكِنَّهُمُ الَّذِينَ يَصُومُونَ وَيُصَلُّونَ وَيَتَصَدَّقُونَ، وَهُمْ يَخَافُونَ أَنْ لَا تُقْبَلَ مِنْهُمْ»(١).

---

(١) أخرجه أحمد (٤٢/ ١٥٦)، والترمذي -واللفظ له- (٣١٧٥)، وابن ماجه (٤١٩٨).

ورُوِي عن السلف أنهم كانوا يجتهدون في العمل، ثم يقع الخوف عليهم؛ هل يُقبل منهم أو لا يُقبل؟ ورُوِي أنهم كانوا يدعون الله ستة أشهر أن يبلغهم شهر رمضان، ثم يدعونه ستة أشهر أن يتقبل منهم شهر رمضان.

رأى أحد الصالحين قومًا يضحكون في يوم العيد، فقال: إن كان هؤلاء تُقبل منهم، فما هذا فعل الشاكرين، وإن لم يُتقبل منهم، فما هذا فعل الخائفين[١].

فيجب علينا جميعًا أن نسأل الله القبول، وأن نخاف من رد أعمالنا علينا؛ لأن الله حصر القبول بالمتقين، فقال: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة:٢٧]، والمتقون: هم الذين يفعلون الواجبات، ويتركون المحرمات، هؤلاء هم المتقون؛ لأنهم توقوا المحذور، وتوقوا العذاب بفعل الطاعات وترك المحرمات، فهؤلاء هم الذين يتقبل الله أعمالهم.

والإنسان يفكر في نفسه؛ هل هو من هؤلاء أو لا، هل هو هؤلاء من المتقين؟ وليس كونه من المتقين أن يقول: أنا من المتقين، أو يرى نفسه أنه من المتقين، ولكن ينظر في أعماله؛ فإن كانت أعماله أعمال المتقين، فليبشر، وإن كانت أعماله تخالف أعمال المتقين، فليتب إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ويرجع إلى التقوى؛ فإن الباب مفتوح أمامه، لا يقنط من رحمة الله، لكن لا يتمادى في غيه وإهماله، ويرجو المغفرة، وهو مقيم على الذنوب والمعاصي، إنما يُغفر لمن ترك الذنوب والمعاصي، وتاب إلى الله.

---

(١) انظر هذه المرويات عن السلف في لطائف المعارف (ص٣٧٦).

يقول الشاعر[(١)]:

تَصلُ الذُّنُوْبَ إِلى الذُّنُوبِ وَتَرْتَجِي ... دَرَكَ الجِنَانِ بِهَا وَفَـوْزَ العَابِدِ

وَنَسِيْتَ أَنَّ اللهَ أَخْـرَجَ آدَمًا ... مِنْهَا إِلَى الدُّنْيَا بِذَنْبٍ وَاحِدِ

ذنب واحد فعله الأبوان، فأخرجا من الجنة، فكيف بالذي عنده ذنوب؟! ولكن آدم وزوجه عَلَيْهِمَاالسَّلَامُ تابا إلى الله، فتاب الله عليهما، فأنت تب إلى الله عَزَّوَجَلَّ، وأبشر بالخير، أما الذي يرجو المغفرة، ويرجو الجنة وهو مقيم على الذنوب والمعاصي، فهذا مغرور، هذا رجاء مذموم؛ الرجاء هو مع فعل الطاعة، تفعل الطاعة وترجو من الله، أما أنك تعصي وترجو من الله، فهذا غرور؛ ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ [المؤمنون:٦٠]، ﴿يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟﴾ من الأعمال الصالحة، ﴿وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾: خائفة من الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، لم يزكوا أنفسهم، أو يعجبوا بأعمالهم، ولكنهم مع عملهم الصالح يخافون من الله جَلَّوَعَلَا ألا يتقبل أعمالهم.

ولكن المسلم إذا فعل السبب -سبب النجاة- يُرجى له الخير، لكنه لا يجزم لنفسه، ولا نجزم له؛ لأن هذا من أمر الغيب الذي لا يعلمه إلا الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، لا نجزم لأحد، ولا لأنفسنا، ولكننا نرجو للمحسنين، ونخاف على المسيئين، ولا نشهد لأحد بجنة أو نار إلا من شهد له رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

نسأل الله أن يتقبل منا ومنكم، وأن يعيد علينا وعليكم شهر رمضان ونحن على قيد الحياة، ندرك رمضان مرات عديدة، ونستغله في طاعة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ؛ ليكون شاهدًا لنا عند الله عَزَّوَجَلَّ.

---

(١) البيتان لمحمود الوراق رَحِمَهُٱللَّهُ. انظر: عيون الأخبار (٢/ ٤٠٣)، والعقوبات لابن أبي الدنيا (ص٧٦)، والكامل في اللغة والأدب (٢/ ٥)، والعقد الفريد (٣/ ١٢٨).

لا يُفرح بالحياة أو بطول العمر إلا لأجل العمل الصالح، قال ﷺ: «خَيْرُكُمْ مَنْ طَالَ عُمْرُهُ، وَحَسُنَ عَمَلُهُ»(١).

لا يُفرح بالحياة للأكل والشرب والملذات الدنيوية؛ فإنها زائلة وفانية، ولكن يُفرح بطول العمر؛ لأجل الطاعة، وأما الذي يفرح بطول العمر؛ لأجل أن يعيش عيشة البهائم؛ يأكل ويشرب ويسرح ويمرح، الله جَلَّ وَعَلَا يقول: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْۚ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًاۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [آل عمران:١٧٨]، نسأل الله العافية!

اللهم تقبل منا، وتب علينا، واغفر لنا ذنوبنا وتقصيرنا، وألحقنا بالصالحين.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

---

(١) سبق تخريجه (ص٤٤).

كل عمل ابن آدم له

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على عبده ورسوله نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين:

في الحديث الصحيح أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال فيما يرويه عن ربه عَزَّوَجَلَّ في الحديث القدسي أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يقول: «**كُلُّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ لَهُ: فَالْحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعِ مِائَةِ ضِعْفٍ، يَقُولُ اللهُ: إِلَّا الصَّوْمَ؛ فَإِنَّهُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ، إِنَّهُ تَرَكَ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ مِنْ أَجْلِي، لِلصَّائِمِ فَرْحَتَانِ: فَرْحَةٌ عِنْدَ فِطْرِهِ، وَفَرْحَةٌ عِنْدَ لِقَاءِ رَبِّهِ. وَلَخُلُوفُ فَمِ الصَّائِمِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللهِ مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ**»(١).

هذا حديث عظيم، بيَّن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فيه فضائل الصوم، سواء كان صومًا واجبًا كصوم رمضان، أو كان صوم تطوع، فإنه يحوز على هذه الفضائل.

«**كُلُّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ لَهُ**»: الأعمال لأصحابها، سواء كانت خيرًا أو شرًّا؛ ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [فصلت:٤٦]، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [النساء:٤٠]، فالأعمال لعامليها، أعمال العباد لهم، أما الله جَلَّ وَعَلَا فإنه غنيٌّ عنها؛ لأنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لا يحتاج إلى أحد، ﴿ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ۖ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ

(١) سبق تخريجه (ص١٠٦).

﴿وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [يونس:٦٨]، وإنما هذه الأعمال التي يعملها العباد راجعة إليهم بالخير أو بالشر، ولهذا قال في هذا الحديث: «كُلُّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ لَهُ»، فليس لله حاجة فيه، وإنما العبد هو الذي محتاج إليه.

وأيضًا أعماله لا يأخذها الناس، ولا يستفيد منها غير العامل، ولا يتضرر بها غير العامل؛ ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰ﴾ [الأنعام:١٦٤]، فأنت لا ينفعك عمل فلان أو عمل فلان، إنما ينفعك عملك أنت؛ ﴿تِلۡكَ أُمَّةٞ قَدۡ خَلَتۡۖ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَلَكُم مَّا كَسَبۡتُمۡۖ وَلَا تُسۡـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [البقرة:١٣٤]، فأعمالك لك خيرها وشرها؛ «كُلُّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ لَهُ».

«فَالْحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا»: هذا من فضل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أنه يجزي على الحسنة بعشر أمثالها؛ كما قال تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَاۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَا وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ [الأنعام:١٦٠]، السيئة لا تُضاعف، بل يجزى بمثلها، قد تُغلظ السيئة، لكنها لا تُضاعف، لكن قد تُغلظ إذا كانت في مكان فاضل كالحرمين، فإذا أساء في الحرم، فإن سيئته تُغلظ، أو في زمان فاضل كشهر رمضان، فإن الذي يعصي في شهر رمضان تُغلظ عليه المعصية؛ لشرف الزمان، أو لشرف المكان، لكنها لا تضاعف، هي بمثلها.

«فَالْحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا»، أما السيئة فإنها تعادل بمثلها؛ لأن الله لا يظلم أحدًا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وحتى لو همَّ بالسيئة ولم يعملها خوفًا من الله، تُكتب له حسنة، إذا ترك السيئة بعد أن همَّ بها وتركها خوفًا من الله، فإن الله يكتبها حسنة، أما إذا همَّ بها وفعلها، كُتِبت عليه سيئة واحدة.

قال الله تعالى: «إِلَّا الصَّوْمَ»: استثنى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الصوم.

واختلف العلماء في معنى هذا الاستثناء:

* فمنهم من قال: الاستثناء راجع إلى قوله: «**كُلُّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ لَهُ، إِلَّا الصَّوْمَ**»، فإنه ليس له، وإنما هو لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، قال الله تعالى: «**إِلَّا الصَّوْمَ؛ فَإِنَّهُ لِي**»، الصوم لله عَزَّوَجَلَّ، لماذا كان لله؟ لأنه ترك شهوته وطعامه وشرابه من أجل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فالصوم لله، وهذا شرفٌ للصوم، هذا شرفٌ للصوم أن الله اختصه لنفسه من بين سائر الأعمال.

وقال بعض العلماء: إن الاستثناء راجع إلى المضاعفة؛ «**فَالحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا**»، «**إِلَّا الصَّوْمَ**»؛ فإنه لا تُعد مضاعفاته، ولا يعلم ثوابه إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فيكون قوله: «**إِلَّا الصَّوْمَ**» راجعًا إلى المضاعفة؛ «**فَالحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعِ مِائَةِ ضِعْفٍ، إِلَّا الصَّوْمَ؛ فَإِنَّهُ**» لا تنحصر مضاعفاته؛ لأن الصوم من الصبر؛ لأن الصائم يصبر عن مألوفاته، وعن طعامه، وعن شرابه، وعن شهوته، يصبر، فالصوم صبرٌ، والله جَلَّوَعَلَا يقول: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر:١٠]، فلا يعلم مضاعفة وثواب الصيام إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، والسبب: أن الصائم قدم ما يحبه الله جَلَّوَعَلَا على ما تحبه نفسه، قدم ما يحبه الله وهو الصيام والإمساك عن الشهوات مع أن نفسه تريدها، قدم ما يحبه الله على ما تحبه نفسه، وهذا علامة الإيمان؛ حتى لو كان عطشان شديد العطش، وعنده الماء البارد، أو جائعًا شديد الجوع، وعنده الطعام، أو كان عنده زوجته وهو يريد الاستمتاع بها؛ لقوة الشهوة؛ فإنه يترك ذلك كله، يترك الطعام وهو جائع، يترك الشراب

وهو عطشان، ويترك زوجته ونفسه تميل إليها -الطبيعة البشرية-، يترك ذلك؛ من أجل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، هذه علامة صدق الإيمان.

وحتى لو خلا عن الناس في مكان مظلم لا يراه أحد، فإنه لا يمكن أن يتناول الطعام والشراب والشهوة؛ خوفًا من الله سبحانه، وطاعة لله عَزَّوَجَلَّ، فهذا خاصٌّ بالصيام، الصيام سرٌّ بين العبد وبين ربه، ونية خالصة لوجه الله، لا يدخله رياء، بخلاف بقية الأعمال؛ فإنها قد يدخلها الرياء والعجب، أما الصيام فلا يدخله رياء، ولا يدخله عُجب، بل فيه ذلٌّ وانكسار بين يدي الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ فلذلك خصه الله لنفسه، فقال: «**إِلَّا الصَّوْمَ؛ فَإِنَّهُ لِي**»، يعني: صام لله عَزَّوَجَلَّ.

وقال بعضهم: إن الصيام لا يدخله شرك، فعُباد الأصنام وعُباد الأشجار والأحجار والقبور لا يصومون للقبور، ولا يصومون للأحجار والأشجار، ولا يصومون للأصنام، لم يذكر هذا عنهم أنهم يصومون لأحدٍ دون الله عَزَّوَجَلَّ، قد يذبحون لغير الله، قد ينذرون لغير الله، قد يستغيثون ويدعون غير الله، لكن الصيام لم يذكر أن أحدًا من الأولين ولا من الآخرين أنه صام لغير الله عَزَّوَجَلَّ، ولذلك قال الله: «**إِلَّا الصَّوْمَ؛ فَإِنَّهُ لِي**»، يعني: لا يكون لأحدٍ غير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، حتى من المشركين؛ فإنهم لا يصومون لمعبوداتهم، فلذلك قال الله جَلَّوَعَلَا: «**إِلَّا الصَّوْمَ؛ فَإِنَّهُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ**»، الله هو الذي يتولى جزاء الصائم، وهذا ترغيب من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

«**وَأَنَا أَجْزِي بِهِ**»: جزاءً ليس له حصر، وليس له حد.

والسبب في هذا الإجلال للصيام وهذا التعظيم للصيام: أنه ترك شهوته وطعامه وشرابه من أجل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، لم يتركه من أجل أحد أبدًا.

ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: «لِلصَّائِمِ فَرْحَتَانِ»، هذا خبرٌ من الله جَلَّ وَعَلَا، وهو أصدق القائلين، «لِلصَّائِمِ فَرْحَتَانِ: فَرْحَةٌ عِنْدَ فِطْرِهِ، وَفَرْحَةٌ عِنْدَ لِقَاءِ رَبِّهِ»، يعني: يفرح في الدنيا، ويفرح في الآخرة، وذلك فرحٌ بالطاعة، والفرح بالطاعة محمود، خلاف الفرح بالدنيا؛ فإنه مذموم، فالإنسان يفرح بطاعة الله، هذا محمودٌ؛ ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس:٥٨]، الفرح بالطاعة والعبادة محمود، وأما الفرح بالدنيا، فهو مذموم؛ ﴿وَفَرِحُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ﴾ [الرعد:٢٦]، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾ [القصص:٧٦]، يعني: لا تفرح بالدنيا والثروة؛ فإن الفرح بالدنيا يحمل على الأشر وعلى البطر وعلى الكبر، أما الفرح بالطاعة، فإنه يحمل على التواضع والاستكانة لله عَزَّوَجَلَّ ورقة القلب والخضوع لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

فالصائم يفرح في الدنيا عند فطره؛ إذا أكمل الصيام -صيام اليوم-، وحان وقت الإفطار، فإنه يفرح فرحًا طبيعيًّا، يفرح بماذا؟ يفرح بأن الله أباح له الطعام والشراب والزوجة، خصوصًا إذا كان مشتاقًا إلى ذلك، فإنه يفرح بذلك بطبيعة نفسه؛ فإن النفس إذا مُنِعت من شيء، ثم رُخِص لها بتناوله، تفرح بذلك.

فالصائم يفرح بإفطاره، وهذا شيء يجده المسلم عند الإفطار، يفرح إذا حان الإفطار، وشرب وأكل، فإذا حمد الله، أكل وحمد الله، وشرب وحمد الله، فإن ذلك من تمام الأجر والثواب عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ «إِنَّ اللَّهَ لَيَرْضَى عَنِ الْعَبْدِ أَنْ يَأْكُلَ الْأَكْلَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا، أَوْ يَشْرَبَ الشَّرْبَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا»(١).

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧٣٤)، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

هذا فرحه عند فطره، وهو فرحٌ طبيعي تميل إليه النفوس، وهو فرح محمود؛ لأنه فرح بأمر الله عَزَّوَجَلَّ، وإذن الله له بالأكل والشرب، فهو فرحٌ محمود، أما الفرح الذي في الآخرة -وهذا أعظم-، فإنه يفرح عند لقاء ربه.

كل الناس من أول الخليقة إلى آخر الخليقة سيلقون ربهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، سيبعثون من قبورهم، ويحشرون إلى ربهم، ويلقون ربهم ويحاسبهم على أعمالهم، ويجازيهم عليها، كل الناس كذلك، لا يفلت أحد من هذا اللقاء أبدًا، ولا يتأخر أحد، ولا يتغيب أحد أبدًا، كل الناس سيلقون ربهم، وسيحشرون إليه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في صعيد واحد.

لكن أهل الإيمان يلقون ربهم لقاء فرح وسرور وإكرام، وأما أهل الكفر والنفاق، فيلقون ربهم لقاء عذاب وإهانة وتوبيخ وتقريع -والعياذ بالله.

الصائم يفرح إذا لقي ربه بصيامه؛ لأن الله أعد له جزاء عظيمًا على صيامه، وقد جاء في الحديث الصحيح: أن بابًا من أبواب الجنة يقال له: الريان، يدخل منه الصائمون، لا يدخل منه غيرهم، فإذا دخلوا أُغلق[(١)].

خصص الله لهم بابًا من أبواب الجنة، لا يدخل منه غيرهم، ويقال لهم: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ﴾ [الحاقة:٢٤]، فالصائم يفرح إذا لقي ربه، ووجد عنده هذا الثواب الجزيل وهذا العطاء العظيم وهذا الفضل الكبير، يفرح بذلك فرحًا شديدًا؛ لأنه محتاج إليه، ولأنه إكرامٌ من الله سبحانه وفضلٌ من الله، فيفرح بفضل الله، ويفرح برحمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، هذا خاصٌ

(١) سبق تخريجه (ص١١٣).

للصائمين، خصوصًا إذا رأى أن عمله -الصيام- يجازى عليه بثواب عظيم لا ينحصر بأضعاف؛ لا بعشر الأمثال، ولا بسبعمائة ضعف، ولا أكثر من ذلك، بل يضاعف مضاعفة لا حصر لها عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر:١٠]، وهو من الصابرين؛ لأنه صبر في الدنيا على طاعة الله، وصبر عن محارم الله، وصبر على أقدار الله المؤلمة.

اجتمعت في الصيام أنواع الصبر الثلاثة:

* ففيه صبر على طاعة الله، الصائم يصبر على الصيام؛ لأنه طاعة لله عَزَّوَجَلَّ.

* وفيه صبر عن محارم الله؛ فالصائم يترك شهواته، ويترك ما حرم الله؛ طاعة لله عَزَّوَجَلَّ.

* وفيه صبر على أقدار الله؛ حيث إن الصائم يمسه الجوع، ويمسه العطش، ولكنه يصبر؛ لأن الله قدر له ذلك، فيصبر على ذلك، على أقدار الله المؤلمة بالجوع والعطش.

فهذا يدل على فضل الصيام على غيره من سائر الأعمال الصالحة.

ثم قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: «وَلَخُلُوفُ فَمِ الصَّائِمِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللهِ مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ»، الخلوف هو الرائحة التي تخرج من فم الصائم؛ لأن الصائم إذا خلا بطنه، وخلت معدته من الطعام والشراب، يتصاعد منها أبخرة منتنة يكرهها الناس، لكن الله يحبها، الناس يكرهونها وهي منتنة عندهم، لكنها عند الله أطيب من ريح المسك، المسك هو أفخر الأطياب في هذه الدنيا، رائحة فم الصائم أطيب عند الله من المسك، لماذا؟ لأنها أثرٌ عن طاعة الله، أثرٌ ناشئ عن طاعة الله، فصارت عند الله محبوبة، وإن كانت عند الناس مكروهة؛ كما أن الشهيد المقتول

في سبيل الله يأتي يوم القيامة يثعب دمًا، عليه الدماء مثلما كان في المعركة، يأتي بصورته يوم يُقتل، تثعب دمائه وتسيل دمائه، يأتي يوم القيامة كذلك؛ لأن الله يحب هذا الأثر العظيم وهو سيلان الدم؛ طاعة لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، يأتي يوم القيامة يثعب دمًا، لونه لون الدم، ورائحته رائحة المسك(١).

وكذلك الغبار في سبيل الله، معروف أن المعركة إذا قامت واحتدم القتال، يثور غبار من الأرض يغطي رؤوس المتقاتلين، ويدخل هذا الغبار يدخل في العيون، ويدخل في الفم، ويدخل في المنخرين، هذا الغبار عند الله يكون محبوبًا عند الله، وقد جاء أن غبار المجاهدين ذريرة أهل الجنة، يعني: طيب أهل الجنة(٢).

الغبار في الدنيا الناس ينفرون منه، وهو مؤذٍ، الغبار مؤذٍ، لكن غبار المجاهدين لما كان أثر طاعة لله عَزَّوَجَلَّ، صار محمودًا عند الله عَزَّوَجَلَّ.

فالحاصل من هذا: أن الآثار التي تنشأ عن الطاعات وإن كانت مكروهة عند الناس، فهي محبوبة عند الله سبحانه؛ «**وَلَخُلُوفُ فَمِ الصَّائِمِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللهِ مِنْ رِيحِ المِسْكِ**».

هذه فضائل ذكرها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذا الحديث:

الفضيلة الأولى: أن الصيام يختلف عن الأعمال في كون الأعمال لأصحابها، أما الصيام فإنه لله عَزَّوَجَلَّ.

الفضيلة الثانية: أن الأعمال تضاعف عند الله، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، إلا الصيام فإنه لا تنحصر مضاعفته عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

---

(١) سبق تخريجه (ص١١١).

(٢) سبق تخريجه (ص١١١).

الفضيلة الثالثة: أن الصائم يفرح في الدنيا ويفرح في الآخرة، له فرحتان: «**فَرْحَةٌ عِنْدَ فِطْرِهِ، وَفَرْحَةٌ عِنْدَ لِقَاءِ رَبِّهِ**» سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهذا لا يكون إلا في الصيام من بين سائر الأعمال.

الفضيلة الرابعة: أن خلوف فم الصائم -وهو الرائحة التي تخرج من فمه من أثر الصيام- تكون محبوبة عند الله، وإن كانت مكروهة عند الناس، وهذا لأن هذه الرائحة نشأت عن طاعة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

الفضيلة الخامسة: أن الصيام له باب خاص يوم القيامة من أبواب الجنة، لا يدخل منه إلا أهل الصيام.

فهذا فيه فضل الصيام، سواء كان صيام فريضة أو صيام نافلة.

فكلما أكثر الإنسان من الصيام، فإنه يزيد أجره وثوابه عند الله عَزَّ وَجَلَّ، ويحصل على هذه الفضائل العظيمة التي ذكرها النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن ربه عَزَّ وَجَلَّ.

وفي الحديث فائدة عظيمة من ناحية العقيدة، وهي: أن الله جَلَّ وَعَلَا يتكلم، الله جَلَّ وَعَلَا يتكلم بكلام يليق بجلاله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهو من صفات الأفعال التي يفعلها الله إذا شاء سبحانه، يتكلم حقيقة؛ لأن الله يقول في هذا الحديث: «**الصَّوْمُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ**»، هذا الحديث من كلام الله، كله من كلام الله، والرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إنما هو مبلغٌ عن الله، وراوٍ عن الله هذا الحديث، وهذا ما يسمى بالحديث القدسي.

الحديث القدسي: هو الذي يكون من كلام الله.

والحديث النبوي: هو الذي يكون من كلام الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

الحديث القدسي لفظه ومعناه من الله.

الحديث النبوي لفظه من الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومعناه من الله عَزَّوَجَلَّ، وحي من الله؛ كما قال سبحانه: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾ [النجم:٣، ٤].

هذا، ونسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن يوفقنا وإياكم لصالح القول والعمل، وأن يجعل صيامنا له سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وأن يجعلها خالصة لوجهه الكريم، وأن يعيننا وإياكم على ذكره وشكره وحسن عبادته.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين.

ليلة القدر فضائل وأحكام

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على عبده ورسوله نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين، **أما بعد:**

لأن هذه الليلة هي أرجى ما تكون ليلة القدر قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مبينًا فضل هذه الليلة، ومنبهًا على ما فيها من الخير لهذه الأمة: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ﴾ [القدر:١-٥]، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٥﴾ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الدخان:٣-٦].

ذكر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في هذه الليلة فضائل عظيمة:

أولًا: أن الله سماها ليلة القدر، وسماها ليلة مباركة، وليلة القدر قيل: سُمِّيت ليلة القدر؛ لأنها يُقدر فيها ما يجري في السنة؛ كما قال تعالى: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ [الدخان:٤]، فيُقدر فيها ما يجري في السنة مما قدره الله في السابق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة(١)، فهذا تقدير عام، وما يجري في ليلة القدر هذا تقدير خاص، وهو من التقدير العام.

(١) كما في الحديث الذي أخرجه مسلم (٢٦٥٣)، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا =

وقيل: سُمِّيت ليلة القدر؛ لأنها ذات قدر عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ[(١)].

وذكر من فضائلها أن الله أنزل فيها القرآن؛ ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ﴾ [القدر:١]، ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ [الدخان:٣]، الله جَلَّ وَعَلَا خص هذه الليلة بأنه أنزل فيها القرآن، وهذه ميزة عظيمة على غيرها من الليالي.

ومن فضائل هذه الليلة: أن الله وصفها بأنها ليلة مباركة، جعل الله فيها البركة في الأعمال الصالحة، يبين هذا قوله تعالى: ﴿لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ﴾ [القدر:٣]، هذه بركتها أن العمل فيها خيرٌ من العمل في ألف شهر، وهذا فضلٌ عظيم خيرٌ من العمل في ألف شهر، والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**وَمَنْ قَامَ لَيْلَةَ الْقَدْرِ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ**»[(٢)]، من قام ليلة القدر؛ يصلي فيها ويتهجد، فإن الله يغفر له ما تقدم من ذنبه، وهذا فضلٌ عظيم لهذه الليلة.

ومن فضائلها: أنها تتنزل فيها الملائكة، تتنزل من السماء إلى الأرض، ﴿ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ﴾ [القدر:٤]، قيل: الروح: جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، وقيل: الروح: صنفٌ من الملائكة ينزلون في هذه الليلة[(٣)].

ونزول الملائكة؛ من أجل مشاركة المؤمنين في إحياء هذه الليلة بالعمل الصالح، الملائكة تتنزل مع المؤمنين في الجهاد كما تنزلت في وقعة بدر تساعد

= قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «**كَتَبَ اللهُ مَقَادِيرَ الخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ قَالَ: وَعَرْشُهُ عَلَى المَاءِ**».

(١) سبق بيانه (ص٢٩٥).

(٢) سبق تخريجه (ص٤٢).

(٣) سبق بيانه (ص٢٨٧).

المسلمين وتشجعهم، وتعينهم على الجهاد؛ ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [الأنفال:١٢]، فهي تنزل لتثبيت المؤمنين على الجهاد، وتنزل في ليلة القدر -أيضًا- لمساعدة المسلمين على الأعمال الصالحة في هذه الليلة؛ فإن الملائكة ينزلون بالخير خلاف الشياطين؛ فإنهم يأتون بالشر، أما الملائكة عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ فإنهم يأتون بالخير؛ ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا﴾ [القدر:٤]، في هذه الليلة.

كما أن الملائكة تنزل وتحف بحِلق الذكر؛ كما قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللهِ، يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ، وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ، إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمِ السَّكِينَةُ، وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ وَحَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ**»[1]، فالملائكة يحضرون مجالس الذكر، مجالس العلم، فهم يتنزلون في ليلة القدر، ويتنزلون في الجهاد في سبيل الله، ويتنزلون لذكر الله وطلب العلم ومجالس الذكر.

ونزولهم بأمر الله جَلَّ وَعَلَا، لا ينزلون من أنفسهم، وإنما ينزلون بأمر الله؛ كما قال تعالى عنهم: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ [مريم:٦٤]، وهنا قال: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾ [القدر:٤].

وصف هذه الليلة بأنها سلام، سلام كلها من أولها إلى آخرها، سلامٌ للمؤمنين من المعاصي، ولهذا تجدون المؤمنين في هذه الليلة يقبلون على الله جَلَّ وَعَلَا، ويتوبون إليه، وهي سلامٌ من الشرور؛ فلا ينزل فيها إلا الخير للأمة المحمدية.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٩٩) من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

﴿حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ﴾ [القدر:٥]، حتى يطلع الفجر، إذا طلع الفجر، انتهت ليلة القدر.

إذًا يشرع قيامها من غروب الشمس -وهو بداية الليلة- إلى طلوع الفجر، كل هذا وقتٌ للقيام في هذه الليلة؛ للصلاة، والذكر، والاستغفار، والدعاء، قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «يَا رَسُولَ اللهِ، أَرَأَيْتَ إِنْ وَافَقْتُ لَيْلَةَ الْقَدْرِ مَا أَقُولُ فِيهَا؟ قَالَ: قُولِي: اللَّهُمَّ إِنَّكَ عَفُوٌّ تُحِبُّ الْعَفْوَ فَاعْفُ عَنِّي»[(١)]، فينبغي للمسلم أن يكثر من هذا الدعاء، وغيره من الأدعية، ويجتهد في ذلك؛ لأنها وقت لإجابة الدعاء.

هذه الليلة أخفاها الله في رمضان؛ فلم يبين في أي ليلة هي من ليالي رمضان، والحكمة في ذلك: من أجل أن يجتهد المسلم في كل ليالي رمضان من أول ليلة إلى آخر ليلة؛ حتى يفوز بقيام رمضان، ويفوز بقيام ليلة القدر، فيجتمع له الفضيلتان: فضيلة قيام ليالي رمضان، وقد قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ قَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ»[(٢)]، الله أخفاها، ولم يبين في أي ليلة من ليالي رمضان من أجل أن يجتهد المسلمون في كل ليالي رمضان، فيحصل لهم الفضيلتان: فضيلة قيام ليالي رمضان، وفضيلة قيام ليلة القدر.

فالمسلم إذا قام كل ليالي رمضان، فلابد أنه مرَّت عليه ليلة القدر، أما إذا قام بعض ليالي رمضان، فلا يُضمن أن يكون أدرك ليلة القدر، قد تكون في

---

(١) أخرجه أحمد (٤٣/ ٢٧٧)، والترمذي (٣٥١٣)، والنسائي في الكبرى (٩/ ٣٢٢)، وابن ماجه (٣٨٥٠).
(٢) سبق تخريجه (ص٤٢).

الليلة أو الليالي التي تركها، هذه هي الحكمة في أن الله أخفاها، بيَّن فضلها، ولكنه سبحانه أخفاها.

النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يتحراها في العشر الأوسط، فكان يعتكف صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في العشر الأوسط من رمضان، فلما تبين له أنها في العشر الأواخر، نقل اعتكافه إلى العشر الأواخر[1]، وكان صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «إِذَا دَخَلَ الْعَشْرُ شَدَّ مِئْزَرَهُ، وَأَحْيَا لَيْلَهُ، وَأَيْقَظَ أَهْلَهُ»[2].

وكان يعتكف في العشر الأواخر بمعنى: أنه يبقى في المسجد، وينعزل في المسجد في مكان يخصص له صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يُحتجز مكانٌ من المسجد بحصير، ثم يجلس فيه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للعبادة وذكر الله عَزَّ وَجَلَّ، ويخرج لصلاة الجماعة في المسجد، وهذا في العشر الأواخر، وبقي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يعتكف العشر الأواخر حتى توفاه الله، مما يدل على أنه يترجح أن تكون هذه الليلة في العشر الأواخر.

فكان صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يخص العشر الأواخر بشيئين:

الشيء الأول: الاعتكاف.

الشيء الثاني: القيام، طول القيام في هذه الليلة؛ أنه كان يحيي ليالي هذه العشر؛ طلبًا لليلة القدر.

ولم يتبين على سبيل الجزم في أي ليلة من ليالي العشر؛ من أجل أن يجتهد المسلم في كل ليالي العشر؛ لأنه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يجتهد في كل ليالي العشر، ولم يميز ليلة دون ليلة من ليالي العشر الأواخر، بل كان صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في كل ليالي العشر

---

(١) سبق تخريجه (ص٤١).

(٢) سبق تخريجه (ص٣٩).

كان يحيي الليل بالصلاة والتهجد والذكر والعبادة؛ مما يدل على أنها لم تتعين في ليلة معينة من العشر.

ولكن جاءت بعض الآثار والأحاديث، بل الأحاديث الصحيحة أنها أرجى، ليس على سبيل الجزم، لكن أرجى ما تكون في الأوتار، في الأوتار من العشر الأواخر، الأوتار التي هي: إحدى وعشرين، ثلاث وعشرين، خمس وعشرين، سبع وعشرين، تسع وعشرين[١]، هذه الأوتار التي أرجى ما تكون ليلة القدر فيها، ولكن المسلم يحيي ليالي العشر كلها؛ حتى يتأكد أنه أو يتأكد رجاؤه، ويعظم رجاؤه في أنه يصادف ليلة القدر، فيحصل على هذا الثواب، يحصل على أن الله يغفر له ما تقدم من ذنبه، ويحصل له أعظم من ذلك، وهو أنه حصل على عمل ألف شهر؛ لأن ألف شهر إذا حسبتها تخرج ثلاث وثمانون سنة وزيادة أشهر، إذا حسبت ألف شهر على اثني عشر شهر التي هي السنة يخرج لك أكثر من ثلاث وثمانين سنة، أي فضل أعظم من هذا الفضل؟! هذا فضل عظيم لمن وفقه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهذا من فضل الله على هذه الأمة أنه أعطاها، وأجزل لها العطاء، وأكرمها بهذا الشهر وبهذه الليلة الشريفة، التي هي قطعًا في رمضان، لا تخرج عن رمضان، فمن اهتم برمضان كله بالعبادة وقيام الليل، ولم يترك منه شيئًا، فلا شك أنه أدرك ليلة القدر، مرت به ليلة القدر.

لكن قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وَمَنْ قَامَ لَيْلَةَ الْقَدْرِ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا**»[٢]، إيمانًا، أي: تصديقًا بفضلها، واحتسابًا، يعني: طلبًا لأجرها.

---

(١) سبق تخريجه (ص٢٩٨).

(٢) سبق تخريجه (ص٤٢).

أما من يقومها رياء وسمعة، فهذا لا تنفعه شيئًا كسائر الأعمال التي يدخلها الرياء، أو يقوم وهو شاك فيها، إذًا لم يقمها إيمانًا، إذا كان عنده شك، لم يقمها إيمانًا، إذا قامها رياء وسمعة إذًا لم يقمها احتسابًا، فلابد من الأمرين: الإيمان والاحتساب، وهذا في كل الأعمال الصالحة، لابد أن المسلم يأتي بالأعمال الصالحة إيمانًا واحتسابًا؛ حتى ينفعه الله بها، وتكون مقبولة عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

فالحاصل: أن هذه ليلة عظيمة ينبغي للمسلم أن يجتهد فيها بالصلاة والدعاء، ويلح في الدعاء والذكر والاستغفار والتوبة؛ لعل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن يمنَّ عليه بفضل هذه الليلة، فيسعد بثوابها، وهذا فضل الله يؤتيه من يشاء، ومن طلب الخير، يسره الله له؛ ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴾ [الليل:٥-٧]، فالمسلم إذا طلب الخير، يسره الله له.

وفي رمضان يسر الله الخير أكثر من غيره، رمضان شهرٌ تصفد فيه الشياطين عن أهل الإيمان[(١)]، شهر تُفتح فيه أبواب الجنان، وتُغلق فيه أبواب النيران، وينادي مناد كل ليلة من ليالي رمضان: يا باغي الخير أقبل، ويا باغي الشر أقصر، هذا في كل ليلة من ليالي رمضان.

وفي ليلة القدر يزداد الفضل والخير والإحسان من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

نسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن يوفقنا وإياكم لإدراك ليلة القدر، وأن يتقبل منا، وأن يعفو عنا، ويغفر لنا، وأن يجعل ليلة القدر بركة في أعمارنا، وزيادة في حسناتنا، وأن يجعل ليلة القدر سببًا لتوبتنا من الذنوب والمعاصي، وسببًا لصلاحنا واستقامتنا في بقية أعمارنا إلى الممات.

---

(١) سبق تخريجه (ص٢٢٠).

نسأل الله أن يثبتنا وإياكم على دينه الحق وصراطه المستقيم، وأن يحسن لنا ولكم الختام، وأن يتوفانا وإياكم على الإسلام، وجميع المسلمين، وأن يجعل لنا ولهذه الأمة جميعًا من هذه الليلة أوفر حظ ونصيب، وأن ينزل النصر على المسلمين على أعدائهم، وأن يخذل الكفار، وأن ينصر دينه، ويعلي كلمته.

نسأله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن ينصر الإسلام والمسلمين، وأن يذل الشرك والمشركين، نسأله سبحانه أن يصلح ولاة أمورنا، وأن يصلحنا، ويصلح أحوالنا وأعمالنا، ونياتنا ومقاصدنا.

اللهم إنك عفو تحب العفو، فاعف عنا، اللهم إنك عفو كريم تحب العفو، فاعف عنا، اللهم إنك عفو كريم تحب العفو، فاعف عنا.

اللهم أعتقنا من النار، اللهم أعتقنا ووالدينا وجميع المسلمين من النار، اللهم اجعلنا في هذا الشهر وفي هذه العشر وفي هذه الليلة الشريفة من عتقائك من النار، اللهم أعتقنا من النار.

اللهم ثبتنا على الحق، ووفقنا للصراط المستقيم، اللهم أحينا على الإسلام، وتوفنا على الإيمان، واجعلنا هداة مهتدين غير ضالين ولا مضلين.

اللهم ولِّ على المسلمين خيارهم، واكفهم شر شرارهم، وانصرهم على عدوك وعدوهم، واهدهم سبل السلام، وأخرجهم من الظلمات إلى النور، وجنبهم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، إنك قريب سميع الدعاء.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه اجمعين.

ليلة القدر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على عبده ورسوله نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين:

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٥﴾ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الدخان:٣-٦]، وقال سبحانه: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ﴾ [القدر:١-٥].

هذه الليلة -ليلة القدر- ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لها صفات عظيمة مميزة لها عن غيرها من الليالي؛ مما يرغب المسلم في تحريها واغتنامها كما كان النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يتحراها، ويأمر بتحريها، فهي ليلة عظيمة، ليلة مباركة.

أولًا: من مزاياها: أن الله أنزل فيها القرآن؛ ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ [القدر:١]، ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ [الدخان:٣]، ومعنى ذلك: أنه ابتدئ نزول القرآن على النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذه الليلة، ثم توالى ينزل عليه مفرقًا في ثلاث وعشرين سنة؛ حتى تكامل عند وفاته صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فبداية إنزال القرآن في هذه الليلة تعطيها مزية على غيرها؛ لأن الله شرفها بذلك.

ثانيًا: أن الله سماها ليلة القدر، وليلة القدر قيل معناه: أنها يُقدر فيها ما يجري في السنة من الأحداث والأمور؛ كما قال تعالى: ﴿ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴾ [الدخان:٤]، أي: محكم، وهذا تقدير خاص، هذا التقدير السنوي، وهناك التقدير العام الذي قدره الله وكتبه في اللوح المحفوظ قبل أن يخلق السماوات بخمسين ألف سنة[(١)]، والتقدير الذي في ليلة القدر يؤخذ من التقدير العام المكتوب في اللوح المحفوظ، وهناك التقدير اليومي؛ كما قال تعالى: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن:٢٩]، تقدير يومي ما يجري في اليوم، فسمى الله ليلة القدر بذلك؛ لأنها تُقدر فيها الآجال التي تجري في السنة، تُقدر فيها المواليد، تقدر فيها الأرزاق، تُقدر فيها الحوادث التي تجري في السنة؛ ﴿ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴾ [الدخان:٤].

وقيل: سُمِّيت ليلة القدر؛ لأنها ذات قدر، أي: مكانة عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى[(٢)].

ثالثًا: أن الله جَلَّ وَعَلَا وصفها بأنها مباركة، العمل الصالح يبارك الله جَلَّ وَعَلَا فيه ويضاعفه، ويوفق المسلمين للعمل الصالح في هذه الليلة، فهي مباركة على هذه الأمة، فيها بركة وفيها خير.

رابعًا: أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فخم من شأنها، فقال: ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ﴾ [القدر:٢]، هذا تفخيم وتعظيم لها؛ مثل: ﴿ٱلْقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾ [القارعة:١-٣]، ﴿ٱلْحَآقَّةُ ۝١ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ﴾ [الحاقة١-٣]، هذا تفخيم، تعظيم للحدث الذي يجري في هذا اليوم

---

(١) سبق تخريجه (ص٣١٧).

(٢) سبق بيانه (ص٢٩٥).

والذي يجري في هذه الليلة؛ مما يدل على عظمتها أن الله عَظَّمَ من شانها، فقال: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ﴾ [القدر:٢]، هذا من باب التعظيم لها، وتفخيم شأنها؛ لأنها ليلة عظيمة من بين الليالي.

الخامس: أن الله جَلَّوَعَلَا قال: ﴿لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ﴾ [القدر:٣]، العمل الصالح فيها خيرٌ من العمل الصالح في مدة ألف شهر، فالعمل الصالح فيها يعادل، بل هو خير، أكثر من العمل في ألف شهر، ﴿خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ﴾، وألف الشهر: ثلاث وثمانون سنة وزيادة أشهر، يعني: لو أن الإنسان اجتهد في العمل الصالح مدة ألف شهر، أكثر من ثمانين سنة العمل الصالح، فالعمل في هذه الليلة الواحدة خيرٌ من العمل في ألف شهر، وهذا فضل عظيم؛ مثلما قال النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «صَلَاةٌ فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَفْضَلُ مِنْ مِائَةِ أَلْفِ صَلَاةٍ فِيمَا سِوَاهُ»(١).

الله جَلَّوَعَلَا يخلق ما يشاء ويختار، ويضاعف الأعمال الصالحة بأضعاف كثيرة؛ منها ما يُضاعف بعشرة أمثال، ومنها ما يُضاعف بخمسمائة ضعف، ومنها ما يضاعف بسبعمائة، ومنها ما يُضاعف أضعافًا كثيرة لا يعلمها إلا الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، ومنها ما يُضاعف بغير حد، الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ يضاعف لمن يشاء؛ فضلًا منه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

فالعمل في هذه الليلة خيرٌ وأفضل من العمل في ألف شهر، لو استوعبها المسلم كلها، كل ألف الشهر استوعبها بالطاعة، فإن العمل الصالح في هذه الليلة أكثر وخيرٌ من العمل الصالح في ألف شهر، وهذا فضل عظيم من الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، لذلك فهي ليلة جديرة بأن يعتنى بها.

---

(١) أخرجه أحمد (٢٣/ ٤١٤)، وابن ماجه (١٤٠٦)، من حديث جابر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

سابعًا: أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قال: ﴿ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا ﴾ [القدر:٤]، أي: في ليلة القدر، ﴿ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ﴾ من السماء، ﴿ وَٱلرُّوحُ ﴾، قيل: هو جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ؛ كما في قوله تعالى: ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴾ [الشعراء:١٩٣]، جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يسمى بالروح، وقيل: الروح: جماعة من الملائكة؛ كما قال تعالى: ﴿ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ صَفًّا ۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴾ [النبأ:٣٨]، فالروح، قيل: هم جماعة من الملائكة، نوع من الملائكة؛ لأن الملائكة أنواع، قسمهم الله حسب حكمته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وصنفهم إلى أصناف، ومنهم الروح.

ويطلق الروح، ويراد به قوة الإيمان، الروح يراد به الإيمان والقوة؛ قال تعالى: ﴿ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ﴾ [المجادلة:٢٢]، أي: بإيمان وقوة، ﴿ وَلَا تَنَـٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ﴾ [الأنفال:٤٦]، فالريح والروح بمعنى القوة، وهذا يحصل للمسلمين في هذه الليلة أن الله يقويهم ويرغبهم على العمل الصالح في هذه الليلة، ويُطلق الروح، ويراد به القرآن؛ ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ﴾ [الشورى:٥٢]، القرآن روح، فقوله تعالى: ﴿ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا ﴾، يحتمل أنه جبريل صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويحتمل أنه صنفٌ من الملائكة يسمون بالروح، وكذلك يحتمل أنه ما ينزله الله من القوة على المسلمين، والرغبة في العمل الصالح في هذه الليلة[1].

﴿ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا ﴾، لماذا تتنزل الملائكة والروح؟ تتنزل الملائكة لأجل مساعدة بني آدم وتنشيطهم على العمل الصالح في هذه الليلة، فالملائكة تنزل تساعد بني آدم على الأعمال الصالحة؛ تنزل في الجهاد في سبيل الله؛

---

(١) سبق بيانه (ص٢٨٧).

تقوي المسلمين؛ ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [الأنفال:١٢]، فالملائكة تنزل في الجهاد لتساعد المسلمين على قتال عدوهم وتثبيت قلوبهم، وتنزل الملائكة لإعانة المسلمين على صلاة الليل، وعلى الأعمال الصالحة في هذه الليلة -في ليلة القدر خاصة- لإعانتهم وتأييدهم وتنشيطهم.

﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم﴾: بإذن الله سبحانه، الملائكة لاتتنزل إلا بأمر الله؛ ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ۖ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ ۚ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مريم:٦٤]، فالملائكة لا تنزل إلا بأمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وبإذنه جَلَّ وَعَلَا.

هذه الليلة لها صفة ثامنة: وهي أنها سلام، أنها سلام على المسلمين، سلام من الآفات، سلام من الأذى، سلام من الشيطان؛ يُسلمهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في هذه الليلة من كل محذور، وهذا خاص بالمسلمين والمؤمنين، ﴿حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ﴾، ﴿سَلَـٰمٌ هِىَ﴾، أي: ليلة القدر، ﴿حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ﴾، نهايتها بطلوع الفجر.

فهذه الخيرات تكون في هذه الليلة من أولها عند غروب الشمس، وتستمر إلى نهايتها عند طلوع الفجر، فأي ساعة من ليلة القدر توجه المسلم إلى ربه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالدعاء والقيام والتضرع، فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يتقبل دعاءه، ويتقبل عمله، ويستجيب له، ويتقبل توبته، فالمذنب والعاصي إذا تاب إلى الله توبة صحيحة في هذه الليلة، فإن الله يتوب عليه، وإن كان الله يتوب على التائب في كل وقت، الله يقبل التوبة في كل وقت، ولكن في هذه الليلة أشد قبولًا، وأسرع إجابة من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فهي ليلة عظيمة يتوب فيها المذنبون، ويجتهد فيها الصالحون، ويتهجد فيها المتهجدون، ويتضرع فيها الداعون، كلٌّ يدعو لنفسه

ولإخوانه المسلمين وللأحياء والأموات، يدعو، يكثر من الدعاء، قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «يَا رَسُولَ اللهِ، أَرَأَيْتَ إِنْ وَافَقْتُ لَيْلَةَ الْقَدْرِ مَا أَقُولُ فِيهَا؟ قَالَ: قُولِي: **اللَّهُمَّ إِنَّكَ عَفُوٌّ تُحِبُّ الْعَفْوَ فَاعْفُ عَنِّي**»[(١)]، فينبغي للمسلم أن يكرر هذا الدعاء: «**اللَّهُمَّ إِنَّكَ عَفُوٌّ تُحِبُّ الْعَفْوَ فَاعْفُ عَنِّي**»، هذا الذي أوصى به النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عائشة أم المؤمنين، وهو وصية لجميع الأمة.

هذه الليلة في شهر رمضان بلا شك، هي في شهر رمضان بلا شك، لا تخرج عنه، ولكن هي في أي ليلة؟ الله أخفاها، لماذا أخفاها؟ من أجل أن يجتهد المسلم في جميع ليالي رمضان من أوله إلى آخره؛ حتى يحصل على ثواب هذه الليلة، ويحصل على ثواب بقية الليالي؛ لأن ليالي رمضان كلها ليالي خير.

فلو بُينت هذه الليلة للناس، لقصدوها، وتركوا بقية الليالي، فمن حكمة الله ورحمته بعباده وإرادته الخير لهم أنه أخفاها من أجل أن يجتهدوا في جميع ليالي الشهر؛ لأن المسلم إذا اجتهد في ليالي الشهر كلها، فإنه قد صادف ليلة القدر قطعًا؛ لأنها لا تخرج عن الشهر، وأما من اجتهد في بعض الليالي وترك البعض الآخر، فلا يُضمن له أن يصادف ليلة القدر، ربما يصادفها، وربما لا يصادفها، ربما تكون في الليالي التي تركها.

أما من قام ليالي رمضان كلها، فإنه يكون مدركًا لليلة القدر، ومدركًا لثواب رمضان كله؛ كما قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ قَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ، وَمَنْ قَامَ لَيْلَةَ الْقَدْرِ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ**»[(٢)].

---

(١) سبق تخريجه (ص٣٢٠).

(٢) سبق تخريجه (ص٤٢).

وليس المراد أن الإنسان يقوم ليالي رمضان كلها ولا ينام، إنما المراد أن يقوم مع الإمام؛ لأن صلاة التراويح وصلاة التهجد في آخر الليل السنة أن تكون جماعة، أن تُصلى جماعة في المساجد، فمن قام مع الإمام حتى ينصرف ففي الحديث أن: «**مَنْ قَامَ مَعَ الْإِمَامِ حَتَّى يَنْصَرِفَ، كُتِبَ لَهُ قِيَامُ لَيْلَةٍ**»(١)، يُكتب له قيام ليلة كاملة، هذا فضل من الله مع أن الإمام لا يقوم كل الليل، إنما يقوم التراويح والتهجد في آخر الليل، فمن لازم الإمام وصلى معه من البداية إلى النهاية، ولم ينصرف إلا مع الإمام، فإن الله يكتب له قيام ليلة كاملة، وهذا فضلٌ منه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

فهذه الليلة لا تتعين في ليلة مخصوصة من رمضان، بل كل ليلة من رمضان يحتمل أنها هي ليلة القدر، ولكن أرجى الليالي لليلة القدر العشر الأواخر، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**تَحَرَّوْا لَيْلَةَ الْقَدْرِ فِي الْوِتْرِ، فِي الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ مِنْ رَمَضَانَ**»(٢)، والحديث في الصحيحين، «**تَحَرَّوْا لَيْلَةَ الْقَدْرِ فِي الْوِتْرِ، فِي الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ مِنْ رَمَضَانَ**»، وهي في الأوتار آكد، الليالي الأوتار آكد؛ ليلة إحدى وعشرين، ليلة ثلاث وعشرين، ليلة خمس وعشرين، ليلة سبع وعشرين، ليلة تسع وعشرين، هذه الأوتار، الأعداد الوتر التي ليست زوجية، هذه الأوتار.

ولكن ليلة سبع وعشرين أرجاها، وهي هذه الليلة، ليلة سبع وعشرين هي أرجى الأوتار، أوتار العشر؛ كما قال بذلك ابن عباس وأُبَيُّ بْنِ كَعْبٍ وجماعة من

(١) سبق تخريجه (ص٢٦٦).
(٢) سبق تخريجه (ص٢٩٨).

الصحابة، وهو رأي الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنها تتحرى أكثر في ليلة سبع وعشرين، هذه أرجاها، أرجى الليالي[١].

فينبغي للمسلم أن يحرص على الجد والاجتهاد في هذه الليلة؛ لعل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن يكتب له خير هذه الليلة، وأن يجعله ممن أدرك ليلة القدر، ونال ثوابها، ونال أجرها عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

والأعمال في هذه الليلة، الأعمال الصالحة متنوعة: صلاة التهجد، والدعاء في الصلاة وخارج الصلاة، الاجتهاد في الدعاء في هذه الليلة والإكثار من الدعاء، وكذلك الاجتهاد في الاستغفار، والتوبة إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، الإكثار من ذكر الله بالتسبيح والتهليل والتكبير.

فالأعمال الصالحة كثيرة، وأبواب الخير واسعة، الصدقات والإحسان إلى الناس، أبواب الخير واسعة، والمسلم يجتهد في هذه الليلة بما يسر الله له من الأعمال الصالحة، لكن يحرص على قيام هذه الليلة، يحرص على قيام هذه الليلة مع المسلمين؛ لأن الصلاة تشمل الدعاء، تشمل الركوع والسجود والقيام بين يدي الله، فهي خير الأعمال، فعلى المسلم ألا يحرم نفسه من هذه الليلة.

ثم أيضًا ليس المقصود أن الإنسان يجتهد في هذه الليلة، ثم بقية الليالي يتكاسل، لا. المقصود أن هذه الليلة تفتح له باب الخير، وتنبهه من الغفلة؛ فربما تكون هذه الليلة منطلقًا للمسلم في بقية حياته كلها، ربما أن الله يوفقه للتوبة من الذنوب، فتصلح أحواله في بقية عمره، ويستقيم على طاعة الله، ربما أن الله

---

(١) سبق بيانه (ص٢٩٨).

يفتح على قلب المسلم الرغبة في قيام الليل، فيداوم عليه، يداوم على قيام الليل في بقية عمره، ربما أن الله يفتح على المسلم في الدعاء، والرغبة في الدعاء، فيستمر على الدعاء، ويكثر من الدعاء؛ لأن الله يحب من عباده أن يدعوه، وأن يكثروا من دعائه؛ ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [غافر:٦٠]، ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ [البقرة:١٨٦]، وفي الحديث الصحيح: «**يَنْزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الآخِرُ، فَيَقُولُ: هَلْ مِنْ سَائِلٍ فَأُعْطِيَهُ؟ هَلْ مِنْ دَاعٍ فَأَسْتَجِيبَ لَهُ؟ هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ فَأَغْفِرَ لَهُ؟**»(١)، هذا في كل ليلة، فربما أن المسلم يفتح الله على قلبه في هذه الليلة، فيستمر في قيام الليل خصوصًا في وقت الأسحار من كل ليلة، فتكون هذه الليلة منبهًا ومنطلقًا له في بقية حياته.

وعلى المسلم أن يكثر من الدعاء؛ الدعاء لنفسه أولًا، والدعاء لوالديه، والدعاء لأقاربه وأرحامه، والدعاء للمسلمين؛ يدعو لنفسه، ويدعو للمسلمين، ويدعو الله بالنصر للإسلام والمسلمين، يدعو الله بكل ما فيه نفع له وفيه نفع للمسلمين؛ فإنها ليلة عظيمة يستجاب فيها الدعاء، ويرغب فيها العمل الصالح، فهي ليلة عظيمة مباركة، من أدركها، وقام فيها، ودعا الله، فإنه قد حصل على خير كثير، قد لا يمر به في حياته.

هذه مواسم عظيمة تمر بالمسلم، فينبغي له أن يتنبه لها، وأن يستغلها بالخير، ولا يغفل عنها فتمر عليه وهو غافل معرض لا يستفيد منها، فهذه حالة الأشقياء -ولا حول ولا قوة إلا بالله!

---

(١) سبق تخريجه (ص١٤١).

يدعو المسلم بصلاح نفسه، ويدعو المسلم بمغفرة ذنوبه، ويدعو المسلم بطلب حوائجه من الله عَزَّوَجَلَّ؛ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾ [فاطر:١٥]، أنت فقير، اسأل ربك، ارفع يديك له، واسأله كل ما تريد وكل ما تحتاج لدينك ودنياك؛ المريض يسأل الله أن يشفيه، الضال يسأل الله أن يهديه، الفقير يسأل الله أن يغنيه، المقصر في الأعمال الصالحة يسأل الله أن يعينه، وأن يرغبه في الطاعة، المذنب يستغفر الله ويتوب إليه، يسأل الله أن يغفر له ذنوبه وخطاياه، وكذلك يسأل للإسلام والمسلمين بالنصر والتأييد، ويدعو لولاة أمور المسلمين بالصلاح والهداية والاستقامة؛ لأنهم إذا صلحوا، أصلح الله بهم رعاياهم، وأصلح بهم المسلمين، فيدعو لهم بالهداية، يدعو لهم بالصلاح، يدعو لهم بالاستقامة، يدعو لهم بالتوفيق؛ لأن صلاحهم صلاحٌ للإسلام وصلاحٌ للمسلمين.

نسأل الله سبحانه في هذه الليلة وفي جميع العمر أن يوفقنا للأعمال الصالحة، وأن يوفقنا للتوبة من الذنوب، وأن يعتقنا وإياكم وجميع المسلمين من النار، نسأله أن يجعل لنا من هذه الليلة العظيمة أوفر حظ ونصيب.

نسأل الله أن ينصر دينه، وأن يعلي كلمته، وأن ينصر أولياءه، ويخذل أعداءه، نسأله سبحانه بالنصر للإسلام والمسلمين في كل مكان، نسأله أن يذل الشرك والمشركين وأعداء الدين، نسأله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ أن يمد المسلمين بالنصر والتأييد والإيمان، والثبات على الحق.

نسأله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ أن يعلي كلمته، وأن يصلح ولاة أمور المسلمين، نسأله أن يولي علينا خيارنا، وأن يكفينا شر شرارنا.

نسأله سبحانه أن يقينا وإياكم وجميع المسلمين من شر الفتن ومضلات الفتن، اللهم أرنا الحق حقًا وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلًا وارزقنا اجتنابه.

اللهم حبب إلينا الإيمان وزينه في قلوبنا، وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان، واجعلنا من الراشدين.

ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم.

اللهم واغفر لجميع موتى المسلمين، اللهم اغفر لجميع موتى المسلمين الذين شهدوا لك بالوحدانية، ولنبيك بالرسالة، وماتوا على ذلك.

اللهم اغفر لهم وارحمهم، وعافهم واعف عنهم، وأكرم نزلهم، وأوسع مدخلهم، واغسلهم بالماء والثلج والبرد، ونقهم من الذنوب والخطايا كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس.

اللهم وارحمنا إذا صرنا إلى ما صاروا إليه، اللهم أحينا مسلمين، وتوفنا مؤمنين، وألحقنا بالصالحين غير خزايا ولا مفتونين.

يا رب العالمين، يا أرحم الراحمين، يا أكرم الأكرمين، يا أجود الأجودين تقبل منا إنك أنت السميع العليم.

والحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

مفسدات الصيام

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على عبده ورسوله نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين:

تقدم الكلام في بيان مفسدات الصيام في شهر رمضان وغيره، وهي جميع ما حرم الله، فيجب على المسلم أن يتجنبها دائمًا، وأن يصوم عنها دائمًا، وإنما تُذكر مع الصيام؛ لأنها تؤثر فيه، تؤثر في الصيام لا أنها إنما تحرم وقت الصيام، بل هي تحرم دائمًا وأبدًا.

فإذا تقرب العبد إلى الله بترك شهواته المباحة، فإنه يجب عليه من باب أولى أن يتقرب إلى الله بترك ما حرم الله عليه في كل حياته.

وهذه المحرمات منها ما يصدر عن اللسان، ومنها ما يصدر عن النظر، ومنها ما يصدر عن السمع، ومنها ما يصدر عن حركات الإنسان.

فأما الذي يصدر عن اللسان: فهو كل كلام محرم، كل كلام محرم يجب على المسلم أن يتجنبه، خصوصًا إذا كان صائمًا، وذلك مثل الغيبة؛ الغيبة حرمها الله سبحانه بقوله: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾ [الحجرات:١٢]، وقد فسرها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأنها: «ذِكْرُكَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُ»؛ أن تتكلم في أخيك وهو غائب بما يكرهه أن يُذكر عنه؛ كقول: فلان بخيل، فلان فيه كذا وكذا من العيوب، فلان

قصير القامة، طويل القامة، فلان يعمل كذا وكذا من الأشياء التي لا تليق، وأن تتحدث عنه بمثل هذا الكلام الذي لو سمعه لكرهه، كره أن يقال فيه هذا الكلام، هذه هي الغيبة كما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، «قِيلَ: أَفَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ فِي أَخِي مَا أَقُولُ؟ قَالَ: **إِنْ كَانَ فِيهِ مَا تَقُولُ فَقَدِ اغْتَبْتَهُ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ مَا تَقُولُ فَقَدْ بَهَتَّهُ**»[1]، يعني: كذبت عليه، فالمغتاب لا يخرج عن كونه مغتابًا أو كذابًا، وكلاهما حرام، الغيبة حرام، والكذب حرام؛ فلا يقل أحدكم: هذه الصفات في أخي الذي أتحدث عنه، أنا لا أقول عليه شيئًا ليس فيه. نقول: هذه غيبة، إذا كانت هذه الصفات القبيحة فيه، فذكرك إياها غيبة، وإذا كان سليمًا منها، فذكرك إياها كذبٌ عليه؛ إذًا احفظ لسانك، لا تتكلم في أعراض الناس؛ لأن بعض الناس يسهل عليه ترك الطعام والشراب والمباحات، لكن لا يسهل عليه ترك الغيبة، لا يستطيع أنه يترك الغيبة؛ لأنه تعود عليها، والعوام والناس لا تعمر مجالسهم إلا بالغيبة في أعراض الناس، لا يجدون مجالًا يتحدثون فيه إلا أعراض إخوانهم، فإذا كانوا صائمين، فإن هذا يقدح في صيامهم، مع كونه حرامًا يأثمون عليه، فهو -أيضًا- يقدح في صيامهم، فلا يكون لهم ثواب في صيامهم مع الغيبة، بل يكون صيامهم تعبًا بلا فائدة؛ «**رُبَّ صَائِمٍ حَظُّهُ مِنْ صِيَامِهِ الْجُوعُ وَالْعَطَشُ**»[2]، فهذا ترك ما أباح الله، ولم يترك ما حرم الله، هذا ليس بصائم على الحقيقة، وإن كان صائمًا في الظاهر، لكنه ليس بصائم، لم يصم لسانه، صام بطنه، ولكن لم يصم لسانه، ولسانه يحصد ما زرعه من العمل الصالح.

---

(١) سبق تخريجه (ص١٧٩).

(٢) سبق تخريجه (ص٣٦).

النوع الثاني من آفات اللسان: النميمة، وهي: الوشاية بين الناس، ونقل الحديث بينهم على وجه الإفساد؛ كأن يقول لشخص: فلان يقول فيك: كذا وكذا. ينقل له حديث سمعه من فلان، فيقول: فلان يتكلم فيك، قال فيك: كذا وكذا. من أجل أن يجعل هذا الشخص يبغض المنقول عنه الكلام، ثم يذهب للثاني، ويقول: فلان قال فيك: كذا وكذا، وكذا، وكذا. من أجل أن يفسد ما بينهما من الإخوة والصلة، وهكذا يمشي بين الناس، وينقل بينهم الوشاية بعضهم لبعض؛ حتى يجعلهم أعداء متباغضين، هذا عمل النمام، لايستقر حتى يفسد بين الناس، ينقل حديث بعضهم في بعض؛ حتى لو سمعت شخصًا يتكلم في آخر الواجب عليك مناصحته، أما أنك تأخذ كلامه، وتذهب به إلى الشخص المتحدث عنه، تزيد الشر شرًا، الأول مغتاب، الذي تكلم في عرض أخيه مغتاب، وأنت إذا نقلت هذا الكلام أنت نمام، وقد قال ﷺ: «**لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ نَمَّامٌ**»، وفي رواية: «**لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ قَتَّاتٌ**»(١)، والقتات هو النمام، الله جَلَّ وَعَلَا يقول: ﴿**وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ**﴾ [القلم: ١٠، ١١]، ﴿**مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ**﴾: النميمة.

وجاء في الحديث أن النبي ﷺ مرَّ بقبرين، فقال: «**إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ**»، أخبر ﷺ أن هذين الميتين يعذبان في قبورهما؛ لأن الله أطلعه على ذلك، وهذه معجزة للرسول ﷺ أن الله أطلعه على أحوال الموتى في القبور؛ من أجل مناصحة الناس؛ مصلحة الناس، قال ﷺ مبينًا سبب تعذيبهما في القبور: «**إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ، وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ، أَمَّا أَحَدُهُمَا فَكَانَ يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ**»،

---

(١) سبق تخريجه (ص١٨١).

هذا محل الشاهد من الحديث، «أَمَّا أَحَدُهُمَا فَكَانَ يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ، وَأَمَّا الْآخَرُ فَكَانَ لَايَسْتَبْرِئُ مِنْ بَوْلِهِ»(١)، أو: «فَكَانَ لاَ يَسْتَنِزْهُ مِنَ الْبَوْلِ»(٢)، فدل الحديث على أن النميمة تكون سببًا لعذاب القبر -والعياذ بالله-، وأن النمام يُعذَّب في قبره، فدل على شدة خطرها، هي كبيرة من كبائر الذنوب، وهي نوع من السحر، النميمة نوع من السحر؛ لأنها تعمل أشد من عمل السحر، ولهذا قالوا: «النَّمَّامُ يُفْسِدُ فِي سَاعَةٍ مَا لَا يُفْسِدُ السَّاحِرُ فِي شَهْرٍ»(٣)، دل على أن النميمة أشد شرًا من السحر؛ لما تحدث بين الناس من العداوة والبغضاء، توجب القطيعة بين الأقارب، توجب القطيعة بين الابن وأبيه والأخ وأخيه، توجب القطيعة بين المسلمين بعضهم مع بعض، وقد توجب القتال، وقد تقوم الحرب بسبب النمام الذي يُحرش الناس بعضهم على بعض، قد يحملون السلاح ويتقاتلون، ويسفكون دماءهم بسبب النمام، النميمة خطيرة في كل الأوقات، والنمام عدو للمجتمع يجب الحذر منه، والنميمة من الصائم أشد، إذا كان صائمًا عن الطعام والشراب، ولكنه لا يصوم عن النميمة، فما معنى صيامه؟ ما معنى صيامه إذًا؟! ليس له فائدة من الصيام، ولا ثواب ولا أجر؛ لأنه ضيعه بالنميمة.

وكذلك من آفات اللسان: السبُّ والشتم والبذاءة بالقول القبيح، تجد بعض الناس يشتم ويسب ويلعن، ويلغو بلسانه، وهو صائم، أين الصيام إذًا؟! قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ لَمْ يَدَعْ قَوْلَ الزُّورِ، وَالْعَمَلَ بِهِ، فَلَيْسَ للهِ حَاجَةٌ أَنْ يَدَعَ

---

(١) سبق تخريجه (ص١٨١).

(٢) سبق تخريجه (ص١٨١).

(٣) سبق تخريجه (ص١٨١).

طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ»(١)، وقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فَإِذَا كَانَ يَوْمُ صَوْمِ أَحَدِكُمْ، فَلاَ يَرْفُثْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَصْخَبْ، فَإِنْ سَابَّهُ أَحَدٌ أَوْ قَاتَلَهُ، فَلْيَقُلْ: إِنِّي امْرُؤٌ صَائِمٌ**»(٢)، ولا يرد عليه، «**فَإِنْ سَابَّهُ أَحَدٌ**»، يعني: لو اعتدى عليه أحد وتكلم عليه أو سبَّه، فإنه يصمت، الصائم يصمت ولا يرد، وإن كان الرد جائزًا؛ لأنه من باب القصاص، ولكن ما دام أنه صائم، فإنه يصمت، «**فَإِنْ سَابَّهُ أَحَدٌ أَوْ قَاتَلَهُ، فَلْيَقُلْ: إِنِّي امْرُؤٌ صَائِمٌ أَوْ قَاتَلَهُ، فَلْيَقُلْ: إِنِّي امْرُؤٌ صَائِمٌ**»، ولا يرد عليه، فإذا كان الرد لا يجوز للصائم، فكيف بالبداءة بالسب والشتم؟! فليصن الإنسان لسانه، وهذا واجب عليه في كل وقت؛ أنه يصون لسانه، قال الله تعالى: ﴿**إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ**﴾ [ق:١٧، ١٨]، الكلام الذي تقوله يكتبه الحفظة في صحيفتك، ليس بكلام يطير مع الهواء وينتهي ويذهب، تحسبه ذهب، انتهى، لا، حتى ولو أن الناس لم يردوا عليك، ولم يدروا عن كلامك، الذين تكلمت فيهم لم يدروا، الملك يكتبه عليك في صحيفتك، وفي يوم القيامة يؤخذ من حسناتك، وتعطى لهذا الشخص الذي وقعت في عرضه؛ لأن الله جَلَّ وَعَلَا حكمٌ عدل لا يظلم أحدًا، ولا يترك الناس يظلم بعضهم بعضًا، بل ينتصر للمظلوم من الظالم؛ إما في الدنيا، وإما في الآخرة، لابد، لابد من إنصاف المظلوم من الظالم، ومن أعظم الظلم: الكلام القبيح الذي يصدر من الإنسان في حق الناس، في حق الآخرين.

الناس يهون عليهم أنك تأخذ من أموالهم، ولكن لا يهون عليهم أبدًا أنك تتكلم فيهم، المال عندهم أسهل من العرض، أعراضهم أحب عليهم من

---

(١) سبق تخريجه (ص٣٥).
(٢) سبق تخريجه (ص٣٤).

أموالهم، فلا تعتدِ على أعراض المسلمين، تغتاب المسلمين، تنم بين المسلمين، تشتم المسلمين، تسبهم وغير ذلك من آفات اللسان الخطيرة، قال النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ -أَوْ قَالَ: عَلَى مَنَاخِرِهِمْ- إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ؟**»(١).

هذا شيء من آفات اللسان الخطيرة التي يجب على المسلم حفظ لسانه عنها دائمًا وابدًا، وفي حالة الصوم أشد؛ لأنها تؤثر على صيامه، وتذهب بأجره وثوابه.

أما آفات النظر فهي خطيرة، النظر إلى ما حرم الله، هذا محرم دائمًا وأبدًا؛ لقوله تعالى: ﴿**قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ**﴾ [النور:٣٠]، ﴿**يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ**﴾؛ لأن إطلاق النظر إلى ما لا يجوز النظر إليه سهم مسموم، النظر سهم مسموم، السهم خطير، يجرح ويقتل، فما بالك إذا كان مسمومًا؟ شره أشد؛ سهم مسموم من سهام إبليس، أين يذهب هذا السهم؟ يذهب إلى قلب الناظر، فيصيب قلبه.

الشاعر يقول(٢):

كُلُّ الْحَوَادِثِ مَبْدَاهَا مِنْ النَّظَرِ ... وَمُعْظَمُ النَّارِ مِنْ مُسْتَصْغَرِ الشَّرَرِ
كَمْ نَظْرَةٍ فَتَكَتْ فِي قَلْبِ صَاحِبِهَا ... فَتْكَ السِّهَامِ بِلَا قَوْسٍ وَلَا وَتَرِ
وَالْعَبْدُ مَا دَامَ ذَا عَيْنٍ يُقَلِّبُهَا ... فِي أَعْيُنِ الْغِيدِ مَوْقُوفٌ عَلَى خَطَرِ
يَسُرُّ نَاظِرَهُ مَا ضَرَّ خَاطِرَهُ ... لَا مَرْحَبًا بِسُرُورٍ عَادَ بِالضَّرَرِ

فالله جعل لك البصر، وجعل لك النظر نعمة منه؛ لكن لا تستعمله في

(١) سبق تخريجه (ص١٨٣).
(٢) سبق عزوه (ص١٨٤).

الحرام، استعمل النظر فيما أباح الله أو فيما ينفعك؛ النظر في ملكوت السماوات والأرض، والاعتبار بها، والاتعاظ، أما أنك تستعمل نظرك فيما حرم الله عليك، فهذا ممنوع، ويعود ضرره عليك، فلا تنظر إلى ما حرم الله من النساء ونحوهن من أسباب الفتنة، سواء تنظر إلى النساء اللاتي أمامك في الأسواق أو في الشوارع، أو تنظر إلى النساء في شاشات التلفاز؛ النساء اللاتي يظهرن في شاشات التلفاز من خلال البث الفضائي الذي فُتِن به كثير من الناس اليوم، ينظرون إلى النساء الفاتنات اللاتي يعرضن في هذه الشاشات عاريات متكشفات متهتكات على أسوأ منظر، ينظر إليهن واحدة تلو الأخرى من محطة إلى محطة أخرى، وهكذا يتتبع كل ما يعرض في هذه الشاشات من النساء الفاتنات اللاتي جُعِلن فتنة للناس؛ لإفساد الأخلاق وضياع المروءات.

أو كان النظر إلى صور خليعة في الصحف والمجلات وكتب الأدب الرخيص، كتب المجون والقبح، فالنظر خطير جدًا في كل هذه المجالات.

فعلى المسلم أن يغض بصره، وإلا فليعلم أنه يطعن في قلبه، وأنه يقتل نفسه بنظره، كم من أعراض ضاعت بسبب النظر، بسبب النظرات:

نظرةٌ فابتسامةٌ فَسَلامٌ ... فكلامٌ فموعِدٌ فلقاءُ(١)

يقول الشاعر:

كُلُّ الحَوَادِثِ مَبْدَاهَا مِنْ النَّظَرِ

---

(١) البيت لأمير الشعراء أحمد شوقي، ينظر: ديوان أحمد شوقي.

أما إذا غض المسلم بصره، فإنه يسلم على عرضه، ويسلم على دينه، ويسلم على صيامه، أما إذا سرح نظره وبصره، فإن هذا النظر يجلب عليه الشر وفساد الأخلاق، وإن كان صائمًا، فإنه أفسد صيامه بمعنى: أنه لم يبق له فيه ثواب، بل صار لا يقال: إنه يعيد الصيام؛ لأنه صام في الظاهر، لكن ليس له ثواب في صيامه، فهو لم يصم عند الله عَزَّوَجَلَّ، وإن كان صام في الظاهر، لكن صيامه من ناحية دون الناحية الأخرى؛ صيامه إنما هو عن المباحات، لكنه لم يصم عن المحرمات، الصيام عن المحرمات أولى، لا يُتقرب إلى الله بترك المباحات إلا بعد التقرب إليه بترك المحرمات.

أما آفات السمع، الله جَلَّوَعَلَا يقول: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ [الإسراء:٣٦]، السمع -أيضًا- خلقه الله لك نعمة منه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، فاستمع به ما ينفعك، استمع به ما ينفعك، أو ما يباح لك، ولا تستمع ما حرم الله، لاتستمع ما حرم الله من الغيبة والنميمة أو من الأغاني والمزامير، التي أصبحت هي الشغل الشاغل لكثير من الشباب والشابات -بل والشيوخ أيضًا-، فُتِنوا بالأغاني ومتابعة المطربين؛ المطرب فلان، والمطرب فلان، والذي لا يذاع منها يكتب إلى الإذاعة، يطلب أغنية فلان، ويهديها لأبيه، أو لأخيه، أو لقريبه، يتهادون الأغاني -والعياذ بالله-، هذا من التعاون على الإثم والعدوان، بئست الهدية، هدية الأغنية الفلانية، هذا فتنة للأسماع.

والغناء يقولون: الغناء رقية الزنا(١)، ينبت النفاق في القلب، فإذا سمع

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في ذم الملاهي (ص٥٥) قال: حَدَّثَنَا مُحَمَّدٌ، قَالَ: حَدَّثَنَا الحُسَيْنُ، قَالَ: =

أغاني العشق والغرام ووصف الجميلات وصف الخدود والقدود، سهل عليه الوقوع في الفاحشة، وجره ذلك إلى الوقوع في الفاحشة.

فيجب على المسلم أن يصون سمعه عن هذا الغناء الخبيث دائمًا وأبدًا، ولكن في حالة الصيام أشد؛ لأنه إذا استمع، وليس إذا سمع، إذا استمع إلى الأغاني والمزامير، فإنه يرتكب جريمتين، إذا استمع إلى الأغاني والمزامير وهو صائم، فإنه يرتكب جريمتين:

الجريمة الأولى: استماع الحرام، وهذا حرام عليه دائمًا.

الجريمة الثانية: أنه أفسد صيامه، أفسد ثواب الصيام، فأصبح تعبًا بلافائدة.

فإذا صام الإنسان، فليصم لسانه، وليصم بصره، وليصم سمعه عن هذه المحرمات، وإلا فإنه لا يكون صائمًا على الحقيقة، فعلى المسلم أن يتنبه لذلك، وأن يكون على حذر من هذه الأمور في كل لحظاته وكل حياته، ولا سيما إذا كان صائمًا.

إذا لَمْ يَكُنْ فِي السَّمْعِ مِنِّي تَصاوُنٌ ... وَفِي بَصَري غَضٌّ وَفِي مَنْطِقِي صَمْتُ
فَحَظِّي إذًا مِنْ صَوْمِيَ الجوعُ وَالظَّما ... فَإنْ قُلْتُ إنِّي صُمْتُ يَوْمِي فَما صُمْتُ[1]

= حَدَّثَنَا عَبْدُ اللهِ، قَالَ: وَحَدَّثَنِي الحُسَيْنُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ] قَالَ: قَالَ فُضَيْلُ بْنُ عِيَاضٍ: «الْغِنَاءُ رُقْيَةُ الزِّنَا».

(١) البيتان ذكرهما ابن رجب دون نسبة في لطائف المعارف (ص٢٩٢).

فعلينا أن نتوب إلى الله عَزَّوَجَلَّ جميعًا، ولا أحد يزكي نفسه، أو يمدح نفسه؛ قد يسلم من شيء، ويقع في شيء آخر، كلنا «**خَطَّاءٌ، وَخَيْرُ الْخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ**»(١).

فعلينا أن نحذر من هذه الأمور، وأن نصون صيامنا عما يفسده ويبطل ثوابه، وأن نتقي الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ في كل ما أمرنا به ونهانا عنه؛ حتى نكون من عباد الله المتقين الذين ينفعهم صومهم، وتنفعهم أعمالهم، ويسلم لهم دينهم.

نسأل الله عَزَّوَجَلَّ أن يوفقنا وإياكم لصالح القول والعمل، وأن يوفقنا وإياكم للعلم النافع والعمل الصالح والفقه في دينه.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

---

(١) أخرجه أحمد (٢٠/ ٣٤٤)، والترمذي (٢٤٩٩)، وابن ماجه (٤٢٥١)، من حديث أنس رَضِيَالِلَّهُعَنْهُ.

مَنْ لَمْ يَدَعْ قَوْلَ الزُّورِ وَالْعَمَلَ بِهِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على عبده ورسوله نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين، أما بعد:

فقد جاء في الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «**مَنْ لَمْ يَدَعْ قَوْلَ الزُّورِ وَالْعَمَلَ بِهِ، وَالْجَهْلَ، فَلَيْسَ للهِ حَاجَةٌ أَنْ يَدَعَ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ**»(١).

هذا الحديث فيه أن الصيام ليس مجرد ترك الأكل والشرب والمفطرات الظاهرة، وإنما هو كذلك ترك ما حرم الله عَزَّوَجَلَّ، فهناك أشياء محرمة دائمًا، ولكنها في حق الصائم أشد، من ذلك ما جاء في هذا الحديث: «**مَنْ لَمْ يَدَعْ**»، يعني: يترك، الصائم الذي لا يترك «**قَوْلَ الزُّورِ**»، والزور: هو الكذب؛ الكذب في الحديث والأخبار، والكذب في الشهادة، والكذب في المعاملات، يدع الكذب كله، وأشد الكذب: الكذب على الله، والكذب على رسول الله ﷺ، قال الله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الزمر:٣٢]، وقال ﷺ: «**إِنَّ كَذِبًا عَلَيَّ لَيْسَ كَكَذِبٍ عَلَى أَحَدٍ، مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا، فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ**»(٢)، فالكذب بجميع أنواعه محرم، كبيرة من كبائر الذنوب؛ الله جَلَّ وَعَلَا يقول: ﴿فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [آل عمران:٦١].

---

(١) سبق تخريجه (ص٣٥).

(٢) أخرجه البخاري (١٢٩١)، ومسلم (٩٣٣)، من حديث المغيرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

والكذب من علامات المنافقين، والمؤمن لا يكون إلا صادقًا في أقواله وفي أفعاله وفي جميع تصرفاته، قال الله جَلَّوَعَلَا: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴾ [التوبة:١١٩]، فالكذب حرام، وكبيرة من كبائر الذنوب دائمًا وأبدًا، وفي حق الصائم أشد؛ لأن الصائم في عبادة، وهو ترك ما أباح الله له من الأكل والشرب ونحوه مما أباح الله، فكيف لا يترك الكذب الذي هو محرم دائمًا وأبدًا؟!

فالذي لا يترك الكذب وهو صائم هذا ليس له أجر، لا يكفي أنه يترك الطعام والشراب، ويستبيح الكذب، فإن فعل ذلك، فإنه لا يكون صائمًا الصوم الذي شرعه الله عَزَّوَجَلَّ.

«**مَنْ لَمْ يَدَعْ قَوْلَ الزُّورِ، وَالْعَمَلَ بِهِ**»، العمل بالكذب؛ فلا يقول الكذب، ولا يعمل بالكذب، وإنما يعمل بالصدق، ويتعامل بالصدق مع الله جَلَّوَعَلَا، ومع الناس، أما إذا كان يعمل بالكذب وهو صائم، فهذا دليل على أنه لم يصم الصوم الذي شرعه الله، وإنما صام عن شيء، وترك شيئًا، صام عما أحل الله، ولم يصم عما حرم الله، هذا لا ينفعه صيامه.

«**وَالْجَهْلَ**»، الجهل هنا المراد به: عدم العقل والحلم؛ بألا يتعقل في أموره، ولا يحلم على من ظلمه، بل يتعدى على الناس بغير حق، هذا جهل.

الجهل على قسمين:

* الجهل الذي هو عدم العلم، هذا قسم.

* والجهل الذي هو عدم العقل والحلم، هذا قسم آخر؛ قال الشاعر(١):

أَلَا لَا يَجْهَلَنْ أَحَدٌ عَلَيْنَا … فَنَجْهَلَ فَوْقَ جَهْلِ الْجَاهِلِينَا

ليس المراد هنا: عدم العلم، المراد الجهل الذي يتنافى مع العقل ومع الحلم ومع الآداب الشرعية، والله جَلَّ وَعَلَا يقول: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾ [النساء:١٧]، ﴿بِجَهَٰلَةٍ﴾، ليس بجهالة يعني: عدم العلم؛ لأن الجاهل لا يؤاخذ، ولكن المراد هنا: الجهل الذي هو عدم الحلم؛ يأتي الذنوب عن طيش وحمق واتباع للشهوة، مع أنه يعلم أنها حرام، لكن حمله الجهل الذي هو الطيش وعدم التعقل، حمله ذلك على فعل المعاصي، فإذا تاب، تاب الله عليه، ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾ [النساء:١٧].

قال بعض المفسرين: كل من عصى الله، فهو جاهل، يعني: يجهل حق الله جَلَّ وَعَلَا وعظمة الله، فينتهك ما حرم الله جهلًا منه وحمقًا، وعدم تعقل وعدم تفكير في العواقب، الذي لا يفكر في العواقب، وإنما ينظر إلى الشيء الحاضر فقط هذا في الحقيقة جاهل أشد من الجهل الذي هو عدم العلم.

فمن لم يدع الجهل وهو صائم، يعني: يكون أحمق، يكون طائشًا، يكون غير منضبط بالآداب الشرعية، من لم يدع هذا، فإنه لا يكون صائمًا الصيام الذي شرعه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولا يكون له في صيامه ذلك أجرٌ، وإنما يكون مجرد تعب عليه، ولهذا قال الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فَلَيْسَ للهِ حَاجَةٌ أَنْ يَدَعَ طَعَامَهُ**

---

(١) البيت للشاعر الجاهلي عمرو بن كلثوم من معلقته. انظر: جمهرة أشعار العرب (ص٨٧، ٣٠٠)، وعيون الأخبار (٢/ ٢١٠)، والعقد الفريد (٥/ ٣٤٤).

وَشَرَابَهُ»، أي: أن الله جَلَّوَعَلَا لم يأمره بهذا الصيام الذي هو ترك الطعام والشراب والمفطرات الحسية، مع أنه لا يترك الآثام، ولا يترك المعاصي، ولا يترك الكلام المحرم والكذب والغيبة والنميمة، كل هذا من قول الزور.

«فَلَيْسَ للهِ حَاجَةٌ»، ليس لله قصدٌ بهذا الصيام الذي هذه صفته، وإنما الصوم الذي أراده الله والذي أمر الله به هو الصيام الذي يكف صاحبه عن كل ما حرم الله عليه في الصيام، وكل ما حرم الله عليه في غير الصيام.

هذا هو الصائم الذي إذا صام، صام سمعه عن استماع الحرام، وصام بصره عن النظر الحرام، وصام لسانه عن الكلام المحرم، هذا هو الصائم حقيقة، الذي إذا صام بطنه عن الأكل والشرب، صامت جوارحه عن الحرام وعن الآثام، هذا هو الصائم حقيقة.

وفي الحديث الآخر: أن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: «مَنْ نَسِيَ وَهُوَ صَائِمٌ فَأَكَلَ أَوْ شَرِبَ، فَلْيُتِمَّ صَوْمَهُ، فَإِنَّمَا أَطْعَمَهُ اللهُ وَسَقَاهُ»(١)، الصائم إذا نسي فأكل، أو نسي فشرب، فإن صيامه لا يتأثر، صيامه صحيح؛ لأنه ناسٍ، والله جَلَّوَعَلَا يقول: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة:٢٨٦]، قَالَ اللهُ تعالى: قَدْ فَعَلْتُ(٢).

---

(١) أخرجه البخاري (١٩٣٣)، ومسلم (١١٥٥)، من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

(٢) كما في الحديث الذي أخرجه مسلم (١٢٦)، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، قَالَ: «لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾ [البقرة:٢٨٤]، قَالَ: دَخَلَ قُلُوبَهُمْ مِنْهَا شَيْءٌ لَمْ يَدْخُلْ قُلُوبَهُمْ مِنْ شَيْءٍ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: قُولُوا: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَسَلَّمْنَا. قَالَ: فَأَلْقَى اللهُ الْإِيمَانَ فِي قُلُوبِهِمْ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة:٢٨٦]، قَالَ: قَدْ فَعَلْتُ، ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾ [البقرة:٢٨٦]، قَالَ: قَدْ فَعَلْتُ، ﴿وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا﴾ [البقرة:٢٨٦]، قَالَ: قَدْ فَعَلْتُ».

وفي الحديث: «إِنَّ اللهَ وَضَعَ عَنْ أُمَّتِي الْخَطَأَ، وَالنِّسْيَانَ، وَمَا اسْتُكْرِهُوا عَلَيْهِ»(١)، فالناسي لا يؤاخذ، فإذا نسي وهو صائم فأكل أو شرب، ثم لما تذكر، أو ذُكِّر أنه صائم، ترك الطعام والشراب، فما مضى منه وقت النسيان، فإنه لايؤثر على صيامه، وصيامه صحيح، وهذا من رحمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ولطفه بعباده؛ لأنه يكثر النسيان من البشر، فلا يؤاخذهم الله به؛ لأنهم لم يتعمدوه، ولم يقصدوه، وإنما فعلوه عن نسيان وذهول، فهؤلاء لايؤاخذهم الله، وصيامهم باق وصحيح.

«فَلْيُتِمَّ صَوْمَهُ»، فليتم صومه؛ لأنه صحيح، ولم ينقطع؛ لأن نيته باقية، وإنما خالف مخالفة غير مقصودة، فهذا لا يؤاخذ.

«فَإِنَّمَا أَطْعَمَهُ اللهُ وَسَقَاهُ»، صيامه صحيح، ويبقى عليه، وأيضًا هذا الذي أكله أو شربه قد سامحه الله فيه، ينتفع به جسمه من الجوع ومن العطش؛ فهو طعمة من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

فدل هذا الحديث على أن من أكل أو شرب متعمدًا غير ناسٍ أن صيامه باطل؛ لقوله تعالى: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ﴾ [البقرة:١٨٧]، فمن تعمد وهو صائم، فأكل أو شرب -ولو قليلًا- مع التعمد، فإنه يبطل صيامه، هذا مدلول الحديث؛ لأن الحديث إنما ذكر أن الله تسامح عن الناسي في الأكل والشرب، فدل بمفهومه على أن من تعمد الأكل أو تعمد الشرب أنه يبطل صيامه، وعليه القضاء، عليه

(١) أخرجه ابن ماجه (٢٠٤٥)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

أن يمسك بقية يومه، وعليه الإثم العظيم والتوبة إلى الله، ويمسك بقية يومه، ويقضيه من أيام أُخر.

وفي الحديث الآخر: أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**مَنْ ذَرَعَهُ القَيْءُ، فَلَيْسَ عَلَيْهِ قَضَاءٌ، وَمَنْ اسْتَقَاءَ عَمْدًا فَلْيَقْضِ**»(١)، تنبهوا لهذا! هذا في موضوع القيء، وهو الاستفراغ، استفراغ ما في المعدة عن طريق الفم، هذا هو القيء، استفراغ ما في المعدة من الطعام والشراب عن طريق الفم، هذا إذا كان متعمدًا؛ هو الذي تسبب في الاستقاءة، حتى خرج شيءٌ مما في معدته، فهذا يفطر، عليه القضاء؛ لأن صومه بطل؛ لأنه استخرج ما في جوفه وما في معدته متعمدًا، فهذا يفسد صومه، وعليه القضاء، أما «**مَنْ ذَرَعَهُ الْقَيْءُ**»، ذَرَعه، يعني: غلبه بدون اختياره، إنسان أصابه مرض، أو أصابه شيء استدعى أنه يتقيأ من غير اختياره، وقاء، فهذا صومه صحيح، وليس عليه قضاء؛ لأن هذا بغير اختياره، وهذا من رحمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، والله جَلَّ وَعَلَا يقول: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الأحزاب:٥]، فلا يؤاخذ الإنسان إلا بما تعمده من تناول المفطرات، هذا يبطل صومه، وعليه القضاء مع التوبة إلى الله عَزَّوَجَلَّ، أما من حدث منه شيء من ذلك بغير اختياره، فهذا لا يؤاخذه الله، وصيامه صحيح.

هذا ونسال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لنا ولكم أن يجعلنا من الصائمين المحتسبين للأجر والثواب، الذين يحافظون على صيامهم من المفسدات ومن المنقصات،

---

(١) أخرجه أحمد (١٦/ ٢٨٣- ٢٨٤)، وأبو داود (٢٣٨٠)، والترمذي (٧٢٠)، وابن ماجه (١٦٧٦)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ويحافظون على جميع أعمالهم من المبطلات والمفسدات والمنقصات، وأن يعيننا وإياكم على طاعته، وعلى شكره وذكره وحسن عبادته.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

نوافل الصيام

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين:

يكون موضوع الحديث في هذه الجلسة تواصلًا مع الحديث السابق عن النوافل، وقد تكلمنا عن نوافل الصلاة، نتكلم الآن عن نوافل الصوم.

فكما أن الصوم فريضة، فإنه -أيضًا- يكون نافلة، فهناك أنواع من الصوم النفل جاءت في الأحاديث عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، من ذلك:

أولًا: صيام ستة أيام من شوال بعد صوم رمضان؛ قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«مَنْ صَامَ رَمَضَانَ، وَأَتْبَعَهُ سِتًّا مِنْ شَوَّالٍ، فَكَأَنَّمَا صَامَ الدَّهْرَ»**(١)، يعني: صام السنة؛ لأن الحسنة بعشر أمثالها، وشهر رمضان عن عشرة أشهر، ستة أيام عن شهرين، فهذه اثنا عشر شهرًا هي السنة، فمن صام رمضان، وأتبعه ستًّا من شوال، فكأنما صام السنة كلها في الأجر والثواب؛ لأن الحسنة بعشر أمثالها.

فيستحب صيام ستة أيام من شوال بعد صيام رمضان، سواء صامها في أول الشهر ابتداء من ثاني يوم العيد، أو صامها في وسط الشهر، أو صامها في آخر الشهر، سواء صامها متتابعة أو صامها متفرقة؛ لأن الحديث فيه الإطلاق؛ صيام الستة من شوال، المهم أنها تكون من شهر شوال.

---

(١) سبق تخريجه (ص١١٩).

وهناك صوم يوم الاثنين من كل أسبوع، صوم يوم الخميس من كل أسبوع؛ لأنهما يومان تُعرض فيهما الأعمال على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فتُعرض أعمال المسلم وهو صائم هذا أفضل؛ كما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[(١)].

وهناك صوم ثلاثة أيام من كل شهر؛ لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أوصى أبا هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن يصوم ثلاثة أيام من كل شهر[(٢)]؛ لما سبق لأن الحسنة بعشر أمثالها، فإذا صام ثلاثة أيام، كل يوم عن عشرة أيام، فهذه ثلاثون يومًا، هي أيام الشهر، هي ثلاثة أيام في الصيام، وثلاثون يومًا بالمضاعفة من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ لأن الحسنة بعشر أمثالها، سواء صامها في أول الشهر، أو في وسطه، أو في آخره، لكن لو جعلها في أيام البيض التي هي الثالث عشر، والرابع عشر، والخامس عشر من الشهر يكون هذا أفضل، سُمِّيت أيام البيض لابيضاض لياليها بالقمر؛ لأنها تكون لياليها مقمرة وقت الإبدار.

وهناك صوم يوم عاشوراء، وهو اليوم العاشر من شهر محرم، فيصوم يومًا قبله، أو يومًا بعده؛ مخالفة لليهود؛ لأن هذا اليوم هو اليوم الذي نجَّى الله فيه موسى

---

(١) كما في الحديث الذي أخرجه أحمد (٣٦/ ٨٥- ٨٦)، وأبو داود (٢٤٣٦)، والنسائي في المجتبى (٢٣٥٨)، عن أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: «قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّكَ تَصُومُ حَتَّى لَا تَكَادَ تُفْطِرُ، وَتُفْطِرُ حَتَّى لَا تَكَادَ أَنْ تَصُومَ، إِلَّا يَوْمَيْنِ إِنْ دَخَلَا فِي صِيَامِكَ وَإِلَّا صُمْتَهُمَا، قَالَ: **أَيُّ يَوْمَيْنِ؟** قُلْتُ: يَوْمَ الِاثْنَيْنِ وَيَوْمَ الْخَمِيسِ، قَالَ: **ذَانِكَ يَوْمَانِ تُعْرَضُ فِيهِمَا الْأَعْمَالُ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ، فَأُحِبُّ أَنْ يُعْرَضَ عَمَلِي وَأَنَا صَائِمٌ**».

(٢) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (١١٧٨)، ومسلم (٧٢١)، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «أَوْصَانِي خَلِيلِي بِثَلَاثٍ لَا أَدَعُهُنَّ حَتَّى أَمُوتَ؛ صَوْمِ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ، وَصَلَاةِ الضُّحَى، وَنَوْمٍ عَلَى وِتْرٍ».

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقومه، وأغرق فيه فرعون وقومه، فصامه موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ شكرًا لله عَزَّ وَجَلَّ، وكانت اليهود تصومه، فلما هاجر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى المدينة، واليهود في المدينة يصومون يوم عاشوراء، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فَنَحْنُ أَحَقُّ وَأَوْلَى بِمُوسَى مِنْكُم**. فَصَامَهُ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَأَمَرَ بِصِيَامِهِ»[١]، ثم إنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمر بمخالفة اليهود؛ بأن يصام يوم قبله أو يوم بعده؛ لأجل مخالفة اليهود[٢]، وهو مستحب؛ جاء أن الله يكفر بصومه السنة الماضية، هذا فضلٌ عظيم، وأما صوم يوم عرفة، فيكفر الله به السنة الماضية والسنة المستقبلة[٣]، وفي رواية: صوم يوم عاشوراء كذلك، فهو فضل عظيم، وفيه اقتداء بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٠٠٤)، ومسلم (١١٣٠)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) كما في الحديث الذي أخرجه مسلم (١١٣٤)، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: «حِينَ صَامَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ عَاشُورَاءَ، وَأَمَرَ بِصِيَامِهِ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّهُ يَوْمٌ تُعَظِّمُهُ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **فَإِذَا كَانَ الْعَامُ الْمُقْبِلُ إِنْ شَاءَ اللهُ صُمْنَا الْيَوْمَ التَّاسِعَ**. قَالَ: فَلَمْ يَأْتِ الْعَامُ الْمُقْبِلُ، حَتَّى تُوُفِّيَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ».

(٣) كما في الحديث الذي أخرجه مسلم (١١٦٢)، عَنْ أَبِي قَتَادَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «رَجُلٌ أَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: كَيْفَ تَصُومُ؟ فَغَضِبَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَلَمَّا رَأَى عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ غَضَبَهُ، قَالَ: رَضِينَا بِاللهِ رَبًّا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ نَبِيًّا، نَعُوذُ بِاللهِ مِنْ غَضَبِ اللهِ وَغَضَبِ رَسُولِهِ، فَجَعَلَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يُرَدِّدُ هَذَا الْكَلَامَ حَتَّى سَكَنَ غَضَبُهُ، فَقَالَ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللهِ، كَيْفَ بِمَنْ يَصُومُ الدَّهْرَ كُلَّهُ؟ قَالَ: **لَا صَامَ وَلَا أَفْطَرَ** -أَوْ قَالَ- **لَمْ يَصُمْ وَلَمْ يُفْطِرْ**. قَالَ: كَيْفَ مَنْ يَصُومُ يَوْمَيْنِ وَيُفْطِرُ يَوْمًا؟ قَالَ: **وَيُطِيقُ ذَلِكَ أَحَدٌ**؟! قَالَ: كَيْفَ مَنْ يَصُومُ يَوْمًا وَيُفْطِرُ يَوْمًا؟ قَالَ: **ذَاكَ صَوْمُ دَاوُدَ** عَلَيْهِ السَّلَامُ. قَالَ: كَيْفَ مَنْ يَصُومُ يَوْمًا وَيُفْطِرُ يَوْمَيْنِ؟ قَالَ: **وَدِدْتُ أَنِّي طُوِّقْتُ ذَلِكَ**. ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **ثَلَاثٌ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ، وَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ، فَهَذَا صِيَامُ الدَّهْرِ كُلِّهِ، صِيَامُ يَوْمِ عَرَفَةَ، أَحْتَسِبُ عَلَى اللهِ أَنْ يُكَفِّرَ السَّنَةَ الَّتِي قَبْلَهُ، وَالسَّنَةَ الَّتِي بَعْدَهُ، وَصِيَامُ يَوْمِ عَاشُورَاءَ، أَحْتَسِبُ عَلَى اللهِ أَنْ يُكَفِّرَ السَّنَةَ الَّتِي قَبْلَهُ**».

وهناك من يريد المزيد، يصوم شهر محرم كله؛ لحديث: «**أَفْضَلُ الصِّيَامِ بَعْدَ رَمَضَانَ شَهْرُ اللهِ الْمُحَرَّمُ**»(١)، فإذا صام كل شهر محرم، فهذا زيادة خير، زيادة أجر.

وهناك صوم يوم عرفة لغير الحاج، صوم يوم عرفة وهو اليوم التاسع من ذي الحجة، يكفر الله به السنة الماضية والسنة المستقبلة.

أما الحاج فينبغي أن يكون مفطرًا؛ لأجل أن يتقوى على الوقوف والدعاء، واقتداء بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فإنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقف يوم عرفة مفطرًا؛ لأجل أن يتقوى على الوقوف والدعاء في هذا اليوم العظيم، أما غير الحاج فيستحب له أن يصوم يوم عرفة.

وإذا أراد المزيد من الصيام فإنه يصوم يومًا ويفطر يومًا، وهو صيام داود عَلَيْهِ السَّلَامُ، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَفْضَلَ الصِّيَامِ عِنْدَ اللهِ، صَوْمَ دَاوُدَ** عَلَيْهِ السَّلَامُ، **كَانَ يَصُومُ يَوْمًا وَيُفْطِرُ يَوْمًا**»(٢).

فهذه جملة الأيام التي يصومها المسلم تطوعًا لله عَزَّ وَجَلَّ وفي صومها خيرٌ كثير، وأجر عظيم، أما أن يصوم الإنسان دائمًا ولا يفطر أبدًا، فهذا منهي عنه، لابد أن يفطر، وكان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يصوم حتى يقال: لا يفطر، وكان يفطر حتى يقال: لا يصوم، بمعنى: أنه يصوم صيامًا كثيرًا، ويفطر إفطارًا كثيرًا، فيكون متعادلًا صومه وإفطاره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أما أن يصوم كل حياته ولا يفطر أبدًا،

---

(١) أخرجه البخاري مسلم (١١٦٣)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) سبق تخريجه (ص٢٨٢).

فهذا نهى عنه الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: «**لَا صَامَ مَنْ صَامَ الْأَبَدَ**»[(١)]، ولما قال رجلٌ من الصحابة: أنا أصوم ولا أفطر؛ اجتهادًا منه ومحبة للخير، قال: أنا أصوم ولا أفطر، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي**»[(٢)].

وهناك أيام يحرم صومها، فيحرم صوم يومي العيدين -عيد الفطر، وعيد الأضحى-، يحرم الصوم فيهما[(٣)]؛ لأنهما عيدان للمسلمين، فيكون المسلم مفطرًا في هذين اليومين.

وكذلك أيام التشريق، وهي أيام منى الثلاثة: الحادي عشر، والثاني عشر، والثالث عشر من ذي الحجة، فيحرم صيام أيام التشريق؛ لأنها «**أَيَّامُ أَكْلٍ وَشُرْبٍ، وَذِكْرِ اللهِ** عَزَّوَجَلَّ»[(٤)]، إلا من كان عليه هدي تمتع أو قران ولم يقدر على ذبح الهدي؛ فإنه يصوم أيام التشريق؛ ليوافق ثلاثة أيام في الحج؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ ۚ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ [البقرة:١٩٦]، فإن صام الثلاثة قبل يوم عرفة، هذا

---

(١) أخرجه البخاري (١٩٧٧)، ومسلم (١١٥٩)، من حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه البخاري (٥٠٦٣)، ومسلم (١٤٠١)، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (١٩٩٠)، ومسلم (١١٣٧)، عَنْ أَبِي عُبَيْدٍ، مَوْلَى ابْنِ أَزْهَرَ، قَالَ: «شَهِدْتُ العِيدَ مَعَ عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَقَالَ: هَذَانِ يَوْمَانِ نَهَى رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ صِيَامِهِمَا: يَوْمُ فِطْرِكُمْ مِنْ صِيَامِكُمْ، وَاليَوْمُ الآخَرُ تَأْكُلُونَ فِيهِ مِنْ نُسُكِكُمْ».
وكما في الحديث الذي أخرجه مسلم (١١٣٨)، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَهَى عَنْ صِيَامِ يَوْمَيْنِ يَوْمِ الْأَضْحَى، وَيَوْمِ الْفِطْرِ».

(٤) أخرجه مسلم (١١٤١)، وأبو داود -واللفظ له- (٢٨١٣)، والنسائي في الكبرى (٤/ ٢٢٢)، من حديث نُبَيْشَةَ الْهُذَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

أفضل، وإلا فإنه يصوم أيام التشريق عن دم المتعة والقران؛ لحديث: «**لَمْ يُرَخَّصْ فِي أَيَّامِ التَّشْرِيقِ أَنْ يُصَمْنَ إِلَّا لِمَنْ لَمْ يَجِدْ الْهَدْيَ**»(١).

هذه هي الأيام التي يحرم صومها.

وهناك صيام مكروه، وهو إفراد رجب بصيام دون غيره، الذين يخصون شهر رجب بصيام دون غيره، أو بقيام ليل دون غيره هذا بدعة؛ لأن شهر رجب لم يثبت فيه خاصية على غيره من الشهور، إلا أنه شهر حرام، يحرم فيه القتال، فهو من الأشهر الحرم، أما تخصيصه بصيام، أو تخصيصه بقيام ليل، فهذا مكروه، إلا لمن كان من عادته أن يصوم في غير رجب، فإنه يصوم عادته في رجب كغيره كالاثنين والخميس، وثلاثة الأيام من الشهر، هذه يصومها، إذا كان مداومًا عليها، فإنه يصومها من رجب كغيره، أما أن يخصص رجبًا بصيام، فهذا بدعة، أو يخصص رجبًا بذبيحة، هذا بدعة، وهذا من عمل الجاهلية، أو يخصصه بقيام بالليل خاصة، فهذا بدعة؛ لأنه لم يثبت تخصيص شهر رجب ولا تخصيص شيء منه بصيام أو قيام، وقول بعضهم: إنه يستحب فيه العمرة، أو يستحب فيه صيام، أو يستحب فيه قيام ليل. كل هذا لا أصل له، ولم يثبت فيه شيء، فهو كغيره من الشهور.

من كان عادته أنه يقوم الليل، فليقمه في رجب وغيره، من كان من عادته يصوم الأيام المستحب صيامها، فإنه يصوم في رجب وفي غيره، إنما الممنوع هو تخصيص رجب بشيء دون غيره من الشهور، هذا تخصيص بدون دليل، فيكره

---

(١) أخرجه البخاري (١٩٩٧)، عَنْ عَائِشَةَ، وَعَنْ سَالِمٍ، عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُم.

إفراد شهر رجب بالصيام، وذكر بعضهم أنه يكره إفراد، بل جاء في الحديث الصحيح أنه يكره إفراد يوم الجمعة بصيام، يعني: صيام تطوع، بل يصوم يومًا قبله أو بعده(١)، ولا يخص يوم الجمعة وحده بصيام.

وورد -أيضًا- كراهية تخصيص يوم السبت، ولكن هذا لم يثبت، تخصيص يوم السبت لم يثبت في كراهيته شيء، خلاف الجمعة؛ فإنه يكره، ثبت أنه لا يفردها بالصوم.

فهذه جملٌ من صيام التطوع، والأيام التي يحرم صيامها، والأيام التي يكره صيامها، وعلى المسلم أن يحرص على أن يشارك في هذا الصيام التطوع؛ زيادة في أجره وحسناته، واقتداء بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فلا يقتصر على صيام رمضان فقط، صيام رمضان نعم هو الفرض، ولكن التزود من الصيام التطوعي هذا خيرٌ إلى خير، والله تعالى أعلم.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

---

(١) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (١٩٨٥)، ومسلم (١١٤٤)، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَا يَصُمْ أَحَدُكُمْ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، إِلَّا أَنْ يَصُومَ قَبْلَهُ، أَوْ يَصُومَ بَعْدَهُ**».

أحكام تلاوة القرآن

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهداه وسار على نهجه، وتمسك بسنته إلى يوم الدين، أما بعد:

فلا يزال الحديث موصولًا عن القرآن الكريم، وفي هذه الليلة يكون حديثنا -إن شاء الله- متممًا لما سبق في الليالي السابقة عن تلاوة القرآن وأحكامها؛ لأن هذه ناحية مهمة جدًّا.

تلاوة القرآن، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لنبيه: ﴿ اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ ﴾ [العنكبوت:٤٥]، وقال تعالى: ﴿ وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ ﴾ [الكهف:٢٧].

وأثنى على الذين يتلون كتاب الله، ووعدهم بالأجر والثواب، قال تعالى: ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ [البقرة:١٢١]، قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ (٢٩) لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ [فاطر:٢٩، ٣٠].

والتلاوة لها معنيان:

المعنى الأول: الاتباع، يتلوه، يعني: يتبعه.

والمعنى الثاني: يقرؤه، التلاوة: القراءة؛ لأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أنزل هذا القرآن

ليُقرأ ويُعمل به، لم ينزله ليُجعل في كتب ومصاحف ويُحفظ في الرفوف أو في الدواليب، وإنما يُتلى ليلًا ونهارًا، في كل الأحوال المتيسرة يتلوه المسلم.

وقد كان الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يحزبون القرآن، يحزبونه على الليالي لقيام الليل؛ فمنهم من يقرؤه في ثلاث ليال، ومنهم من يقرؤه في سبع ليال، ومنهم من يقرؤه في عشر ليال[١]، وآخر حد لتحزيب القرآن في ثلاثين يومًا؛ كل يوم يقرأ جزءًا من القرآن، لا يمر عليه اليوم والليلة إلا وقد قرأ جزءًا من القرآن، هذا آخر حد، وإذا قرأ أكثر من ذلك، فهو أفضل؛ في عشر، في ثلاث، في سبع، هذا أفضل، لكن إذا مر عليه شهر ولم يختم القرآن، فهذا جفاء، وهجر للقرآن.

هجر القرآن أنواع: منها هجر التلاوة، ومنها هجر العمل بالقرآن، قال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴾ [الفرقان: ٣٠]، هجروا تلاوته، وهجروا العمل به وتدبره، هذا هو الهجر.

الهجر معناه: الترك، فمن ترك القرآن لا يتلوه، ولا يتدبره، ولا يعمل به، هذا هو الهجر، وهو يتفاوت -والعياذ بالله-، يتفاوت بعضه أشد من بعض.

وقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«مَنْ قَرَأَ حَرْفًا مِنْ كِتَابِ اللهِ فَلَهُ بِهِ حَسَنَةٌ، وَالحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا، لَا أَقُولُ: ﴿ الٓمٓ ﴾ حَرْفٌ، وَلَكِنْ أَلِفٌ حَرْفٌ وَلَامٌ حَرْفٌ وَمِيمٌ حَرْفٌ»**[٢].

---

(١) كما في الحديث الذي أخرجه أحمد (٢٦/ ٨٨)، وأبو داود (١٣٩٣)، وابن ماجه (١٣٤٥)، وفيه: «قَالَ أَوْسٌ: فَسَأَلْتُ أَصْحَابَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَيْفَ تُحَزِّبُونَ الْقُرْآنَ؟ قَالُوا: ثَلَاثٌ وَخَمْسٌ وَسَبْعٌ وَتِسْعٌ وَإِحْدَى عَشْرَةَ وَثَلَاثَ عَشْرَةَ وَحِزْبُ الْمُفَصَّلِ».

(٢) سبق تخريجه (ص٢٦٢).

فكل حرف من القرآن بتلاوته حسنة، وكل حسنة بعشر أمثالها يضاعفها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فمن قرأ القرآن كم يحصل من الحسنات؟ بعدد حروف القرآن، كل حرف حسنة وكل حسنة بعشر أمثالها، لكن هذا مع الاحتساب وطلب الثواب من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولا يوفق لهذا إلا أهل الإيمان والتصديق بالقرآن، هم الذين يعتنون بتلاوة القرآن، ويداومون على ذلك، هم أهل الإيمان.

وإنما يعرض عن القرآن؛ إما الكفار، وإما أهل النفاق -المنافقون-، وإما ضعاف الإيمان، عندهم إيمان، لكن إيمانهم ضعيف.

فتلاوة القرآن والإكثار من ذلك قد أمر الله تعالى بها نبيه، وأثنى على عباده المؤمنين بتلاوتهم للقرآن، ووعدهم بالأجر.

وتلاوة القرآن لها آداب، ذكرها العلماء من الكتاب والسنة، فمن آدابها:

- الاستعاذة بالله عند بدء قراءة القرآن؛ قال الله تعالى: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾ [النحل:٩٨]، فإذا أراد أن يقرأ، لا يقرأ من فوره، بل لابد أن يستعيذ أولًا من الشيطان الرجيم؛ لأن الشيطان -لعنه الله- يحضر عند المسلم إذا أراد أن يقرأ القرآن، أو أن يعمل أي عمل من العبادات، يحضر ليصرفه عن ذلك، وليشغله عن ذلك؛ إن استطاع أن يصرفه نهائيًّا صرفه، ومنعه من القراءة، أو من الصلاة، أو من أي عبادة، وإن لم يستطع صرفه عن ذلك، فإنه يدخل عليه في أثناء العبادة، ويوسوس له، ويشغله بالهواجس والأفكار؛ حتى لا يُقبل على العبادة، يؤديها صوريًّا، ولا يؤديها حقيقة، ولذلك شرع الله الاستعاذة من الشيطان عند تلاوة القرآن.

﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ﴾، يعني: إذا أردت تلاوة القرآن، ليس إذا فرغت من القرآن، لا، إذا أردت الشروع في القراءة؛ مثل قوله تعالى: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُوا۟ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ ﴾ [المائدة:٦]، الآية، ليس معناها: أنك إذا صليت، تتوضأ، بل معناها: إنك إذا أردت الصلاة تتوضأ، تتطهر، كذلك هنا في قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ﴾، يعني: أردت قراءته، فاستعذ بالله، الاستعاذة بالله: هي اللجوء إلى الله، والاعتصام به من عدوك؛ فإن الله هو الذي يعيذك ويحميك من عدوك، فأنت تطلب من الله أن يعيذك من هذا العدو الذي يلاحقك دائمًا وأبدًا؛ ليغويك وليحرمك من العبادة وثوابها، هو يلاحقك دائمًا، فإذا استعذت بالله منه، فإن الله يعيذك، بمعنى: أنه يحفظك ويحميك ويطرد الشيطان عنك.

﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ﴾: الجأ إليه، واعتصم به.

﴿مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾: الشيطان هو إبليس وجنوده، إبليس وجنوده هو الشيطان المارد من الجن، المارد من الجن ورأس الشياطين إبليس -لعنه الله-، وله أتباع وله أعوان يساعدون على إغواء بني آدم، شياطين، ﴿شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام:١١٢]، يكون الشيطان من الجن، ويكون الشيطان من الإنس، ويكون الشيطان من الدواب إلى غير ذلك، فالشيطان هو المتمرد، وشطن: بعد، سُمِّي شيطانًا لبعده عن رحمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، أو من الشيط، وهو الشدة والغليان، هذا هو الشيطان[1]،

---

(١) انظر مادة (شطن) في: العين (٦/ ٢٣٦)، وتهذيب اللغة (١١/ ٢١٣)، والصحاح (٥/ ٢١٤٤)، ومقاييس اللغة (٣/ ١٨٣).
=

وهو عدوك، عدو أبيك من قبل، وهو عدو بني آدم إلى أن تقوم الساعة، وقد تعهد بإضلال بني آدم وصرفهم عن طاعة الله، إلا من عصم الله منهم، ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ ﴾، حلف، حلف بعزة الله، ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ [ص:٨٢، ٨٣]، فلا يعصمك من هذا الشيطان إلا الله جَلَّوَعَلَا، فتستعيذ بالله عند بدء التلاوة من الشيطان حتى تقبل على التلاوة، وحتى يُدبر عنك الشيطان.

﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾ [النحل:٩٨].

الرجيم، معناه: المرجوم، فعيل: بمعنى مفعول، أي: مرجوم ومطرود ومبعد عن رحمة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، هذه صفة الشيطان أنه رجيم، يعني: مرجوم، ومطرود ومبعد عن رحمة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ[١].

كذلك يستحب عند بدء التلاوة إذا كانت من أول السور أن تقول: (بسم الله الرحمن الرحيم)، التسمية في أول كل سورة؛ لأن الله أنزل البسملة في بداية كل سورة، وكُتِبت في المصحف الشريف في بداية كل سورة، فلاتدخل في بداية السورة إلا بعد أن تقول: (بسم الله الرحمن الرحيم)، هذا من آداب التلاوة.

أما إذا كانت التلاوة من أثناء السور، فإنها لا تشرع البسملة، إنما تشرع في بداية السور، سوى براءة؛ فإنها لا يؤتى بالبسملة قبلها؛ لأنها لم تنزل قبلها،

= وانظر مادة (شيط) في: العين (٦/ ٢٧٥)، وتهذيب اللغة (١١/ ٢٦٧)، والصحاح (٣/ ١١٣٨)، ومقاييس اللغة (٣/ ٢٣٤).

(١) انظر مادة (رجم) في: العين (٦/ ١١٩)، وتهذيب اللغة (١١/ ٤٨)، والصحاح (٥/ ١٩٢٨)، ومقاييس اللغة (٢/ ٤٩٣).

ولم تُكتب في المصحف قبلها، فكل السور مبدوءة بـ(بسم الله الرحمن الرحيم) إلا سورة (براءة)؛ لأنها لم تنزل قبلها.

وقد ذكر العلماء شيئًا من الحكمة حول عدم كتابة البسملة وقراءتها قبل (براءة):

قيل: إنها تابعة لسورة الأنفال، فهي وسورة الأنفال سورة واحدة، فلذلك لم تُبدأ بـ(بسم الله الرحمن الرحيم)؛ لأنها تابعة لسورة الأنفال(١).

وقيل: لم تُبدأ (براءة) بـ(بسم الله الرحمن الرحيم)؛ لأن الله ذكر فيها صفات المنافقين وتوعدهم، وكذلك فيها الأمر بقتال الكفار والجهاد في سبيل الله، ولا يناسب ذلك الرحمة، وإنما يناسب ذلك الغضب على الكفار والغضب على المنافقين(٢)، والله أعلم.

المهم أننا لا نقرؤها قبل سورة التوبة، لكن لماذا؟ الله أعلم.

ومعنى (بسم الله الرحمن الرحيم)، أي: أستعين بالله، فالجار والمجرور في قوله: (بسم الله) متعلق بمحذوف، تقديره: أستعين أو أستجير بالله عَزَّوَجَلَّ.

(بسم الله)، أي: بكل اسم من أسماء الله عَزَّوَجَلَّ.

والله جَلَّوَعَلَا له أسماء حسنى لا يعلمها إلا هو سُبْحَانَهُوَتَعَالَى.

---

(١) انظر: غريب القرآن لابن قتيبة (ص ٣٥)، والمحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها (١/ ١٨)، والبرهان في علوم القرآن (١/ ٢٤٤).

(٢) كما أخرج الحاكم في المستدرك (٢/ ٣٦٠)، وابن الأعرابي في معجمه (١/ ٢٩٨- ٢٩٩)، عَنْ عَبْدِ اللهِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا قَالَ: «سَأَلْتُ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ لِمَ لَمْ يُكْتَبْ فِي بَرَاءَةٍ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ؟ قَالَ: لِأَنَّ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ أَمَانٌ وَبَرَاءَةٌ لَيْسَ فِيهَا أَمَانٌ، نَزَلَتْ بِالسَّيْفِ».

والاسم هنا مفرد ومضاف إلى لفظ الجلالة، والمفرد إذا أُضيف يعم، فيعم كل أسماء الله، أي: أستعين بكل اسم لله عَزَّوَجَلَّ، فالبسملة فيها استعانة بالله عَزَّوَجَلَّ، وطلب للعون منه.

و(الله جَلَّوَعَلَا) علمٌ على الذات الإلهية، لا يسمى أحدٌ هذا الاسم إلا هو سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، لم يتسم بهذا اللفظ (الله)، لم يتسم به أحدٌ من الخلق، وهذا من العجائب، الكفار على كفرهم والجبابرة والطواغيت لا أحد منهم سمى نفسه (الله)، أو سُمِّي (الله)، وفرعون لما جحد الربوبية، لم يقل: (أنا الله)، وإنما قال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات:٢٤]، ولم يقل: (أنا الله)، لم يقل: (أنا الله) إلا رب السماوات والأرض، هو الذي قال: ﴿إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾ [طه:١٤]، فهذا الاسم خاصٌّ بالله جَلَّوَعَلَا، لا يجوز أن يسمى به غيره، ولم يتسم به غيره من جميع البشر.

و(الله) معناه: ذو الألوهية والعبودية؛ من الأَله وهو المحبة والعبادة، فالله هو المألوه المعبود الذي تحبه القلوب، وتألهه القلوب تعظيمًا وإجلالًا[١].

(الرحمن الرحيم): اسمان من أسماء الله يتضمنان وصفه بالرحمة سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

فـ(الرحمن والرحيم) من أسمائه، والرحمة صفته سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

تأتي بالبسملة في بداية السورة، أما في أثناء السورة فيكفي أن تستعيذ بالله من الشيطان، فالاستعاذة يؤتى بها في أول السورة وفي أثناء السورة عند بداية التلاوة، هذا من آداب التلاوة: البداءة بالاستعاذة من الشيطان قبل التلاوة، وبداءة السور بــ (بسم الله الرحمن الرحيم).

---

(١) انظر في معنى (الإله): الصحاح (٦/ ٢٢٢٣)، ومقاييس اللغة (١/ ١٢٧)، ولسان العرب (١٣/ ٤٦٧)، والمصباح المنير (١/ ١٩).

ومن آداب التلاوة: أن يقرأ الإنسان وهو متطهر من الحدثين الأكبر والأصغر، يكون طاهرًا من الحدثين الأكبر والأصغر؛ لأن التلاوة عبادة، والعبادة يستحب لها الطهارة، وأحيانًا تجب لها الطهارة.

وفي تلاوة القرآن لمن كان على غير طهارة تفصيل عند العلماء:

أما من يريد أن يقرأ عن ظهر قلب، ولا يمس المصحف، وحدثه أصغر، فلا بأس أن يقرأ القرآن، وهو غير متوضئ، لكن الأفضل أن يتوضأ، لكن يجوز أن يقرا القرآن وهو غير متوضئ؛ لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان لا يحبسه عن القرآن إلا الجنابة(١)؛ مما يدل على أنه يقرأ في كل الأحوال ما عدا حالة تلبسه بالجنابة، فمن كان يقرا القرآن عن ظهر قلب، يعني: حفظًا من صدره، فلابأس أن يقرأ القرآن إذا كان حدثه أصغر، يعني: غير متوضئ، لكن بشرط ألا يمس المصحف، أما من أراد أن يقرأ القرآن من المصحف، أراد أن يمس المصحف، فلابد أن يتطهر؛ لأن القرآن لا يمسه إلا طاهر كما في حديث عمرو بن حزم، في كتاب عمرو بن حزم الذي كتب له الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وفيه: «**أَنْ لا يَمَسَّ الْقُرْآنَ إِلَّا طَاهِرٌ**»(٢).

وقد اتفق الأئمة الأربعة رَحِمَهُمُ اللَّهُ على أنه لا يجوز مس المصحف للمحدث مباشرة، مسه مباشرة، مس الآيات، وضع يده على الآيات المكتوبة، أو مس

---

(١) كما في الحديث الذي أخرجه أحمد (٢/ ٢٩٤)، وأبو داود (٢٢٩)، والترمذي (١٤٦)، والنسائي في المجتبى (٢٦٥)، وابن ماجه (٥٩٤)، عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: «كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقْضِي الحَاجَةَ، فَيَأْكُلُ مَعَنَا اللَّحْمَ، وَيَقْرَأُ الْقُرْآنَ، وَلَمْ يَكُنْ يَحْجِزُهُ، أَوْ يَحْجُبُهُ إلا الجَنَابَةُ».

(٢) أخرجه مالك في موطئه (١) (١/ ١٩٩)، وأبو داود في المصاحف (ص٤٢٧)، وفي المراسيل (ص١٢٢).

المصحف وأوراق المصحف، أو حتى غلاف المصحف؛ لأنه تابع للمصحف، الغلاف؛ الدفتان، دفتا المصحف هذه تابعة للمصحف لا يمسها إلا طاهر، من باب أولى لا يمس الآيات المكتوبة إلا طاهر.

أما المصحف الذي موضوع في غلاف من كيس أو تابوت، فيمسه من وراء حائل، ليس هناك مانع، إذا كان القرآن في كيس أو في تابوت -يعني: في صندوق صغير-، فلا بأس أن تحمله، وأن تنقله من مكان إلى مكان في غلافه وكيسه أو تابوته؛ لأنك لم تمس القرآن مباشرة(١).

وأما من عليه حدث أكبر كالجنابة، عليه حدث الجنابة، فإنه لا يقرأ القرآن مطلقًا؛ لا عن ظهر قلب، ولا من المصحف حتى يغتسل من الجنابة؛ لأن النبي ﷺ كان لا يحبسه عن قراءة القرآن إلا الجنابة، فلا يقرأ القرآن من عليه جنابة لا عن ظهر قلب ولا من المصحف حتى يغتسل.

ومن آداب تلاوة القرآن: إتقان القراءة؛ بأن يتعلم القراءة الصحيحة الخالية من اللحن والغلط، يقرأ القرآن على الوجه العربي الذي نزل به، ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء:١٩٥]؛ يرفع المرفوع، وينصب المنصوب، ويخفض المخفوض، ويسكن الساكن، هذا الإعراب، يسمى الإعراب، القراءة المعربة التي تتمشى على منهج اللغة العربية الفصحى التي نزل بها.

---

(١) قال ابن هبيرة رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَأَجمعُوا على أَنه لَا يجوز للمحدث مس الْمُصحف، ثمَّ اخْتلفُوا فِي حمله بغلافه أَو فِي غلافه، فَقَالَ مَالك وَالشَّافِعِيّ وَأحمد فِي إِحْدَى الرِّوَايَتَيْنِ عَنهُ: لَا يجوز، وَقَالَ أَبُو حنيفَة وَأحمد فِي الرِّوَايَة الْأُخْرَى: يجوز) اختلاف الأئمة العلماء (١/ ٤٦- ٤٧). وانظر: المعاني البديعة (١/ ٤٩).

واللحن: هو مخالفة الوجه العربي، هذا هو اللحن الممنوع، فإن كان هذا اللحن يغير المعنى، فإنه حرام، ولا تصح به الصلاة، إذا كان اللحن يغير معنى الآية أو الكلمة، فإن هذه القراءة حرام؛ كما لو قرأ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة:٢]، لو قرأها بكسر اللام ﴿ٱلْعَـٰلِمِينَ﴾، هذا يُغير المعنى، هذه قراءة باطلة، أو قرأ: ﴿أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة:٧] بالضم، قال: (أَنْعَمْتُ عَلَيْهِمْ)، هذه قراءة باطلة؛ لأنها تغير المعنى، وإذا كانت في الصلاة، فإنها تبطلها.

وأما اللحن الذي لا يحيل المعنى -مثل جر المنصوب أو رفع المخفوض-، فهذه قراءة غير صحيحة، لكنها لا تصل إلى حد التحريم أو إبطال الصلاة؛ كما لو قال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ [الفاتحة:٢]، قرأها (الحَمْدَ للهِ) بفتح الدال، هذا غلط، لكنه لا يغير المعنى، أو نصب لفظ الجلالة، ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾، قرأها بالنصب، نصب لفظ الجلالة، ونصب (ربَّ) بدل الجر، ﴿لِلَّهِ﴾، ﴿رَبِّ﴾: يكون هذا لحنًا، لكنه لا يحيل المعنى، لكنه خلاف المطلوب.

فيقرأ القرآن على الوجه العربي الصحيح الفصيح الذي نزل به القرآن، وهذا يحتاج إلى عناية، يحتاج إلى تعلم، وأن يتلقى القراءة عن مقرئين يتقنون القراءة، يتعلم قراءة القرآن من القراء، يعتني المسلم بكتاب ربه عَزَّوَجَلَّ، ويتلقاه عن الحفاظ وعن القراء، هكذا كان المسلمون يتلقون القرآن، لايعتمدون على التهجي من المصحف، لا يعتمدون على هذا، بل لابد أن تتلقى القرآن عن مدرس يجيد القراءة، ويصحح لك النطق، هذا أمر مطلوب.

ولكن الإنسان الذي لم يتيسر له مدرس، ويريد أن يقرأ القرآن على حسب استطاعته، يقرأ على حسب استطاعته إلى أن يجد من يصحح له القراءة.

قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الْمَاهِرُ بِالْقُرْآنِ مَعَ السَّفَرَةِ الْكِرَامِ الْبَرَرَةِ، وَالَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَيَتَتَعْتَعُ فِيهِ وَهُوَ عَلَيْهِ شَاقٌّ لَهُ أَجْرَانِ**»(١)، يعني: أجر التلاوة وأجر المشقة، فيقرأ القرآن ولو كان عن طريق التهجي وشيئًا فشيئًا، لكن لا يستعجل في القراءة ويتأمل، ويحاول النطق الصحيح حسب استطاعته، وإذا وجد من يصحح له القراءة ويتلقى عنه القراءة، وجب عليه ذلك.

ومن آداب التلاوة: تحسين الصوت بالقرآن؛ لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمر بتحسين الصوت بالقراءة(٢)؛ لأنه أوقع في النفس، الصوت الحسن له تأثير وحلاوة بالقرآن، فيحسن المسلم صوته مهما استطاع أن يحسن صوته.

وقد كان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يستمع إلى قراءة بعض الصحابة لحسن قراءتهم، وهو رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي أُنزل عليه القرآن، كان يستمع لبعض أصحابه ممن آتاهم الله إجادة تلاوة القرآن وحسن الصوت بالقرآن، وقد استمع صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهو يصلي بالليل، ولم يكن يعلم بأن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يستمع إليه، لكن الله أعطاه حسن الصوت، أبو موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أعطاه الله حسن الصوت بالقرآن، وكان يصلي بالليل، وكان الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يمر ويستمع إلى قراءته، وقال له بعد ذلك: «**لَوْ رَأَيْتَنِي وَأَنَا أَسْتَمِعُ قِرَاءَتَكَ الْبَارِحَةَ، لَقَدْ أُوتِيتَ مِزْمَارًا مِنْ مَزَامِيرِ آلِ دَاوُدَ**»، فقال له رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لَوْ

---

(١) سبق تخريجه (ص٢٦٣).

(٢) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (٥٠٢٣)، ومسلم (٧٩٢)، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «**مَا أَذِنَ اللهُ لِشَيْءٍ مَا أَذِنَ لِنَبِيٍّ حَسَنِ الصَّوْتِ يَتَغَنَّى بِالْقُرْآنِ، يَجْهَرُ بِهِ**».

عَلِمْتَ أَنَّكَ تَسْمَعُ لِقِرَاءَتِي لَحَبَّرْتُهُ لَكَ تَحْبِيرًا»[١]، يعني: لحسنته بصوتي لك تحسينًا، هذا يدل على العناية بحسن الصوت.

وأمر صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -وكان من قراء الصحابة المجيدين، وكان من فقهاء الصحابة ومن السابقين الأولين إلى الإسلام ومن فضلاء المهاجرين-، أمره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يقرأ عليه وهو يستمع، فقال: «يَا رَسُولَ اللهِ، أَقْرَأُ عَلَيْكَ وَعَلَيْكَ أُنْزِلَ»، فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْ غَيْرِي**»، فقرأ ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من أول سورة النساء حتى وصل إلى قوله تعالى: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴾ [النساء:٤١]، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**حَسْبُكَ الْآنَ**»، يعني: قف. قال: «فَالْتَفَتُّ إِلَيْهِ، فَإِذَا عَيْنَاهُ تَذْرِفَانِ»[٢] صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فهذا فيه فضل تحسين الصوت بالقرآن، وفضل إجادة القراءة؛ لأن ابن مسعود كان يجيد القراءة، وكان من أجود الصحابة قراءة للقرآن، حتى قال فيه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَقْرَأَ الْقُرْآنَ غَضًّا كَمَا أُنْزِلَ، فَلْيَقْرَأْهُ عَلَى قِرَاءَةِ ابْنِ أُمِّ عَبْدٍ**»[٣]، يعني: عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

والله جَلَّ وَعَلَا يقول: ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الأعراف:٢٠٤]، إذا قُرِئ القرآن، فإنه ينبغي للمسلم أن يستمع للقراءة، ولا ينصرف عنها، ما دام أنه يسمع القرآن يصغي للقرآن، ولا ينصرف عنه؛ لأنه

---

(١) أخرجه البخاري (٥٠٤٨)، ومسلم (٧٩٣)، والبيهقي في الكبرى -واللفظ له- (٣/ ١٨).

(٢) أخرجه البخاري (٥٠٥٠)، ومسلم (٨٠٠)، من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه أحمد (١/ ٢١١)، وابن ماجه (١٣٨)، من حديث أبي بكر وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

كلام رب العالمين، ولأنه يوجهك ويأمرك وينهاك، ولأن في استماعك له أجرًا عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

﴿فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ﴾: فلا تعرض عن القرآن وأنت تسمعه، إذا كان عندك فرصة للاستماع مهما أمكن، فإنه لا ينبغي لك أن تنصرف عن سماع القرآن، أما إذا كان عندك شغل، وتريد أن تذهب، فلا مانع، لكن إذا كان عندك فرصة للاستماع، فلا تحرم نفسك من الاستماع للقارئ وكلام رب العالمين، تتنزل عليك الرحمة والمغفرة؛ ﴿لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾، فتلاوة القرآن والاستماع إليه سبب لرحمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

﴿وَأَنصِتُواْ﴾: الإنصات قطع الحركة، وعدم الانشغال بشيء، اترك الأشغال، واترك الحركات، وأنصت للقرآن كأنك لا تتحرك أبدًا، اترك الحركة والالتفات والكلام مع الآخر، لا تقل: أنا ألتفت وأنا أستمع، أنا أشتغل بشغل كتابة أو بتناول شيء وإعطاء شيء وأنا أستمع. نقول: لا، هذا ليس بأحسن شيء، أحسن أنك تتفرغ لسماع القرآن مهما أمكن؛ ﴿وَأَنصِتُواْ﴾ بعد قوله: ﴿فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥ﴾، ﴿وَأَنصِتُواْ﴾: هذا زيادة تأكيد.

والثمرة: ﴿لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾، فدل على أن من استمع القرآن وأنصت إليه أنه تناله رحمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

ومن آداب تلاوة القرآن -أيضًا-: قراءته بالترتيل؛ قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا﴾ [الفرقان:٣٢]، وقال تعالى لنبيه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ: ﴿وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا﴾ [المزمل:٤]، فالقرآن مرتل في النزول، ومرتل في التلاوة.

أما الترتيل في النزول، فإن الله أنزله مفرقًا على رسوله ﷺ، لم ينزله جملة واحدة، بل أنزله مفرقًا على الرسول ﷺ منذ أن بعثه الله إلى أن توفاه الله في خلال ثلاث وعشرين سنة، هذه مدة نزول القرآن، خلال ثلاث وعشرين سنة ينزل القرآن منجمًا ومفرقًا بحسب الوقائع والحوادث، ولأجل التسهيل على الناس، إذا نزل شيئًا فشيئًا هذا فيه تدرج وتسهيل على الناس، أما لو نزل جملة واحدة، شق ذلك على الناس، فيه أوامر، وفيه نواهٍ، وفيه أحكام شرعية، فلو نزل كله جملة واحدة، وطولب الناس بالعمل به جملة واحدة، شق ذلك عليهم، فمن رحمة الله أنه أنزله مفرقًا على ثلاث وعشرين سنة حسب الوقائع، وذلك قوله تعالى: ﴿وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾، هذا رد على المشركين الذين قالوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً﴾ [الفرقان:٣٢]، يسألون سؤالًا تافهًا، لكن ليس لهم شغل إلا الاعتراضات، ليس لهم شغل إلا الاعتراضات والتشكيك في القرآن، ويتدخلون في شئون الله عَزَّوَجَلَّ، يقولون: لماذا الله ينزل القرآن مفرقًا، ولم ينزله جملة واحدة؟ الله جَلَّوَعَلَا رد عليهم، ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً﴾، رد الله عليهم بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾: فؤاد الرسول ﷺ، إذا نزل عليه مفرقًا، كان هذا أثبت له ﷺ، ويكون عند الرسول ﷺ الاستعداد لتلقيه والعمل به، وتبليغه للناس، فيه تسهيل على الرسول وعلى الأمة؛ ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾ [الفرقان:٣٢]، أي: نزلناه مفرقًا، ولم ننزله جملة واحدة؛ للحكمة العظيمة في ذلك.

﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ﴾: لا يعترضون عليك باعتراض، أو يسألونك سؤالًا، ﴿إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان:٣٣]: فيجيب الله عن اعتراضاتهم وعن أسئلتهم، ويرد عليهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهذا لا يتأتى إلا مع تفرق نزول القرآن شيئًا فشيئًا، كلما حدث منهم شر أو تشكيك أو كفر، نزل القرآن يبين فساد أقوالهم وأعمالهم، ويثبت عباده المؤمنين، هذا الترتيل في النزول.

الترتيل في التلاوة: قال تعالى لنبيه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ [المزمل:٤]، والترتيل في القرآن هو التمهل والترسل في التلاوة؛ بحيث يقرأ القرآن قراءة فصيحة، ليست هذرمة وعجلة، وإنما قراءة فصيحة واضحة، ويقف على رؤوس الآيات، يقف على رأس كل آية كما كان النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يفعل ذلك في قراءته، كان صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقرأ قراءة مفسرة موضحة، وكان يقف على رؤوس الآيات، وكان يستعيذ عند آية العذاب، ويسأل عند آية الرحمة؛ كما في حديث حذيفة بن اليمان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ(١)، هذا معنى الترتيل في القراءة؛ التمهل والترسل في القراءة، والوقوف على رؤوس الآيات، وإخراج الحروف من مخارجها، بحيث لا يسقط حرف أو كلمة، بل يقرؤه كما أُنزل بكلماته وآياته وسوره، هذا هو الترتيل؛ الترسل والتمهل في القراءة، والوقوف عند رؤوس الآيات.

وضد الترتيل: السرعة هذه ضد الترتيل، الهذ والهذرمة هذا ضد الترتيل،

---

(١) أخرجه مسلم (٧٧٢)، عَنْ حُذَيْفَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: «صَلَّيْتُ مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَاتَ لَيْلَةٍ، فَافْتَتَحَ الْبَقَرَةَ، فَقُلْتُ: يَرْكَعُ عِنْدَ الْمِائَةِ، ثُمَّ مَضَى، فَقُلْتُ: يُصَلِّي بِهَا فِي رَكْعَةٍ، فَمَضَى، فَقُلْتُ: يَرْكَعُ بِهَا، ثُمَّ افْتَتَحَ النِّسَاءَ، فَقَرَأَهَا، ثُمَّ افْتَتَحَ آلَ عِمْرَانَ، فَقَرَأَهَا، يَقْرَأُ مُتَرَسِّلًا، إِذَا مَرَّ بِآيَةٍ فِيهَا تَسْبِيحٌ سَبَّحَ، وَإِذَا مَرَّ بِسُؤَالٍ سَأَلَ، وَإِذَا مَرَّ بِتَعَوُّذٍ تَعَوَّذَ...».

وقد قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا تَهُذُّوا الْقُرْآنَ كَهَذِّ الشِّعْرِ، وَلَا تَنْثُرُوا كَنَثْرِ الدَّقَلِ»[١]، يعني: التمر الرديء الذي لا يتماسك، بعضه ينفرد عن بعض، ينتثر، القرآن لا، لا يجوز أن يُنثر، كل كلمة بمفردها، بل يُقرأ مترسلًا مرتبطًا بعضه ببعض، ويقف على رؤوس الآيات، ويوضح القراءة، ويفصح القراءة لنفسه وللمستمعين؛ لأن هذا أدعى للتدبر، وأدعى لفهم الآيات، أما الهذرمة والهذ، فهذا لا يتأتى معه تدبر، ولا يتأتى معه المطلوب.

وكذلك ضد الترتيل: التمطيط، لا يجوز تمطيط القرآن، التمطيط الخارج عن المألوف العربي الذي نزل به القرآن، المبالغة في المدود، المبالغة في الغنات، هذا من الوسوسة الشيطانية؛ كما ذكر ابن القيم في كتابه إغاثة اللهفان، ما يحصل لبعض القراء من وساوس الشيطان في التكلف في القراءة، والتقعر في القراءة حتى يخرج عن المشروع[٢].

القرآن- ولله الحمد- ميسر؛ ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ﴾ [القمر:١٧].

فيُقرأ قراءة مجودة، وقراءة مفصحة ومفصلة، لكن من غير تمطيط وتمديد، أو خروج إلى فن الغناء، يعني: يخرج القرآن إلى ألحان الغناء، ويجعله كالأغاني، هذا محرم، وهذا ورد في بعض الآثار أنه يكون في آخر الزمان أن قومًا يخرجون قراءة القرآن إلى حد الأغاني والتطريب[٣]، هذا ممنوع، ويصان عنه كتاب الله

---

(١) أخرجه المروزي في مختصر قيام الليل (ص ١٣٢)، من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) انظر: إغاثة اللهفان (١/ ١٦٠).

(٣) أخرجه المروزي في مختصر قيام الليل (ص ١٣٥)، والطبراني في الأوسط (٧/ ١٨٣)، عَنْ حُذَيْفَةَ ابْنِ الْيَمانِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اقْرَءُوا الْقُرْآنَ بِلُحُونِ الْعَرَبِ وأَصْوَاتِها، وَإِيَّاكُمْ ولُحُونَ أَهْلِ الْكِتَابَيْنِ، وَأَهْلِ الْفسقِ، فَإِنَّهُ سَيَجِيءُ بَعْدِي قَوْمٌ يُرَجِّعُونَ =

عَزَّوَجَلَّ، فلا يمطط ويمدد تمديد زائد، ولا يهذرم ويهذ هذ الشعر، وإنما الوسط، خير الأمور الوسط في تلاوة القرآن.

وكلما كانت القراءة متوسطة، كانت ألذ وأريح للقارئ وللسامع، وكلما كانت القراءة بسرعة وهذٍّ، كانت أتعب للقارئ وأتعب للسامع، وكلما كانت القراءة ممططة وكانت القراءة تدخل إلى حد فن الغناء، فإن هذا أتعب للقارئ وأتعب للسامع، والمطلوب من القرآن التدبر، وليس المطلوب من القرآن أنه يُتخذ للتطريب، وإشغال الناس بسماع الصوت فقط دون تدبر المعاني، ليس هذا هو المطلوب، يتلذذون بالصوت، لكن لا يتفهمون المعاني ولا يتدبرون كلام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ليس هذا هو المطلوب من تلاوة القرآن الكريم.

وقد أَلَّف العلماء رَحِمَهُمُ اللَّهُ كتبًا في آداب التلاوة؛ مثلما ألف الإمام النووي كتاب التبيان في آداب حملة القرآن، وغيره من العلماء ذكروا آداب تلاوة القرآن، وكيف يُقرأ القرآن، وذكروا الوجوه الممنوعة في القراءات، كل هذا موجود.

فهذا من آداب القرآن: تحسين الصوت به، حسن الأداء، وعدم الهذ والهذرمة والسرعة، وعدم التمطيط والتمديد الزائد عن الحد، وأشد من ذلك: أن يتخذ القرآن بالأسلوب الغنائي المطرب، كل هذا ممنوع، ويتنافى مع آداب القرآن.

كذلك من آداب التلاوة: أن يكون قصد التالي ثواب الله، يقرأ القرآن احتسابًا لوجه الله، لا يقرأ القرآن لأجل الحصول على المال أو الطمع، ويتخذ

= **بِالْقُرْآنِ تَرْجِيعَ الْغِنَاءِ وَالرَّهْبَانِيَّةِ وَالنَّوْحِ، لَا يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ، مفتونةٌ قُلُوبُهُمْ، وقلوبُ مَنْ يُعْجِبُهُمْ شَأْنُهُمْ».**

قراءة القرآن حرفة يجمع بها المال، هذا لا يجوز، وإنما يقرأ القرآن ويُسمع القرآن للناس من أجل التعبد لله عَزَّوَجَلَّ، وطلب الأجر والثواب من الله عَزَّوَجَلَّ، وترقيق القلوب، ووعظ الناس بكلام الله رب العالمين، هذا هو المطلوب، أما أن يتخذ تلاوة القرآن حرفة للإيجار، اذهب واشتغل على التاكسي أو اشتغل عاملًا، أو اشتغل بتجارة، طلب الرزق ليس بهذه الطريقة.

كذلك القرآن لا يُقرأ في المآتم التي تُعمل بعد وفاة الأموات، فيستأجر القراء، وتضرب السرادقات والخيام، وتُجعل الشموع أو القناديل أو العقود الكهربائية أيامًا في الشوارع، ويأتون بالقراء، ويقرؤون، ويقولون: هذا ينفع الميت. لا، هذا لا ينفع الميت ولا الحي، وهذا من إساءة الأدب مع كلام الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ، الذي ينفع الميت الدعاء له والاستغفار له، الترحم عليه، الصدقة عنه، قضاء ديونه إذا كان عليه ديونه، تنفيذ وصاياه، الوصايا الشرعية تنفذ، الحج عنه، العمرة عنه، هذا الذي ينفع الميت.

أما أنك تجمع الناس، وتضع أطعمة، وتضع خيامًا، وتستأجر مقرئين، وتقول: هذا ينفع الميت، أو اقرؤوا الفاتحة لروح الميت. هذا كله خلاف ما جاءت به السنة عن الرسول صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، ولا ينفع الحي، ولا ينفع الميت؛ لأنه غير مشروع، بل الحي يتضرر بهذا؛ لأنه يعمل بدعة، البدعة محرمة، والميت لا يصل إليه شيء من هذا التعب وهذه الخسائر التي تُعمل؛ فلا يُجعل القرآن للأموات، القرآن يُقرأ على الأحياء من أجل أن ينتفعوا، لا يُقرأ على الأموات، الأموات ماتوا ذهبوا وانتهوا، الأموات ماتوا وانقطع عملهم، ليس لهم إلا ما قدموا.

والقرآن يُتلى على الأحياء الذين عندهم عقول وعندهم حضور وعندهم تفكير، هم الذين ينتفعون بالقرآن، أما الميت ذهب انتهى، لا يبقى له إلا ما ذكره الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ»(١)، حج عنه أو عمرة هذا الذي ينفع الميت بإذن الله، بدلاً من أنك تنفق هذه الأموال على المآتم، لو تصدقت بها -يا أخي- على الفقراء والمحتاجين بنية أن ثوابها للميت، ينفعه ذلك، أو دفعتها لواحد من المسلمين يحج عنه أو يعتمر، ينفعه ذلك بإذن الله.

هذه النفقات التي تُنفق على المأتم وعلى الحفل، وعلى أيام العزاء لو دفعتها للفقراء، أو وضعتها في مشروع خيري، ونويت ثوابها للميت، كان هذا حسنًا ومفيدًا، هذا هو المطلوب.

كذلكم -يا عباد الله- لا يُقرا القرآن على الجنائز، ولا يُقرا القرآن عند القبور، هذا لم ترد به الشريعة أصلًا، لم يرد في الشريعة أن القرآن يُقرأ في المقابر أو عند القبور، أو يُقرأ عند الجنائز وهي ميتة، لم يرد هذا؛ الذي ورد أن الميت يُعمل به ما شرعه الله من تغسيله وتكفينه والصلاة عليه، وحمله ودفنه في مقابر المسلمين إذا كان مسلمًا، هذا هو الذي ورد في حق الميت، والدعاء له والترحم عليه، والاستغفار له، وسؤال الله التثبيت له بعد الفراغ من دفنه، هذا هو الذي وردت به السنة.

أما قراءة القرآن عند الجنازة، أو قراءة القرآن مع الجنازة وهي في طريقها إلى القبر، أو قراءة القرآن عند القبر بعد دفن الميت، كل هذه أعمال مخالفة للوجه

(١) سبق تخريجه (ص٨).

الشرعي، وما كان مخالفًا للمشروع، فإن فيه الإثم وليس فيه أجر، والتقليد الأعمى لا يجوز للمسلم أنه يرى الناس يعملون هذه الأعمال، ثم يعملها لأن الناس يعملونها.

يا أخي! انظر إذا كان عمل الناس على وفق الشريعة، الحمد لله، هذا اتباع ليس تقليدًا، هذا اتباع، أما إذا كان عمل الناس ليس له أصل في الشرع ومخالف للكتاب والسنة، أنت تتوقف -يا أخي-، لا تعمل هذا العمل؛ لأنك تريد الخير، والخير ليس في هذا العمل، هذا فيه إثم؛ «**مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا، فَهُوَ رَدٌّ**»(١)، وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدِثَاتِ الْأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ**»(٢).

أما قراءة القرآن بقصد الأجر، وجعل ثواب القراءة للميت، تقرأ القرآن بقصد الأجر، ليس مؤجرًا، لم يحضروك وأجروك، وقالوا: اقرأ القرآن للميت. هذا ليس بمشروع، ولا ينفع الميت؛ أنك تستأجر قارئًا يقرأ القرآن، هذا ليس بمشروع، ولا ينفع الميت؛ لأن هذا القارئ لم يقرأ للعبادة، وإنما قرأ من أجل المال، والذي يطلب الدنيا بعمل الآخرة قال الله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [هود:١٥، ١٦]، فاستئجار المقرئين للأموات هذا لا يجوز، وليس في هذه القراءة أجر؛ لأنها لم تُقرأ للتعبد، وإنما قُرئت لطلب المال فقط.

---

(١) سبق تخريجه (ص٩٢).

(٢) سبق تخريجه (ص٩٢).

لكن إنسانًا قرأ محتسبًا، وقال: أهدي ثواب هذه القراءة للميت. هذا فيه خلاف بين العلماء:

* منهم من يرى أنه جائز؛ لأن هذا عمل صالح، وقاسوه على الدعاء، وقاسوه على الصدقة، وقاسوه على هذه الأمور، قالوا: هذا عمل صالح، فإهداؤه للميت بدون طلب للأجرة، وإنما احتساب من القارئ لنفع أخيه الميت يجوز، قالوا: يجوز.

* لكن القول الثاني -وهو الصحيح-: أن هذا لا يجوز، الصحيح أن هذا لا يجوز؛ لأنه لا دليل عليه، وما دام لا دليل عليه، فلا يجوز فعله، لا نزيد على ما شرعه، الله شرع لنا الدعاء للميت، الاستغفار للميت، الصدقة عن الميت، الحج عن الميت، العمرة عن الميت، قضاء الديون عن الميت، هذا الذي شرعه الله لنا، ثم نزيد زيادة، ونقول: هذه مثل ما شرعه الله؟! نقول: لا، هذا لا يجوز، هذا لا يجوز. فلا تكلف نفسك -يا أخي- بشيء أنت لست منتفعًا به، لا أنت، ولا الميت، فهذه من آداب تلاوة القرآن.

بقي كلمة: المحتضر الذي في السياق، لم يمت بعد، في سياق الموت، هل يُقرأ عنده شيء من القرآن؟ الذي ورد وصح به الحديث: أنه يُلقن: لا إله إلا الله، المحتضر صح في الحديث أنه يُلقن كلمة التوحيد ليموت عليها؛ «**لَقِّنُوا مَوْتَاكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ**»(١)، والمراد بالأموات هنا: المحتضرون؛ ليكون آخر كلام الميت: (لا إله إلا الله)، فيموت على هذه الكلمة، وقد قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ كَانَ آخِرُ كَلَامِهِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ**»(٢)، هذا هو الذي ورد.

---

(١) أخرجه مسلم (٩١٦)، من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه أحمد (٣٦/ ٣٦٣)، وأبو داود (٣١١٦)، من حديث معاذ بن جبل رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

أما القراءة عند المحتضر، هذه ورد فيها حديث ضعيف؛ أنه تُقرأ عند المحتضر سورة يس، «اقْرَءُوا يس عَلَى مَوْتَاكُمْ»(١)، يعني: على المحتضرين، لكن الحديث هذا ضعيف لا تقوم به حجة، فنقتصر على ما ورد به الدليل، وهو تلقين الميت (لا إله إلا الله)، هذا هو الذي ورد به الدليل في صحيح مسلم وغيره: «لَقِّنُوا مَوْتَاكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ».

وأما قراءة يس عند الميت، فالحديث الذي ورد فيها حديث ضعيف، لكن من فعل هذا لا يُنكر عليه؛ لأنه ورد فيه شيء، لكن نقول له: يا أخي! الأحسن ترك هذا الشيء، وتلقين الميت (لا إله إلا الله) هذا هو الأحسن للميت.

وعلى كل حال فإن تلاوة القرآن عبادة، وتدبر القرآن والتفكر فيه هذا عمل صالح، والأهم من ذلك: العمل بالقرآن، بعد تلاوته وبعد تدبره لابد من العمل بالقرآن، تصدر عن أوامر القرآن وتنتهي عند نواهي القرآن الذي تقرؤه، وأما مجرد التلاوة مع المخالفة، فهذا -والعياذ بالله- من أشد العصيان لله عَزَّوَجَلَّ، وقد جاء في الأثر: أن رب قارئ للقرآن والقرآن يلعنه(٢)، لماذا؟ لأنه يقرأ القرآن ولا يعمل بما فيه، بل يقرأ قوله تعالى: ﴿فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾ [آل عمران:٦١]، وهو يكذب؛ ﴿أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [هود:١٨]، وهو يظلم، إذًا القرآن يلعنه؛ لأنه ظالم، ولأنه كاذب.

وورد في الحديث الصحيح أن القرآن يكون يوم القيامة: إما حجة لك عند الله، وإما حجة عليك(٣)، هذا الذي ورد عن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فإن

---

(١) أخرجه أبو داود (٣١٢١)، وابن ماجه (١٤٤٨)، من حديث معقل بن يسار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) ذكره الغزالي عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في إحياء علوم الدين (١/ ٢٧٤).

(٣) كما في الحديث الذي أخرجه مسلم (٢٢٣)، عَنْ أَبِي مَالِكٍ الْأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ =

اتبعته وعملت به، صار حجة لك عند الله عَزَّوَجَلَّ، وإذا أهملته واقتصرت على مجرد اللفظ بدون عمل وبدون تدبر، صار حجة عليك؛ لأنه بلغك القرآن، ولم تعمل به، قامت عليك حجة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

ويجب على قارئ القرآن أن يتميز عن غيره، يتميز عن غيره بالزهد والورع والتقوى؛ كان قراء القرآن من السلف يعرفون بسيماهم، قالوا: يُعرفون بصفرة ألوانهم؛ دليل على كثرة بكائهم وقيامهم بالليل، سهرهم بالليل بالقيام بالقرآن، يُعرفون بهذا(١)، هذا الذي ينبغي أن يُعرف به قارئ القرآن: أن يكون عاملاً به، أن يكون متأثرًا بكلام الله عَزَّوَجَلَّ، أن يكون القرآن دائمًا أمام عينيه وفي قلبه وفي ذاكرته، كلما يريد أن يفعل شيئًا يتذكر القرآن؛ هل القرآن يجيز هذا أو لا؟

= رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الطُّهُورُ شَطْرُ الْإِيمَانِ، وَالْحَمْدُ للهِ تَمْلَأُ الْمِيزَانَ، وَسُبْحَانَ اللهِ وَالْحَمْدُ للهِ تَمْلَآنِ** -أَوْ: **تَمْلَأُ**- **مَا بَيْنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَالصَّلَاةُ نُورٌ، وَالصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ، وَالصَّبْرُ ضِيَاءٌ، وَالْقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ، كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو فَبَايِعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتِقُهَا أَوْ مُوبِقُهَا**».

(١) قال ابن رجب: (قالَ مُحَمَّدُ بنُ كَعْبٍ: كنَّا نَعْرِفُ قارئَ القرآنِ بصفرةِ لونِهِ. يُشيرُ إلى سهرِهِ وطولِ تهجُّدِهِ) لطائف المعارف (ص٣٢١).

أعظم الكتب

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ وَلَمۡ يَجۡعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ ١ قَيِّمٗا لِّيُنذِرَ بَأۡسٗا شَدِيدٗا مِّن لَّدُنۡهُ وَيُبَشِّرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ أَجۡرًا حَسَنٗا ٢ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدٗا ٣ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗا ٤ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٖ وَلَا لِأٓبَآئِهِمۡۚ كَبُرَتۡ كَلِمَةٗ تَخۡرُجُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبٗا﴾ [الكهف:١-٥]، ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان:١].

أما بعد:

فإن أعظم نعمة أنعم الله بها على البشرية بعثة الرسل عَلَيۡهِمُ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وإنزال الكتب لهداية الناس وإخراجهم من الظلمات إلى النور، وأعظم الرسل محمد صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، وقد خص الله به هذه الأمة، وأعظم الكتب هو القرآن العظيم الذي أنزله على هذا الرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ؛ قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ١ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [إبراهيم:١، ٢]، ﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ﴾ [الأعراف:٢]، فهذا الكتاب العظيم الذي هو القرآن هو أعظم الكتب، وهو المهيمن على الكتب التي سبقته، المهيمن يعني:

الحاكم، يحكم على الكتب السابقة، فيبين ما فيها من خير وحق، ويبين ما دخلها من تزييف وتحريف وغير ذلك.

وأيضًا كما قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النمل:٧٦، ٧٧]، وأيضًا هذا القرآن ناسخ لما قبله، جمع الله فيه كل الخير الذي في الكتب السابقة، وزاد على ذلك ما يحتاجه البشر إلى أن تقوم الساعة، فهو الكتاب الخالد والكتاب الباقي الذي لا يبدل ولا يغير، وقد تكفل الله تعالى بحفظه، فقال سبحانه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ﴾ يعني: القرآن، ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر:٩]، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ﴾، يعني: منيع، لا أحد يستطيع أن يتطاول عليه، ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت:٤١، ٤٢].

﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ﴾: ليس هناك كتاب سبقه يكذبه، وليس هناك كتاب يأتي بعده يكذبه؛ ﴿مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ [فصلت:٤٢].

﴿الٓر كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود:١]؛ هو كلام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، تكلم الله به وحيًا، ونزل به جبريل صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الروح الأمين، نزل به إلى محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وبلغه النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأمته وبلغته أمة محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للبشرية على وجه الأرض؛ كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء:١٩٢]، القرآن تنزيل رب العالمين، تكلم الله جَلَّ وَعَلَا به، وسماه كلامه، وأنزله بواسطة جبريل الروح الأمين؛ ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾ الذي هو جبريل صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ يا محمد، على

قلب محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء:١٩٢-١٩٦]: ذكره والخبر عنه في كتب الأولين، تعترف له وتقر به الكتب السابقة، والأنبياء السابقون يعترفون بهذا القرآن العظيم، وهو مذكور في الكتب السابقة.

﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً﴾ أي: علامة على صدق هذا القرآن، ﴿أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء:١٩٧] علماء بني إسرائيل يعلمون هذا القرآن، ويعلمون أنه حق، وأنه من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فمنهم من آمن به، ومنهم من أخذه الحسد والكبر، فكفر به، وهو يعلم أنه حق.

فهذا القرآن، وهذا سنده، هذا سنده من الله جَلَّ وَعَلَا، حمله جبريل الأمين، بلغه للرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وبلغه الرسول لأمته.

لا يتطرق إليه شك، ولا يتطرق إليه ريب، ولا أحد يقدر على أن يغير شيئًا منه، قرآن كما أنزل على محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لم يزد فيه حرف، ولم ينقص منه حرف، سور وآيات وكلمات من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، هذا هو القرآن العظيم، سماه الله قرآنًا من القرء، وهو الجمع(١)؛ لأنه مجتمع من سور ومن أجزاء وكلمات، فهو مجتمع من سور وآيات وكلمات، مجموع في هذا المصحف الشريف، فهو قرآن يعني: مجموع ومحفوظ ومدون في هذا المصحف الشريف الذي تتناقله الأمة جيلًا بعد جيل، يحفظه الكبار والصغار ويتدارسونه.

---

(١) انظر: تهذيب اللغة (٩/ ٢١٠)، ومقاييس اللغة (٥/ ٧٨)، والغريبين في القرآن والحديث (٥/ ١٥١٦)، ولسان العرب (١/ ١٣١).

وسماه الله ذكرًا لأنه يذكر بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ويذكر بالدار الآخرة، ويذكر بالحساب، ويذكر بالجنة والنار، فهو ذكر، يذكر بالله جَلَّ وَعَلَا وبأسمائه وصفاته وما له من الحق على عباده؛ أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا.

فهو ذكر، وهو شفاء؛ ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء:٨٢]، ﴿شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ الذين آمنوا بالله عَزَّوَجَلَّ، وآمنوا برسوله، وآمنوا أن هذا القرآن هو كلام الله، فالله يشفيهم به شفاء من الشكوك والأوهام، وشفاء للأجسام من الأمراض، فهو شفاء من الأمراض الحسية والمعنوية، ﴿وَرَحْمَةٌ﴾؛ لأن الله رحم به العباد، أنقذهم به من الظلمات إلى النور، ولم يتركهم على جهلهم وكفرهم، فيصيرون إلى النار.

بل إن الله رحم البشرية ورحم الخلق، فأنزل عليهم هذا القرآن ليهديهم إلى مصالحهم وما ينفعهم، وينجيهم من عذاب الله عَزَّوَجَلَّ، إن هم تمسكوا به وعملوا به، ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾، هو مع قوم شفاء ورحمة، وهم المؤمنون، ومع قوم خسارة؛ لأنهم يكفرون به، ويحرمون من نفعه، ولا يزيدهم إلا العناد والاستكبار والسخرية، فلا يزيدهم إلا خسارًا؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾؛ في قلوبهم مرض الشك ومرض الشبهات والكفر والشرك، ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [التوبة:١٢٤، ١٢٥].

لم ينفعهم القرآن؛ لأن القرآن إنما ينفع من أقبل عليه وتقبله، أما من أعرض عنه، فإنه يكون حجة عليه، ولا يستفيد منه شيئًا؛ بل يزيده -والعياذ

بالله- تكبرًا وعنادًا وإعراضًا؛ كما قال تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ﴾ [طه:١٢٣، ١٢٤].

﴿فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ يعني: في الدنيا، معيشة هموم وأحزان وشكوك وكفر وإلحاد، وقيل: ﴿مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ يعني: في القبر، يعذب في قبره، ويكون قبره حفرة من حفر النار(١).

﴿وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِن بِآيَاتِ رَبِّهِ ۚ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه:١٢٤-١٢٧]، وكذلك يقول جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف:٣٦، ٣٧]، فمن قبل القرآن، وأقبل عليه، صار له هدى ونور وبصيرة وإيمان ورحمة وشفاء، ومن أعرض عنه، صار وبالًا عليه، حتى ولو كان يحفظه عن ظهر قلب، ولو كان يقرؤه بأحسن صوت وأحسن ترتيل، فإنه لا ينفعه؛ كما جاء في الحديث أن قومًا في آخر الزمان يقرؤون القرآن، ولا يتجاوز حناجرهم(٢)، لا ينتفعون به.

وسماه الله روحًا، سمى الله هذا القرآن روحًا؛ ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى:٥٢]: روح تحيا به القلوب؛ كما أن الأبدان تحيا بالروح

---

(١) انظر: تفسير الطبري (١٦/ ١٩٤- ١٩٨)، وتفسير ابن أبي حاتم (٧/ ٢٤٣٩- ٢٤٤٠)، وتفسير الماوردي (٣/ ٤٣١)، وزاد المسير (٣/ ١٨٠).

(٢) سبق تخريجه (ص٢٦٥).

المعروفة، فالقلوب تحيا بالقرآن، فهو روح لها، والقلوب التي لم يدخلها القرآن قلوب ميتة ليس فيها روح، وإن كانت حية ومتحركة حياة جسمانية، إلا أنها ميتة موتًا روحيًّا ومعنويًّا، ﴿رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾.

سماه الله هدى لأنه يهدي، ويدل، ويرشد إلى الحق، وسماه الله نورًا، ﴿وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا﴾ القرآن نور، ﴿جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى:٥٢].

الإنسان عندما يسير على نور يهتدي على الطريق، ويصل إلى الغاية، ويسلم من الأخطار، كذلك الذي يسير على القرآن هذا يسير في نور وعلى جادة واضحة آمنة من الأخطار، وأما الذي يسير على غير هدي القرآن، فإنه يسير في ظلمة، في ظلمات، ويقع في الحفر، ويقع في المهلكات، ويؤول به الأمر إلى النار، ويوم القيامة، ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾؛ أبواب النار -والعياذ بالله-، ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾: اعترفوا؛ لأنهم لا يقدرون أن يجحدوا شيئًا واقعًا، ﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الزمر:٧١]، اعترفوا أنهم جاءتهم الرسل، وتلت عليهم آيات الرب سبحانه، واعترفوا أنهم استحقوا العذاب -والعياذ بالله-، اعترفوا بهذا -نسأل الله العافية!

وقال تعالى في هذا القرآن: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ

بِٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [الإسراء:٩، ١٠]، فهذا القرآن يهدي للتي هي أقوم، أي: للطريقة التي هي أقوم وأعدل، أقوم يعني: أعدل؛ الطريقة المستقيمة.

﴿ وَيُبَشِّرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾، هذا القيد وهذا الشرط، إيمان وعمل، إيمان بالله عَزَّوَجَلَّ، وبكتبه، ورسله، وملائكته، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره، هذا هو الإيمان.

﴿ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾: يعملون ما أمر الله تعالى به، ويتركون ما نهى الله تعالى عنه، هؤلاء هم الذين يحصلون على هذه البشارة من الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ.

﴿ أَنَّ لَهُمۡ أَجۡرًا كَبِيرًا ﴾: أجر عظيم نفيس، لا يعلمه إلا الله سبحانه بسبب إيمانهم بهذا القرآن واتباعهم له.

﴿ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ ﴾: وهم الكفار الذين لم يعبؤوا بهذا القرآن، ولم يلتفتوا إليه أن لهم ﴿ لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾: مؤلمًا لا يوصف قدر ألمه وشدته -والعياذ بالله-، بسبب إعراضهم عن هذا القرآن العظيم الذي أنزله الله لهداية البشرية.

وهذا القرآن العظيم هو أعظم معجزة لنبينا محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ، النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ له معجزات كثيرة، لكن أعظمها وأبقاها هذا القرآن العظيم، وذلك لأن هذا النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ كان أميًّا لا يقرأ ولا يكتب، وهم يعرفون ذلك، قومه يعرفون ذلك أنه لا يقرأ ولا يكتب، ومع هذا جاء بهذا القرآن الذي أعجز البشرية، فدل على أنه من عند الله عَزَّوَجَلَّ، وليس من عند الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ؛ لأن أحدًا لا يقدر -لا الرسول ولا غيره-، لا أحد يقدر أن يأتي بشيء يشابه هذا القرآن أو يماثل هذا القرآن، وإنما هو كلام الله جَلَّ وَعَلَا ووحيه وتنزيله.

فهذا النبي الأمي الذي لا يقرأ ولا يكتب بلغ هذا القرآن العظيم للبشرية، هذا دليل على صدقه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأنه من عند الله؛ ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾ [النحل:١٠٣]؛ المشركون يقولون: الرسول تعلم هذا القرآن من عند أهل الكتاب، واحد من أهل الكتاب في مكة يعلم الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهذا الشخص أعجمي لا ينطق بالعربية، وهذا القرآن لسان عربي مبين؛ ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾ [النحل:١٠٣]: كيف يأتي الأعجمي بهذا القرآن الفصيح البليغ ولم يعرف أن الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جلس يتعلم أو يقرأ، بل عاش صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بين قومه أربعين سنة لم يكن يقرأ القرآن؟! ﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [يونس:١٦]، هذا الأمي يتحول في وقت قصير، يتحول إلى عالم أعلم البشرية، ويأتي بقرآن لم يأتِ قبله مثله، هذا يستطيعه بشر؟! هذا دليل على أنه من عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وأنه ليس من كلام البشر ولا من كلام محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأن قولهم: ﴿وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفرقان:٥]، يقولون: إن الرسول استملى هذه القصص، استملاها من أساطير الأولين، وهي الحكايات المأثورة عن الأولين، وجمعها وسماها قرآنًا، هكذا يقولون.

﴿وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا﴾، هو لا يكتب، لكن طلب من يكتبها له، انظروا لو قالوا: كتبها، قال الناس: تكذبون؛ لأن الرسول لا يكتب، لا، قالوا: ﴿ٱكْتَتَبَهَا﴾: طلب من يكتبها له، ﴿فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً

وَأَصِيلًا ﴾ [الفرقان:٥]، رد الله عليهم بقوله: ﴿ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [الفرقان:٦].

أيضًا هذا القرآن العظيم معجز من ناحية ألفاظه وبلاغته، فإن فصحاء العرب وأمراء البيان عجزوا أن يأتوا بسورة من مثله، وهم الخطباء المفوهون والشعراء والفصحاء تحداهم الله أن يأتوا بمثل هذا القرآن؛ بل تحدى الجن والإنس، ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء:٨٨]، انظروا هذه الآية نزلت على الرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وهو في مكة قبل الهجرة، وهو في بداية أمره، وهي تتحدى الجن والإنس أن يأتوا بمثل هذا القرآن، فهل أحد من الجن أو الإنس حاول أو أتى بشيء؟ ولا يزال التحدي مفتوحًا إلى أن تقوم الساعة، مع كثرة أعداء القرآن وكثرة الموتورين منه لا يستطيعون، هذا دليل على أنه من عند الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

فلما عجزوا أن يأتوا بمثل هذا القرآن، تحداهم الله أن يأتوا بعشر سور؛ ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ﴾ [هود:١٣]: حاولوا، القرآن هذا بلسان عربي، وأنتم عرب والذي جاء به عربي مثلكم، هيا هاتوا عشر سور تماثل هذا القرآن تمامًا، فحينئذ يكون لكم حجة. لم يقدروا أن يأتوا بعشر سور، ﴿ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [هود:١٤].

ثم تحداهم مرة ثالثة أن يأتوا بسورة؛ أن يأتوا بسورة واحدة، أقصر سورة، أن يأتوا بمثل: ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ [الإخلاص:١]، أو بمثل: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ

ﵟٱلۡكَوۡثَرَﵞ [الكوثر:١]، أو: ﵟإِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِﵞ [النصر:١]؛ أقصر سورة أن يأتوا بمثلها، جميع العرب وجميع الفصحاء والجن والإنس هيا هاتوا سورة واحدة مثل هذا القرآن، لم يستطيعوا مع شدة عداوتهم لهذا الرسول ولهذا القرآن، ما استطاعوا أن يأتوا بسورة.

ﵟوَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَﵞ [البقرة:٢٣]، هاتوا أناسًا يشهدون أن هذه السورة أنها مثل القرآن، هاتوا، حكموا أناسًا يقرؤون سورة من القرآن، ويقرؤون هذا الذي جئتم به.

ﵟوَٱدۡعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَﵞ: أو المعنى -والله أعلم-: استعينوا بمن شئتم من الجن أو من الإنس، استعينوا بمن شئتم، وفي الآية الأخرى: ﵟوَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِﵞ [يونس:٣٨]، استعينوا، هل بعد هذا التحدي تحدٍ؟!

قال الله جَلَّوَعَلَا: ﵟفَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْﵞ، يعني: لم تأتوا بسورة، ثم قال: ﵟوَلَن تَفۡعَلُواْﵞ [البقرة:٢٤]، لاحظوا المعجزة، ﵟوَلَن تَفۡعَلُواْﵞ: أخبر أنهم لايستطيعون في المستقبل إلى أن تقوم الساعة أن يأتوا بسورة، هذا خبرٌ من الله جَلَّوَعَلَا أن البشرية والجن والإنس لايستطيعون أن يأتوا بمثل سورة من القرآن.

ﵟوَلَن تَفۡعَلُواْﵞ، يعني: في المستقبل ﵟفَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَﵞ.

كذلك هذا القرآن معجزٌ من جهة معانيه، القرآن يشتمل على معان عظيمة، بحرٌ لا ساحل له، فيه أخبار الغيب الماضي والمستقبل وما حل بالأمم السابقة،

فيه الخبر عن خلق آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، بل الخبر عن خلق السماوات والأرض، وخلق آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ أبي البشرية، وما حصل من إبليس من حسده له، وما حصل من تكبره، وفيه أخبار الأمم السابقة مع الرسل، وكيف نجى الله الرسل وأتباعهم وأهلك الكفار وأتباعهم من ﴿قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ﴾ [التوبة:٧٠]، لما كذبوا الرسل، أهلكهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ﴾ [الحاقة:٨]، لم يبق لهذه الأمم أثرٌ على وجه الأرض إلا مبانيهم ومساكنهم تشهد بوجودهم وقوتهم، ولكن لم تغن عنهم قوتهم شيئًا؛ ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [الأنعام:١١]، ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج:٤٥،٤٦]، القرآن أخبرنا عن الأمم السابقة، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [القصص:٥٨]، ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا﴾ [النمل:٥٢]: بيوتهم إلى الآن موجودة، في ديار ثمود وفي غيرهم، وفي الفراعنة في مصر، موجودة آثارهم، ولم تغن عنهم شيئًا، وأصبحوا أثرًا بعد عين.

هذا القرآن يخبرنا عن الغيوب الماضية التي لم نشهدها، ولم يشهدها الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولم يرها، وإنما يخبره الله جَلَّ وَعَلَا عنها؛ ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَٰكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ﴾ [القصص:٤٤، ٤٥]، لم يكن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شاهدًا ما حصل

على الأمم السابقة، لم يشاهد ما حصل لموسى، وما حصل لنوح، وما حصل لهود، وما حصل لصالح، لم يشاهد هذا، ولم يحضره، وإنما الله جَلَّوَعَلَا يخبره عنه، فهذا دليل على أن هذا القرآن من عند الله؛ لأن الرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لم يكن يعلم هذه الغيوب الماضية، وإنما أخبره الذي يعلم السر في السماوات والأرض، هو الذي أخبره بذلك.

والغيوب المستقبلة يخبرنا عما يكون في آخر الزمان، وعند قيام الساعة، وما يكون في البعث والنشور، وما يكون في الآخرة من الأهوال، ومن المواقف الصعبة والأخطار، القرآن يخبرنا عن ذلك؛ الغيوب المستقبلة، يخبر عن الغيوب، هل الرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أو البشر يستطيع أن يخبر عن الغيب؟! لا يستطيع، إلا إذا أخبره الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وعلمه الله، وأطلعه الله على ما يشاء، فالغيب لله؛ ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النمل:٦٥].

كذلك هذا القرآن معجزٌ من جهة ما يشتمل عليه من الحِكم والأحكام، القرآن يشتمل على حكم وعلى أحكام عظيمة لا يمكن حصرها، وتتجدد في كل وقت، ويتبين ما لم يكن تبين في السابق من معاني هذا القرآن وما دل عليه، دل على أنه ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت:٤٢] سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

العلماء منذ أن نزل القرآن إلى الآن وهم يفسرون، ويكتبون التفاسير، وما أحاطوا بمعاني هذا القرآن الكريم؛ مما يدل على أنه من عند الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، فهو معجزٌ من جهة ما يشتمل عليه من الحِكم ومن الأحكام العظيمة، الأحكام الشرعية التي تحل مشاكل البشرية، وتدل على الصراط المستقيم، يستنتج منه

الفقيه من الأحكام ما يستطيع استنباطه، ويستنبط منه الآخر، يستنبط منه الثالث، وهو معين لا ينضب، القرآن معينٌ لا ينضب.

ومن إعجاز هذا القرآن: حلاوة لفظه وتراكيبه، بحيث إنك كلما سمعته كأنك لم تسمعه من قبل، لا يُمل منه مع الترداد والتكرار، كلام الناس إذا ردد مرة مرتين يملونه الناس، كلام مكرر ومعاد، ويقولون: هذا أثقل من الحديث المعاد. يضربون به المثل، هذا الشيء أثقل من الحديث المعاد. لكن القرآن كلما تكرر سماعك له وقراءتك له، تتجدد لذته، وتتجدد بهجته، فهذا دليل على أنه من عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وليس هو من كلام البشر، فهو معجز من كل وجه.

كذلك هو معجز من جهة لغته وتراكيبه؛ من جهة لغته وتراكيبه وبلاغته، هو أفصح الكلام وأصدق الكلام وأحسن الحديث؛ ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ﴾ [الزمر:٢٣]، هو أحسن القصص، ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾، يعني: الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ﴿أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٣﴾ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ﴾ [يوسف:٣، ٤]، هل الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حاضر مع يوسف وأبيه وما جرى بينه وبين إخوته؟!

وإنما الله جَلَّ وَعَلَا هو الذي قص عليه هذا، وأخبره بذلك، فهو معجزٌ -أيضًا- من جهة بلاغته وفصاحته وتراكيبه وحلاوته، وأنه لا يُمل مع كثرة الترداد، وكلما قرأه إنسان أو سمعه، فإنه يتلذذ به، وكأنه لم يسمعه من قبل، لا يُمل ولا يخلق عن كثرة الترداد؛ لأنه كلام رب العالمين.

فهذا القرآن أعظم نعمة وأعظم معجزة تدل على صدق هذا الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فإن المشركين لما اقترحوا على الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يأتي بآية،

﴿وَقَالُواْ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ﴾، قال الله جَلَّوَعَلَا: ﴿أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ﴾ [طه:١٣٣]، ألا يدل هذا على أنه كلام الله؟! ويكفي أنه حجة ومعجزة، أنه يقص عليهم ما في الصحف الأولى، ﴿أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ﴾، ﴿وَقَالُواْ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ﴾: يقترحون على الرسول أنه يأتي بآيات -يعني: معجزات- تدل على صدقه؛ ﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [العنكبوت:٥٠]: الرسول صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لا يأتي هو بالآيات، ولا البشر يأتون بالآيات، وإنما الذي يأتي بالآيات هو الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، فالمعجزة لا صنع للبشر فيها، وإنما هي من صنع الله جَلَّوَعَلَا، يجريها على يد عبده ورسوله، هذه المعجزة؛ ﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [العنكبوت:٥٠]، ثم قال: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾: ألا يكفي هذا معجزة؟! ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾، يعني: القرآن ﴿يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾، يطلبون معجزة بعد القرآن؟!

لا، ليس قصدهم الحق، وإنما قصدهم فقط التحدي والاعتراضات، وإلا لو كان قصدهم الحق، لعرفوا أن هذا القرآن هو كلام الله من أول وهلة؛ كما آمن به المؤمنون، من حين سمعوه عرفوا أنه كلام الله، فاستجابوا لله ولرسوله، وهم صحابة رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ومن تبعهم، لا يذهبون ويقولون: نريد آيات، ونريد معجزات. يكفيهم هذا القرآن، هذا القرآن يكفي؛ ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت:٥١]، ثم قال: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا﴾ [العنكبوت:٥٢]: هذا -أيضًا- من المعجزات أن الرسول صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يقول: الله

أمرني، وقال لي: افعل كذا، وأمرني بالجهاد، وأمرني، ويقول على الله. لو كان كاذبًا، لعاجله الله بالعقوبة؛ لأن الله لا يمهل من يتقول عليه؛ ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ﴾ [الحاقة:٤٤-٤٦]، لو أن هذا الرسول -وحاشاه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- تقوَّل على الله، لما أمهله الله عَزَّ وَجَلَّ؛ كما أهلك الكذابين -من مسيلمة الكذاب والأسود العنسي وغيرهم- ممن كذبوا على الله، وادعوا أنهم رسل من عند الله، عاجلهم الله بالعقوبة، ومحا أثرهم، وأزال آثارهم عن البلاد والعباد.

أما هذا الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإن الله يؤيده، وينصره، ويمده بالعون والتوفيق، فلو كان كاذبًا، لما أمهله الله.

﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا﴾ [العنكبوت:٥٢]: الله يشهد سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أنني لو كنت كاذبًا، لما أمهلني ولا تركني، ولأخذني كما أخذ الكذابين الذين يكذبون عليه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الذين يدعون أن الله أرسلهم وهم كذابون.

وفي الآية الأخرى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَسْتَ مُرْسَلًا﴾، رد الله عليهم بقوله: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا﴾: لو كنت غير مرسل، لما أمهلني الله عَزَّ وَجَلَّ، ولا تركني أقول عليه، وأتقول عليه، ولا نصرني، ولا أعانني.

هذا الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي دعا في وسط البشرية وهي مظلمة بالكفر والشرك، البشرية كلها مظلمة بالشرك والكفر، وبعثه الله وحده في مكة يدعو إلى الله ويجاهد، حتى أظهر الله هذا الدين، ونشره في العالمين، ألا يدل هذا على صدقه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وبقاء رسالته وكتابه وقرآنه إلى أن تقوم الساعة، هذا دليل على صدقه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ

عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الرعد:٤٣]: اسألوا أهل الكتاب الذين يعرفون المعجزات ويعرفون الرسل، يخبروكم، ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الرعد:٤٣]: يشهدون بأن هذا رسول الله، وأن هذا القرآن من عند الله، ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [العنكبوت:٤٧]، فهم يعرفونه سواء اتبعوه أو لم يتبعوه؛ كما قال الله جَلَّوَعَلَا: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:١٤٦].

أما علماء أهل الكتاب الذين من الله عليهم وانقادوا للحق لما عرفوه، قال الله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُوا۟ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [المائدة:٨٣-٨٥]، وذلك كالنجاشي ملك الحبشة، الذي كان نصرانيًّا، فلما سمع القرآن، قال: هذا والذي ينزل على موسى من مشكاة واحدة(١)، فآمن به واتبعه رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ولما مات في الحبشة، أعلم النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أصحابه بموته، وخرج بهم، وصلى عليه صلاة الغائب(٢).

---

(١) كما في الحديث الذي أخرجه أحمد (٣٧/ ١٧٠- ١٧٤)، من حديث أم سلمة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا، وفيه: «...فَقَالَ لَهُ النَّجَاشِيُّ: هَلْ مَعَكَ مِمَّا جَاءَ بِهِ عَنِ اللهِ مِنْ شَيْءٍ؟ قَالَتْ: فَقَالَ لَهُ جَعْفَرٌ: نَعَمْ. فَقَالَ لَهُ النَّجَاشِيُّ: فَاقْرَأْهُ عَلَيَّ. فَقَرَأَ عَلَيْهِ صَدْرًا مِنْ كهيعص. قَالَتْ: فَبَكَى وَاللهِ النَّجَاشِيُّ حَتَّى أَخْضَلَ لِحْيَتَهُ، وَبَكَتْ أَسَاقِفَتُهُ حَتَّى أَخْضَلُوا مَصَاحِفَهُمْ حِينَ سَمِعُوا مَا تَلَا عَلَيْهِمْ، ثُمَّ قَالَ النَّجَاشِيُّ: إِنَّ هَذَا وَالَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى لَيَخْرُجُ مِنْ مِشْكَاةٍ وَاحِدَةٍ...».

(٢) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (١٢٤٥)، ومسلم (٩٥١)، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: =

وكذلك ممن آمن من أحبار اليهود عبد الله بن سلام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في المدينة، عبد الله بن سلام في المدينة من أحبار اليهود، لما سمع هذا القرآن، آمن به.

كعب الأحبار ووهب بن منبه من يهود اليمن لما سمعوا هذا القرآن، آمنوا به واتبعوه، وهذا دليل على أن هذا القرآن من عند الله؛ لأن هؤلاء أهل كتاب، شهادتهم شهادة علماء، ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الرعد:٤٣].

شهادة العلماء شهادة مقبولة عند الله، ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [آل عمران:١٨]، وحتى الكفار منهم يعترفون أنه من عند الله؛ ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ [البقرة:١٤٦، ١٤٧].

فهذا القرآن هو كتاب الله عَزَّوَجَلَّ الذي أنزله رحمة للعالمين وشفاء لما في الصدور، وأنزله حجة للعباد أو حجة عليهم؛ كما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَالْقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ»(١)؛ حجة لك إن آمنت به واتبعته، أو حجة عليك إن خالفته وأعرضت عنه، فإنه يكون حجة عليك عند الله يوم القيامة؛ أن الله بلغك وأرسل إليك الرسول، وأنزل عليك الكتاب، فلم تقبل، فالقرآن حجة لك أو عليك.

= «أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَعَى النَّجَاشِيَّ فِي اليَوْمِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ خَرَجَ إِلَى المُصَلَّى، فَصَفَّ بِهِمْ وَكَبَّرَ أَرْبَعًا».

(١) سبق تخريجه (ص٣٨٢).

وهذا القرآن هو حبل الله المتين الذي بين الله وبين عباده، من تمسك به هداه الله، ووصل إلى الله جَلَّوَعَلَا، ومن أفلتت يده منه، ضل وضاع وهلك؛ كما أخبر النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ عن هذا القرآن بأنه حبل الله المتين، وهو الصراط المستقيم، وهو الذكر الحكيم، من تركه من جبار، قصمه الله، ومن ابتغى الهدى من غيره، أضله الله، إلى آخر ما جاء(١).

وقال صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «إِنِّي تَارِكٌ فِيكُمْ مَا إِنْ تَمَسَّكْتُمْ بِهِ لَنْ تَضِلُّوا: كِتَابُ اللهِ وَسُنَّتِي»(٢)، ومن هنا نعلم أن سنة الرسول صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وحي من الله، وأنها هي الوحي الثاني بعد القرآن، فهي من الله جَلَّوَعَلَا؛ لأن سنة الرسول صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ -وهي الأحاديث الثابتة عن الرسول صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ من أقواله وأفعاله وصفاته صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ- تفسر القرآن، السنة تفسر القرآن وتوضحه وتدل عليه، فهي

---

(١) كما في الحديث الذي أخرجه الترمذي (٢٩٠٦)، عَنْ الحَارِثِ، قَالَ: «مَرَرْتُ فِي المَسْجِدِ فَإِذَا النَّاسُ يَخُوضُونَ فِي الأَحَادِيثِ، فَدَخَلْتُ عَلَى عَلِيٍّ، فَقُلْتُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، أَلَا تَرَى أَنَّ النَّاسَ قَدْ خَاضُوا فِي الأَحَادِيثِ، قَالَ: وَقَدْ فَعَلُوهَا؟ قُلْتُ: نَعَمْ. قَالَ: أَمَا إِنِّي قَدْ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يَقُولُ: أَلَا إِنَّهَا سَتَكُونُ فِتْنَةٌ. فَقُلْتُ: مَا المَخْرَجُ مِنْهَا يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: كِتَابُ اللهِ، فِيهِ نَبَأُ مَا قَبْلَكُمْ وَخَبَرُ مَا بَعْدَكُمْ، وَحُكْمُ مَا بَيْنَكُمْ، وَهُوَ الفَصْلُ لَيْسَ بِالهَزْلِ، مَنْ تَرَكَهُ مِنْ جَبَّارٍ، قَصَمَهُ اللهُ، وَمَنْ ابْتَغَى الهُدَى فِي غَيْرِهِ، أَضَلَّهُ اللهُ، وَهُوَ حَبْلُ اللهِ المَتِينُ، وَهُوَ الذِّكْرُ الحَكِيمُ، وَهُوَ الصِّرَاطُ المُسْتَقِيمُ، هُوَ الَّذِي لَا تَزِيغُ بِهِ الأَهْوَاءُ، وَلَا تَلْتَبِسُ بِهِ الأَلْسِنَةُ، وَلَا يَشْبَعُ مِنْهُ العُلَمَاءُ، وَلَا يَخْلَقُ عَلَى كَثْرَةِ الرَّدِّ، وَلَا تَنْقَضِي عَجَائِبُهُ، هُوَ الَّذِي لَمْ تَنْتَهِ الجِنُّ إِذْ سَمِعَتْهُ حَتَّى قَالُوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ﴾ [الجن:٢]، مَنْ قَالَ بِهِ، صَدَقَ، وَمَنْ عَمِلَ بِهِ، أُجِرَ، وَمَنْ حَكَمَ بِهِ، عَدَلَ، وَمَنْ دَعَا إِلَيْهِ، هَدَى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ».

(٢) سبق تخريجه (ص٨٢).

تابعة للقرآن، والله جَلَّ وَعَلَا يقول: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [النساء:١١٣]، الكتاب هو القرآن، والحكمة هي سنة الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[1]، فهي منزلة من عند الله، ووحي من عند الله؛ كما قال تعالى في وصف النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم:٣، ٤]، ما نطق به الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الأوامر والنواهي والأحاديث الثابتة عنه، فليس هو من عنده صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإنما هو من عند الله أوحاه إليه، ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم:٣، ٤].

وهنا يقول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنِّي تَارِكٌ فِيكُمْ مَا إِنْ تَمَسَّكْتُمْ بِهِ لَنْ تَضِلُّوا: كِتَابُ اللهِ وَسُنَّتِي»[2]، سنة الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد كتاب الله عَزَّ وَجَلَّ فيهما الخير للبشرية والهداية والصلاح لمن تمسك بهم؛ «لَنْ تَضِلُّوا بَعْدِي»؛ من تمسك بالقرآن، تمسك بسنة الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلن يضل بعد الرسول، الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بشر يموت، ومات صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لا أحد في هذه الدنيا يبقى -لا الرسل ولا غيرهم-، يموتون، ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ۝٣٤ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ [الأنبياء:٣٤، ٣٥]، فالرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ توفي كما يموت غيره، ولكن دينه وشريعته والقرآن والسنة باقية إلى أن تقوم الساعة، فكأن الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ موجود بيننا، مادام هذا القرآن بين أيدينا وهذه السنة بين أيدينا، فكأن الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ موجود بيننا، ولكن يحتاج

---

(١) قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فالكتاب: هو الكلام المنزل الذي يكتب، والحكمة: هي السنة؛ وهي معرفة الدين والعمل به) النبوات (٢/ ٦٧٢). وانظر: الصفدية (١/ ٢٦٠)، والروح لابن القيم (ص٧٥).

(٢) سبق تخريجه (ص٨٢).

هذا منا إلى القيام بهذا الكتاب وهذه السنة والدعوة إليهما والعمل بهما حتى نحصل على الهداية.

ودل الحديث على أن من لم يتبع القرآن ولم يتبع السنة أنه يضل، يعني: يضل عن الصراط المستقيم، عن طريق الجنة، يتيه، يتيه عن طريق الجنة، ويسلك طريق النار؛ لأنه ترك الطريق الصحيح، وهو طريق القرآن؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام:١٥٣].

فصراط الله جَلَّ وَعَلَا هو الإسلام، وهو القرآن، وهو السنة، هذا صراط الله جَلَّ وَعَلَا، وهو الطريق الموصل إلى الله عَزَّ وَجَلَّ، فإذا كنت تريد الوصول إلى الله وإلى رضوانه، وتريد النجاة، فعليك باتباع القرآن واتباع سنة الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإن كنت تريد لنفسك الهلاك والضياع، فإنك تسلك السبل المتعددة.

سبيل الله واحد ليس فيه تعدد، مستقيم، معتدل، وأما ما عداه، فهي سبل كثيرة، كل له سبيل؛ كل شيطان له سبيل وله طريق، شياطين الإنس والجن كل واحد يدعو إلى اتباعه وإلى مبادئه ومذهبه، ومذاهب البشر لاتنحصر، ولا أحد منهم يتبع الآخر، كل واحد يريد له طريقًا لحاله، وكلها تؤول إلى النار؛ ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام:١٥٣]، وقد وضح النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هذه الآية الكريمة لأصحابه بأن خط خطًا مستقيمًا معتدلًا، وخط على جنبتيه خطوطًا كثيرة، وقال: «هَذَا سَبِيلُ اللهِ»، يعني: الخط المعتدل هذا سبيل الله، هذا تصوير من الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، «هَذَا سَبِيلُ اللهِ»، وقال للخطوط الأخرى: «وَهَذِهِ سُبُل» يعني: طرق، «عَلَى كُلِّ سَبِيلٍ مِنْهَا شَيْطَانٌ يَدْعُو

إِلَيْهِ»[١]، هذا توضيح من الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ما هو إلا القرآن والسنة النبوية، القرآن والسنة النبوية، ليس هناك طريق إلى الجنة غير الكتاب والسنة؛ «إِنِّي تَارِكٌ فِيكُمْ مَا إِنْ تَمَسَّكْتُمْ بِهِ لَنْ تَضِلُّوا: كِتَابُ اللهِ وَسُنَّتِي»[٢].

فإذا كنت تريد النجاة لنفسك والهداية، فعليك باتباع الكتاب والسنة، واترك ما خالف الكتاب والسنة مما قاله الناس، ما قاله الناس إن وافق الكتاب والسنة، فهو مقبول، وما خالف الكتاب والسنة، فهو مردود، مردود على قائله مهما كان؛ لأن العصمة لكتاب الله ولسنة رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وما عدا الكتاب والسنة فإنه عرضة للخطأ، ولو كان من قال به من العلماء.

المهم أنه ما وافق الكتاب والسنة، فهو حق، وما خالف الكتاب والسنة، فهو باطل، لكن إن كان صاحبه متعمدًا للضلال، فإنه -والعياذ بالله- ضال ومعذب، أما إذا كان مجتهدًا، يريد الحق، ولكنه أخطأه، وهذا فيه مجال للاجتهاد، فهذا كما قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِذَا اجْتَهَدَ الْحَاكِمُ فَأَخْطَأَ، كَانَ لَهُ أَجْرٌ، وَإِذَا اجْتَهَدَ فَأَصَابَ، كَانَ لَهُ أَجْرَانِ»[٣]، ولكن لا يجوز لنا أن نتبعه على الخطأ، هو مأجور لاجتهاده وإرادته الحق، لكن ما عمله من الخطأ نحن لا يجوز لنا أن نتبعه كائنًا من كان.

هكذا أوصانا الأئمة -أئمتنا- أن نتبع الكتاب والسنة، ونأخذ من أقوال العلماء والفقهاء ما وافق الكتاب والسنة وما دل عليه الكتاب والسنة، وأن نترك ما خالف الكتاب والسنة، هذا طريق النجاة لمن يريد النجاة لنفسه.

---

(١) أخرجه أحمد (٧/ ٤٣٦)، والنسائي في الكبرى (١٠/ ٩٥)، من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) سبق تخريجه (ص٨٢).

(٣) أخرجه الترمذي (١٣٢٦)، والنسائي في المجتبى (٥٣٨١)، وأبو يعلى في مسنده -واللفظ له- (ص١٩٤)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

والحمد لله، من نعمة الله على العباد أن هذا القرآن موجود كما أنزل على محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأن سنة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ موجودة محفوظة لم يتطرق إليها دخيل ولا كذب، كان العلماء يعتنون بها، وينحّون عنها كل كذب وكل دخيل، فأصبحت الأحاديث الصحيحة -ولله الحمد- مصونة ومحفوظة ومدونة برواية الثقات عن الثقات، والحمد لله.

فالطريق أمامنا موجود الآن -الحمد لله-، ولن ينتهي ولا يرفع إلا في آخر الزمان عند قيام الساعة، في آخر الزمان يرفع القرآن، ويرفع العلم، ويبقى الناس -والعياذ بالله- يتهارجون كتهارج الحمر، لا يعرفون حقًّا ولا باطلًا، وعند ذلك تقوم عليهم الساعة(١)؛ «**لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى لَا يُقَالَ فِي الْأَرْضِ: اللهُ، اللهُ**»(٢).

فهذا القرآن وهذه السنة -ولله الحمد- نعمة موجودة بين أيدينا، من أراد الحق وأراد الخير وأراد النجاة يتمسك بهذا القرآن وبهذه السنة النبوية، ما عرفه فالحمد لله، وما جهله يسأل عنه، يسأل أهل العلم، ويترك وينبذ كل ما خالف الكتاب والسنة من العوائد ومن البدع ومن المحدثات، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا، فَهُوَ رَدٌّ**»(٣)، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في رواية: «**مَنْ أَحْدَثَ فِي**

---

(١) كما في حديث ذكر الدجال الذي أخرجه مسلم (٢٩٣٧)، من حديث النواس بن سمعان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وفيه: «...**فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ بَعَثَ اللهُ رِيحًا طَيِّبَةً، فَتَأْخُذُهُمْ تَحْتَ آبَاطِهِمْ، فَتَقْبِضُ رُوحَ كُلِّ مُؤْمِنٍ وَكُلِّ مُسْلِمٍ، وَيَبْقَى شِرَارُ النَّاسِ، يَتَهَارَجُونَ فِيهَا تَهَارُجَ الْحُمُرِ، فَعَلَيْهِمْ تَقُومُ السَّاعَةُ**».

(٢) سبق تخريجه (ص٣٠٠).

(٣) سبق تخريجه (ص٩٢).

أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ، فَهُوَ رَدٌّ»(١)، فنحن -ولله الحمد- في غنى عن أقوال الناس إلا ما وافق الكتاب والسنة، والمرجع هو الكتاب والسنة؛ كما قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيْرٞ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ [النساء:٥٩]، والرد إلى الله هو الرد إلى القرآن، والرد إلى الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو الرجوع إليه في حياته، ولما توفي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يكون الرجوع إلى سنته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

---

(١) سبق تخريجه (ص٩٢).

أقسام الناس مع القرآن الكريم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على عبده ورسوله نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

أما بعد، فنواصل الحديث -إن شاء الله- على الآيات من أول سورة البقرة، وقد تقدم بعض الكلام على هذه الآيات؛ حيث إن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ذكر في أول هذه السورة أن الناس انقسموا مع القرآن إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: الذين آمنوا به ظاهرًا وباطنًا، وعملوا به، وقال الله في حقهم: ﴿أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة:٥].

القسم الثاني: الذين عارضوا القرآن، ولم يقبلوه ظاهرًا وباطنًا، وهؤلاء هم الكفار المصرحون بالكفر، وقد أخبر الله جَلَّ وَعَلَا أنه عاقبهم في الدنيا، ويعاقبهم في الآخرة، أما في الدنيا: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾ [البقرة:٧]، فلما لم يقبلوا الحق بعد معرفته، عاقبهم الله بفساد قلوبهم وعمى بصائرهم، فصاروا يحملون قلوبًا مختومًا عليها، مغلفة لا يصل إليها نور ولا هدى، وسد منافذ الهداية التي تنفذ إلى هذه القلوب، فختم على سمعهم، وجعل على أبصارهم غشاوة -غطاء-، فتمت خسارتهم وضلالهم، وفي الآخرة: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة:٧]، وهو الخلود في نار جهنم -والعياذ بالله-، هذا جزاء من أعرض عن القرآن ولم يقبله ولم يعمل به، هذا

جزاؤه الختم على قلبه وعلى سمعه وغطاء بصره بالغشاوة، الغطاء الذي لا يبصر معه الحق، ولا ينتفع بما يرى ولا بما يسمع، وفي الآخرة لا طمع له في رحمة الله، بل هو في عذاب عظيم مستمر أبد الآباد.

الصنف الثالث: قوم قبلوا هذا القرآن ظاهرًا، وأعلنوا إيمانهم ظاهرًا، ولكن لم تقبله قلوبهم، ولم يؤمنوا به في قلوبهم، وإنما يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم؛ لأجل أن يعيشوا مع الناس، ويأمنوا على دمائهم وأموالهم؛ لأنهم لايستطيعون مقاومة هذا الدين، لا يستطيعون مقاومته والوقوف في وجهه، ولا يستطيعون الذهاب إلى مكان آخر، فاحتالوا هذه الحيلة، قالوا: نعلن الإيمان ظاهرًا، ونحن على ما نعتقد في الباطن. وهؤلاء هم المنافقون، والنفاق ورد ذكره في القرآن في آيات كثيرة، وحذر الله منه ومن أهله في آيات كثيرة، فما هو هذا النفاق؟ ما هو النفاق؟ النفاق: هو إظهار الخير وإبطان الشر، هذا هو النفاق، النفاق هو إظهار الخير والإيمان والانقياد واضمار الشر وإخفاء الشر في القلوب، هذا هو النفاق، وينقسم إلى قسمين:

- نفاق أكبر يخرج من الملة، وصاحبه مخلد في النار، بل هو في أسفل النار؛ كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴾ [النساء:١٤٥].

- والقسم الثاني: نفاق أصغر، وذلك بأن يكون الإنسان مؤمنًا ظاهرًا وباطنًا، لا مؤمنًا في الظاهر فقط، بل هو مؤمن ظاهرًا وباطنًا، ولكن تصدر منه بعض التصرفات التي هي من صفات المنافقين، فإن المؤمن قد يكون فيه بعض صفات من صفات المنافقين، ويكون ناقص الإيمان، وذلك هو المذكور في قوله

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ»(١)، وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَعَهَا: إِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ، وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ»(٢).

والنفاق أول ما حدث في الإسلام بعد هجرة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى المدينة، في مكة لم يظهر النفاق؛ لأن المشركين والكفار مصرحون بكفرهم وشركهم، فلما هاجر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ودخل الأوس والخزرج في دين الإسلام، وكان في المدينة مجموعة من اليهود، وفيهم من الأعراب، وفيهم من أهل المدينة من لم يقبلوا الإيمان، ولم يدخلوا فيما دخل فيه الأوس والخزرج من أهل المدينة، هذه الأصناف من الأعراب ومن اليهود ومن أهل المدينة رأوا أن الدين قد ظهر، وأنهم لا حيلة لهم في مقاومته، فأظهروا الإسلام؛ حقنًا لدمائهم، وطمعًا في العيش مع المسلمين، وهم في الباطن على كفرهم، هؤلاء هم المنافقون، وهذا هو أصل النفاق ومبدأ النفاق، النفاق لا يظهر إلا مع قوة الإسلام، أما مع ضعف المسلمين، فإن الكافر والمشرك يصرح، لا يحتاج إلى النفاق، لكن مع ظهور قوة الإسلام لا يستطيع أكثر هؤلاء المجابهة، فلجؤوا إلى النفاق لأمرين:

الأمر الأول: من أجل أن يعيشوا مع المسلمين، ويأمنوا على دمائهم وأموالهم.

والأمر الثاني: ليكيدوا للإسلام من الداخل، ويعبثوا من الداخل؛ كلما حصلت في المسلمين نكبة أو مصيبة أو هزيمة، فرح هؤلاء وصرحوا بما

(١) أخرجه البخاري (٣٣)، ومسلم (٥٩)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٢) أخرجه البخاري (٣٤)، ومسلم (٥٨)، من حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

عندهم، وإذا قوي المسلمون، غاظهم ذلك؛ ﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا وَّهُمْ فَرِحُونَ﴾ [التوبة:٥٠]، ﴿الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ﴾ يعني: ينتظرون ماذا يحصل، ﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللَّهِ﴾، يعني: نصر من الله، ﴿قَالُوا أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾: يقولون للمسلمين: نحن معكم، ﴿وَإِن كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النساء:١٤١].

فهذه حالة المنافقين، وكما قال الله عنهم: ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَلَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ﴾ [النساء:١٤٣]، ليسوا مع المؤمنين، وليسوا مع الكفار، بل ينتظرون، فمن كان عنده لهم غبطة، ذهبوا إليه من المؤمنين أو من الكفار، هذه حالتهم ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ﴾، أي: ليسوا هم مع المسلمين ﴿وَلَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ﴾، أي: ليسوا هم مع الكفار في الظاهر، وإلا في الباطن هم مع الكفار، ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾ [النساء:١٤٣].

وهذه الآيات في هذه السورة عن المنافقين، وهي أربع عشر آية؛ من قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾، إلى قوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة:٨-٢٠].

أربع عشرة آية في المنافقين لفضيحتهم وبيان مكيدتهم للمسلمين، بل لقد أنزل الله فيهم سورة كاملة، سورة التوبة فضحتهم، ولذلك تسمى بالفاضحة؛ ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ﴾ [التوبة:٦٤].

وأنزل فيهم -أيضًا- سورة كاملة، هي سورة: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ﴾ [المنافقون:١]، وأنزل فيهم آيات متعددة في القرآن الكريم، ففي كثير من المواضع يذكر الله المنافقين ومكائدهم؛ ليكون المسلمون على حذر منهم، وليحذر المسلم من النفاق، وليصدق في إيمانه.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا﴾، هذه الآيات هي كلها في المنافقين، أربع عشرة آية، وذكر الله في هذه الآيات أن هؤلاء المنافقين النفاق الأكبر الاعتقادي ينقسمون إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: لم يدخلوا في الإسلام أصلا في الباطن وإنما دخلوا به في الظاهر فقط؛ ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَمَا هُم بِمُؤۡمِنِينَ ٨ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [البقرة:٨، ٩] إلى آخر الآية.

والقسم الثاني: قسم آمنوا إيمانًا صحيحًا ظاهرًا وباطنًا، لكنهم ارتدوا عن الإيمان، وصاروا مع الكافرين، ارتدوا عن الإيمان في الباطن، ولم يعلنوا الارتداد في الظاهر، لكنهم ارتدوا بعدما آمنوا؛ كما ذكر الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُمۡ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلۡعَبُۚ قُلۡ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمۡ تَسۡتَهۡزِءُونَ ٦٥ لَا تَعۡتَذِرُواْ قَدۡ كَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ﴾ [التوبة:٦٥، ٦٦]، فدل على أن عندهم إيمانًا في الأول، ثم ارتدوا وصاروا منافقين، وهؤلاء ذكرهم الله في هذه الآيات في قوله: ﴿مَثَلُهُمۡ كَمَثَلِ ٱلَّذِي ٱسۡتَوۡقَدَ نَارٗا فَلَمَّآ أَضَآءَتۡ مَا حَوۡلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمۡ وَتَرَكَهُمۡ فِي ظُلُمَٰتٖ لَّا يُبۡصِرُونَ﴾ [البقرة:١٧]، ﴿ٱسۡتَوۡقَدَ نَارٗا فَلَمَّآ أَضَآءَتۡ مَا حَوۡلَهُۥ﴾: دخلوا في الإيمان، واستضاؤوا بنور الإيمان، ثم

لم يلبثوا أن انحرفوا -والعياذ بالله -، ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [البقرة:١٧، ١٨].

والصنف الثالث: ذكرهم الله في قوله: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟﴾ [البقرة:١٩، ٢٠]، فهؤلاء تارة يلوح لهم الإيمان، فيتمسكون به، وتارة يظهر الكفر، فيتركون الإيمان، ويذهبون مع الكفر، فهم لهم حالة وحالة؛ متذبذبون، ﴿كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ﴾، إذا حصل لهم مطمعهم وحاجتهم، قبلوا الإيمان، وإذا اشتبه عليهم شيء أو التبس عليهم شيء، وقفوا وتوقفوا عن الإيمان؛ كما قال الله سبحانه: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ﴾، يعني: على طرف، ﴿فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ [الحج:١١]، فهؤلاء مزعزعون؛ تارة يؤمنون، وتارة يكفرون، هذا هو التزعزع وعدم الثبات، فهم يتقلبون حسب الظروف والأحوال.

أما المؤمن فإنه مؤمن في السراء والضراء، لا يتزحزح إيمانه ولا يتغير، مهما أصابه من النكبات ومن الفتنة ومن المحن فإن ذلك لا يغيره عن دينه، حتى ولو قتل، حتى ولو قتل على دينه، يصبر، هذا هو الصادق في إيمانه.

أما هؤلاء، فهم إنما يلجؤون إلى الإيمان في الرخاء وعند المطامع، فإذا حصل فتنة، أو حصل عليهم ضرر، أو حصل عليهم محنة، تركوا الإيمان؛ ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ

مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴾ [العنكبوت:١٠، ١١].

فالآية الأولى، وهي قوله: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ﴾ [البقرة:٨] يقولون بألسنتهم ويظهرون هذا، يشهدون ألا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، ويأتون إلى الرسول ويقولون: نشهد إنك لرسول الله، ﴿ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ﴾: يعلنون هذا، ﴿ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴾ [المنافقون:١]، ﴿ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ﴾ [الفتح:١١]، ﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً ﴾: سترة، فقولهم ﴿ نَشْهَدُ ﴾، هذا يمين، الشهادة يمين، سماها الله يمينًا، وقال: إنما هم يتخذونها جنة، يعني: سترة يتوقون بها، ﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [المنافقون:٢].

﴿ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ﴾، سبق أن الله ذكر المتقين، وأنهم الذين يؤمنون بالغيب، إلى قوله: ﴿ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ [البقرة:٤].

فالمؤمنون يؤمنون بالله وباليوم الآخر، أما المنافقون فإنهم يقولون: ﴿ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ﴾؛ كما يقول المؤمنون في الظاهر، لكن لا يعتقدون ذلك في قلوبهم، ولذلك قال: ﴿ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴾، حكم الله عليهم بأنهم كذبة، وأنهم ليسوا بمؤمنين، لماذا؟ لأنها لم توافق قلوبهم ما تنطق به ألسنتهم.

ثم قال جَلَّوَعَلَا: ﴿ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾، يعني: قصدهم من قولهم: ﴿ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ﴾، مع أنهم ليسوا كذلك في قلوبهم، لماذا فعلوا هذا؟ للخداع؛ ﴿ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ ﴾، هذا من جهلهم بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، هل الله يُخادَع أو

يُخفى عليه شيء؟ ﴿ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ ﴾، هذا بزعمهم، ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾، فيغررون بالمسلمين أنهم منهم وليسوا كذلك، ليسوا من المسلمين في الحقيقة.

والخديعة هي إظهار شيء وإبطان خلافه، هذه هي الخديعة والمكر، ﴿ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ بقولهم: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِ﴾ هذا من باب المخادعة؛ مثلما في الآية الأخرى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً ﴾ [المنافقون:٢] يعني: سُترة، وهنا اتخذوا إيمانهم مخادعة لله وللمؤمنين، قال الله جَلَّوَعَلَا: ﴿ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾؛ أما الله جَلَّوَعَلَا فإنه لا يخدع، وأما المؤمنون فإن الله ينتصر لهم، ويحميهم، ويحفظهم بإيمانهم الصادق، إذًا لا ينال المؤمنين منهم ضرر، وإنما الضرر يعود عليهم هم، فلما لم يؤمنوا بالله واليوم الآخر ظاهرًا وباطنًا، صار الضرر عليهم هم، ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾؛ حيث إنهم عرضوا أنفسهم لسخط الله وعقوبته.

﴿ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾، هذا من تمام جهلهم وعدم بصيرتهم أنهم لا يشعرون أن فعلهم هذا إنما هو خداع لأنفسهم، وأنهم لا يخدعون الله ولا يخدعون المؤمنين، لكن لا يشعرون أن ضرر هذا عائد على أنفسهم، يعني: لا يدرون، وذلك من جهلهم وعمى بصيرتهم، وإلا فالمؤمن الصادق يعلم أن سيئاته وذنوبه يرجع ضررها عليه على نفسه، فلذلك يتوب إلى الله عَزَّوَجَلَّ ويندم، بخلاف المنافق؛ فإنه لا يشعر بذلك، المؤمن يرى ذنبه كالجبل يخشى أن ينقض عليه، والمنافق يرى ذنبه مثل الذباب الذي وقع عليه وطار، هذا مثل المؤمن ومثل المنافق؛ المؤمن يخاف من الذنوب والمخالفات، فيرى إذا أذنب ذنبًا يخاف ويوجل؛ كأن عنده جبل يخشى أن ينهد عليه، فيبادر بالتوبة، وأما المنافق، فلا يهمه المعصية، بل

يفتخر بذلك؛ كأنه ذباب وقع عليه وطار، لم يحصل شيء[1]، ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ [البقرة:٩].

ثم بيَّن سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ السبب الذي حملهم على ذلك، فقال: ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾، السبب الذي حملهم على هذه المخادعة وهذا الكذب ما هو؟ هو أن في قلوبهم مرض، وهذا المرض هو الذي سبب لهم هذه الأعراض الخبيثة، والمراد: المرض المعنوي، فالمرض قسمان: مرض حسي، وهو المرض الجسمي الذي يسمونه العضوي، ومرض معنوي، هذا مرض القلوب، ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ أي: شك وريب، قلوبهم شاكة ومرتابة.

ومرض القلب ينقسم إلى قسمين: مرض شبهة، ومرض شهوة؛ مرض الشبهة مثل النفاق، هذا مرض شبهات -والعياذ بالله-، وهذا أشد، مرض شبهة: نفاق، شك، ريب، تردد في القلب، هذا مرض شبهة، وهو خطير جدًا.

وأما مرض الشهوة، فهو مثل محبة الشهوات المحرمة؛ كمحبة الزنا والسرقة وشرب الخمر، وهذا قد يصيب بعض المؤمنين، لكنهم يبادرون بعلاجه بالتوبة، فإن لم يبادروا بعلاجه، ربما يستفحل ويترقى إلى مرض الشبهة -والعياذ بالله-، هذا مرض الشهوة، محبة المعاصي والمخالفات التي توافق الهوى والنفس، هذا مرض شهوة، وذلك كما في قوله تعالى لنساء نبيه صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ

---

(١) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (٦٣٠٨)، عَنِ الحَارِثِ بْنِ سُوَيْدٍ، حَدَّثَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ مَسْعُودٍ، حَدِيثَيْنِ: أَحَدُهُمَا عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وَالآخَرُ عَنْ نَفْسِهِ، قَالَ: «**إِنَّ المُؤْمِنَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَأَنَّهُ قَاعِدٌ تَحْتَ جَبَلٍ يَخَافُ أَنْ يَقَعَ عَلَيْهِ، وَإِنَّ الفَاجِرَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَذُبَابٍ مَرَّ عَلَى أَنْفِهِ**» فَقَالَ بِهِ هَكَذَا، قَالَ أَبُو شِهَابٍ: بِيَدِهِ فَوْقَ أَنْفِهِ.

﴿بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٌ﴾ [الأحزاب:٣٢]، يعني: يطمع فيها أهل الشهوات وأهل الأمراض القلبية، بل عليها الستر والحفاظ على الحجاب، وتجنب أسباب الفتنة؛ لئلا يتعلق بها أصحاب القلوب المريضة بالشهوات.

﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾، وهذا المرض يشمل النوعين: في قلوبهم مرض شهوة ومرض شبهة -والعياذ بالله-، كلها في المنافقين.

﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾: ضاعف الله عليهم هذا المرض، حتى قتلهم وقضى عليهم، لما لم يبادروا بالتوبة وعلاج هذا المرض، تضاعف عليهم المرض، حتى قتلهم قتلًا معنويًّا.

﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ﴾: لهم عذاب مؤلم في الآخرة، لا يعلم شدة ألمه إلا الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، ﴿بِمَا كَانُواْ﴾ أي: بسبب كذبهم.

﴿بِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ﴾: (ما) وما دخلت عليه في تأويل مصدر، فيكون التقدير هكذا: ولهم عذاب أليم بكذبهم؛ حيث إنهم ادعوا الإيمان، وأعلنوا الدخول في الإسلام، وهم بخلاف ذلك، فهذا هو الكذب، وهذا أقبح الكذب -والعياذ بالله-، الكذب أن تخبر بالشيء على خلاف ما هو به في الواقع، هذا هو الكذب، فهم أخبروا أنهم آمنوا؛ ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾، هذا إخبار منهم، لكنه خلاف الواقع، هم في الحقيقة لم يؤمنوا بالله واليوم الآخر، فصار هذا من أسوأ الكذب -والعياذ بالله-، استحقوا به هذا الوعيد الشديد، ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمُۢ﴾ بسبب هذا الكذب.

ثم بين سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ صفاتهم حتى يعرفها المسلم: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ لَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحۡنُ مُصۡلِحُونَ﴾ [البقرة:١١].

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ لَا تُفۡسِدُواْ ﴾: هذا نهي، إذا نهوا عن الإفساد في الأرض، كيف الإفساد في الأرض؟ بالمعاصي؛ لأن المعاصي إفساد في الأرض، وأما الطاعات، فإنها عمارة للأرض، فإذا نهوا عن إفسادهم بالأرض في الذنوب والمعاصي، لا تفسدوا في الأرض بفعلكم هذا، بماذا يجيبون؟ ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحۡنُ مُصۡلِحُونَ ﴾، إنا عملنا هذا، هذا أصلح لنا وللناس أننا نعيش مع هذا ومع هذا، نعيش مع المؤمنين ونعيش مع الكفار، هذا أصلح لنا من أننا نعادي الكفار ونقاتلهم ونقف في وجوههم كما يعمل المسلمون.

فالمسلمون في زعم هؤلاء ليسوا مصلحين في إعلان إيمانهم ظاهرًا وباطنًا، إنما الصلاح هو الذي تارة يكون كذا وتارة يكون كذا، أينما الريح مالت مال حيث تميل، هذا هو المصلح بزعمهم، ويريد أن يعيش مع الفريقين مع المؤمنين ومع الكفار، ويعيش في حالة الرخاء وفي حالة الشدة على حد سواء، هذا هو الإصلاح بزعمهم.

وهذه المقالة يرددها منافقو اليوم الذين إذا نهوا عن المعاصي، وقيل لهم: لا تفسدوا في الأرض بالمخالفات الشرعية، بجلب عادات الكفار وأعمال الكفار إلى بلاد المسلمين، لا تتولوا الكفار، لا تحبوا الكفار، أبغضوهم، ابتعدوا عنهم، لا تسافروا إلى بلادهم للنزهة وتقطيع الوقت، قالوا: لا، هذا إصلاح، نعيش مع الفريقين ونجمع بين المتضادات، هذا الإصلاح بزعمهم وفهمهم المنكوس، ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحۡنُ مُصۡلِحُونَ ﴾ [البقرة:١١].

قال الله جَلَّوَعَلَا ردًا عليهم: ﴿ أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡمُفۡسِدُونَ ﴾، فحصر الإفساد فيهم، ﴿ وَلَٰكِن لَّا يَشۡعُرُونَ ﴾: هذا من عمى بصيرتهم؛ حيث اعتقدوا الفساد صلاحًا، واعتقدوا الصلاح فسادًا، هذا لجهلهم المركب.

فإن الجهل على قسمين: جهل بسيط، وهو عدم معرفة الحق، عدم معرفة الحق هذا جهل، والجهل المركب هذا أشد، وهو أن يعرف أنه لا يعرف الحق، لكن يدعي أنه يعرف، فالجاهل هو الذي يجهل، ويجهل أنه يجهل، أو تقول الجاهل المركب هو الذي لا يدري، ولا يدري أنه لا يدري.

هذه حالة المنافقين: لا يدرون، ولا يدرون أنهم لا يدرون، بل يدّعون أنهم علماء، وأنهم أهل حذق وأهل سياسة وأهل تدبير، هذا هو الجهل المركب -والعياذ بالله-، الذي يدعي صاحبه العلم وهو جاهل، ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾ أن ما هم عليه هو الفساد.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ﴾: كما آمن الصحابة، ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة:٣، ٤]، إذا قيل لهم: صيروا مثل هؤلاء، ﴿ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ﴾ ظاهرًا وباطنًا، واصدقوا مع الله ومع الناس، اصدقوا، ﴿قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ﴾، فيسمون صحابة رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من المهاجرين والأنصار وصفوة الخلق يصفونهم بالسفه، والسفه خفة العقل.

فهؤلاء الصحابة بزعم المنافقين سفهاء أي: عقولهم خفيفة، وإدراكهم ضعيف، لا يدركون الأمور، ولذلك صرحوا بالإيمان ظاهرًا وباطنًا، وجاهدوا وقاتلوا الكفار وأعلنوا بغضهم، هذا يدل على قصور أفهامهم، ولو كان عندهم عقول تامة، لتصالحوا مع الناس ومع البشر؛ لأجل أن يدخلوا مع هؤلاء ومع هؤلاء، هذا هو العقل عندهم، وهذه كلمة تردد إلى الآن.

أهل الشر وأهل الفسق وأهل النفاق يصفون أهل الاستقامة بالجهل وبقصور النظر وبالسفاهة وبالتأخر وبالرجعية، إلى آخر الأوصاف، فلا تزال هذه المقالة متوارثة عند هؤلاء.

قال الله جَلَّوَعَلَا: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ﴾، هذا رد عليهم، فالسفيه في الحقيقة هو الذي رفض الحق وأخذ الباطل، هذا هو السفيه ضعيف العقل، ضعيف التفكير الذي أخذ الباطل وترك الحق هذا هو السفيه.

أما الذي أخذ الحق وترك الباطل، فهذا هو العاقل المحنك، هذا حكم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بين الفريقين، ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾: لا يعلمون أنهم هم السفهاء، بل يظنون أن المؤمنين هم السفهاء.

الصفة الثالثة من صفاتهم: ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ [البقرة:١٤].

﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾: صاروا مع المسلمين في المجالس أو في المسجد، ﴿قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا﴾: نحن مثلكم مسلمون، دربنا دربكم، نحن معكم مسلمون، ويستغفرون ويصلون، ويتظاهرون بالعبادة مع الناس ﴿إِنَّا مَعَكُمْ﴾.

﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ﴾: ذهبوا إلى أئمة الكفر، إذا خلا المجلس من المؤمنين، ولم يكن فيه إلا الكفار من اليهود والمشركين وأئمة الكفر، إذا خلا المجلس من المؤمنين، وصار ليس فيه إلا الكفار، ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ﴾، ولكن أظهرنا الإسلام، وأظهرنا أننا مع المسلمين من باب الاستهزاء، ﴿إِنَّا مَعَكُمْ﴾ يا معشر الكفار، يا معشر اليهود، يا معشر

المشركين وعبدة الأوثان نحن معكم، ولكننا ابتلينا بهؤلاء، فأظهرنا لهم أننا مؤمنون من باب الاستهزاء، نريد نخدعهم بذلك، خديعة لهم؛ كما قال في أول الآيات: ﴿ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ [البقرة:٩].

﴿إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ﴾، يعني: في إظهارنا الإيمان والدين مع الناس هو من باب الاستهزاء بهم وخديعتهم، ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾، ولسنا صادقين في قولنا: آمنا بالله واليوم الآخر، فنحن لا نزال على عقيدتكم وعلى دينكم، وإنما لجأنا إلى هذه الحيلة لأجل أن نأمن على أنفسنا وعلى دمائنا وأموالنا؛ لأن هؤلاء ظهروا الآن، وصار لهم دولة، وصار لهم شأن، نحن لا نستطيع أن نصارحهم بالكفر، لكن نتظاهر معهم بالإيمان.

فهؤلاء لهم وجهان: وجه مع المؤمنين، وهو إظهار الإيمان، ووجه مع الكفار، وهو إظهار الكفر، والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**تَجِدُ مِنْ شَرِّ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ اللهِ ذَا الْوَجْهَيْنِ، الَّذِي يَأْتِي هَؤُلَاءِ بِوَجْهٍ، وَهَؤُلَاءِ بِوَجْهٍ**»(١).

المؤمن الصادق لا يتغير، لا تتغير مواقفه، دائمًا على الإيمان، ودائمًا أقواله وأفعاله الصدق والإيمان، لا يتغير، هذا علامة قوة الإيمان وصحة الإيمان.

رد الله عليهم بقوله: ﴿ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ﴾، هذه عقوبة لهم، ﴿ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ﴾ بمعنى: أنه يمهلهم، ويعافيهم، ويستدرجهم حتى تعظم آثامهم، فيعظم عذابهم -والعياذ بالله.

والاستهزاء من الله حق، ليس هو الاستهزاء المذموم؛ لأنه استهزاء بحق وعدل منه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ لأنه جازى هؤلاء بما يليق بهم، وهذا هو العدل، أما

---

(١) أخرجه البخاري (٦٠٥٨)، ومسلم (٢٥٢٦)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الاستهزاء من الخلق، فإنه مذموم، ولا يجوز؛ لأنه بغير حق، الاستهزاء من الخلق هذا مذموم، وهو من كبائر الذنوب، لا يجوز للإنسان يستهزئ بالناس، أما الاستهزاء من الله، فهو من باب المقابلة والجزاء على العمل، فهو يجزي المستهزئ بالاستدراج، ويعطيه العافية والنعمة حتى يستمر على شره، وحتى يغتر بحاله، ثم يموت على هذه الحالة -والعياذ بالله-، ولو أراد الله بهم خيرًا، لعاجلهم بالعقوبة من أجل أن يتوبوا ويرجعوا، لكنه استدرجهم، ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً﴾ [الأنعام:٤٤]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾ يعني: القرآن، ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ﴾ [القلم:٤٤، ٤٥]، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [آل عمران:١٧٨].

فالله يستدرج الكفار، ويستدرج المنافقين، ويمهلهم ويعافيهم ويرزقهم من أجل أن يزيدوا من الكفر والنفاق؛ عقوبة لهم حتى يعظم عذابهم، وحتى لا يتوبوا ويرجعوا إلى رشدهم -نسأل الله العافية-، استدراج.

﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾: يمهلهم، ولا يعاجلهم بالعقوبة؛ من باب الاستدراج لهم، ﴿يَعْمَهُونَ﴾: العمه هو الضلال والبعد عن الهدى، هذا هو العمه، وأما العمى فهو فقد البصر، العمى فقد البصر وهذا يكون في العينين، وأما العمه، فهو فقد الهداية، وهذا يكون في القلب[1]، وهذا

---

(١) قال الأزهري: (وَمعنى يعمهون: يتحيّرون. وَقد عَمِه يعمَه عَمَهًا. وَقَالَ بَعضهم: العَمَه فِي الرَّأْي والعَمَى فِي الْبَصَر) تهذيب اللغة (١/ ١٠٦). وانظر: الصحاح (٦/ ٢٢٤٢)، ولسان العرب (١٣/ ٥١٩).

أشد، قال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج:٤٦].

﴿وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ﴾، والطغيان هو الخروج عن الحق، المجاوزة للحق هذا هو الطغيان، ﴿يَعْمَهُونَ﴾ يعني: يتخبطون ويضلون، فهم يعيشون على ضلال في حياتهم حتى يأتيهم الموت من غير توبة ومن غير رجوع، هذا أشد العقوبة من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهذا جواب لمن يقول: لماذا المنافقون يعملون الأعمال هذه ولا يأتيهم خلاف ولا يأتيهم عقوبات، لماذا؟ الجواب: هو ما ذكره الله أن هذا من باب الاستدراج لهم، ولو جاءتهم العقوبات، لكان خيرًا لهم، فلما لم تأتهم العقوبات، وأقاموا على الكفر وعلى النفاق، هذا شر لهم -نسأل الله العافية.

يقول بعض الناس: ما بال المسلمين الآن ضعفة ومتأخرون، وبلادهم فيها جدب وفيها جفاف، وبلاد الكفار مخصبة وفيها أمطار وفيها مناظر جميلة؟!

نقول: يا أخي، هذا من باب الاستدراج، والله أراد بالمسلمين خيرًا؛ حيث أصابهم ببعض ذنوبهم من أجل أن يتوبوا ويرجعوا إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ويحاسبوا أنفسهم، أما أولئك فإن الله استدرجهم، ثم يأخذهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أخذ عزيز مقتدر وهم على كفرهم، ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ [الأنعام:٤٤، ٤٥]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الحج:٤٨]، فلا يغتر بإمهال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ واستدراجه؛ لأن هذا عقوبة وإملاء وإمداد لهم في الزيادة من الكفر

والنفاق، ﴿ قُلْ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّاۚ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ﴿٧٥﴾ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ هُدًىۗ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴾ [مريم:٧٥، ٧٦].

﴿ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [البقرة:١٥]، ثم ضرب لهم مثلًا يوضح حالهم، فقال: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴾ [البقرة:١٦].

﴿ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ ﴾: استبدلوا الضلالة، أخذوا الضلالة، وتركوا الهدى، كأنهم باعوا الهدى، وأخذوا الثمن، وهو الضلالة، اعتاضوا عن الهدى بالضلال، وهل هذا إلا عين الخسارة؟ الذي يشتري الضلال، ويبيع الهدى ويتركه، هل هذا إلا عين الخسارة في هذه التجارة؟ هذه تجارة خاسرة، ﴿ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ ﴾: تجارة خاسرة -والعياذ بالله!

فالذي يشتري الضلال بالهدى هذا هو الخاسر، أما العكس وهو الذي يشتري الهداية بالضلال، يعني: يأخذ الهداية، ويترك الضلال، فهذا هو الرابح، تجارته رابحة؛ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّٰتِ عَدْنٍۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَاۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الصف:١٠-١٣]، هذه هي التجارة الرابحة.

﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ﴾، وهؤلاء هم الصنف الأول من المنافقين، الذين أعلنوا الإيمان وأبطنوا الكفر من أول مرة، وهم أخبث المنافقين.

الصنف الثاني: ﴿مَثَلُهُمۡ كَمَثَلِ ٱلَّذِي ٱسۡتَوۡقَدَ نَارٗا﴾، وهؤلاء هم الذين آمنوا في الأول، ثم ارتدوا، ﴿مَثَلُهُمۡ كَمَثَلِ ٱلَّذِي ٱسۡتَوۡقَدَ نَارٗا﴾، هذا مثل للذين آمنوا في الأول، فهم مثل الذي استوقد نارًا استدفأ بها من البرد، وعمل عليها مصالحه من الطبخ وغير ذلك، وأضاءت له ما حوله، فصار يبصر ما حوله، ويأمن من الحشرات والمؤذيات والأفاعي وغير ذلك، عنده نور.

فهم دخلوا في الإيمان، واستفادوا منه، وذاقوا طعمه في الأول، ثم إنهم انقلبوا -والعياذ بالله-، ﴿ٱسۡتَوۡقَدَ نَارٗا فَلَمَّآ أَضَآءَتۡ مَا حَوۡلَهُۥ﴾، وأبصر ورأى؛ لأن الإيمان نور، الإيمان نور في القلب، ﴿فَلَمَّآ أَضَآءَتۡ مَا حَوۡلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمۡ وَتَرَكَهُمۡ فِي ظُلُمَٰتٖ لَّا يُبۡصِرُونَ﴾، لما ارتدوا، انطفأ النور الذي معهم، وفقدوا الإيمان، فصاروا في ظلمات.

وكون الإنسان يدخل في ظلمة بعد النور هذا أشد مما لو كان في الظلمة من الأول، كونه في نور وفي بصر، ثم ينطفئ النور، ماذا تكون حاله؟ يكون أشد، ويشتد عليه الخوف.

مثلًا مصباح الكهرباء الآن مضيء للناس، لكن لو انطفأ، ماذا تكون حالة الناس؟ هذا محسوس، مثل محسوس، لكن الإيمان والكفر أشد من ذلك، الإيمان نور، والكفر ظلام -والعياذ بالله-، فكونه يأتي الظلام بعد النور هذا أشد.

﴿وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَٰتٍ﴾ انظر! ﴿فِي ظُلُمَٰتٍ﴾، ليست ظلمة واحدة، ظلمات كثيرة، يعني: ظلمات متراكمة -والعياذ بالله-، ﴿فِي ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ﴾ ما تحت أقدامهم، لا يبصرون ظلمة؛ ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور:٤٠]، المراد نور الإيمان، قد يكون الإنسان في نور الكهرباء وفي نور ساطع، لكنه في ظلمة في قلبه، يكون في ظلمة في قلبه، قد يكون الإنسان في ظلمة ليس عنده كهرباء، لكن عنده نور في قلبه وعنده إيمان.

﴿وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَٰتٍ﴾: ظلمات الشك والشرك والكفر والشهوات -والعياذ بالله-، ﴿لَّا يُبْصِرُونَ﴾.

ثم إن الله سلب سمعهم وأبصارهم، فما رأيكم في إنسان في ظلمات وهو لا يسمع؟ ليس عنده سمع، وليس عنده بصر ماذا تكون حاله؟ أصم، أعمى، في ظلمات ماذا تكون حاله؟

﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ﴾، وأيضًا أبكم لا ينطق، حتى يصيح أو ينادي من ينقذه، أبكم لا يستطيع يتكلم، ﴿صُمٌّۢ﴾ عن سماع الحق، ﴿بُكْمٌ﴾ عن النطق بالحق، ﴿عُمْىٌ﴾ عن رؤية الحق، ماذا تكون حالهم حينئذ؟

﴿وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾: لا يرجعون إلى الحق بعد ذلك؛ لأن الرجوع تعذر عليهم، انقطع عليهم خط الرجعة -كما يقولون-، لا يستطيعون الرجوع، ولا يميزون بين الحق والباطل، ولا يسمعون الحق، ولا يبصرون الحق، ولا ينطقون بالحق، هذا الصنف الثاني.

الصنف الثالث: ﴿ أَوۡ كَصَيِّبٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾، هؤلاء تارة وتارة؛ تارة يصير عندهم بعض الإيمان، وتارة يصير عندهم نفاق وتذبذب بحسب الأحوال.

﴿ أَوۡ كَصَيِّبٖ ﴾، وهو المطر، ﴿كَصَيِّبٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ يعني: مطر ينزل من السماء.

المال في القرآن الكريم

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٨١﴾ فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة:١٨١، ١٨٢]، أيها المسلم، من الله عليك بهذا المال الذي خولك إياه وملكك إياه لتستفيد منه في دنياك وآخرتك، فهو مال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، تستفيد منه في دنياك، تنتفع به في دنياك، ولكن لا تنس الآخرة، قدم لها من هذا المال ما تجده عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في قصة قارون الذي آتاه الله الأموال، ونصحه أهل الإيمان، قالوا له: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص:٧٧]، الله جَلَّ وَعَلَا في كثير من الآيات يقول: ﴿أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَـٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَـٰعَةٌ ۗ وَٱلْكَـٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ [البقرة:٢٥٤]، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُوا۟ فِيهِ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ [البقرة:٢٦٧]، ويقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [البقرة:٣].

فلا تحسب أن هذا المال ملكك، وتخزنه، وتجعله رصيدًا في البنك، ولا تنفق منه شيئًا، فتحرم نفسك من منفعة هذا المال، النفع الأعظم هو في الآخرة، أما

الدنيا فنفعها محدود، لكن النفع العظيم والدائم والباقي هو في الآخرة؛ أن يتنبه لنفسه، ويقدم من هذا المال ما يجده عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾ [المزمل:٢٠]، الذي تقدمه لا يضيع عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ بل يضاعف أضعافًا كثيرة، والذي تؤخره هذا ليس لك، هذا لغيرك، هذا للورثة، للورثة ما أخرت، الله جعل هذا المال متنقلًا من يد إلى يد، فبادر قبل أن يؤخذ منك ويعطى لغيرك، بادر أن تقدم لنفسك منه، واحرص على الكسب الطيب والكسب الحلال؛ لأن الكسب الحرام لا ينفعك، ولو تصدقت منه لا يقبل؛ «**إِنَّ اللهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا**»(١).

فاحرص على أن تقدم لنفسك، وأن يكون ما تقدمه من كسب حلال وبنفس طيبة، أيضًا لو أنفقت وأنت كاره، فإنه -أيضًا- لا يقبل منك، قال الله جَلَّ وَعَلَا في المنافقين: ﴿وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَـٰرِهُونَ﴾ [التوبة:٥٤]، فتكون نفسك طيبة، وأيضًا لا تمنن بما أنفقت، لا تمنن به على الفقراء والمحتاجين؛ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ﴾ [البقرة:٢٦٤]، وقبلها يقول: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَـٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى ۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ ۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن

(١) أخرجه مسلم (١٠١٥)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ ﴾ [البقرة:٢٦١-٢٦٤] الآية.

فليكن ما تنفقه من كسب حلال طيب، وليكن بنفس طيبة راغبة فيما عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ حتى تجده مدخرًا لك، فأنت ما دمت صحيحًا، فلك أن تتصدق بما شئت، ولو تصدقت بمالك كله، لا أحد يعترض عليك، هذا مالك، تصدق منه بما شئت، وقدم لنفسك ما شئت، إذا كنت في حال الصحة.

أما إذا جاء المرض -مرض الموت-، إذا جاء مرض الموت، فإنك حينئذ لست حرًّا في هذا المال، يحجر عليك، لا تتصرف فيه إلا بما رخص الله لك به، وهو الثلث، ثلث مالك هذا فأقل، توصي بالثلث فأقل، أما ما زاد عن الثلث، فلا يجوز إلا برضا الورثة بعد الموت، فيحجر عليك في مرض الموت.

أما في حال الصحة، فلا أحد يعترض عليك، تنفق ما شئت في طاعة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، لو تنفق الآلاف ومئات الآلاف والملايين، لا أحد يعترض عليك، لكن عند مرض الموت تمنع، إلا من الثلث فأقل، تنبه لذلك.

وفي هذه الآيات يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ ﴾ [البقرة:١٨٠].

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ ﴾: كتب يعني: فرض، الكتب معناه: الفرض والإيجاب، ﴿إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ ﴾ أي: ظهرت علامات الموت، إذا ظهرت علامات الموت على المريض، هذا معنى حضور الموت، حضور الموت ظهور علاماته في المريض.

وأيضًا ﴿إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾: إذا وقع في خطر، ليس هو بمريض، لكنه وقع في خطر يخشى عليه من الموت؛ مثل إذا كان في المعركة في القتال، فهذا أشد من مرض الموت؛ لأن الخطر فيه أشد.

أو أراد أن يسافر، فكذلك هذا فيه خطر، السفر فيه خطر، فالمراد ﴿إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ يشمل -أيضًا-، يشمل إذا ظهرت علامات الموت على المريض، ويشمل إذا وقع في خطر -ولو كان الإنسان صحيحًا-؛ لأن احتمال الموت أكثر.

﴿إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا﴾، الخير هو المال الكثير، فالمال خير، قال الله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ [العاديات:٨] أي: لحب المال، فالمال خير، ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا﴾ أي: مالًا كثيرًا، أما إذا ترك مالًا قليلًا، فالأحسن له ألا يوصي؛ بل يتركه للورثة، ولا يضايقهم، أما إن كان المال كثيرًا، فإنه يستحب له أن يوصي.

﴿ٱلْوَصِيَّةُ﴾، والوصية من الوصي وهو الوصل، فالموصي سمي موصيًا؛ لأنه وصل ما بعد الموت بما قبل الموت، فالوصية هي الإذن بالتصرف في ماله بعد موته هذه هي الوصية، هي الإذن بالتصرف في ماله بعد موته(١).

---

(١) **الوصيّة**: لغة: الإيصاء، من وصى الشيء بكذا أي: وصله به؛ لأن الموصي وصل خير دنياه بخير عقباه. ينظر: الزاهر في غريب ألفاظ الشافعي (ص١٨١)، والنظم المستعذب (٢/ ٩٦)، وتحرير ألفاظ التنبيه (ص٢٤٠)، والمصباح المنير (٢/ ٦٦٢).

وفي الاصطلاح: الْأَمْرُ بِالتَّصَرُّفِ بَعْدَ الْمَوْتِ. ينظر: المغني لابن قدامة (٨/ ٣٨٩)، وكفاية النبيه (١٢/ ١٢٤)، وعجالة المحتاج (٣/ ١٠٧٨)، والمبدع في شرح المقنع (٥/ ٢٢٧).

﴿ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾ كان في أول الأمر يجب على من حضره الموت وعنده مال كثير، يجب عليه أن يوصي لوالديه لأبيه وأمه والأقربين من إخوته وأخواته وأولادهم وأعمامه وعماته وأولادهم، وأخواله وخالاته، هؤلاء هم الأقربون؛ الأقرب فالأقرب، ما كان أقرب منهم للإنسان فهو أحق، ولهذا قال: ﴿وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾، ولم يقل: والقرابة؛ لأن القرابة تشمل البعيد والقريب، ولكن الأقرب هذا يعني: أن القرابة درجات بعضها أقرب إلى الإنسان من بعض، فهو يبدأ بأقرب الناس إليه، فيوصي له من ماله.

﴿ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾، ثم قال: ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾، يعني: بما جرت به العادة من غير إسراف في الوصية، فيضر الورثة، وإنما يوصي بما جرت به العادة، ولا يضر بالورثة.

ثم قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾ حقًّا أي: الوصية للوالدين والأقربين حق، ومعنى حق أي: واجب، ﴿حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾: أهل التقوى الذين يعملون بطاعة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، يرجون ثوابه، ويتركون معصية الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ خوفًا من عقابه، هؤلاء هم المتقون، سموا بالمتقين؛ لأنهم جعلوا بينهم وبين عذاب الله وقاية تقيهم وتحول بينهم وبين العذاب وبين النار، ولا يقي من النار يوم القيامة إلا الطاعة والأعمال الصالحة وترك المحرمات والمعاصي، هذا هو الذي يقي من عذاب الله يوم القيامة.

﴿حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾، فدلت هذه الآية على وجوب الوصية للوالدين والأقربين لمن كان عنده مال كثير، ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا﴾؛ لمن كان عنده مال كثير، فإنه يجب عليه أن يوصي من هذا المال لوالديه، ويوصي لأقرب الأقربين إليه،

هذا كان في أول الأمر، ثم أنزل الله جَلَّوَعَلَا بعد ذلك آيات المواريث في سورة النساء: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ ۚ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ [النساء:٧]، ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۚ فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ ۖ وَإِن كَانَتْ وَٰحِدَةً فَلَهَا ٱلنِّصْفُ ۚ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌ ۚ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ ۚ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ ۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِى بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ۗ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا ۚ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١﴾ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَٰجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ ۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ۚ وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم ۚ مِّنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ۗ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمْرَأَةٌ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ ۚ فَإِن كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَآءُ فِى ٱلثُّلُثِ ۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَآرٍّ﴾ [النساء:١١-١٢]، وقال في آخر السورة: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ ۚ إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ ۚ وَإِن كَانُوٓا۟ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۗ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ﴾ [النساء:١٧٦].

فلما نزلت هذه الآيات -آيات المواريث-، نسخت آية البقرة: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ ﴾ [البقرة:١٨٠] إلى آخر الآية، نسختها آيات المواريث، وقال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّ اللهَ قَدْ أَعْطَى كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ، فَلَا وَصِيَّةَ لِوَارِثٍ**»، رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح، ورواه غيره[1].

فنسخت آيات المواريث آية البقرة، فلا تجوز الوصية للوالدين؛ لأن الله أعطاهم نصيبهم من الميراث، ولا تجوز الوصية للأقارب الوارثين؛ لأن الله أعطاهم نصيبهم من الميراث، أما الأقارب غير الوارثين، فلا مانع من الوصية لهم.

﴿ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴾، ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعْدَ مَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة:١٨١]، هذه الآية فيها الوعيد الشديد على من تصرف في الوصية وغيرها عن وضعها الذي أوصى به الموصي، فلا يجوز تغيير الوصية.

الإنسان مادام على قيد الحياة له أنه يغير في وصيته، وله أن يتراجع عنها، وله يزيد فيها وينقص في حدود المأذون به شرعًا، لكن إذا مات الميت، فإن الوصية تلزم، ولا يجوز تغييرها أو تبديلها عما أوصى به الموصي، إذا كانت وصيته متمشية على الوجه المشروع، فلا يجوز العبث فيها.

﴿ فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ ﴾ أي: بدل كلام الموصي، ﴿ بَعْدَ مَا سَمِعَهُۥ ﴾ بعدما سمعه من الموصي، أو بلغه عن الموصي بطريقة ثابتة -كالشهود العدول، أو الوثيقة

---

(١) أخرجه أحمد (٣٦/ ٦٢٨)، وأبو داود (٢٨٧٠)، والترمذي (٦٧٠)، وابن ماجه (٢٧١٣)، من حديث أبي أمامة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

الشرعية المكتوبة-، فإذا ثبتت الوصية عن الميت، وكانت الوصية متمشية على الضوابط الشرعية، فلا يجوز لأحد أن يغير فيها.

﴿ فَمَنْۢ بَدَّلَهُۥ بَعْدَ مَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ ﴾، إثم التبديل والتغيير ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ ﴾، أما الميت فإن له الأجر، وإن غيرت وصيته وبدلت، فإن له الأجر؛ لأنه فعل ما شرع له ونوى الخير، فله الأجر، فإذا بدلت وصيته، فليس عليه إثم هو؛ بل له الأجر، وإنما الإثم على من غير الوصية.

ومن هنا يؤخذ أنه لا يجوز العبث بالوصايا وتغيير كلام الموصي وشروط الموصي؛ بل تنفذ الوصية على موجب ما أوصى به الموصي، إذا كانت متمشية وصيته على الضوابط الشرعية.

والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بين حدود الوصية، فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما زار سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهو مريض، سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرض، وكان عنده مال، فسأل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَا رَسُولَ اللهِ، بَلَغَ بِي مِنَ الوَجَعِ مَا تَرَى، وَأَنَا ذُو مَالٍ، وَلَا يَرِثُنِي إِلَّا ابْنَةٌ لِي وَاحِدَةٌ، أَفَأَتَصَدَّقُ بِثُلُثَيْ مَالِي؟ قَالَ: لَا، قَالَ: فَأَتَصَدَّقُ بِشَطْرِهِ؟ قَالَ: **الثُّلُثُ يَا سَعْدُ، وَالثُّلُثُ كَثِيرٌ، إِنَّكَ أَنْ تَذَرَ ذُرِّيَّتَكَ أَغْنِيَاءَ، خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَذَرَهُمْ عَالَةً يَتَكَفَّفُونَ النَّاسَ**»(١)، فأذن صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالثلث، وأخبر أنه كثير، فينبغي أن ينقص عن الثلث؛ أن يوصي بالخمس، بالسدس، بالربع، فالحد الأعلى هو الثلث، وهو كثير، وما كان دونه، فهو أفضل، إذا كان الربع أو الثلث أو الخمس أو السدس، فهذا أفضل؛ كلما قلت الوصية، فهي أفضل؛ لأجل أن

---

(١) أخرجه البخاري (٣٩٣٦)، ومسلم (١٦٢٨)، من حديث سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

يترك المال لورثته ينتفعون به؛ «إِنَّكَ أَنْ تَذَرَ ذُرِّيَّتَكَ أَغْنِيَاءَ، خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَذَرَهُمْ عَالَةً يَتَكَفَّفُونَ النَّاسَ»، فلا يضايقهم الموصي، ويزيد في الوصية عن القدر المشروع، فإن زاد عن الثلث، فإنه لا ينفذ إلا إذا رضي الورثة.

فإذا كانت الوصية على هذه الضوابط الشرعية، فإنه لا يجوز تغييرها، ﴿فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعۡدَ مَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثۡمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لأقوال الموصي، الله يسمع ما قاله الموصي، ﴿عَلِيمٌ﴾ بتصرفات الذين بدلوا الوصية، ﴿سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾: سميع لما قاله الموصي حينما أوصى، عليم بتصرفات العابثين بالوصية، وسيحاسبهم على ذلك.

﴿إِثۡمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ﴾، هذا وعيد شديد يدل على أنه يجب احترام وصايا الأموات وألا تغير ولا تبدل، إلا إذا كان هناك مسوغ شرعي لتغييرها، ولهذا قال في الآية التي بعدها: ﴿فَمَنۡ خَافَ مِن مُّوصٖ جَنَفًا أَوۡ إِثۡمٗا فَأَصۡلَحَ بَيۡنَهُمۡ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ﴾ [البقرة:١٨٢]، أي: إذا كانت الوصية فيها جنف، وهو الخطأ، ﴿فَمَنۡ خَافَ مِن مُّوصٖ جَنَفًا﴾ أي: تعديًا لضوابط الوصية، لكن عن طريق الخطأ، هذا هو الجنف، أخطأ فيها غير متعمد، هذا هو الجنف؛ لأن هناك من الناس من يوصي للذكور دون الإناث من أولاده، ويحرم الإناث، ومنهم من يوصي لأبناء أولاده دون أولاد بناته، ويقول: هذا الوقف، أو هذه الوصية لذريتي ما تناسلوا أولاد الظهور. مع أن أولاد البنات من ذريته، هذا هو الجنف، فهذا يُغير، إذا وقع هذا في الوصية، فإن القاضي -ليس كل أحد يغير-، القاضي والحاكم هو الذي يغير إلى الصواب.

﴿فَمَنۡ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوۡ إِثۡمًا﴾ بمعنى: أنه خالف في الوصية متعمدًا، هذا يأثم، إذا خالف في الوصية متعمدًا، فهذا يأثم، الموصي إذا أوصى بوصية خارجة عن ضوابط الشرع متعمدًا، فهذا عليه الإثم؛ لأنه وقع في المخالفة متعمدًا، أما الذي فعل الجنف، فهذا فعل الخطأ غير متعمد، فإذا حصل أحد الأمرين -الجنف في الوصية، أو التعمد في الوصية والخروج بها عن ضوابط الشرع-، إذا حصل هذا، فإن للحاكم -وهو القاضي- أن ينظر فيها، وأن يعدلها على الوجه المشروع، وإن تدخل أحد من أهل الخير، فأصلح بين الموصى لهم، وعدل بينهم، وتراضوا، فلا بأس بذلك.

﴿فَأَصۡلَحَ بَيۡنَهُمۡ﴾، أصلح يعني: رد الوصية إلى الوجه المشروع، أشار عليهم بأن تعدل وصية الموصي على موجب الشرع؛ لأجل أن يبرأ الميت من الإثم، فرضوا بذلك، هذا طيب، هذا إصلاح.

﴿فَأَصۡلَحَ بَيۡنَهُمۡ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾، غفور للميت، إذا أخطأ من غير قصد، فإن الله يغفر له، رحيم بعباده سبحانه؛ حيث إنه غفر لهم، ولم يعاجلهم بالعقوبة، هذا من رحمته سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ.

وغفور -أيضًا- لهذا الذي غير في الوصية يريد الخير والإصلاح، أما الذي يغير فيها حسب الهوى، ولا يريد الإصلاح، فهذا توعده الله جَلَّ وَعَلَا بقوله: ﴿فَإِنَّمَآ إِثۡمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ﴾ [البقرة:١٨١].

إذًا الذين يغيرون في الوصايا على قسمين:

القسم الأول: الذي يغير في الوصايا العادلة، ويغيرها عن موضوعها، هذا آثم.

القسم الثاني: الذي يغير في الوصايا الجائرة المخالفة لضوابط الشرع، هذا مصلح للميت ومصلح للورثة، هذا مأجور، الإصلاح بين الناس فيه أجر عظيم؛ ﴿فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة:١٨٢]، بل له أجر كما جاء في الأدلة الأخرى من أجر المصلحين بين الناس.

ثم نعلم أن الوصية -أيضًا- لها أحكام، الوصية على قسمين -تنبهوا-: قسم واجب، وقسم مستحب.

أما القسم الواجب، وهو أن يوصي بما له وما عليه، يوصي إذا حضرته الوفاة، أو أراد أن يسافر أو يغزو، ويتعرض للخطر، وعليه ديون للناس، ليس فيها وثائق، عنده قروض، عنده ديون مؤجلة، عنده أجورات، لكنها لم تكتب ولم توثق، فإنه يجب عليه أن يوصي، ويبين ما عليه من الحقوق، عنده ودائع للناس، يبين عندي لفلان كذا -وديعة، دين، حق لفلان-، ولا يتركه يضيع على صاحبه، هذه وصية واجبة.

وكذلك يوصي بما له على الناس، إذا كان له ديون عند الناس، وليس فيها وثائق، مقرض لبعض الناس، مدين، بائع عليهم، مؤجر لهم، ولم يأخذ منهم حقه، وحضرته الوفاة، لا يسكت، يوصي ويقول: عند فلان كذا، وعند فلان كذا، عند فلان لي كذا وكذا، وعند فلان وعند فلان. ويكتب هذا ويوثقه لئلا يضيع على الورثة.

فهذه الوصية واجبة، لا يجوز للإنسان يهمل حقوق الناس التي عليه، أو حقوقه التي على الناس؛ بل يوصي بها، ويثبتها قبل الموت، أو قبل أن يسافر، أو

قبل أن يغزو في سبيل الله، هذا القسم الواجب، وهذا هو الذي ورد فيه قول الرسول ﷺ في حديث ابن عمر: «**مَا حَقُّ امْرِئٍ مُسْلِمٍ لَهُ شَيْءٌ يُوصِي فِيهِ، يَبِيتُ لَيْلَتَيْنِ إِلَّا وَوَصِيَّتُهُ مَكْتُوبَةٌ عِنْدَهُ**»[(١)]، هذا في الوصية الواجبة التي هي الوصية بما له وما عليه، لا يجوز له أن يتساهل، ويقول: أنا ليس عندي خلاف، الآن أنا صحيح، ولا يتوقع الموت، ويؤجل، لا يجوز له هذا، يجب عليه أن يكتب ما له وما عليه؛ لأنه لا يدري في أي ساعة أو في لحظة يموت، فيكتب ما له وما عليه، أما الديون والحقوق التي فيها وثائق شرعية وثابتة، هذه لا يحتاج أنه يوصي بها، هذه فيها وثائقها وفيها إثباتاتها، فليس عليها خطأ، إنما الكلام في الأمور التي ليس فيها وثائق ولم تكتب، هذه لابد يوصي بها، هذا واجب عليه، وهذه هي الوصية الواجبة بما له وما عليه قبل أن يحل به الموت، وتضيع هذه الحقوق التي له أو التي عنده للناس.

أما الوصية بشيء من ماله بعد موته، فهذه مستحبة، وليست واجبة، الوصية بشيء من ماله يجري ثوابه عليه بعد موته، هذه مستحبة؛ إن شاء فعلها، وإن شاء تركها، ولا يأثم في ذلك؛ لأن هذا حق له أعطاه الله إياه، وتصدق الله به عليه، فإن أوصى به، فهذا مستحب، وإن تركه، فلا إثم عليه، لو مات وهو لم يوصِ بشيء، ليس عليه إثم.

ثم لنعلم أن تركة الميت يتعلق بها حقوق، لابد أن نعرفها، إذا مات الميت، يتعلق بتركته حقوق:

أولًا: مؤونة تجهيز الميت؛ مؤونة تجهيزه من كفن، وأجرة الغاسل الذي

---

(١) أخرجه البخاري (٢٧٣٨)، ومسلم (١٦٢٧)، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

يغسله، إذا كان يغسل بأجرة، وأجرة الحافر الذي يحفر القبر، إذا كان يحفر القبور بالأجرة، فهذه تؤخذ من رأس التركة، يبدأ بها من رأس التركة؛ لأن نفقته يوم أن كان حيًّا مقدمة في ماله، ابدأ بنفسك، فكذلك مؤونة تجهيزه بعد موته تكون مقدمة، فيبدأ بها، وتنفذ من ماله.

ثانيًا: الديون؛ الديون التي عليه، سواء كانت لله كالزكاة والكفارات والنذور، هذه ديون لله عَزَّوَجَلَّ، وحجة الإسلام وعمرة الإسلام، هذه ديون لله، تؤخذ من رأس التركة قبل الإرث، الديون لله.

وديون الآدميين، ديون الآدميين التي على الميت، إذا كان في ذمته ديون للناس، فتنزع من رأس التركة؛ لقوله تعالى لما ذكر المواريث: ﴿مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِي بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍ﴾ [النساء:١١]، لا تكون المواريث إلا بعد أن يستخرج الدين الذي عليه من التركة والوصية الشرعية التي أوصى بها، والدين مقدم على الوصية في التنفيذ، وذلك بسنة الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإن الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بدأ بالدين قبل الوصية، وإن كانت الوصية مقدمة في الذكر في القرآن: ﴿مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِي بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍ﴾، فالله قدم الوصية في الذكر على الدين، ولكن التنفيذ سنة الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الصحيحة تدل على أن الدين يبدأ به قبل الوصية(١)، وإنما قدمها الله في الذكر في القرآن اهتمامًا بها؛ لئلا يتساهل فيها الناس؛ لأنها تبرع يتساهلون به، ولأنه ليس لها طالب، بخلاف الديون التي للناس، فإن الناس

---

(١) كما في الحديث الذي أخرجه أحمد (٢/ ٣٣)، والترمذي (٢٠٩٤)، وابن ماجه (٢٧١٥)، عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «قَضَى مُحَمَّدٌ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَنَّ الدَّيْنَ قَبْلَ الْوَصِيَّةِ، وَأَنْتُمْ تَقْرَءُونَ الْوَصِيَّةَ قَبْلَ الدَّيْنِ، وَأَنَّ أَعْيَانَ بَنِي الْأُمِّ يَتَوَارَثُونَ دُونَ بَنِي الْعَلاتِ».

لا يتركونها، يطالبون بها، فالله قدم ذكرها على الدين اهتمامًا بها؛ لئلا يتساهل بها الناس، أما عند التنفيذ، فإن الديون تقدم على الوصية، فأولًا يبدأ بالديون، ثم الوصية، ثم بعد ذلك تأتي المواريث: ﴿مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِي بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍ﴾.

فإذا خلصت التركة من الديون -سواء كانت لله أو للآدميين-، وخلصت من الوصية -التي هي في حدود الثلث فأقل-، فالباقي يوزع على الورثة؛ كل بما أعطاه الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ من فرض أو تعصيب.

هذه أحكام الوصية التي يتساهل فيها الناس، ويهملونها، أو يغيرونها، أو يبدلونها، أو يتركونها، ولا ينفذونها.

الوصية أمرها عظيم، فيجب العناية بها، ولا يجوز إهمالها والتساهل بها، ولا يجوز تغييرها أو تبديلها من غير مسوغ شرعي يقتضي ذلك.

نسأل الله عَزَّوَجَلَّ أن يوفقنا وإياكم لصالح القول والعمل، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

المشرق والمغرب

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا ورسوله محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة:١٧٧]، هذه الآية العظيمة تسمى آية البر؛ لأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بين فيها خصال البر وأعمال البر، والبر كلمة جامعة لكل خصال الخير، البر ضد الإثم، وهو كلمة جامعة لكل خصال الخير.

وقوله تعالى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾ هذا رد على اليهود والنصارى الذين استنكروا تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة المشرفة، استنكروا تحويل القبلة، وأثروا حتى على بعض المسلمين، فصار عندهم تشكك في هذا الأمر، تردد؛ كما قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ﴾ [البقرة:١٤٣].

فلما حولت القبلة إلى الكعبة المشرفة، حصلت ضجة من اليهود والنصارى؛ لأنهم يلتمسون العثرات على الرسول صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، ويريدون تشويه رسالته ودعوته، ففرحوا بهذه الحادثة، وأكثروا الكلام فيها، حتى تأثر ضعاف الإيمان من المسلمين، قالوا: لو كان نبيًّا صادقًا، ما تحول عن قبلة من كان قبله إلى قبلة غيرها، ولم يعلموا أو تجاهلوا أن الكعبة المشرفة هي قبلة إبراهيم صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ الذي ينتسبون إليه، ثم هم يعلمون علم اليقين أن هذا الرسول محمد صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ تكون قبلته إلى الكعبة، يعلمون هذا من قبل أن يبعث؛ لما يجدونه في كتبهم.

فهم استغلوا هذه الحادثة ليؤثروا على المسلمين ويصرفوهم عن اتباع هذا الرسول صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فرد الله عليهم بقوله: ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ ﴾ [البقرة:١٧٧]، أي: ليست الطاعة في التوجه إلى جهة من الجهات، إنما الطاعة امتثال أمر الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وإلا فالجهات كلها سواء، الشرق والغرب والجنوب والشمال كلها سواء، لا ميزة لبعضها على بعض، كلها ملك لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة:١١٥]، لكن الشأن في الأمر الذي يأمر الله تعالى به، فإذا أمر الله بالتوجه إلى جهة معينة، فإنه يلزم كل مؤمن أن يمتثل أمر الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، هذا هو البر.

ومن خالف، فإنه كافر، من عارض أمر الله، وعاند أمر الله، وبقي على عناده، فإنه كافر؛ ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ﴾ [البقرة:١٤٣].

كانت النصارى تستقبل المشرق، وكانت اليهود تستقبل المغرب، ولهذا قال جَلَّوَعَلَا: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ﴾؛ كما تفعله النصارى، ﴿وَٱلْمَغْرِبِ﴾؛ كما تفعله اليهود.

ولكن البر من يولي وجهه إلى حيث أمره الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ؛ لأنه عبد مأمور، شأنه الامتثال من غير أن يعترض أو يتردد، هذا هو البر، البر أنك تتوجه في صلاتك حيث أمرك الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، لا أن تتوجه إلى الجهة التي تهواها أنت أو تريدها أنت، فإن فعلت ذلك، فإنك خرجت عن طاعة الله جَلَّوَعَلَا، وهذا هو الإثم، وليس هو البر، ولهذا قال: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾ هذا هو البر، ﴿مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾، ومن الإيمان بالله أن تمتثل أوامره، وأن تترك ما نهاك عنه، هذا من الإيمان بالله، ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾، آمن بالله ربًّا، وبالله معبودًا، وآمن بأسمائه وصفاته سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

فالإيمان بالله يشمل هذه الأمور الثلاثة: توحيد الربوبية، توحيد الألوهية، توحيد الأسماء والصفات، هذا هو الإيمان بالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، ويشمل كذلك امتثال أوامره واجتناب نواهيه، هذا هو الإيمان بالله، وهذا هو الركن الأول من أركان الإيمان، وهو الأساس الذي تنبني عليه أمور الدين كلها؛ ﴿مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾.

﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾: آمن باليوم الآخر، واليوم الآخر هو كل ما يكون بعد الموت، كله يسمى باليوم الآخر؛ لأنه يأتي بعد الدنيا، الدنيا هي اليوم الأول، وما بعد الموت يسمى باليوم الآخر، وهذا يشمل كل ما يكون بعد الموت من عذاب القبر ونعيمه، ومن البعث من القبور، والحشر في الموقف، والحساب، والميزان، والصراط، والجنة والنار، وكل ما يكون في اليوم الآخر.

فيجب على المؤمن أن يؤمن بكل ما يكون في اليوم الآخر، وكيف يؤمن به وهو لم يره، وهو لم يحصل إلى الآن؟ كيف يؤمن به؟ يؤمن به اعتمادًا على الخبر، على الإخبار عنه، وقد أخبر الله جَلَّ وَعَلَا عن اليوم الآخر وما يكون فيه، وأخبرت الرسل عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عن اليوم الآخر وما يكون فيه، فيجب على المسلم أن يؤمن باليوم الآخر ولا يتشكك؛ إيمانًا جازمًا لا تردد فيه؛ لأنه خبر الله جَلَّ وَعَلَا وخبر رسله عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، كل الرسل متفقون على الإيمان باليوم الآخر، وهو يوم القيامة، وإذا آمن الإنسان باليوم الآخر، استعد له بالأعمال الصالحة، وتاب إلى الله من الأعمال السيئة؛ لأن اليوم الآخر يوم جزاء، يوم حساب وجزاء، وأما يوم الدنيا فهو يوم عمل، الدنيا عمل ولا حساب، والآخرة حساب ولا عمل.

فإذا آمن الإنسان باليوم الآخر، فإنه يستعد له بالأعمال الصالحة واجتناب الأعمال السيئة؛ لأنه سيجازى على كل أعماله؛ إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر، ﴿ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾.

الركن الثالث: الملائكة، يؤمن بالملائكة، والملائكة جمع ملك، والملك في الأصل الرسول(١)؛ من الألوكة، وهي الرسالة(٢)؛ لأن الملائكة رسل يرسلهم الله جَلَّ وَعَلَا إلى أنبيائه بالوحي وبالأوامر والنواهي وبتدبير الكون، فهم عباد

---

(١) كما قال الشاعر أبو ذؤيب الهذلي:

أَلِكْنِي إِلَيْهَا وَخَيْرُ الرَّسُو ... ل أَعْلَمُهُمْ بِنَوَاحِي الخَبَرْ

انظر: الزاهر في معاني كلمات الناس (١/ ٣٥)، والصحاح (٤/ ١٦٠٧)، والمحكم لابن سيده (٨/ ٤٧٣)، والإبانة في اللغة العربية (٤/ ٢٧٨- ٢٧٩).

(٢) انظر: مادة: (أ ل ك) في النهاية في غريب الأثر (١/ ٦١)، ولسان العرب (١/ ٥٣٥)، (١٠/ ٣٩٣)، وتاج العروس (٢٧/ ٤٨)، ومادة (لأك) في لسان العرب (١٠/ ٤٨٢).

من عباد الله، خلقهم الله جَلَّوَعَلَا لعبادته، وخلقهم لتنفيذ أوامره في خلقه، وهم أصناف، الملائكة أصناف، كل صنف منهم له عمل خاص به:

* فمنهم من هو موكل بالوحي، وهو جبريل صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

* ومنهم من هو موكل بالقطر والنبات، وهو ميكائيل.

* ومنهم من هو موكل بقبض الأرواح والنفخ في الصور يوم القيامة، وهو إسرافيل(١).

* ومنهم من هو موكل بالأجنة في البطون، حينما يكون الحمل في بطن أمه، وتتكامل خلقته بعد طور المضغة، يأتيه الملك في بطن أمه، فيؤمر بأربع كلمات: يكتب رزقه، وعمله، وأجله، وشقي أو سعيد، يكتب هذا وهو في بطن أمه بأمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ(٢).

---

(١) كما في الحديث الذي أخرجه الطبراني في الكبير (١١/ ٣٧٩)، وأبو الشيخ في العظمة (٢/ ٧٠٠، ٧٠١)، والبيهقي في شعب الإيمان (١/ ٣١٥)، وابن أبي شيبة في العرش (ص٨٦-٨٧) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «... **فَمَنْ هَذَا يَا جِبْرِيلُ؟ قَالَ: هَذَا إِسْرَافِيلُ، خَلَقَهُ اللهُ يَوْمَ خَلَقَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ صَافًّا قَدَمَيْهِ، لَا يَرْفَعُ طَرْفَهُ، بَيْنَهُ وَبَيْنَ الرَّبِّ** عَزَّوَجَلَّ **سَبْعُونَ نُورًا، مَا فِيهَا نُورٌ كَانَ يَدْنُو مِنْهُ إِلَّا احْتَرَقَ، فَإِذَا أَذِنَ اللهُ** عَزَّوَجَلَّ **فِي شَيْءٍ فِي السَّمَاءِ أَوْ فِي الْأَرْضِ ارْتَفَعَ ذَلِكَ اللَّوْحُ حَتَّى يَضْرِبَ جَبْهَتَهُ فَيَنْظُرُ فِيهِ، فَإِنْ كَانَ مِنْ عَمَلِي أَمَرَنِي بِهِ، وَإِنْ كَانَ مِنْ عَمَلِ مِيكَائِيلَ أَمَرَهُ بِهِ، وَإِنْ كَانَ مِنْ عَمَلِ مَلَكِ الْمَوْتِ أَمَرَهُ بِهِ، قُلْتُ: يَا جِبْرِيلُ، وَعَلَى أَيِّ شَيْءٍ أَنْتَ؟، قَالَ: عَلَى الرِّيحِ وَالْجُنُودِ، فَقُلْتُ: فَعَلَى أَيِّ شَيْءٍ مِيكَائِيلُ؟ قَالَ: عَلَى النَّبَاتِ وَالْقَطْرِ، فَقُلْتُ: فَعَلَى أَيِّ شَيْءٍ مَلَكُ الْمَوْتِ؟ قَالَ: قَبْضُ الْأَنْفُسِ، وَمَا ظَنَنْتُ أَنَّهُ هَبَطَ إِلَّا بِقِيَامِ السَّاعَةِ**».

(٢) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (٣٢٠٨، ٣٣٣٢، ٦٥٩٤، ٧٤٥٤)، ومسلم (١) (٢٦٤٣) عَنْ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: «حَدَّثَنَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ الصَّادِقُ الْمَصْدُوقُ: =

* ومنهم من هو موكل بالجبال(١).

* ومنهم من هو موكل بحفظ أعمال بني آدم، ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَٰتِبِينَ﴾ [الانفطار:١٠، ١١]؛ يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، ملائكة ينزلون بالليل؛ ابتداءً من صلاة العصر، يرافقونكم ويكتبون ما يصدر منكم من خير أو شر، يسجلونه عليكم، وأنتم لاتشعرون، وملائكة بالنهار ينزلون في صلاة الفجر، ويستمرون إلى العصر، دائمًا وأبدًا ملائكة موكلون معكم(٢).

= إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، ثُمَّ يَكُونُ فِي ذَلِكَ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ فِي ذَلِكَ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يُرْسَلُ المَلَكُ فَيَنْفُخُ فِيهِ الرُّوحَ، وَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ: بِكَتْبِ رِزْقِهِ، وَأَجَلِهِ، وَعَمَلِهِ، وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ، فَوَالَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، فَيَدْخُلُهَا، وَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ، فَيَدْخُلُهَا».

(١) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (٣٢٣١)، ومسلم (١٧٩٥)، عَنِ ابْنِ شِهَابٍ، قَالَ: حَدَّثَنِي عُرْوَةُ، أَنَّ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، زَوْجَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حَدَّثَتْهُ أَنَّهَا قَالَتْ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «هَلْ أَتَى عَلَيْكَ يَوْمٌ كَانَ أَشَدَّ مِنْ يَوْمِ أُحُدٍ، قَالَ: لَقَدْ لَقِيتُ مِنْ قَوْمِكِ مَا لَقِيتُ، وَكَانَ أَشَدَّ مَا لَقِيتُ مِنْهُمْ يَوْمَ العَقَبَةِ، إِذْ عَرَضْتُ نَفْسِي عَلَى ابْنِ عَبْدِ يَالِيلَ بْنِ عَبْدِ كُلَالٍ، فَلَمْ يُجِبْنِي إِلَى مَا أَرَدْتُ، فَانْطَلَقْتُ وَأَنَا مَهْمُومٌ عَلَى وَجْهِي، فَلَمْ أَسْتَفِقْ إِلَّا وَأَنَا بِقَرْنِ الثَّعَالِبِ فَرَفَعْتُ رَأْسِي، فَإِذَا أَنَا بِسَحَابَةٍ قَدْ أَظَلَّتْنِي، فَنَظَرْتُ فَإِذَا فِيهَا جِبْرِيلُ، فَنَادَانِي فَقَالَ: إِنَّ اللهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ، وَمَا رَدُّوا عَلَيْكَ، وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الجِبَالِ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ، فَنَادَانِي مَلَكُ الجِبَالِ فَسَلَّمَ عَلَيَّ، ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، فَقَالَ، ذَلِكَ فِيمَا شِئْتَ، إِنْ شِئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عَلَيْهِمُ الأَخْشَبَيْنِ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ وَحْدَهُ، لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا».

(٢) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (٥٥٥)، ومسلم (٦٣٢)، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «يَتَعَاقَبُونَ فِيكُمْ مَلَائِكَةٌ بِاللَّيْلِ وَمَلَائِكَةٌ بِالنَّهَارِ، وَيَجْتَمِعُونَ فِي =

* ومنهم ملائكة موكلون بحمل العرش، الذين يحملون العرش ملائكة، ﴿وَيَحۡمِلُ عَرۡشَ رَبِّكَ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ ثَمَٰنِيَةٞ﴾ [الحاقة:١٧] يعني: من الملائكة(١).

فهم خلق من خلق الله، خلقهم الله من النور، وخلق إبليس من النار، وخلق آدم من الطين؛ كما صحت بذلك الأدلة(٢).

فتؤمن بالملائكة وأنت لا تراهم؛ لأنهم من عالم الغيب، كيف تؤمن بهم وأنت لا تراهم؟ تؤمن بهم اعتمادًا على خبر الله وخبر رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي لا ينطق عن الهوى.

الرابع: الكتاب، الكتاب المراد به: الكتب المنزلة من عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وآخرها وأعظمها القرآن الكريم.

فتؤمن بكتب الله كلها التوراة والإنجيل والزبور والقرآن وصحف إبراهيم، تؤمن بالكتب كلها، ما سمى الله منها وما لم يسمه منها، وتعتقد أن القرآن هو أفضلها وأنه حاكم عليها، وأنه ناسخ لها، ناسخ لما قبله.

= **صَلَاةِ الفَجْرِ وَصَلَاةِ العَصْرِ، ثُمَّ يَعْرُجُ الَّذِينَ بَاتُوا فِيكُمْ، فَيَسْأَلُهُمْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِهِمْ: كَيْفَ تَرَكْتُمْ عِبَادِي؟ فَيَقُولُونَ: تَرَكْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ، وَأَتَيْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ**».

(١) قال ابن الجوزي في زاد المسير (٨/ ٣٥٠، ٣٥١): ﴿وَيَحۡمِلُ عَرۡشَ رَبِّكَ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ ثَمَٰنِيَةٞ﴾ فيه ثلاثة أقوال:

أحدها: ثمانية أملاك، وجاء في الحديث: أنهم اليوم أربعة، فإذا كان يوم القيامة أمدهم الله بأربعة أملاك آخرين، هذا قول الجمهور.

والثاني: ثمانية صفوف من الملائكة لا يعلم عدتهم إلا الله عَزَّوَجَلَّ، قاله ابن عباس وابن جبير وعكرمة.

والثالث: ثمانية أجزاء من الكروبيين لا يعلم عددهم إلا الله، قاله مقاتل). اهـ.

(٢) كما في الحديث الذي أخرجه مسلم (٢٩٩٦)، عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**خُلِقَتِ الْمَلَائِكَةُ مِنْ نُورٍ، وَخُلِقَ الْجَانُّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ، وَخُلِقَ آدَمُ مِمَّا وُصِفَ لَكُمْ**».

فتؤمن بالكتب كلها، لا تؤمن ببعضها وتكفر ببعضها؛ بل تؤمن بها كلها، هذا ركن من أركان الإيمان.

الركن الخامس: الإيمان بالنبيين، الإيمان بالرسل جميعًا من أولهم إلى آخرهم وخاتمهم، وهو محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فتؤمن بكل رسل الله عَزَّ وَجَلَّ.

أما من آمن ببعضهم وكفر ببعض -كاليهود الذين كفروا بعيسى، وكفروا بمحمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكالنصارى الذين كفروا بمحمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، فمن كفر بواحد منهم، فهو كافر بالجميع، كافر حتى بالنبي الذي يزعم أنه مؤمن به.

من كذب نبيًّا واحدًا، فهو مكذب لجميع الأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، فتؤمن بالأنبياء جميعًا أنهم صادقون مصدوقون، وأنهم بلغوا رسالات ربهم كما أمرهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

هذه خمسة أركان من أركان الإيمان، والركن السادس ذكره الله ضمنًا في قوله تعالى: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾، الركن السادس -وهو الإيمان بالقضاء والقدر- ذكره الله ضمنًا في هذه الآية في قوله تعالى: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ﴾ [البقرة:١٧٧]، هذا هو الإيمان بالقدر؛ لأن ما يجري عليك مما تحب وما تكره فإنه بقضاء الله وقدره، فتصبر على المصائب، وتشكر على النعم، هذا كله قضاء الله وقدره.

وقد جاءت هذه الأركان الستة في حديث جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ حينما جاء إلى النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بحضرة أصحابه في صورة رجل جلس إلى النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والصحابة ينظرون إليه، يظنون أنه من بني آدم؛ لأن صورته صورة آدمي، لكن

استغربوه؛ لأنه ليس عليه أثر السفر، ولا يعرفونه، كيف يكون ليس عليه أثر سفر ولا يعرفونه؟ لو كان من أهل المدينة، عرفوه، ولو كان جاء من سفر، لصار عليه آثار السفر، استغربوا، فجلس إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأسند ركبتيه إلى ركبتي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ووضع يديه على فخديه، هذا آدب طالب العلم؛ أن يتأدب مع المعلم، فقال: «يَا مُحَمَّدُ أَخْبِرْنِي عَنْ الإِسْلامِ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **الإِسْلامُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لا إِلَهَ إِلا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَتُقِيمَ الصَّلاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنْ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا.** قَالَ: صَدَقْتَ»، فتعجبوا مرة ثانية، كيف يسأله ويصدقه؟ كيف يقول: صدقت، وهو يسأل؟ العادي أن الذي يسأل لا يدري، هذا عجب.

ثم قال: «فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِيمَانِ -وهذا محل الشاهد-، قَالَ: **الإِيمَانُ: أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ،** قَالَ: صَدَقْتَ، قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِحْسَانِ، قَالَ: **أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ**»، إلى آخر الحديث[1].

الشاهد منه: أن فيه أركان الإيمان التي جاءت في هذه الآية الكريمة؛ «**تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ**».

وهنا يقول: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [البقرة:١٧٧]، هذا من البر، من خصال البر أن المؤمن يدفع المال إلى المستحقين وهو يحبه؛ لأن

---

(١) حديث جبريل سبق تخريجه (ص٢٦).

النفوس تحب المال، النفوس تحب المال، فإذا دفعه إلى المستحقين، هذا دليل على بره وعلى إيمانه؛ لأنه تغلب على نفسه، وقدم محبوبه وهو المال، قدمه في طاعة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، هذه علامة البر، أما الذي يبخل ويمنع المال ويؤثر هوى نفسه على طاعة ربه، فهذا نقص في إيمانه.

﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ يعني: وهو يحبه، أما الذي لا يدفع من المال إلا الشيء الذي لا يحبه، هذا ليس له ميزة، هذا يريد يتخلص من هذا الذي لا يريده، لكن إذا دفع المال وهو يحبه، فهذا علامة الإيمان، علامة البر؛ ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران:٩٢]، ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾ [الإنسان:٨-١٢]، هذا جزاؤهم، ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ هم يريدونه لأنفسهم ويرغبون في الطعام، ولكن إذا رأوا المحتاج، أعطوه ولو نقص ذلك من طعامهم ومن أكلهم، ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾.

كان ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا إذا سمع السائل عند الباب وهم يتعشون مع أهله، أخذ نصيبه من الطعام، وذهب به وأعطاه السائل؛ ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾، فيعطيه السائل إيمانًا بالله عَزَّوَجَلَّ ورجاءً لما عند الله[1]، وكان الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ يأتيه السائل وهو صائم وعنده إفطاره، فإذا جاء السائل، أعطاه إفطاره؛

(١) كما في الحديث الذي أخرجه أبو داود في الزهد (ص٢٦٥)، وابن أبي الدنيا في الجوع (ص٥٧)، عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «أَنَّهُ كَانَ يَجْمَعُ أَهْلَ بَيْتِهِ عَلَى جِفْنَتِهِ كُلَّ لَيْلَةٍ، قَالَ: فَرُبَّمَا سَمِعَ بُكَاءَ الْمِسْكِينِ، فَأَخَذَ نَصِيبَهُ مِنَ اللَّحْمِ وَالْخُبْزِ، فَيَدْفَعُهُ إِلَى الْمِسْكِينِ، وَيَرْجِعُ إِلَى مَكَانِهِ وَقَدْ فَرَغُوا مِمَّا فِي الْجِفْنَةِ، ثُمَّ يُصْبِحُ صَائِمًا». وانظر: لطائف المعارف (ص٣١٤).

عملًا بهذه الآية: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾، ويبيت طاويًا رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ كما قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر:٩][(١)].

ولما سمع أبو طلحة الأنصاري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، لما سمع قوله تعالى: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران:٩٢]، وكان عنده حديقة -يعني: حديقة نخل-، فيها نخل كثير مثمر ثمرة جيدة، فلما سمع هذه الآية، تقدم إلى الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقال: «يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ يَقُولُ: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ وَإِنَّ أَحَبَّ أَمْوَالِي إِلَيَّ بَيْرَحَاءُ، وَإِنَّهَا صَدَقَةٌ للهِ، أَرْجُو بِرَّهَا وَذُخْرَهَا عِنْدَ اللهِ، فَضَعْهَا، يَا رَسُولَ اللهِ، حَيْثُ أَرَاكَ اللهُ»[(٢)]، لما سمع قوله تعالى: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾.

هذه نماذج من هؤلاء الذين يؤتون المال على حبه، ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾، وينفقون مما يحبون.

أما الذي لا ينفق إلا الشيء الذي لا يرضاه ولا يريده، فهذا قال الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ﴾ يعني: الرديء، المراد بالخبيث هنا يعني: الرديء، ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُوا۟ فِيهِ﴾ [البقرة:٢٦٧]، لو أن أحدًا دفع لك الطعام الرديء، هل ترضى؟ لا ترضى، فكيف أنت تدفعه للمحتاجين؟ هذا ليس فيه أجر، وهذا ليس صدقة، وإنما هو تخلص من هذا المال الذي لا تريده.

---

(١) انظر: لطائف المعارف (ص٣١٤).

(٢) أخرجه البخاري (١٤٦١)، ومسلم (٩٩٨)، من حديث أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ إلى من يدفعه؟ ﴿ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾: أقاربه، يبدأ بأقاربه المحتاجين، لا يذهب للناس البعيدين، وعنده أقارب محتاجين؛ من ذوي أرحامه، من أقاربه من جهة الأب، أو أقاربه من جهة الأم، إذا كان فيهم محتاج، فهو أولى بصدقتك ومعروفك، وقد قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الصَّدَقَةُ عَلَى الْمِسْكِينِ صَدَقَةٌ، وَالصَّدَقَةُ عَلَى ذِي الرَّحِمِ اثْنَتَانِ: صَدَقَةٌ، وَصِلَةٌ**»[(١)]، يعني: فيها أجران: أجر الصدقة، وأجر الصلة بأقاربك المحتاجين؛ ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾، ولأن ذوي القربى لهم حق من الحقوق التي فرضها الله سبحانه لقوله: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [النساء:٣٦] الآية، وقال تعالى: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ﴾ [الإسراء:٢٦] له حق.

﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ فالصدقة على القريب المحتاج أفضل من الصدقة على الأجنبي المحتاج، وفي كل أجر، لكن هذا أكثر أجرًا.

﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ﴾، اليتامى: جمع يتيم، وهو من مات أبوه وهو صغير دون البلوغ[(٢)]، هذا هو اليتيم، مات أبوه وهو دون البلوغ، هذا يحتاج من يسد مسد أبيه؛ لأن أباه كان ينفق عليه ويكتسب له، مات، ليس عنده أحد يكتسب له، وليس عنده أحد يربيه، وليس عنده أحد يتولاه، فيأتي مسلم من المسلمين، ويحسن إليه، يحسن إلى هذا اليتيم، ينفق عليه،

---

(١) أخرجه أحمد (٢٦/ ١٧١)، والنسائي في المجتبى (٢٥٨٢)، وابن ماجه (١٨٤٤)، من حديث سَلْمَانَ ابْنِ عَامِرٍ الضَّبِّيِّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٢) انظر: تهذيب اللغة (١٤/ ٢٤١)، وطلبة الطلبة (ص٤٢)، وشمس العلوم (١١/ ٧٣٤١)، ولسان العرب (١٢/ ٦٤٥).

يربيه، يعلمه، يؤدبه. هذا من أعظم أوجه الإنفاق؛ إنفاق المال على اليتامى، أيتام المسلمين الذين فقدوا آباءهم وهم فقراء، فتنفق عليهم.

﴿وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ﴾، من هم المساكين؟ الفقراء، المسكين هو الذي أسكنته الحاجة، وليس عنده ما يكفيه من النفقة[1]، فأنت تحسن إليه، وتعطيه ما يكفيه، هذا هو المسكين.

﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾، ابن السبيل: هو المسافر الذي نفدت نفقته، ولم يبقَ معه ما يبلغه في سفره، أو سرقت، أو ضاعت نفقته وهو في أثناء الطريق ليس معه شيء، ماذا يعمل؟ إذا عطف عليه أخوه المسلم وأعطاه نفقة يتبلغ بها في سفره حتى يرجع إلى بلده، فهذا من أعمال البر، هذا هو ابن السبيل.

وكذلك من ابن السبيل الضيف، الضيف الذي ينزل بأحد المسلمين يجب له القرى؛ بأن يطعمه ويشبعه، ويقدم له ما يستطيع، الضيف له حق، قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ**»[2]، فالضيف له حق، وهو الذي يمر مع الطريق، وينزل عند بعض أهل البيوت، أو بعض أهل البساتين، أو بعض البادية الذين هم نازلون في البر، فيضيفهم؛ لأن ليس معه شيء، هذا له حق، الضيف له حق، إكرام الضيف هذا من خصال البر والإحسان.

﴿وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ﴾، أيضًا أعطى المال على حبه للسائل، والسائل هو الذي يتعرض للناس ويسألهم، السائل له حق فتعطيه، وقال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

---

(١) سبق بيان معنى المسكين (ص٦٤-٦٥).

(٢) أخرجه البخاري (٦٤٧٥)، ومسلم (٤٧)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

«أَعْطُوا السَّائِلَ وَإِنْ جَاءَ عَلَى فَرَسٍ»[(١)]، السائل له حق، وإذا سألك فإنك تعطيه ما تيسر، فإن لم تجد ما تعطيه، فتحسن إليه بالكلام اللين؛ ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ [الضحى:١٠]؛ لأن السائل له حق.

﴿وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِي ٱلرِّقَابِ﴾، أي: وآتوا المال على حبه في الرقاب، والرقاب المراد بها: المماليك الذين يحتاجون من يساعدهم من أجل فك رقابهم من الرق، وذلك بأن تشتري من العبيد من مالك وتعتقه، أو تجد مكاتبًا اشترى نفسه من سيده بمال، وهو بحاجة إلى المساعدة، تساعده؛ ﴿وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ﴾ [النور:٣٣].

وكذلك من الإنفاق في الرقاب -كما ذكر العلماء- فكاك الأسير المسلم من أيدي الكفار، فإذا كان هناك أسرى من المسلمين في أيدي الكفار، فمن أعمال البر أنك تفديهم من الكفار، تقدم للكفار المال من أجل أن يطلقوا أسرى المسلمين، هذا من إنفاق المال في الرقاب.

﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِي ٱلرِّقَابِ﴾، هذه مصارف ذكرها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، هي من مصارف الزكاة؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة:٦٠].

---

(١) أخرجه مالك في الموطأ (٣) (٢/ ٩٩٦)، من حديث زيد بن أسلم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

هذه مصارف للنفقة سواء كانت مستحبة كصدقات التبرع، أو كانت واجبة كصدقة الزكاة بالمال.

ثم قال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي ومن خصال البر من أقام الصلاة، الصلوات الخمس لأنها ركن، هي الركن الثاني من أركان الإسلام.

﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ معناه: أنه أتى بالصلاة كما أمر الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ في وقتها، ومع الجماعة، وبطهارة تامة، مع الخشوع فيها وإكمال ركوعها وسجودها والطمأنينة فيها، هذه إقامة الصلاة أن تأتي بها كما أمر الله، تصليها في الوقت، وتصليها مع الجماعة في المسجد، وتصليها بطهارة كاملة من الحدثين الأكبر والأصغر، وتطمئن فيها بحيث لا تنقرها نقرًا وتستعجل فيها.

هذه إقامة الصلاة مع الخشوع فيها لله عَزَّوَجَلَّ، مع الخشوع لله عَزَّوَجَلَّ في الصلاة؛ ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾ [المؤمنون:١، ٢]، والخشوع هو روح الصلاة، صلاة بلا خشوع -يقولون- مثل جسم بلا روح، أما الصلاة التي فيها الخشوع هي صلاة حية.

لاحظوا! لم يقل: ويصلون أو وصلوا، قال: ﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾؛ لأن الغرض ليس هو الإتيان بصورة الصلاة، ولكن الغرض هو الإتيان بالصلاة على الصفة التي شرعها الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، فمن أتى بالصلاة على الصفة التي شرعها الله، فقد أقامها، ومن أتى بالصلاة على غير الصفة التي شرعها الله، فإنه لم يقمها، ولو صلى.

تنبهوا لهذه الفائدة من الآية الكريمة! قال: ﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، ولم يقل: وصلى؛ بل قال: ﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، لأن العبرة بإقامة الصلاة، وليس العبرة بصورة الصلاة من غير إقامة.

﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ﴾، هذا كثير في القرآن؛ أن الله إذا ذكر الصلاة ذكر بجنبها الزكاة، فالصلاة هي الركن الثاني من أركان الإسلام، والزكاة هي الركن الثالث من أركان الإسلام، وهي قرينة الصلاة في كتاب الله عَزَّوَجَلَّ وفي سنة رسول الله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، ولهذا قال أبو بكر الصديق رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «وَاللهِ لَأُقَاتِلَنَّ مَنْ فَرَّقَ بَيْنَ الصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ»[1].

فالزكاة هي حق للفقراء في أموال الأغنياء، حق ليس تبرعًا، وإنما هو حق واجب وفرض عليك، ليس تبرعًا منك، إنما هي حق وفريضة، ولهذا قال في آخر آية الزكاة: ﴿فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة:٦٠].

فأنت ليست المسألة بهواك؛ إن شئت زكيت، وإن شئت لم تزكِ، لا، هذا فرض عليك؛ كما أنك تصلي، فيجب أن تزكي.

﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ﴾ يعني: دفع الزكاة التي فرضها الله في ماله إلى مستحقيها من الأصناف التي بينها الله في آية التوبة: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ﴾ [التوبة:٦٠] إلى آخر الآية.

وحتى لو أخرجت الزكاة كاملة، ولكنك لم تضعها بمصارفها، لاتجزئ، لو أخرجت الزكاة كاملة، ولكنك لم تضعها في الأصناف التي حددها الله في هذه الآية، فإنها لا تجزئ، ولا تعتبر قد آتيت الزكاة.

﴿وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟﴾، هذه من خصال البر ومن أعمال البر، ﴿وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ﴾، العهد هو الميثاق الذي يكون بينك

---

(١) سبق تخريجه (ص٥٨).

وبين الله؛ لأن بينك وبين الله عهد في أن تعبده ولا تشرك به شيئًا، وأن تطيع أوامره، وأن تجتنب نواهيه، هذا العهد الذي بينك وبين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وكذلك العهد الذي بينك وبين ولي أمر المسلمين، ولي أمر المسلمين له عهد على الرعية وله بيعة على الرعية، يجب الوفاء به، طاعتهم بالمعروف، وعدم الخروج عليهم، وعدم البغي عليهم والخروج عن طاعتهم، فطاعة ولاة الأمور بالمعروف من طاعة الله جَلَّ وَعَلَا، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء:٥٩]، فقرن طاعة أولي الأمر مع طاعة الله وطاعة رسوله، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ أَطَاعَ الْأَمِيرَ فَقَدْ أَطَاعَنِي، وَمَنْ عَصَى الْأَمِيرَ فَقَدْ عَصَانِي»(١).

فطاعة ولي الأمر واجبة، إلا إذا أمر بمعصية؛ فإنه لا يطاع في المعصية، ويطاع فيما سواها مما ليس بمعصية؛ «لَا طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ الْخَالِقِ»(٢)، وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّمَا الطَّاعَةُ فِي الْمَعْرُوفِ»(٣).

وكذلك العهد الذي يكون بينك وبين الناس، إذا عاهدت أحدًا، ولهذا قال: ﴿إِذَا عَٰهَدُواْ﴾، إذا عاهدت أحدًا من الناس، فإنه يجب الوفاء، سواء كان المعاهد دولة من الدول، أو فردًا من الأفراد، فيجب عليك الوفاء؛ ﴿وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُواْ﴾ [البقرة:١٧٧]، ﴿وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ [النحل:٩١]؛ ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ﴾ [الرعد:٢٠]، ونقض العهود والمواثيق من صفة المنافقين،

---

(١) أخرجه البخاري (٧١٣٧)، ومسلم (١٨٣٥)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٢) أخرجه أحمد بنحوه (٢/ ٣٣٣)، من حديث علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٣) أخرجه البخاري (٧١٤٥)، ومسلم (١٨٤٠)، من حديث علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَعَهَا: إِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ، وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ...»(١)؛ من صفة المنافقين، أما أهل الإيمان وأهل البر، فإنهم عند عهودهم، لا يغدرون فيها، ومن غدر في عهده، فإن الله يفضحه يوم القيامة بين الخلائق -نسأل الله العافية!

﴿ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ وَٱلصَّٰبِرِينَ ﴾، هذا من خصال البر الصبر، وهو حبس النفس عن الجزع وعن التسخط والرضا بقضاء الله وقدره(٢)؛ لأن الإنسان في هذه الحياة يعترضه مشاكل، يعترضه جوع، يعترضه مرض، يعترضه مصائب، ابن آدم في هذه الدنيا عرضة، كيف يخرج من هذه المصائب؟ لا يخرج منها إلا بالصبر والاحتساب.

﴿ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ ﴾، ما هي البأساء؟ الجوع، إذا جاع الإنسان، يصبر حتى يرزقه الله، ولا يسرق ولا يخون، يصبر، ولا يجزع -أيضًا- ويتسخط من قضاء الله وقدره، يصبر، وليس معنى ذلك أنه يعطل الأسباب؛ بل يفعل الأسباب، ويطلب الرزق من الوجه الحلال، ولا يحمله الجوع على أن يعصي الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، أو يتسخط بقضاء الله وقدره، ويقول: لماذا يصيبني الجوع؟ لماذا؟ أنت ممتحن ومبتلى في هذه الدنيا، اصبر، واطلب الرزق، افعل الأسباب.

﴿ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ ﴾ يعني: في الجوع، ﴿ وَٱلضَّرَّآءِ ﴾، إذا مسه المرض، الضراء يعني: المرض، إذا مسه مرض، يصبر، ولا يجزع، ويحمد الله عَزَّوَجَلَّ أن

---

(١) سبق تخريجه (ص٤٠٨).

(٢) انظر: مدارج السالكين (٢/ ١٥٥)، وعدة الصابرين (ص١٥).

هذا المرض أسهل من غيره، وأنه لم يصبه مثلما أصاب فلانًا أو فلانًا مما هو أشد، ويعلم أن هذا المرض أنه تكفير لسيئاته، ويعلم أنه لم يصبه إلا بسبب ذنب، فيتوب إلى الله عَزَّوَجَلَّ، ويحاسب نفسه، لا يجزع من المرض أو يتسخط من المرض.

﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ﴾ يعني: في الجوع، ﴿وَٱلضَّرَّآءِ﴾ يعني: الأمراض، وليس معنى ذلك أنه يترك العلاج، يقول: أنا صابر، أترك العلاج. لا، العلاج مباح، وهو سبب من الأسباب، إذا فعلته، فلا حرج عليك، لكن مع الصبر والاحتساب.

﴿وَحِينَ ٱلْبَأْسِ﴾ الموقع الثالث من مواقع الصبر: حين البأس، ما هو البأس؟ القتال والجهاد في سبيل الله، فإذا واجه المسلم الجهاد في سبيل الله، فإنه يصبر ويثبت في المعركة، ولا يفر وينحرف، بل يثبت في المعركة، ويجاهد في سبيل الله عَزَّوَجَلَّ، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الأنفال:١٥، ١٦]، وقد ذكر النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أن الفرار من الزحف من كبائر الذنوب، فيصبر إذا لاقى العدو، قال صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «لَا تَتَمَنَّوْا لِقَاءَ العَدُوِّ، وَسَلُوا اللهَ العَافِيَةَ، فَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاصْبِرُوا، وَاعْلَمُوا أَنَّ الجَنَّةَ تَحْتَ ظِلَالِ السُّيُوفِ»(١).

﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ﴾ يعني: وقت القتال مع الكفار، في قتال الكفار يصبر المسلم، ويثبت، ولا ينهزم، ولا يجبن؛ بل يكون قويًا في موقفه، وله إحدى

---

(١) أخرجه البخاري (٢٩٦٦)، ومسلم (١٧٤٢)، من حديث عَبْدِ اللهِ بْنِ أَبِي أَوْفَى رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

الحسنيين: إما الشهادة، وإما النصر والأجر من الله عَزَّوَجَلَّ، ﴿وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِ﴾ [البقرة:١٧٧].

من اتصف بهذه الصفات التي ذكرها الله في هذه الآية، قال الله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ﴾ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ من هم؟ الذين اتصفوا بهذه الصفات ابتداء من قوله: ﴿مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾، إلى قوله: ﴿وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِ﴾.

من اتصف بهذه الصفات وحققها، فهو من الصادقين مع الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ، ومن لم يصدق فيها ولم يقم بها، فإن عنده نقصًا في الصدق بقدر ما ترك منها.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ﴾؛ صدقوا مع الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ فيما أمرهم به وترك ما نهاهم عنه، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ﴾ [البقرة:١٧٧]، الله جَلَّوَعَلَا وصفهم بوصفين عظيمين:

الوصف الأول: الصدق، الصدق مع الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ، لم يكن فيهم نفاق، ولم يكن فيهم ضعف وخور، ولم يكن فيهم بخل بالمال، ولم يكن فيهم كسل عن الصلاة وتهاون بالصلاة، ولم يكن منهم بخل بالزكاة، فهؤلاء هم الذين صدقوا، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ﴾، هذه صفة.

الصفة الثانية: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ﴾، المتقون: جمع متقٍ، والتقوى: أن تجعل بينك وبين غضب الله وقاية، تجعل بينك وبين النار وقاية تقيك منها، تتخذ وقاية تقيك من غضب الله، تتخذ وقاية تقيك من النار، وما هي هذه الوقاية؟ هذه شيء واحد، هو طاعة الله جَلَّوَعَلَا وطاعة رسوله، وترك معصية الله وترك معصية الرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، هذه هي الوقاية التي تقيك من غضب

الله وتقيك من النار، وتوافي اليوم الآخر وأنت معك هذه الوقاية التي تقيك من أخطار وأهوال يوم القيامة(١)، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ﴾ [البقرة:١٧٧].

نسأل الله عَزَّوَجَلَّ أن يجعلنا وإياكم من هؤلاء وإخواننا المسلمين، نسأله سبحانه أن ينصر دينه، وأن يعلي كلمته، وأن يخذل أعداءه.

نسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن ينصر المجاهدين في سبيل الله في كل مكان على أعدائه من الكفار والمنافقين واليهود والنصارى والمشركين وسائر الكفرة، وأن يمدهم الله بنصر من عنده، وأن يثبت أقدامهم، وأن يمنحهم الصبر والثبات حتى يأتيهم نصر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الذي وعد الله به من صبر وثبت.

نسأل الله أن يصلح ولاة أمورنا، وأن يولي علينا خيارنا، وأن يكفينا شر شرارنا، نسأله سبحانه أن يرزقهم البطانة الصالحة، وأن يبعد عنهم بطانة السوء، وأن يجعلهم هداة مهتدين غير ضالين ولا مضلين، وأن ينصر بهم دينه، ويعلي بهم كلمته، وأن يخذل بهم أعداءه. اللهم انصر من نصر الدين، واخذل من خذل الدين، اللهم انصر من نصر الدين، واخذل من خذل الدين.

(١) عَنْ عَاصِمٍ الْأَحْوَلِ قَالَ: «وَقَعَتِ الْفِتْنَةُ، فَقَالَ طَلْقُ بْنُ حَبِيبٍ: اتَّقُوا الْفِتْنَةَ بِالتَّقْوَى، فَقَالَ بَكْرُ ابْنُ عَبْدِ اللهِ: أَجْمِلْ لَنَا التَّقْوَى فِي يَسِيرٍ، فَقَالَ: «التَّقْوَى الْعَمَلُ بِطَاعَةِ اللهِ عَلَى نُورٍ مِنَ اللهِ رَجَاءَ رَحْمَةِ اللهِ، وَالتَّقْوَى تَرْكُ مَعَاصِي اللهِ عَلَى نُورٍ مِنَ اللهِ مَخَافَةَ عَذَابِ اللهِ». أخرجه ابن المبارك في الزهد والرقائق (١/ ٤٧٣، ٤٧٤)، وهناد بن السَّري في الزهد (١/ ٢٩٧)، وأبو نعيم في حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٣/ ٦٤)، والبيهقي في الزهد الكبير (ص٣٥١).

اللهم من أرادنا أو أراد الإسلام والمسلمين بسوء، فأشغله بنفسه، واردد كيده في نحره، واجعل تدميره في تدبيره، إنك على كل شيء قدير، ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الصافات:١٨٠-١٨٢].

وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين.

الاعتــداء

بِسْــــــمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيــــمِ

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على عبده ورسوله نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ١٩٠ وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡ وَأَخۡرِجُوهُم مِّنۡ حَيۡثُ أَخۡرَجُوكُمۡۚ وَٱلۡفِتۡنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلۡقَتۡلِۚ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمۡ عِندَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِيهِۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمۡ فَٱقۡتُلُوهُمۗۡ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ ١٩١ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٩٢ وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِۖ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَلَا عُدۡوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ١٩٣ ٱلشَّهۡرُ ٱلۡحَرَامُ بِٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ وَٱلۡحُرُمَٰتُ قِصَاصٞۚ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة:١٩٠-١٩٤]، في هذه الآيات الكريمات يأمر الله بالقتال في سبيله، وهو الجهاد في سبيل الله عَزَّوَجَلَّ لإعلاء كلمة الله وإذلال الكفر، هذا هو المقصود من القتال في سبيل الله والجهاد في سبيل الله، وهو من أفضل الأعمال، وهو سنام الإسلام؛ كما قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «رَأْسُ الْأَمْرِ الْإِسْلَامُ، وَعَمُودُهُ الصَّلَاةُ، وَذِرْوَةُ سَنَامِهِ الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ»(١).

كان المسلمون في مكة مع النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قبل الهجرة منهيين عن القتال؛

(١) سبق تخريجه (ص٧٦).

لأنهم لا يستطيعونه، ولأنه لو قاتلوا الكفار في مكة وهم لا يستطيعون مقابلتهم، لتسلط الكفار على المسلمين، فأبادوهم.

فالله جَلَّوَعَلَا كان يأمر نبيه صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بالصبر والانتظار، وكانوا مأمورين بأن يكفوا أيديهم، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة.

هذا الحال في مكة؛ لأن المسلمين ليس عندهم استعداد للجهاد في سبيل الله، فكانوا يصبرون على أذى الكفار وتطاول الكفار، ولا يمدون أيديهم للانتصار لأنفسهم؛ دفعًا للشر؛ لأن القتال وإن كان فيه مصلحة، لكنه في هذه الحالة الضرر يكون فيه أعظم على المسلمين، ومن المعلوم أن من قواعد الشرع دفع أعظم الضررين بارتكاب أخفهما.

فلما هاجر النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ إلى المدينة هو وأصحابه، ووجدوا الدار والأنصار، وصارت للمسلمين دولة وقوة، أمرهم الله جَلَّوَعَلَا بالجهاد في سبيله لإعلاء كلمته ولإذلال الكفر ولقمع شوكة المشركين والكفار الذين يصدون عن سبيل الله ويؤذون المسلمين، فقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة:١٩٠].

قوله: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، هذا قيد يخرج القتال في الفتنة بين المسلمين، فلا يجوز قتال المسلمين، ويجب الإصلاح، إذا حصل بين المسلمين سوء تفاهم، فيجب الإصلاح بينهم، فإن لم يجدِ الإصلاح، فإن الفئة الباغية تقاتل حتى تكف عن شرها، قال تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ

ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتۡ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ وَأَقۡسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ۝٩ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَ أَخَوَيۡكُمۡ﴾ [الحجرات:٩، ١٠].

فقوله: ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ يخرج القتال بين المسلمين؛ لأنه غير مشروع إلا عند الضرورة لقمع الفئة الباغية، فإن كانت الفئة الباغية كفت، ولم يكن منها قتال للمسلمين، فإنها تترك، ويعالج أمرها بالصلح وبالبيان للأمور الخفية والملتبسة تبين وتوضح.

﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ﴾، هذا يحتمل معنيين، ﴿ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ﴾ قيل: المراد: الذين من شأنهم أن يقاتلوا المسلمين؛ لأن الكفار دائمًا يريدون أن يقاتلوا المسلمين، هذا شأنهم، فالكفار دائمًا يريدون قتال المسلمين، ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمۡ عَن دِينِكُمۡ إِنِ ٱسۡتَطَٰعُواْ﴾ [البقرة:٢١٧]، فمن شأن الكفار أنهم يقاتلون المسلمين، ولا يكفون، فالمسلمون يقاتلونهم لكف شرهم، ويؤخذ من هذا أن الذي لا يقاتِل من الكفار لا يقاتَل، كالنساء والصبيان والشيوخ الكبار والرهبان في صوامعهم والمستأمنين والمعاهدين وأهل الذمة، كل هؤلاء لا يقاتَلون؛ لأنهم لا يقاتِلون المسلمين، أما غيرهم من الكفار -وهم الحربيون-، فإنهم يجب قتالهم إذا كان في المسلمين قوة، ولا يجوز ترك الجهاد في سبيل الله عَزَّوَجَلَّ.

والجهاد في سبيل الله -كما بين أهل العلم- على قسمين: القسم الأول: جهاد دفاع، إذا اعتدي على المسلمين في بلادهم، فإنه يجب قتالهم دفاعًا، هذا إذا كان ليس بالمسلمين قوة على غزو الكفار، إذا لم يكن بالمسلمين قوة على غزو الكفار، فإنهم إذا اعتدى عليهم الكفار في بلادهم، يجب عليهم أن يدافعوهم،

وفي هذه الحالة يكون الجهاد فرض عين على كل من يستطيع الجهاد؛ في ثلاث حالات:

الحالة الأولى: إذا هجم العدو على بلاد المسلمين، فيجب على كل من يستطيع أن يحمل السلاح، وأن يقاتل عن بلاد المسلمين.

الحالة الثانية: إذا استنفره الإمام، يجب عليه أن يمتثل، ويجاهد في سبيل الله، قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَا هِجْرَةَ بَعْدَ الْفَتْحِ، وَلَكِنْ جِهَادٌ وَنِيَّةٌ، وَإِذَا اسْتُنْفِرْتُمْ فَانْفِرُوا**»(١)، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التوبة:٣٨، ٣٩].

الحالة الثالثة: إذا حضر القتال وهو يستطيع أن يقاتل، فلا يجوز له أن ينصرف ويترك المسلمين في قتال مع عدوهم؛ بل يجب عليه أن يقاتل معهم، فإن انصرف، فهذا فرار من الزحف، وهو كبيرة من كبائر الذنوب، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [الأنفال:١٥، ١٦]، والنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذكر من السبع الموبقات الفرار من الزحف(٢)، في هذه الأحوال الثلاث يجب القتال على الأعيان.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٧٨٣)، ومسلم (١٣٥٣)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

(٢) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (٢٧٦٦)، ومسلم (٨٩)، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ =

الحالـة الثانيـة: قتال الطلـب والغزو؛ غزو الكفـار في بلادهم إذا كان بالمسـلمين قوة، في هذه الحالة القتال فرض كفاية، إذا قام به من يكفي، سـقط الإثم عن الباقين، ويبقى في حقهم سنة من آكد السنن، وهو قتال الطلب، قتال الغزو إذا كان في المسـلمين قوة، فيجب على مجموع المسلمين أن يقاتلوا الكفار، وأن يغزوهم في بلادهم، إذا كان عندهم استطاعة، هذا على جملة المسلمين، هذا فـرض كفاية على الجملة، فإذا قام به من يكفي، بقي في حق الباقين سـنة، وإذا لم يقم به أحد، فإن الجميع يأثمون؛ لأنهم تركوا واجبًا على المسلمين، هذا القول الأول في الآية: ﴿ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ﴾ [البقرة:١٩٠].

وقيل: ﴿ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ﴾ المراد به: أن الكفار إذا حملوا السلاح على المسلمين وغزوهم، فيجب على المسلمين أن يقاتلوا الكفار دفاعًا عن أنفسهم، ﴿ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ﴾، أما الكفار الذين كفوا عن قتال المسلمين، فهؤلاء يتركون، وكان هذا في أول الأمر، أول ما هاجر النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان القتال محرمًا في مكة، فلما هاجر النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى المدينة، أذن للمسلمين بالقتال، ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج:٣٩]، فأذن به إذنًا لا أمرًا، ثم بعد ذلك أمر به في حق من قاتل من الكفار، ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ﴾ [البقرة:١٩٠]، ثم بعد ذلك أمر به مطلقًا(١)؛ ﴿فَٱقۡتُلُواْ

= رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**اجْتَنِبُوا السَّبْعَ المُوبِقَاتِ**. قِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ، وَمَا هُنَّ؟ قَالَ: **الشِّرْكُ بِاللهِ، وَالسِّحْرُ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالحَقِّ، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ وَأَكْلُ الرِّبَا، وَالتَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ، وَقَذْفُ المُحْصِنَاتِ الْغَافِلَاتِ المُؤْمِنَاتِ**».

(١) انظر: تفسير الطبري (٣/ ٢٨٩-٢٩١)، وتفسير ابن أبي حاتم (١/ ٣٢٥)، وتفسير الماوردي (١/ ٢٥١)، وزاد المسير (١/ ١٥٣- ١٥٤)، وتفسير القرطبي (٢/ ٣٤٧- ٣٥٠).

﴿ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ وَخُذُوهُمۡ وَٱحۡصُرُوهُمۡ وَٱقۡعُدُواْ لَهُمۡ كُلَّ مَرۡصَدٖۚ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمۡۚ﴾ [التوبة:٥]، فيكون هذا من باب التدرج في التشريع؛ لأن الأمور الصعبة والشاقة تشرع على التدرج، فكان مأذونًا به في الأول إذنًا لا أمرًا، ثم أمر به في حق من قاتل من الكفار، ثم أمر به أمرًا عامًا في جميع الكفار، من باب التدرج في التشريع لأجل التخفيف على المسلمين.

ثم قال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ﴾: لا تعتدوا في قتل من لا يستحق القتل -كالنساء والصبيان، والمعاهدين، وأهل الذمة، والمستأمنين-، لا يجوز قتل من أعطاه المسلمون أمنًا، أمنوه على دمه وعلى ماله إما بعقد الذمة ودفع الجزية، وإما بالعهد بين المسلمين وبين الكفار على وضع الحرب؛ كما صالح النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ المشركين في الحديبية على وضع الحرب[(١)]، وكما صالح اليهود في المدينة لما قدم المدينة.

فلا يجوز قتال الكفار الذين بيننا وبينهم عهد، أو بيننا وبينهم ذمة، أو دخلوا بلادنا بالأمان، دخلوا بلادنا بإذننا -بإذن المسلمين-، فلا يجوز قتال هؤلاء، فإن قتلهم أحد، فهو معتدٍ؛ ﴿وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ﴾، وقال صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «**مَنْ قَتَلَ مُعَاهَدًا لَمْ يَرِحْ رَائِحَةَ الجَنَّةِ...**»[(٢)]، الحديث في الصحيح.

(١) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (٢٧٠٠)، عَنِ البَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمَا، قَالَ: «صَالَحَ النَّبِيُّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ المُشْرِكِينَ يَوْمَ الحُدَيْبِيَةِ عَلَى ثَلاثَةِ أَشْيَاءَ: عَلَى أَنَّ مَنْ أَتَاهُ مِنَ المُشْرِكِينَ رَدَّهُ إِلَيْهِمْ، وَمَنْ أَتَاهُمْ مِنَ المُسْلِمِينَ لَمْ يَرُدُّوهُ، وَعَلَى أَنْ يَدْخُلَهَا مِنْ قَابِلٍ وَيُقِيمَ بِهَا ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، وَلَا يَدْخُلَهَا إِلَّا بِجُلُبَّانِ السِّلَاحِ السَّيْفِ وَالقَوْسِ وَنَحْوِهِ، فَجَاءَ أَبُو جَنْدَلٍ يَحْجُلُ فِي قُيُودِهِ، فَرَدَّهُ إِلَيْهِمْ».

(٢) أخرجه البخاري (٣١٦٦)، من حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمَا.

قال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ﴾ [التوبة:٦].

وكان الكفار يقدمون على الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في المدينة في مهمات، يرسلهم جماعتهم وقادتهم يرسلونهم إلى الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في مهمات، فلا يتعرض لهم أحد؛ لأنهم مستأمنون دخلوا بالأمان، فإن قتلهم أحد، فهذا من العدوان، ﴿وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾، وهذا وعيد شديد، الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، يحب المقسطين -يعني: العادلين-، ولا يحب المعتدين، ولا يحب الكافرين، ولايحب الظالمين، فنفي المحبة من الله لهؤلاء هذا وعيد شديد، معناه: أن الله يبغضهم، فالله يبغض من قتل معاهدًا، ويبغض من قتل مستأمنًا، ويبغض من قتل ذميًّا، إذا كان الله لا يحبه، فمعناه أن الله يبغضه، وهذا وعيد شديد يدل على احترام الذمة واحترام العهود والمواثيق، وهذا من وفاء الإسلام ومن عدل الإسلام تحريمه للغدر والخيانة، ﴿وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة:١٩٠].

ثم قال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَٱقْتُلُوهُمْ﴾ أي: الكفار، اقتلوا الكفار، ﴿حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ أي: في أي مكان وجدتموهم، فاقتلوهم، من باب الجهاد في سبيل الله، وهذا يرجع إلى أول الآية: ﴿ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ﴾ اقتلوا الذين يقاتلونكم حيث ثقفتموهم في أي مكان.

﴿وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ﴾، الكفار أخرجوا الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والمسلمين من مكة، وهذا ظلم وجور، فيجب قتالهم لأجل الانتقام منهم

وإنصاف المسلمين الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق، ﴿وَأَخۡرِجُوهُم مِّنۡ حَيۡثُ أَخۡرَجُوكُمۡ﴾ [البقرة:١٩١].

ثم قال سبحانه: ﴿وَٱلۡفِتۡنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلۡقَتۡلِ﴾، هذا جواب عن سؤال مقدر، وهو كيف يكون الجهاد والقتال مشروعًا مع ما فيه من سفك الدماء والجراح والمشقة؟ كيف الإسلام يشرع هذا، يشرع سفك الدماء، ويشرع المشقة الشديدة والجراح؟ أجاب الله عن هذا بقوله: ﴿وَٱلۡفِتۡنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلۡقَتۡلِ﴾ الفتنة التي هي الكفر بالله عَزَّوَجَلَّ أشد من قتل الكافر، كفره أشد من قتله؛ فلاتستغربوا أن الله شرع سفك دمائهم وقتلهم؛ لأنهم كفار، والكفر أشد من القتل، فالمراد بالفتنة هنا الكفر، وقيل: المراد بالفتنة: ما يفعلونه مع المسلمين من صرفهم عن دينهم، وتحويل المسلمين عن دينهم، هذه فتنة.

لو تُرك الكفار ولم يقاتَلوا، لتسلطوا على المسلمين، وحولوهم عن دينهم، وهذه فتنة، يفتنون المسلمين ويمتحنونهم، هذا أشد من القتل، قال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمۡ عَن دِينِكُمۡ إِنِ ٱسۡتَطَٰعُواْ﴾ [البقرة:٢١٧]، فالمراد بالفتنة: الردة على هذا القول الثاني، والقول الأول المراد بالفتنة: الكفر(١)، والكفر أشد من القتل الذي يحصل في الجهاد، ﴿وَٱلۡفِتۡنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلۡقَتۡلِ﴾ [البقرة:١٩١].

ثم قال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلَا تُقَٰتِلُوهُمۡ عِندَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِيهِ﴾؛ عند المسجد الحرام يعني: داخل الحرم وداخل الأميال، الحرم الذي هو المسجد وما

(١) انظر: تفسير الطبري (٣/ ٢٩٣-٢٩٥)، وتفسير ابن أبي حاتم (١/ ٣٢٦)، وتفسير الماوردي (١/ ٢٥١)، وزاد المسير (١/ ١٥٥)، وتفسير القرطبي (٢/ ٣٥١).

حوله من فجاج الحرم، ما كان داخل الأميال، حدود الحرم، هذا يحرم القتال فيه، ويجب الأمان فيه، حتى للطيور والصيد، وحتى الأشجار والنبات البري لا يجوز قطعه، ولا يجوز تنفير الصيد في الحرم، ولا يجوز القتل في الحرم، لأن الله جَلَّوَعَلَا يقول: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾ [آل عمران:٩٧]، ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت:٦٧]، فمن دخل الحرم، فهو آمن، وكانوا في الجاهلية على جاهليتهم وكفرهم لا يقاتلون في الحرم، يلقى الرجل قاتل أبيه وقاتل ابنه وقاتل أخيه، فلا يتعرض له حتى يخرج من الحرم، فالحرم لا يجوز القتال فيه، ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾ [آل عمران:٩٧].

لماذا الرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ دخل الحرم عام الفتح غازيًا وقاتل الكفار؟ هذا خاص بالرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، الله أذن له بذلك، وقال صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**إِنَّ هَذَا الْبَلَدَ حَرَّمَهُ اللهُ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ، فَهُوَ حَرَامٌ بِحُرْمَةِ اللهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَإِنَّهُ لَمْ يَحِلَّ الْقِتَالُ فِيهِ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَلَمْ يَحِلَّ لِي إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ، فَهُوَ حَرَامٌ بِحُرْمَةِ اللهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، لَا يُعْضَدُ شَوْكُهُ، وَلَا يُنَفَّرُ صَيْدُهُ، وَلَا يَلْتَقِطُ لُقَطَتَهُ إِلَّا مَنْ عَرَّفَهَا، وَلَا يُخْتَلَى خَلَاهُ**»(١)، وقال صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**إِنَّ مَكَّةَ حَرَّمَهَا اللهُ، وَلَمْ يُحَرِّمْهَا النَّاسُ، فَلَا يَحِلُّ لِامْرِئٍ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أَنْ يَسْفِكَ بِهَا دَمًا، وَلَا يَعْضِدَ بِهَا شَجَرَةً، فَإِنْ أَحَدٌ تَرَخَّصَ لِقِتَالِ رَسُولِ اللهِ** صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ **فِيهَا، فَقُولُوا: إِنَّ اللهَ قَدْ أَذِنَ لِرَسُولِهِ وَلَمْ يَأْذَنْ لَكُمْ، وَإِنَّمَا أَذِنَ لِي فِيهَا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ، ثُمَّ عَادَتْ حُرْمَتُهَا الْيَوْمَ كَحُرْمَتِهَا بِالأَمْسِ، وَلْيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ**»(٢).

---

(١) أخرجه البخاري (١٨٣٤)، ومسلم (١٣٥٣)، من حديث ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا.

(٢) أخرجه البخاري (١٠٤)، ومسلم (١٣٥٤)، من حديث أبي شريح رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

الله جَلَّوَعَلَا يقول: ﴿وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِۚ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الحج:٢٥]؛ إذا هم الإنسان ونوى في قلبه أن يلحد في الحرم، أن يقتل، أن يؤذي المسلمين، أن يضايق المسلمين بمجرد النية، يوقع الله به العذاب الأليم، فكيف إذا نفذ؟ كيف إذا نفذ هذا وقتل في الحرم؟ فقد اعتدى على حرم الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى وانتهك حرمة الحرم، ﴿وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ﴾، هذا استثناء من قوله: ﴿وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ [البقرة:١٩١].

﴿وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ هذا عام يعم الحرم، الله جَلَّوَعَلَا استثنى هذا فقال: ﴿وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ﴾، هذا استثناء، ﴿وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ يعني: حول المسجد، فكيف داخل المسجد وعند الكعبة؟ هذا أشد -والعياذ بالله!

﴿وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ﴾، فإذا قاتلوا المسلمين في الحرم، وجب على المسلمين أن يقاتلوهم في الحرم؛ لأنهم انتهكوا الحرم، فالمسلمون يقاتلونهم دفعًا لشرهم عن الحرم وعن المسلمين وأهل الحرم.

﴿وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ﴾، فمن حمل السلاح في الحرم على المسلمين، أو جاء بالمتفجرات -والعياذ بالله-، أو جاء بالأسلحة، وأودعها في الحرم يريد الكيد للمسلمين، ويريد ترويع الآمنين، ويريد انتهاك حرمة الحرم، فإنه يجب قتله.

﴿وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة:١٩١]، فالحرم لا يجوز القتال فيه إلا في حالة واحدة،

وهي إذا حمل السلاح المعتدي على الناس، وصال على الناس في الحرم، أو جاء بالمتفجرات، أو جاء بأدوات التخريب والقتل والترويع، فهذا يجب قتله؛ لأنه انتهك حرمة الحرم.

أما الذي يدخله، ولا يحصل منه شيء، فهذا لا يتعرض له، ﴿وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ ۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة:١٩١، ١٩٢]، إن انتهوا عن الكفر، وانتهوا عن القتال في الحرم، وألقوا السلاح، وتابوا إلى الله، فإن الله يتوب عليهم، ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟﴾ عن عدوانهم وانتهاكهم للحرم، تابوا توبة صحيحة واستسلموا وندموا على ما حصل منهم، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة:١٩٢].

ثم قال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾، هذا تكرار للأمر بالقتال، قال في الأول: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:١٩٠]، وقال جَلَّوَعَلَا في هذه الآية: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ﴾، هذا تأكيد، ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ﴾ الضمير يرجع إلى من؟ إلى الكفار.

﴿وَقَٰتِلُوهُمْ﴾ لأي شيء؟ ﴿حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾، هذا فيه بيان للحكمة من الجهاد في سبيل الله وأنه ليس القصد منه التسلط على الناس، وليس القصد منه الطمع في أموالهم والاستيلاء على بلادهم، وإنما القصد منه إعلاء كلمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهو لمصلحة الكفار أنفسهم، نقاتلهم من أجل أن يتوبوا، ويدخلوا في الإسلام، ويكون ذلك خيرًا لهم، قال صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**عَجِبَ اللهُ مِنْ قَوْمٍ يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ فِي السَّلَاسِلِ**»(١)، بمعنى: أنهم يؤسرون وهم كفار، ثم يتوبون ويسلمون، فيدخلون الجنة، فكان قتالهم وأسرهم سببًا لسعادتهم، وسببًا لدخولهم الجنة.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٠١٠)، من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

إذًا فالقتال تعود مصلحته على الجميع؛ على المسلمين، وعلى الكفار إذا أسلموا وتابوا إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ ﴾ أي: لا يكون هناك شرك وكفر، ﴿ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ﴾؛ التوحيد، ويترك عبادة غير الله عَزَّوَجَلَّ.

هذا هو المقصود من الجهاد في سبيل الله؛ لأجل نشر التوحيد ونشر العقيدة الصحيحة، ورجوع الناس إلى عبادة الله وحده لا شريك له؛ لأن الله خلق الناس لعبادته؛ كما قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴾ [الذاريات:٥٦-٥٨]، الله خلق الخلق الجن والإنس لعبادته، فإذا خرج عن عبادته أناس وعبدوا غيره، فإنه يجب قتالهم حتى يرجعوا إلى دين الله عَزَّوَجَلَّ وإلى عبادة الله التي خلقهم من أجلها، وذلك لمصلحتهم، وذلك لأجل أن يعودوا إلى رشدهم، من أجل أن يعودوا إلى ربهم، من أجل أن ينجوا من النار ويدخلوا الجنة.

إذًا المصلحة في القتال ظاهرة، وليس القصد منه سفك الدماء أو الاعتداء على الناس أو التطاول على الناس، ولهذا سئل رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن الرجل يقاتل شجاعة، والرجل يقاتل حمية، والرجل يقاتل من أجل المغنم، أي ذلك في سبيل الله؟ قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللهِ هِيَ العُلْيَا، فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللهِ**»(١)؛ هذا هو القصد من الجهاد إعلاء كلمة الله، تكون كلمة الله هي العليا، ويكون دينه هو الظاهر، ويرجع من يريد الله له السعادة يرجع

---

(١) أخرجه البخاري (١٢٣)، ومسلم (١٩٠٤)، من حديث أبي موسى رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

إلى صوابه، ويرجع إلى عبادة ربه، ويترك عبادة الأصنام والأشجار والأحجار والأضرحة والقبور، ويترك عبادة غير الله، فينجو من النار، ينجو من الشرك، ينجو من الكفر، يعود إلى الإسلام إلى حظيرة التوحيد، فيدخل الجنة، ويسعد في الدنيا والآخرة.

فالقتال شرع لهدف نبيل وغرض جليل، وليس المراد منه طمع الدنيا أو المراد منه التسلط على الناس -كما يقوله أعداء الإسلام أو الذين لا يفهمون الإسلام-، هناك ناس الآن من المسلمين -مع الأسف- جهال يقولون: الإسلام ليس دين قتال، وليس دين جهاد، الإسلام دين رحمة. نعم، هو دين رحمة، ومن كونه دين رحمة أنه شرع الجهاد، الجهاد إنما شرع لأجل الرحمة بالخلق، فهو دين رحمة، والقتال هو من أجل الرحمة، من أجل نشر الرحمة على العباد، لو ترك هؤلاء يعبدون الأصنام والأشجار والأحجار، ويموتون على هذا، صاروا من أهل النار، فإذا قوتلوا وتنبهوا ورجعوا إلى الإسلام، صاروا من أهل الجنة، فهذا من مصلحة البشرية.

أما من عاند وأصر على الكفر، فهذا ليس له إلا القتل؛ لأنه تمرد على الله عَزَّوَجَلَّ، وأبى أن يعبد الله عَزَّوَجَلَّ، فهذا ليس له إلا القتل من أجل إزالة شره عن الناس، ولا يكون داعية للكفر، ولا يكون داعية للضلال، فيتعدى شره إلى الناس.

﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ﴾: لا يكون الدين لله ولغيره، يعني: يعبد الله، ثم يعبد غيره معه، يذبح لغير الله، ينذر لغير الله، يطوف بالقبور والأضرحة، هذا لا يفيده شيئًا، بل يضره، لا تنفع العبادة إلا إذا كانت

خالصة لوجه الله، ﴿ٱلدِّينُ لِلَّهِ﴾ عَزَّوَجَلَّ، والمراد بالدين هنا العبادة، والعبادة تشمل كل ما أمر الله به سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ؛ تشمل الصلاة والصيام والحج والجهاد في سبيل الله والصدقة، وتشمل صلة الأرحام وبر الوالدين، العبادة تشمل أشياء كثيرة، كل ما أمر الله به فهو عبادة وكل ما نهى الله عنه فتركه عبادة؛ ما أمر الله به ففعله عبادة، وما نهى الله عنه فتركه عبادة، هذا هو الدين، وحتى يحكم بالشرع بين الناس؛ لأن الشرع هو العدل، وهو الحق، وتلغى الأحكام القانونية والأحكام الطاغوتية، ويكون الحكم لشرع الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، هذا لا يحصل عفوًا، لا يحصل إلا بالجهاد، الجهاد فيه مصالح عظيمة وفيه خيرات كثيرة.

ترون ثمرة الجهاد -جهاد الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ- ثمرته على أهل الأرض في المشارق والمغارب، كم دخل في دين الله من الناس؟ كم نبغ من العلماء من المشرق والمغرب بسبب الجهاد في سبيل الله؟

لو ترك الناس ولم يكن هناك جهاد، لم ينتشر الإسلام، ولم ينتشر هذا الخير، ولم تتح الفرصة لمن يريد الإسلام، ولتسلط الظلمة والجبابرة، وصدوا عن دين الله عَزَّوَجَلَّ.

الجهاد فيه مصالح عظيمة، فيه خيرات كثيرة، وما ترك المسلمون الجهاد إلا ذلوا، وأكبر شاهد على ذلك حالة المسلمين اليوم، لما تركوا الجهاد في سبيل الله، تسلط عليهم الكفار، قتلوهم، شردوهم، أخذوا ديارهم، هذا شأن الكفار لو تركوا. لو كان هناك جهاد، لانتصر الإسلام، وانتصر المسلمون، وصارت كلمة الله هي العليا، وساد العدل بين الناس، ساد الخير بين الناس، انتشر الخير على البشرية.

فلا يقوم هذا الدين وينتشر إلا بالجهاد في سبيل الله، نعم، الدعوة قبل الجهاد، ندعو الكفار أولًا إلى الدخول في الإسلام، فإن أبوا، فليس هناك إلا الجهاد في سبيل الله عَزَّوَجَلَّ، ﴿وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ ۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ إذا انتهوا عن الشرك وعن الكفر، وأسلموا أو بذلوا الجزية للمسلمين، فإنه لا يجوز الاعتداء، الإسلام ليس دين اعتداء، وإنما هو دين عدل وخير ورحمة؛ ﴿فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة:١٩٣].

ثم قال سبحانه: ﴿ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ﴾ قيل: هذه الآية نزلت في قصة الحديبية، لما جاء الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه يريدون العمرة، فصدهم المشركون، ومنعوهم من أداء العمرة، وحصل الصلح بينهم وبين الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على أن يرجع من عامه، ويأتي من العام القادم، ويعتمر، وكان هذا في شهر ذي القعدة، وشهر ذي القعدة شهر حرام، فصدوا الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن العمرة في الشهر الحرام، الله جَلَّ وَعَلَا عوض الرسول والمسلمين بشهر حرام في السنة القادمة، فجاء النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه واعتمروا في ذي القعدة في نفس التاريخ الذي صدوهم، ﴿ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ﴾.

الشهر الحرام الذي صدوا فيه المسلمين عوض الله المسلمين فيه شهرًا حرامًا آخر من السنة القادمة، فأدوا عمرتهم آمنين مطمئنين، فهذا معنى قوله: ﴿ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ﴾؛ لألا يكون عند المسلمين تضايق؛ كيف أن

الرسول رجع ولم يؤدِ العمرة؟! كيف صدوه؟! الله جَلَّوَعَلَا أجاب عن هذا بأنه عوض المسلمين، عوضهم بأن أدوا العمرة في شهر حرام.

وقيل: المراد بقوله: ﴿ٱلشَّهۡرُ ٱلۡحَرَامُ بِٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ﴾ مثل قوله: ﴿وَلَا تُقَٰتِلُوهُمۡ عِندَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِيهِ﴾.

وكان الأشهر الحرم يحرم فيها القتال في الجاهلية وفي أول الإسلام، والأشهر الحرم أربعة: ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب؛ ﴿مِنۡهَآ أَرۡبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ [التوبة:٣٦]، هذه يحرم فيها القتال، فكما أنه يحرم القتال في الحرم يحرم القتال في الأشهر الحرم؛ كما قال تعالى: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ قِتَالٖ فِيهِۖ قُلۡ قِتَالٞ فِيهِ كَبِيرٞ﴾ [البقرة:٢١٧]، فلا يجوز القتال في الشهر الحرام، هذا في أول الإسلام، ثم نسخ ذلك، وشرع القتال في جميع السنة وفي جميع الأشهر إذا كان عند المسلمين استطاعة، فعلى هذا المعنى أن المشركين إذا قاتلوكم في الشهر الحرام، فقاتلوهم في الشهر الحرام؛ كما أنهم إذا قاتلوكم في الحرم، فقاتلوهم في الحرم.

﴿وَٱلۡحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ﴾، والقصاص معناه: العدل، وهو أن يفعل بالجاني مثلما فعل بالمجني عليه، هذا هو القصاص.

﴿وَٱلۡحُرُمَٰتُ قِصَاصٞۚ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ﴾، إذا اعتدوا عليكم في الحرم، فاعتدوا عليهم، وإذا اعتدوا عليكم في الشهر الحرام، فاعتدوا عليهم لكف شرهم.

﴿فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ﴾، القصاص لا يجوز الزيادة فيه عن الحق، القصاص عدل، لا يجوز أن يزاد فيه عن الحق ويجار فيه؛ بل هو عدل.

﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾، انظر عدل الإسلام حتى مع الكفار، حتى مع المعتدين، لا يجوز أنك تزيد على عدوانه؛ بل تعتدي عليه بمثل ما اعتدى عليك، ولا تزد على هذا، حتى مع الكافر وحتى مع العدو، فكيف مع المسلم؟ لا يجوز الاعتداء بحال من الأحوال.

﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾: اتقوا الله بفعل أوامره وترك نواهيه، سمي ذلك تقوى؛ لأنه يقي من عذاب الله، فعل طاعة الله وترك معصية الله هذا وقاية من عذاب الله وتقوى.

﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾، الله جَلَّ وَعَلَا مع المتقين، فمن اتقى الله، فإن الله معه، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل:١٢٨].

والمعية معناها: النصر والتأييد، الله جَلَّ وَعَلَا مع عباده معيتين:

* **معية عامة**، وهذه مع جميع الناس، وهي معية الإحاطة والعلم، فإنه محيط بعباده المؤمنين والكفار، والمتقين والفجار، الله مع جميع الناس بمعنى أنه يحصي عليهم أعمالهم، ويطلع على أعمالهم، فهو معهم أينما كانوا، لا يخفون عليه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، معهم بعلمه وإحاطته، ﴿لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [آل عمران:٥] هذه معية عامة.

* **النوع الثاني: معية خاصة بالمؤمنين**، ومعناها النصر والتأييد والتوفيق، معية خاصة؛ ﴿إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه:٤٦]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل:١٢٨]، هذه المعية الخاصة، ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟﴾

أي: تيقنوا، ﴿أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾، ودل بمفهومه على أن من عصى الله وخالف أمره، فإنه لا تكون له هذه المعية الخاصة، إنما هي خاصة بالمتقين.

فهذا مما ينفر من المخالفات والذنوب والمعاصي؛ لأنها تسبب أن العبد يفلس من هذه المعية الخاصة، التي معناها التوفيق والتسديد والإعانة والترشيد.

نسأل الله عَزَّوَجَلَّ أن يوفقنا وإياكم لصالح القول والعمل، وأن يفقهنا وإياكم في دينه، وأن يعلمنا ما ينفعنا، وينفعنا بما علمنا، نسأل الله لنا ولكم ولجميع المسلمين علمًا نافعًا، وعملًا صالحًا، ودعاءً متقبلًا

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

البـــر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على عبده ورسوله نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

تقدم الكلام على قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [البقرة:١٨٩]، لنا عودة على آخر هذه الآية، وهو قوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا﴾.

قد قدمنا أن العلماء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ ذكروا أن سبب نزول هذه الآية أن قومًا كانوا إذا أحرموا بالحج أو بالعمرة، يتشددون في أحكام الإحرام، فكانوا لا يستظلون تحت سقف، ولا يدخلون من باب، وإذا أراد أحدهم أن يدخل بيتًا، فإنه لا يدخله من بابه؛ لأنه بزعمه يدخل من تحت سقف، فكانوا يتسورون الجدران، ويأتون من ظهور البيوت، ويظنون أن هذا من الدين، وأنه من الشرع، وأنه من أحكام الإحرام، الله أنكر عليهم ذلك، فقال: ﴿وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا﴾ والبر معناه: الطاعة، أي: ليس من الطاعة لله ورسوله وليس من شرع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ صنيعكم هذا؛ لأنه تشدد وغلو، ما أنزل الله به من سلطان.

ثم قال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ﴾، هذا هو البر؛ من أطاع الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ في أوامره ونواهيه، وتوسط بين الغلو والتشدد وبين التساهل والتسيب، هذا هو البر.

والدين -ولله الحمد- دين يسر ودين سهولة، وليس فيه حرج، وليس فيه تشدد، نهى الله عن ذلك.

﴿وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ يعني: اتقى الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ، وتقيد بالشرع، تقيد بأوامر الله ونواهيه، ولم يزد على ذلك ويتشدد بأمور يظن أنها من الدين، وهي ليست من الدين، الدين ليس فيه تشدد، الدين ليس فيه حرج، الدين دين حنيف؛ ملة إبراهيم، ﴿هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ [الحج:٧٨]، هذا هو الدين.

فالذي يريد البر ويريد الثواب عند الله جَلَّوَعَلَا يتمشى على شرع الله؛ لا يتشدد، ولا يتساهل؛ لأن كثيرًا من الناس بين طرفي نقيض، إما متشددون غالون متنطعون، وإما متساهلون متحللون من الدين.

ودين الله بين الغالي والجافي، هذا دين الله بين الغلو وبين الجفاء؛ لا إفراط ولا تفريط، الإفراط هو الغلو، والتفريط هو التساهل، لا، الدين وسط -ولله الحمد- بين الغالي المتطرف وبين الجافي المتحلل من الدين، هذا هو دين الله.

﴿وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ أي: اتقى الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ بفعل أوامره وترك نواهيه ولم يشدد على نفسه، ولهذا قال الله سبحانه لنبيه: ﴿فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطۡغَوۡاْۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾؛ استقم على الدين ﴿كَمَآ أُمِرۡتَ﴾ أي:

كما أمرك الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، فالاستقامة هي ملازمة أوامر الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وليس الاستقامة أن تتشدد وأن تشق على نفسك، هذا ليس هو الاستقامة، الاستقامة أن تستقيم على أوامر الله، ﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ﴾ [هود:١١٢].

ثم أمر أتباع الرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بذلك، فقال: ﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا۟ ﴾، الطغيان: الزيادة، لا تزيدوا عن أوامر الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ تظنون أنكم تؤجرون على ذلك.

﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ ﴾: تاب إلى الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وآمن بالله ورسوله، وتبع الرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فإن الله أمر المؤمنين بما أمر به رسولهم صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

﴿وَلَا تَطْغَوْا۟﴾، الطغيان: هو الزيادة عن أوامر الله والتشدد في دين الله عَزَّوَجَلَّ، هذا هو الطغيان، حد لهم حدًّا، قال: ﴿ كَمَآ أُمِرْتَ ﴾ أي: اتبع أوامر الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، هذا هو الدين، وأما الطغيان والزيادة، فليست من دين الله، ولهذا عاب الله على النصارى لما غلوا في دينهم، غلوا في المسيح صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، قال الله سبحانه: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ﴾ [النساء:١٧١]، هم لا، هم يقولون: لا يكفي أننا نقول: رسول الله، ولا يكفي أننا نقول: المسيح عبد الله؛ بل المسيح ابن الله، أو ثالث ثلاثة، أو هو الله.

أقوال النصارى في المسيح ثلاثة:

* منهم من يقول: هو الله.

* ومنهم من يقول: هو ابن الله.

* ومنهم من يقول: ثالث ثلاثة.

وهذا غلو -والعياذ بالله-، ولهذا قال: ﴿لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ [النساء:١٧١]، ليس هو الله، ولا ابن الله، ولا ثالث ثلاثة، ﴿إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ﴾ [النساء:١٧١]، كلمته أن الله قال له: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران:٥٩]، فوجد بكلمة بدون أب، وجد بدون أب، وإنما وجد من الكلمة التي صدرت من الله، وهي قوله جَلَّ وَعَلَا ﴿كُن﴾، فكان عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، هذا معنى كلمة الله؛ أنه تكون بكلمة الله، وليس له أب كسائر البشر، والله على كل شيء قدير؛ كما أنه خلق آدم بلا أب ولا أم، خلقه من تراب، فهو قادر على أن يخلق بشرًا من غير أب، أن يخلق بشرًا من أم بدون أب، ولهذا قال: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران:٥٩]، الذي قدر على أن يوجد بشرًا من التراب من غير أب ولا أم ألا يقدر على أن يوجد بشرًا من أم بلا أب؟ بلى.

حواء أم البشر خلقها الله من أب بلا أم، خلقها الله من ضلع آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وليس لها أم.

فالبشر على أربعة أنواع:

* منهم من خلقه الله من أم وأب كسائر البشر.

* ومنهم من خلقه الله بلا أم ولا أب كآدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

* ومنهم من خلقه الله من أب بلا أم كحواء.

* ومنهم من خلقه الله من أم بلا أب، وهو عيسى صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، الله على كل شيء قدير.

ولهذا قال: ﴿لَا تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ [النساء:١٧١]، ﴿لَا تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾ [المائدة:٧٧]، أنكر عليهم الغلو، والنبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ حذر من الغلو والزيادة، فقد جاء ثلاثة نفر من أصحاب النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يسألون أزواج النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ عن عبادة الرسول صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، يريدون الاقتداء به صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فسألوا أزواجه، فأخبرنهم بعبادة الرسول صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فكأنهم تقالوها، كأنهم تقالوا عبادة الرسول صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وكانوا يظنونها أكثر مما أخبروا به، ثم اعتذروا، وقالوا: إن رسول الله قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر. يعني: فهو ليس بحاجة إلى كثرة العبادة؛ لأنه مغفور له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وأما نحن فلم يغفر لنا، فنحتاج إلى كثرة العبادة، ولا يتقيدون بما فعل الرسول صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فبلغ ذلك رسول الله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فقال صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «أَنْتُمُ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا، أَمَا وَاللهِ إِنِّي لَأَخْشَاكُمْ للهِ وَأَتْقَاكُمْ لَهُ، لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي»(١)؛ لأن واحدًا منهم قال: أنا أصوم ولا أفطر، والثاني قال: أنا أصلي ولا أنام، يعني: يصلي كل الليل، والثالث قال: أنا لا أتزوج النساء. تعبدًا، يظنون أن هذا عبادة، فلما بلغ ذلك رسول الله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، قال لهم: «لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي».

---

(١) سبق تخريجه (ص٣٥٧).

إذًا فالدين هو اتباع الرسول ﷺ والاقتداء بالرسول ﷺ من غير زيادة، ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ﴾ [الأحزاب:٢١]، والله جَلَّ وَعَلَا يقول: ﴿فَٱسْتَقِيمُوٓاْ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ﴾ [فصلت:٦]، ﴿فَٱسْتَقِيمُوٓاْ إِلَيْهِ ﴾: إلى الله جَلَّ وَعَلَا على دينه، ﴿وَٱسْتَغْفِرُوهُ ﴾ لماذا قال استغفروه؟ لأن الإنسان يحصل منه تقصير، الاستقامة الكاملة لا يقدر عليها أحد، ولهذا قال ﷺ: «اسْتَقِيمُوا وَلَنْ تُحْصُوا»(١)؛ لاتستطيع أن تقوم بالدين كله، الدين متين؛ كما قال الرسول ﷺ، «وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ»(٢)، لكن استقم حسب استطاعتك، واستغفر الله عن التقصير، فإذا جمعت بين قوله تعالى: ﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْاْ﴾ [هود:١١٢]، وبين قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَقِيمُوٓاْ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ﴾ [فصلت:٦]، عرفت الحق؛ أن الإنسان يستقيم، ولا يزيد ويطغى ويتنطع، وأن الإنسان لا يكمل نفسه، ويقول: أنا استكملت الدين. وإنما يعتبر نفسه مقصرًا، فيستغفر الله من الخطأ، ويستغفر الله من التقصير، فإن الإنسان مهما عبد الله، فإنه لا يقوم بكل حق الله عليه، ولا يقوم بالدين كله.

ولكن الله جَلَّ وَعَلَا لا يكلف نفسًا إلا وسعها، ويقول جَلَّ وَعَلَا: ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ ﴾ [التغابن:١٦]، ويقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ﴾ [البقرة:٢٨٦].

---

(١) أخرجه أحمد (٣٧/ ٦٠)، وابن ماجه (٢٧٧)، من حديث ثوبان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري (٣٩)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فهذا هو الصراط المستقيم؛ الاعتدال في العبادات من غير غلو وتشدد، ومن غير تساهل وتفريط؛ بل يكون الإنسان معتدلًا، ويكثر من الاستغفار، فإن الاستغفار يمحو التقصير، يكمل النقص، ولهذا قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذاريات:١٥-١٨].

انظر! ﴿قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾: يقومون الليل، ثم بالأسحار يستغفرون، يستغفرون من أي شيء؟ يستغفرون من النقص حتى وإن قاموا الليل، أو قاموا من الليل، فالنقص حاصل، فهم يستغفرون، يتبعون العمل بالاستغفار، يتبعون الطاعة بالاستغفار، ﴿فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ﴾ [فصلت:٦] ولا يكملون أنفسهم ويعجبون بأعمالهم.

النبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو أكمل الخلق عبادة لربه عَزَّ وَجَلَّ، ومع هذا يقول: «**وَاللهِ إِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ فِي الْيَوْمِ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّةً**»(١)، الرسول صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يتوب إلى الله، ويستغفر أكثر من سبعين مرة في اليوم الواحد مع ما هو عليه من طاعة الله عَزَّ وَجَلَّ، فالإنسان لا يعجب بعمله، ولا يتشدد في دين الله، ولا يفرط ويتساهل، وإنما يجمع بين الخوف والرجاء، يجمع بين العمل الصالح والاستغفار، يجمع بين الطاعة والتوبة، هذا شأن المؤمنين.

قال صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ، هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ، هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ**»(٢)، ثلاث مرات، دعا عليهم بالهلاك، من هم المتنطعون؟ هم المتشددون الغالون في دين الله عَزَّ وَجَلَّ.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٣٠٧)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم (٢٦٧٠)، من حديث ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

فلا غلو ولا تقصير، ولا إفراط ولا تفريط، هذا هو الدين الصحيح ولهذا قال: ﴿وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُواْ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُواْ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [البقرة:١٨٩].

هذا هو البر؛ تقوى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بحسب استطاعتك، فمن اتقى الله بحسب استطاعته، فإن الله يغفر له ما قصر فيه، من اتقى الله بحسب استطاعته ومقدرته، فإن الله يغفر له ما قصر فيه من حق الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأن الإنسان عاجز، الإنسان ضعيف، لا يستطيع أن يقوم بحق الله سبحانه، ولايستطيع أن يعمل بالدين كله، ولا يترك منه شيئًا، لا يستطيع، لكن يأتي منه بقدر استطاعته، ويستغفر الله عن الشيء الذي لا يستطيعه والذي قصر فيه، يستغفر الله ويكثر من الاستغفار، هذا سبيل المؤمنين المتقين.

نسأل الله عَزَّوَجَلَّ أن يجعلنا وإياكم منهم بمنه وكرمه!

والمهم المداومة، المداومة الطاعة، قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَحَبَّ الْعَمَلِ إِلَى اللهِ أَدْوَمُهُ وَإِنْ قَلَّ**»(١)، كون الإنسان يداوم على العمل الصالح -ولو كان قليلاً- فيه خير، أما كونه يجتهد في بعض الأحيان، ويشتد في بعض الأحيان، ثم يترك العمل، فهذا ليس هو الطريق الصحيح، ولهذا يقول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّ الْمُنْبَتَّ لَا أَرْضًا قَطَعَ، وَلَا ظَهْرًا أَبْقَى**»(٢)، من هو المنبت؟ المسافر، المسافر إذا أدلج على راحلته، وكلف راحلته بالسير، فإنها تنقطع في أثناء الطريق، هذا هو المنبت،

---

(١) أخرجه مسلم (٢٨١٨)، من حديث عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا.

(٢) أخرجه ابن الأعرابي في معجمه (٣/ ٨٩٩)، والقضاعي في مسنده (٢/ ١٨٤)، والبيهقي في الكبرى (٣/ ٢٧)، من حديث جابر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

انقطعت راحلته؛ لأنها كلت من كثرة السير عليها، فانقطعت، فبقي في وسط الطريق، «لَا أَرْضًا قَطَعَ، وَلَا ظَهْرًا أَبْقَى»، راحلته كلت وتعبت، والطريق باق، ولو أنه أخذ الطريق شيئًا فشيئًا، ورفق براحلته، لبلغته إلى مقصوده.

هذا مثل للنفس، نفس الإنسان إذا أتعبها وكلفها، انقطعت وتركت العمل، أما إذا أخذ العمل شيئًا فشيئًا بالتدريج والسهولة؛ قام من الليل، وصام بعض الأيام، وعمل بالطاعات شيئًا فشيئًا بحسب استطاعته، هذا أدوم له، وهذا يألفه، ويستمر عليه، لكن إذا تشدد في الأول وأتعب نفسه، ملت وانقطعت، وبالتالي يترك العمل، هذه نتيجة الإفراط ونتيجة الغلو والتشدد أن الإنسان ينقطع ويترك العمل، أما إذا اعتدل الإنسان في العمل، فإنه يستمر ويعتاد هذا الشيء، ويصل إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

نسأل الله عَزَّوَجَلَّ أن يرزقنا وإياكم الاستقامة على دينه من غير غلو ومن غير تقصير، نسأله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن يرزقنا وإياكم الهداية للصراط المستقيم، وأن يثبتنا على الدين القويم، وأن يعيننا على ذكره وشكره وحسن عبادته.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

عظمة القرآن الكريم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على عبده ورسوله نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين، أما بعد:

فلا يزال الحديث موصولًا بما بدأناه في الدرس السابق عن القرآن الكريم، فإن الحديث عن القرآن لا ينتهي ولا يمل؛ لأنه كتاب الله الذي أنزله لهداية الناس وإخراجهم من الظلمات إلى النور.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ١ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [إبراهيم:١، ٢].

فالله أنزل هذا القرآن وهذا الكتاب العظيم على هذا الرسول الكريم، على خاتم الرسل والأنبياء نبينا محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أنزله لأي شيء؟ ﴿لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [إبراهيم:١]، أي: لتخرج العالم، من أراد الله هدايته، ومن أراد الله به خيرًا يخرجهم من الظلمات؛ ظلمات الكفر، ظلمات الشرك، ظلمات الجهل، ظلمات الشكوك، كلها ظلمات بعضها فوق بعض، ظلمات متراكمة.

كان الناس قبل بعثة هذا الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ونزول القرآن عليه كانوا في جاهلية جهلاء وفي ضلالة عمياء؛ في ظلمات في عقائدهم، وظلمات في معاملاتهم، وظلمات في أخلاقهم ومآكلهم ومشاربهم، ظلمات الجاهلية.

تخرجهم من هذه الظلمات ﴿إِلَى ٱلنُّورِ﴾، وانظروا كيف عدَّد الظلمات ووحد النور، ﴿لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ﴾؛ لأن الظلمات كثيرة لا حصر لها.

﴿إِلَى ٱلنُّورِ﴾: النور هو شيء واحد لا انقسام فيه ولا تعدد، طريق واحد ومنهج واحد، نور ﴿يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [المائدة:١٦].

فعدَّد الظلمات وجمعها؛ لأنها كثيرة لا تنتهي، مهالك، مهالك كثيرة، ولكن النور واحد، وهو كتاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، طريق واحد لا يضل من سار عليه وتمسك به، وأما من سار مع الظلمات، فإنه يهلك في أي وادٍ من أوديتها.

فالله بعث هذا الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومنَّ به على المؤمنين؛ لإخراجهم من الظلمات -من أراد الهداية- إلى النور، وهو صراط الله ومنهجه ودينه، فإنه نور، كله نور، فما الفرق بين من يسير في الظلمات ومن يسير في النور؟

الفرق واضح بين من يسير في ظلمات متنوعة ومتعددة، ولا يخرج من ظلمة إلا إلى ظلمة، وبين من يسير على طريق واضح مستقيم؛ ﴿أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الملك:٢٢].

العاقل يقارن بين الظلمات والنور، ما كان عليه الكفار والجاهلية، فإنه ظلمات توارثوها، وساروا عليها من غير دليل ومن غير برهان من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وإنما هي عادات وتقاليد توارثوها بعضهم عن بعض، وزينتها لهم شياطين الجن والإنس، فكلها ظلمات، وإن زعم أهلها أنها تقدم، وأنها رقي، وأنها حضارة، فهي ظلمات، كل شيء لا يؤدي إلى الله جَلَّ وَعَلَا وإلى جنته، فهو ظلمات ومآله للهلاك.

فجميع الكفار الآن وقبل الآن، جميع الكفار في كل الأزمان والأمكنة كلهم في ظلمات، وإن زعموا أنهم أمة حضارة وأمة تقدم وأمة رقي، ربما تكون حضارتهم ورقيهم وبالًا عليهم، ولا تنفعهم عند الله شيئًا، فهي ظلمات.

وقد بعث الله هذا النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليخرج الناس بهذا الكتاب الكريم من الظلمات إلى النور ﴿بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ﴾ سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، الأمر راجع إلى الله، من أراد الله هدايته، وفقه وهداه، وبشرعه سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ؛ فإنه شرع لهم طريق الخير، ووضح لهم سبيل الرشاد، ولم يترك شيئًا يقربهم إليه وإلى جنته إلا وبينه لهم.

﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾: هذا تفسير للنور، ما هو النور؟ ﴿لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ ما هو النور؟ ﴿صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾، وهو الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ.

﴿ٱلۡعَزِيزِ﴾ يعني: القوي الذي لا يغلبه شيء سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، ومن اعتز به ولجأ إليه، فإنه يحميه ويحفظه، ولا يقدر أحد على أن ينال منه؛ لأنه لجأ إلى عزيز وإلى قوي، بخلاف من لجأ إلى غير الله من الأصنام والأنداد والأوثان والطواغيت، فإن هذه ذليلة، ومن لجأ إليها، فهو ذليل وهالك.

﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ﴾، الذي عز كل شيء وقهر كل شيء، فهو الغالب سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ لكل شيء.

﴿ٱلۡحَمِيدِ﴾: المحمود على كل حال سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ في أفعاله وأسمائه وصفاته، ومحمود على كل أفعاله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ؛ لأنها تدل على كماله جَلَّ وَعَلَا، وعلى نفع هذه الشرائع التي شرعها، وهذه الطريق التي وضحها سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ.

فأسماؤه وصفاته محمودة جَلَّوَعَلَا، وأفعاله محمودة جَلَّوَعَلَا، وأحكامه كلها محمودة، تشريعاته سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ كلها محمودة؛ لأنها من حكيم حميد.

وقال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ في الآية الأخرى مادحًا هذا القرآن ومبينًا عظمته: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [الرعد:٣١]، كان هذا القرآن، ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا﴾ وهو هذا الكتاب، ﴿سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ﴾: لسارت بأمر الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، ﴿أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ﴾ إلى بساتين وأنهار وأزهار وحدائق.

﴿أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾، الميت لا يسمع ولا يتكلم، لكن لو أراد الله جَلَّوَعَلَا، لكان هذا القرآن ينطقه بقدرته سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، ولعظمة هذا القرآن، فلو أن كتابًا هذه أوصافه، لكان هذا القرآن لا غيره.

وقال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ في الآية الثالثة: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء:٩]، ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ﴾: هذا القرآن الذي بين أيديكم، بين دفتي المصحف، فالإشارة إلى شيء موجود بين أيديكم، ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى﴾ يعني: يدل ويرشد، ﴿لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ أي: للطريقة القيمة المستقيمة والصراط المستقيم.

فالقرآن يدل على الصراط المستقيم والمنهج السليم الموصل إلى الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، فمن أراد أن يسير على الصراط المستقيم في الدنيا والآخرة، فليتمسك بهذا القرآن؛ لأنه ﴿يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾، فإذا أردت السير على الصراط المستقيم في الدنيا وفي الآخرة، فتمسك بهذا القرآن؛ لأنه ﴿يَهْدِى لِلَّتِى

هِيَ أَقْوَمُ﴾ في كل النواحي؛ يهدي للتي هي أقوم في العقائد؛ لأنه يأمر بعبادة الله جَلَّ وَعَلَا وترك عبادة ما سواه، والله خلق الخلق لعبادته؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦]، فهو يهدي للتي هي أقوم في العقائد؛ بحيث تصبح عقيدة من تمسك بهذا القرآن عقيدة صافية سليمة؛ لأن القرآن جاء بالأمر بالتوحيد والنهي عن الشرك، وهذه هي العقيدة السليمة، فمن وحد الله جَلَّ وَعَلَا وأخلص العبادة له وتجنب الشرك، فإنه يكون على منهج سليم في عقيدته.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة:٢٥٦، ٢٥٧]، لما أخبر سبحانه أن من كفر بالطاغوت وآمن بالله، فقد استمسك بالعروة الوثقى بين سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، نتائج ذلك بأن من كفر بالطاغوت وآمن بالله، فإن الله يكون وليه يتولاه، ومن تولاه الله، فلاخوف عليه.

﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ﴾: ظلمات الكفر والشك والجهل والضلال والحيرة والاضطراب والقلق، إلى النور، وهو الحق والعيشة الحميدة في الدنيا والآخرة، هذا من آمن بالله وكفر بالطاغوت.

أما من عكس الأمر، فآمن بالطاغوت وكفر بالله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ﴾: يدعونهم إلى الخروج من الإسلام، يدعونهم إلى الشهوات المحرمة، يدعون النساء إلى هتك الحجاب وإلى

الاختلاط بالرجال وإلى التبرج بالزينة، يخرجون الذكور والإناث من النور إلى الظلمات، هذا في كل زمان ومكان، هذه مهمتهم، هذه مهمة الطاغوت وأعوان الطاغوت.

والطاغوت: كل ما تجاوز به العبد حده من معبود أو متبوع أو مطاع في غير طاعة الله فهو طاغوت[(١)]؛ من الطغيان، وهو الخروج[(٢)].

﴿أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّـٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم﴾ انظر! ﴿يُخْرِجُونَهُم﴾ جمع، الطاغوت لفظ مفرد، ولكن معناه جمع؛ لأن الطواغيت كثيرة، ليس طاغوتًا واحدًا، ورأس الطواغيت إبليس -لعنه الله-، ومعه شياطين الإنس والجن، كلهم طواغيت، وكلهم مهمتهم واحدة، هي إخراج الناس من النور إلى الظلمات.

تأملوا -يا عباد الله-، اعرفوا أعداءكم؛ حتى تحذروا منهم، ولا تحسبوا أن هؤلاء الطواغيت أنهم انتهوا وانقضوا، وهذا وقت نزول القرآن فقط، لا، الطواغيت إلى أن تقوم الساعة من أجل الابتلاء والامتحان، وكلما تأخر الزمان، فإنها تكثر الطواغيت، وتكثر الفتن، ويقل أهل العلم؛ كما جاءت بذلك الأحاديث عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[(٣)].

---

(١) انظر: إعلام الموقعين (١/ ٤٠).

(٢) انظر: العين (٤/ ٤٣٥)، وتهذيب اللغة (٨/ ١٥٣)، والصحاح (٦/ ٢٤١٢)، ولسان العرب (١٥/ ٧).

(٣) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (١٠٣٦)، ومسلم (١٥٧)، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يُقْبَضَ العِلْمُ، وَتَكْثُرَ الزَّلَازِلُ، وَيَتَقَارَبَ الزَّمَانُ، وَتَظْهَرَ الفِتَنُ، وَيَكْثُرَ الهَرْجُ** -وَهُوَ القَتْلُ القَتْلُ-، **حَتَّى يَكْثُرَ فِيكُمُ المَالُ فَيَفِيضَ**».

﴿يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾: هذا في كل زمان وفي كل مكان، لم ينتهِ، ولم ينقطع، ويأتونهم من كل طريق، ويحسنون لهم القبيح، ويقبحون لهم الحسن، ويصدونهم عن سبيل الله، جادين في الليل والنهار في دعاياتهم، يسخرون وسائل الإعلام، يسخرونها لهدم الأخلاق وهدم العقائد وهدم كل ما مع المسلمين من خير إن استطاعوا ذلك؛ ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة:٢١٧]، ﴿يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة:٢٥٧]، هذه عاقبتهم، وهذا مصيرهم هم ومن اتبعهم، وقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما ذكر الفتن، ذكر الخير والشر وتعاقب الخير والشر والتداول بينهما، قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما ذكر الخير وسئل: «**فَهَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الخَيْرِ مِنْ شَرٍّ؟ قَالَ: نَعَمْ، دُعَاةٌ عَلَى أَبْوَابِ جَهَنَّمَ، مَنْ أَجَابَهُمْ إِلَيْهَا قَذَفُوهُ فِيهَا**»(١).

وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ يعني: الكفار، لما حرم نكاح المشركة، وحرم إنكاح المشرك من المؤمنة، قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة:٢٢١]، وقال عن الشيطان: ﴿إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [فاطر:٦].

فقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم﴾ أي: دعاة الضلال ودعاة الشرك والكفر هؤلاء هم الطواغيت.

---

(١) أخرجه البخاري (٧٠٨٤)، ومسلم (١٨٤٧)، من حديث حذيفة بن اليمان رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

﴿أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾: من الإسلام إلى الكفر، ومن الأخلاق الحميدة إلى الأخلاق الذميمة، ومن أكل الحلال إلى أكل الحرام، إلى الربا، إلى القمار، إلى السرقة والنهب، إلى أكل أموال الناس بالباطل.

كل هذا من دعايات الطواغيت، وهذا لا يزال قائمًا ومستمرًّا إلى أن تقوم الساعة؛ مداولة بين الحق والباطل، وبين دعاة الحق ودعاة الضلال، مداولات للابتلاء والامتحان.

﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾: يهدي للتي هي أقوم في العقائد؛ لأن العقيدة هي الأساس، فيعرف بالله جَلَّ وَعَلَا وبأسمائه وصفاته ووجوب عبادته وترك عبادة ما سواه، يهدي إلى هذا، إلى تصحيح العقيدة.

فالمؤمنون يأخذون عقيدتهم من كتاب الله ومن سنة رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فيعرفون ربهم من كتابه الذي أنزله ومن سنة رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

أما أهل الضلال وأهل الكفر والشرك، فيأخذون عقائدهم يأخذونها عن شياطين الإنس والجن، عن التقليد الأعمى وما وجدوا عليه آباءهم، ويستجيبون لدعاة الضلال، ويؤسسون عقائدهم على علم المنطق وعلم الجدل وعلم الفلسفة، ويعرضون عن أخذ العقيدة الصافية من الكتاب ومن السنة النبوية.

﴿يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ في العقيدة، يهدي للتي هي أقوم في العبادة، فيبين للناس كيف يعبدون ربهم العبادة التي يرضاها لهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فالعبادة

توقيفية، تؤخذ من الكتاب والسنة، فلا تتقرب إلى الله بشيء إلا إذا عرفت أنه جاء في الكتاب والسنة ما يدل عليه، بدليل من الكتاب والسنة، وما لم يكن له دليل من الكتاب والسنة، فلا تتقرب إلى الله به؛ لأنه بدعة، قد قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا، فَهُوَ رَدٌّ»(١)، وقال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدِثَاتِ الْأُمُورِ، فَإِنَّ شَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلُّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ»(٢).

ويهدي للتي هي أقوم في المعاملات؛ البيع والشراء، المعاملات الصحيحة المباحة والمعاملات المحرمة، فأباح الكسب الحلال وطلب الرزق من الوجوه المباحة، ونهى عن الكسب الحرام، حرم الربا، وحرم الميسر، وحرم الخداع والمكر والحيل، وحرم نقص المكاييل والموازين وبخس الناس حقوقهم، وأمر بالوفاء في المعاملات.

ويهدي للتي هي أقوم في الأخلاق -السلوك-، فيأمر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالأخلاق الحميدة، يأمر بالكرم والعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى، وينهى عن الفحشاء والمنكر.

يهدي للتي هي أقوم في اللباس، فيبين للرجال ما يلبسون، ويبين لهم ما يتجنبون، أحل لهم الملابس التي تجملهم، وتستر عوراتهم؛ ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ﴾ [الأعراف:٢٦]، حرم على الرجال لبس الحرير ولبس الذهب، حرام على ذكور هذه الأمة لبس

(١) سبق تخريجه (ص٩٢).
(٢) سبق تخريجه (ص٩٢).

الحرير ولبس الذهب[(١)]، ولبس ما فيه صور، وحمل الصور، كل هذا -يعني: في الملابس-، كل هذا مما حرمه الله في الملابس[(٢)].

---

(١) كما في الحديث الذي أخرجه أحمد (٢/ ١٤٦)، وأبو داود (٤٠٥٧)، والنسائي في المجتبى (٥١٤٤)، وابن ماجه (٣٥٩٥)، عَنْ ابْنِ زُرَيْرٍ، أَنَّهُ سَمِعَ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ: «إِنَّ نَبِيَّ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَخَذَ حَرِيرًا، فَجَعَلَهُ فِي يَمِينِهِ، وَأَخَذَ ذَهَبًا فَجَعَلَهُ فِي شِمَالِهِ، ثُمَّ قَالَ: إِنَّ هَذَيْنِ حَرَامٌ عَلَى ذُكُورِ أُمَّتِي».

(٢) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (٥١٨١)، ومسلم (٢١٠٧)، عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «أَنَّهَا اشْتَرَتْ نُمْرُقَةً فِيهَا تَصَاوِيرُ، فَلَمَّا رَآهَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَامَ عَلَى الْبَابِ، فَلَمْ يَدْخُلْ، فَعَرَفْتُ، أَوْ فَعُرِفَتْ فِي وَجْهِهِ الْكَرَاهِيَةُ، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ أَتُوبُ إِلَى اللهِ وَإِلَى رَسُولِهِ، فَمَاذَا أَذْنَبْتُ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **مَا بَالُ هَذِهِ النُّمْرُقَةِ؟** فَقَالَتْ: اشْتَرَيْتُهَا لَكَ، تَقْعُدُ عَلَيْهَا وَتَوَسَّدُهَا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **إِنَّ أَصْحَابَ هَذِهِ الصُّوَرِ يُعَذَّبُونَ، وَيُقَالُ لَهُمْ: أَحْيُوا مَا خَلَقْتُمْ. ثُمَّ قَالَ: إِنَّ الْبَيْتَ الَّذِي فِيهِ الصُّوَرُ لَا تَدْخُلُهُ الْمَلَائِكَةُ**».

قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ شارحًا لهذا الحديث: (قَالَ أَصْحَابُنَا وَغَيْرُهُمْ مِنَ الْعُلَمَاءِ تَصْوِيرُ صُورَةِ الْحَيَوَانِ حَرَامٌ شَدِيدُ التَّحْرِيمِ وَهُوَ مِنَ الْكَبَائِرِ لِأَنَّهُ مُتَوَعَّدٌ عَلَيْهِ بِهَذَا الْوَعِيدِ الشَّدِيدِ الْمَذْكُورِ فِي الْأَحَادِيثِ وَسَوَاءٌ صَنَعَهُ بِمَا يُمْتَهَنُ أَوْ بِغَيْرِهِ فَصَنْعَتُهُ حَرَامٌ بِكُلِّ حَالٍ لِأَنَّ فِيهِ مُضَاهَاةً لِخَلْقِ اللهِ تَعَالَى وَسَوَاءٌ مَا كَانَ فِي ثوب أو بساط أو درهم أَوْ دِينَارٍ أَوْ فَلْسٍ أَوْ إِنَاءٍ أَوْ حَائِطٍ أَوْ غَيْرِهَا وَأَمَّا تَصْوِيرُ صُورَةِ الشَّجَرِ وَرِحَالِ الْإِبِلِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا لَيْسَ فِيهِ صُورَةُ حَيَوَانٍ فَلَيْسَ بِحَرَامٍ هَذَا حُكْمُ نَفْسِ التَّصْوِيرِ وَأَمَّا اتِّخَاذُ الْمُصَوَّرِ فِيهِ صُورَةَ حَيَوَانٍ فَإِنْ كَانَ مُعَلَّقًا عَلَى حَائِطٍ أَوْ ثَوْبًا ملبوسا أو عمامة ونحو ذلك مما لايعد مُمْتَهَنًا فَهُوَ حَرَامٌ وَإِنْ كَانَ فِي بِسَاطٍ يُدَاسُ وَمِخَدَّةٍ وَوِسَادَةٍ وَنَحْوِهَا مِمَّا يُمْتَهَنُ فَلَيْسَ بِحَرَامٍ وَلَكِنْ هَلْ يَمْنَعُ دُخُولَ مَلَائِكَةِ الرَّحْمَةِ ذَلِكَ الْبَيْتَ فِيهِ كَلَامٌ نَذْكُرُهُ قَرِيبًا إِنْ شاء الله ولا فرق في هذا كله بين ما له ظل وما لا ظل لَهُ هَذَا تَلْخِيصُ مَذْهَبِنَا فِي الْمَسْأَلَةِ وَبِمَعْنَاهُ قَالَ جَمَاهِيرُ الْعُلَمَاءِ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَمَنْ بَعْدَهُمْ) شرح النووي على مسلم (١٤/ ٨١).

ونهى الرجال عن الإسبال(١) والخيلاء في اللباس(٢)، ونهاهم عن التشبه بلباس الكفار(٣) ولباس النساء(٤).

وكذلك النساء أمرهن بالحجاب؛ ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ﴾، ثم قال: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾ [النور:٣١]؛ إذا كانت المرأة عليها حلي في رجليها تحت الثياب، فلا تضرب برجلها لأجل يسمع الرجال صوت الحلي من تحت الثوب، فكيف بالتي تكشف عن ساقها، وتكشف عن

---

(١) كما في الحديث الذي أخرجه مسلم (١٠٦)، عَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ. قَالَ: فَقَرَأَهَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثَلَاثَ مِرَارًا، قَالَ أَبُو ذَرٍّ: خَابُوا وَخَسِرُوا، مَنْ هُمْ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: الْمُسْبِلُ، وَالْمَنَّانُ، وَالْمُنَفِّقُ سِلْعَتَهُ بِالْحَلِفِ الْكَاذِبِ».

(٢) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (٥٧٨٣)، ومسلم (٢٠٨٥)، عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «لَا يَنْظُرُ اللهُ إِلَى مَنْ جَرَّ ثَوْبَهُ خُيَلَاءَ».

(٣) كما في الحديث الذي أخرجه أحمد (٩/ ١٢٦)، وأبو داود (٤٠٣١)، عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ».

(٤) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (٥٨٨٥)، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: «لَعَنَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمُتَشَبِّهِينَ مِنَ الرِّجَالِ بِالنِّسَاءِ، وَالْمُتَشَبِّهَاتِ مِنَ النِّسَاءِ بِالرِّجَالِ».

ذراعيها وعضديها، وتكشف عن صدرها ونحرها، وتكشف عن وجهها وعن رأسها؟! هذه من أتباع الشيطان، وهذا لباس أتباع الشيطان.

فهو بيَّن للناس ما يصلحهم، ونهاهم عما يضرهم، ومن ذلك في اللباس، ومسألة النساء هي أخطر شيء على الرجال بعد خطر الكفر والشرك، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَا تَرَكْتُ بَعْدِي فِتْنَةً أَضَرَّ عَلَى الرِّجَالِ مِنَ النِّسَاءِ**»(١)، وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فَاتَّقُوا الدُّنْيَا وَاتَّقُوا النِّسَاءَ، فَإِنَّ أَوَّلَ فِتْنَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَتْ فِي النِّسَاءِ**»(٢)، فخطر النساء خطر عظيم إذا لم يتقيدن بالأوامر الشرعية، ولم يستجبن لله ولرسوله، ولم يقبلن الخير والتوجيه، وانخدعن بحضارة الغرب ودعايات الكفر ودعايات السفور، وطلبن التحرر من الشرع، طلبن التحرر من أحكام الشريعة إلى الإباحية وأحكام الكفر، حصلت الكارثة التي حذر منها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ﴾ [النساء:٣٤].

فهذا القرآن يهدي للتي هي أقوم في الأخـلاق؛ أمر بالكرم والجود والإنفاق في سبيل الله، وأمر بالإحسان، وأمر بالمعاملة الصالحة والمعاملة الطيبة بين الناس؛ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمۡ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلۡأَيۡمَٰنَ بَعۡدَ تَوۡكِيدِهَا وَقَدۡ جَعَلۡتُمُ ٱللَّهَ عَلَيۡكُمۡ كَفِيلًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ﴾ [النحل:٩٠، ٩١].

---

(١) أخرجه البخاري (٥٠٩٦)، ومسلم (٢٧٤٠)، من حديث أسامة بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه مسلم (٢٧٤٢)، من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فكل أوامر القرآن كلها خير، وكل نواهيه هي نواهٍ عن شر وعن عواقب وخيمة، فهو يهدي للتي هي أقوم، ويحذر من طرق الضلال وطرق الفساد وطرق الخسار والبوار في الدنيا والآخرة، هذا هو القرآن العظيم الذي بين أيدينا، لو تأملناه وتدبرناه وعملنا به.

وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر:٢١]، لو أن الله خاطب بهذا القرآن الجبال الصم، لو وجه الخطاب إليها، لخشعت، ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا﴾ [الحشر:٢١]؛ لأن الجبل يعرف ربه، ويخشع لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة:٧٤]، فالجبل يلين مع القرآن، ولكن قلب ابن آدم لا يلين مع القرآن، إلا من رحم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة:٧٤]، فالجبال والحصى والجمادات لها إدراك؛ تعرف ربها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وتنقاد له، وتخشع له، ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء:٤٤]، الذي خلقها هو الذي يعلم تسبيحها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الحديد:١] أي: نزهه، وكل هذه المخلوقات تنزه الله عما لا يليق به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وتنطق بتسبيحه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ بتسبيح يليق بها، لكن بني آدم لا يسمعون هذا التسبيح، وقد

يسمعهم الله شيئًا من ذلك؛ كما حصل في عهد النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن الله أسمعهم تسبيح الحصى بين أصابعه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ(١)، هذه معجزة من معجزات الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

﴿لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا﴾، الجبل الأصم القاسي يتصدع ﴿مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وقلب ابن آدم لا يخشع ولا يلين.

هذا مثل ضربه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لقسوة قلوب بني آدم الذين لم يستجيبوا ولم يصغوا لهذا القرآن، ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر:٢١].

هذا القرآن يحتاج إلى عناية من المسلمين، هذا القرآن الذي هو سعادة المسلمين وطريقهم إلى الله يحتاج إلى عناية، ولهذا أمر صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بتعليم القرآن وتعلمه، قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ**»(٢)، هذا فيه الحث على تعلم القرآن، ولا يكفي أن الإنسان يتعلم القرآن؛ بل لابد أن يعلمه لغيره أيضًا، «**خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ**».

---

(١) كما في الحديث الذي أخرجه الطبراني في الأوسط (٢/ ٥٩)، وفي الشاميين (٣/ ٧٩)، عَنْ أَبِي ذَرٍّ الْغِفَارِيِّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «إِنِّي لَشَاهِدٌ عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي حَلْقَةٍ، وَفِي يَدِهِ حَصًى، فَسَبَّحْنَ فِي يَدِهِ، وَفِينَا أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ وَعُثْمَانُ وَعَلِيٌّ، فَسَمِعَ تَسْبِيحَهُنَّ مَنْ فِي الحَلْقَةِ، ثُمَّ دَفَعَهُنَّ النَّبِيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى أَبِي بَكْرٍ، فَسَبَّحْنَ مَعَ أَبِي بَكْرٍ، سَمِعَ تَسْبِيحَهُنَّ مَنْ فِي الحَلْقَةِ، ثُمَّ دَفَعَهُنَّ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَسَبَّحْنَ فِي يَدِهِ، ثُمَّ دَفَعَهُنَّ النَّبِيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى عُمَرَ، فَسَبَّحْنَ فِي يَدِهِ، وَسَمِعَ تَسْبِيحَهُنَّ مَنْ فِي الحَلْقَةِ، ثُمَّ دَفَعَهُنَّ النَّبِيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ، فَسَبَّحْنَ فِي يَدِهِ، ثُمَّ دَفَعَهُنَّ إِلَيْنَا، فَلَمْ يُسَبِّحْنَ مَعَ أَحَدٍ مِنَّا».

(٢) سبق تخريجه (ص٢٦٣).

ثم إذا تعلم القرآن وعلمه، هذا لا يكفي؛ بل لابد أن يتدارسه، وأن يكرره ويتلوه، ويكثر من تلاوته، قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ قَرَأَ حَرْفًا مِنْ كِتَابِ اللهِ فَلَهُ بِهِ حَسَنَةٌ، وَالحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا، لَا أَقُولُ: ﴿الٓمٓ﴾ حَرْفٌ، وَلَكِنْ أَلِفٌ حَرْفٌ وَلَامٌ حَرْفٌ وَمِيمٌ حَرْفٌ**»[1]، كل حرف فيه حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، وقال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ﴾ [فاطر:٢٩، ٣٠]، فهذا ثناء من الله على الذين يتلون كتابه، يتلونه، يقرؤونه، ويدرسونه، ويكثرون من تلاوته، ولا تكفي التلاوة، لا يكفي تعلم القرآن، ولا تكفي تلاوته؛ بل لا بد من العمل به، ولهذا قال: ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾.

فالقرآن إنما أنزل للعمل، ولكن تعلمه وتلاوته وسيلة إلى العمل به، أما من وقف عند التلاوة فقط، أو عند تعلم القرآن فقط، ولم يعمل به، فإن هذا القرآن يكون حجة عليه يوم القيامة، ولا ينتفع به، مع أنه يقرؤه، يحفظه في صدره، ويحسن تلاوته، لكن إذا لم يكن يعمل به، فإنه لا ينتفع به، فالأمر بتعلم القرآن والأمر بتلاوة القرآن، وأيضًا لا يكفي التلاوة المجردة، وهي المرور على كلمات القرآن والسور وختم القرآن من أوله إلى آخره، لا يكفي هذا؛ لابد من التدبر، تقرأ وتتدبر وتراجع تفسير الآيات التي قرأتها، أما التلاوة المجردة من غير تدبر، فإنها لا تنفع صاحبها؛ لأنها لم تؤدِ الغرض المطلوب منها، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ يعني: يتأملونه، ويطلبون تفسيره،

---

(١) سبق تخريجه (ص٢٦٢).

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ [النساء:٨٢]، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا ءَايَٰتِهِۦ ﴾ يعني: يتأملون، يتأملون آياته وما يدل عليه، ويتعرفون على معانيها، ﴿ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الْأَلْبَٰبِ ﴾ [ص:٢٩]: أصحاب العقول.

قال سبحانه: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ [محمد:٢٤]، فلابد من تدبر القرآن.

فَتَدَبَّرِ القُرآنَ إنْ رُمْتَ الهُدَى ... فالعِلْمُ تَحْتَ تَدَبُّرِ القُرآنِ(١)

مجرد التلاوة والتغني بالقرآن وتحسين الصوت هذه أمور طيبة، لكن ليست هي المقصودة، المقصود ما بعدها، وهو التدبر والعمل؛ ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ [النساء:٨٢]، فإذا تدبرت القرآن، وجدت بعضه يصدق بعضًا، وبعضه يشبه بعضًا، كتاب متشابه يوافق بعضه بعضًا، ولا يختلف أبدًا؛ لأنه من عند الله جَلَّ وَعَلَا، بخلاف كلام البشر؛ لأنه مهما أوتوا من قوة البيان والفصاحة يحصل عندهم تناقض، كلامهم يتناقض، لكن كلام الله جَلَّ وَعَلَا لايتناقض أبدًا، يصدق بعضه بعضًا، ويفسر بعضه بعضًا، ويدل بعضه على بعض، فإذا اشتبه عليك معنى آية، أرجعها إلى الآية الأخرى التي تفسرها؛ كما قال تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ابْتِغَآءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّٰسِخُونَ فِى الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ﴾ [آل عمران:٧].

---

(١) البيت من نونية ابن القيم الكافي الشافية. انظر: النونية وشرحها لابن عيسى (١/ ٣١٥).

﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ ﴾، وقسمه إلى قسمين: ﴿مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ ﴾ واضحة المعنى ليس فيها إشكال، وهناك آيات محتملة فيها احتمال، لها معان متعددة، ولا يدرى أي هذه المعاني المقصود، هذا يرد إلى المحكم ويفسره؛ لأنه كلام الله يفسر بعضه بعضًا، ولهذا: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَا﴾، فيفسرون كلام الله بكلام الله جَلَّ وَعَلَا، يرجعون المحكم إلى المتشابه، المطلق إلى المقيد، المجمل إلى المبين، العام إلى الخاص، المنسوخ إلى الناسخ.

هذه طريقة الراسخين في العلم، أما الذين في قلوبهم زيغ، فهم يأخذون المتشابه، ويتركون المحكم -والعياذ بالله-؛ لأجل الفتنة، ويقولون: نحن استدللنا بالقرآن.

نقول لهم: لا: لم تستدلوا بالقرآن؛ لأنكم لم ترجعوا المتشابه إلى المحكم، الاستدلال بالقرآن ليس أنك تأخذ أي آية تستدل بها، وإنما الاستدلال بالقرآن أن تنظر بين المحكم والمتشابه، وهذه طريقة لا يهتدي إليها إلا الراسخون في العلم.

فالقرآن يفسر بالقرآن، هذا الطريق الأول، الطريق الثاني: القرآن يفسر بسنة الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إذا لم يوجد في القرآن تفسير للقرآن، يرجع إلى سنة الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأن الله أنزل عليه الكتاب ليبين للناس ما نزل إليهم، فهو المبين صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقد بين غاية البيان، فيرجع إلى سنته، وسنة الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تفسر القرآن، وتدل عليه، وتعبر عنه، فهي في الدرجة الثانية بعد القرآن؛ لأنها وحي من الله جَلَّ وَعَلَا؛ كما قال تعالى: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ۝٣ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ ﴾ [النجم:٣، ٤].

فإذا لم تجد تفسير الآية في القرآن، اطلب تفسيرها في سنة الرسول ﷺ، وهذا كثير في القرآن:

- الله أمر بالصلاة، ولكن لم يبين عدد الركعات ولم يبين ما يقال في الصلاة ولا ما يفعل في الصلاة، ما الذي بين هذا؟ الرسول ﷺ، راجع السنة.

- الله أمر بإيتاء الزكاة، لم يبين سبحانه الأموال التي تجب فيها الزكاة، ولم يبين النصاب الذي إذا بلغه المال تخرج زكاته، ولم يبين متى تخرج الزكاة، كل هذا بينه الرسول ﷺ في السنة، بين كيف تؤدى الزكاة، ومتى تجب، وما مقدار الزكاة -أيضًا-، الله لم يبين مقدار الزكاة، بينها الرسول ﷺ، وهكذا، هذا كثير في القرآن بينته السنة المحمدية -ولله الحمد.

طيب إذا لم تجد في السنة، بحثت في القرآن، لم تجد، بحثت في السنة، لم تجد، أين تذهب؟ ترجع إلى كلام الصحابة، تفسير الصحابة؛ لأن الصحابة أخذوا العلم عن الرسول ﷺ، فتفسيرهم للقرآن حجة؛ لأنهم تلاميذ الرسول ﷺ، وأخذوا عن الرسول ﷺ، طيب لم تجد شيئًا من كلام الصحابة، ترجع إلى كلام التابعين، وهم تلاميذ الصحابة؛ لأنهم أخذوا عن الصحابة، والصحابة أخذوا عن الرسول ﷺ.

فالقرآن يفسر بالقرآن، فإن لم تجد، يفسر بالسنة، فإن لم تجد، يفسر بأقوال الصحابة، فإن لم تجد، يفسر بأقوال التابعين، فإن لم تجد في هذه المصادر الأربعة، يفسر بمقتضى اللغة العربية التي نزل بها، ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء:١٩٥].

أما تفسير القرآن بالرأي، تفسير القرآن بغير هذه الطرق، فإنه لا يصح، ولا يجوز؛ لأنه قول على الله بغير علم، ولا يجوز للإنسان يتخرص في تفسير

القرآن، دون أن يرجع إلى مصادر التفسير الصحيحة، وإنما يرجع إلى ذهنه وفكره، أو إلى قول فلان وعلان، أو يرجع إلى النظريات الحديثة -كنظرية الأطباء والفلكيين-، هذه لا تفسر القرآن، ولا يجوز أنها تجعل تفسيرًا للقرآن، وليست هي من طرق التفسير المعروفة للقرآن.

كلام الله يصان عن العبث؛ ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص:٢٩]، هذا كلام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهذا ما يجب على المسلمين نحو هذا القرآن الذي أنزله الله لسعادتهم وهدايتهم وإخراجهم من الظلمات إلى النور.

يقول أحد الصحابة -أظنه عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: «إِنَّا أَخَذْنَا الْقُرْآنَ عَنْ قَوْمٍ، فَأَخْبَرُونَا أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا تَعَلَّمُوا عَشْرَ آيَاتٍ لَمْ يُجَاوِزُوهُنَّ إِلَى الْعَشْرِ الْأُخَرِ حَتَّى يَعْمَلُوا مَا فِيهِنَّ مِنَ الْعِلْمِ، قَالَ: فَتَعَلَّمْنَا الْعِلْمَ وَالْعَمَلَ جَمِيعًا»(١)، هذه طريقة الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وهذه عنايتهم بالقرآن، لم يكونوا يتجاوزون عشر آيات حتى يعرفوا معانيهن، ويعرفوا العمل بهن، فجمعوا بين تعلم القرآن وتعلم تفسير القرآن وتعلم معاني القرآن، ولذلك كان تفسير الصحابة حجة؛ كما مر قريبًا.

ولا نجاة للمسلمين، ولا عز للمسلمين، ولا خروج للمسلمين مما هم فيه الآن من الويلات ومن الذلة والمهانة ومن تسلط الأعداء، إلا بالرجوع إلى هذا القرآن والعمل به، ليس لهم طريق إلا ذلك، فإذا أرادوا الخروج من هذه الفتن وهذه المحن وتسلط الأعداء عليهم، فليرجعوا إلى القرآن، ويعملوا به، ويطبقوه، ويحكموا به بين الناس، وينبذوا ما خالفه من الآراء والأقوال

---

(١) أخرجه ابن وضاح في البدع (٢/ ١٧٠)، والفريابي في فضائل القرآن (١/ ٢٤١)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٦/ ١١٧)، من حديث أبي عبد الرحمن السلمي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

والقوانين، وجميع ما يخالف القرآن ينبذه المسلمون، ويعملون بالقرآن عملًا صحيحًا، حينئذ يخرجهم الله به من الظلمات إلى النور، يخرجهم من هذه الحالة.

أنتم تعلمون وكل يعلم حالة العرب قبل نزول القرآن؛ أن العرب في الجزيرة كانوا مشتتين متناحرين فيما بينهم، وكانوا سلبًا لأعدائهم؛ اليهود من جهة، والنصارى من جهة، والمجوس من جهة، يتخطفهم الناس؛ كما قال الله سبحانه: ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ أَنتُمۡ قَلِيلٞ مُّسۡتَضۡعَفُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ﴾ [الأنفال:٢٦]، هذه حالة العرب.

فلما جاء هذا القرآن، وتمسكوا به، وعملوا به، خرجوا على العالم غزاة ومجاهدين في سبيل الله، ونصرهم الله على بلاد فارس والروم، واستولوا على المشارق والمغارب.

العرب الذين كانوا بالأمس مهانين مستذلين صاروا سادة العالم، بأي شيء؟ بهذا القرآن العظيم، وصدق الله جَلَّوَعَلَا، ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [إبراهيم:١].

لما قل عمل المسلمين بالقرآن، أو تهاونوا بالعمل بالقرآن، أفضت حالتهم إلى ما ترون الآن، ولن يعود لهم عزهم وقوتهم وهيبتهم، إلا إذا رجعوا إلى هذا القرآن العظيم، وإلى سنة الرسول الكريم صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، هذا هو طريق النجاة، وهذا هو طريق الصلاح والفلاح، طريق موجود، وهو كتاب الله وسنة رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لكن إذا كان القرآن في الرفوف فقط، يطبع ويوضع في الرفوف، أو في الصناديق، وتزخرف المصاحف وتزين وتنمق، ويتغنى فيها بالتلاوة، لكن ليس هناك عمل، لا توجد فائدة.

فالســـنة مهجورة، الســـنة بيننا مهجورة، لا توجد فائـــدة، لا يوجد عزة ولا صلاح إلا بالرجوع إلى كتاب الله وسنة رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

إذا كنا نتلقى تعاليمنا، ونتلقى أنظمتنا، كل ذلك نتلقاه من أعدائنا، ونترك القرآن، ونترك السنة، فكيف نرجو النجاة؟!

تَرْجُو النَّجَاةَ وَلَمْ تَسْلُكْ مَسَالِكَهَا إِنَّ السَّفِينَةَ لَا تَجْرِي عَلَى الْيَبَسِ (١)

فالذي أخرج الله به جيل الصحابة ومن بعدهم من الظلمات إلى النور هو الذي يخرج المسلمين في آخر الزمان من الظلمات إلى النور، يقول الإمام مالك رَحِمَهُ اللَّهُ:(وَلَنْ يَصْلِحَ آخِرُ هَذِهِ الْأُمَّةُ إِلَّا بِمَا صَلُحَ بِهِ أَوْلُهَا)(٢).

وكون القرآن موجود بين أيدينا، والسنة موجودة بين أيدينا، لا يكفي هذا، لابد من الرجوع إليهما والعمل بهما؛ أنت لو كان عندك سلاح، أفتك سلاح تضعه في البيت، ولكن لا تستعمله، وجاء اللص أخذ ما في البيت والسلاح مسند، ولا يفيدك شيء، لكن لما تأخذ السلاح بيدك، وتقابل العدو، حينئذ تنتصر عليه، إذا استعملت السلاح، نفعك، أما إذا سندت السلاح، وجعلته في مكانه -ولو كان أفتك سلاح-، يلعب بك الأعداء واللصوص.

---

(١) البيت لأبي العتاهية. انظر: أدب الدنيا والدين (ص١١٩)، وزهر الآداب (٣/ ٨٧١)، والدر الفريد (٥/ ٣١٥).

(٢) أخرجه ابن عبد البر في التمهيد (٢٣/ ١٠) من كلام الإمام مالك رَحِمَهُ اللَّهُ، انظر: تنقيح تحقيق أحاديث التعليق لابن عبد الهادي (٢/ ٤٢٣). وأخرج الخطيب البغدادي نحوه من كلام علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في خطبة له، في موضح أوهام الجمع والتفريق (١/ ٢٦٣)، قال:(إن هذا الأمر لا يصلح إلا بما صلح به أوله)، وعند ابن عساكر من كلام أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، في تاريخ دمشق (٤٤/ ٢٥٦)، قال: (إن هذا الأمر الذي هو أملك بنا لا يصلح آخره إلا بما صلح به أوله).

هكذا نحن مع القرآن، القرآن في صدورنا نحفظه وفي بيوتنا وفي مساجدنا، والسنة النبوية موجودة وبأجود إسناد -ولله الحمد- ومحفوظة، لكن لا يكفي هذا، لا يكفي؛ لابد من العمل بكتاب الله وسنة رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وبدون هذا لا عز للأفراد، ولا للجماعات، ولا للمجتمعات إلا بالرجوع إلى كتاب الله وسنة رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولهذا يقول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في وصف القرآن: «كِتَابُ اللهِ فِيهِ نَبَأُ مَا قَبْلَكُمْ وَخَبَرُ مَا بَعْدَكُمْ، وَحُكْمُ مَا بَيْنَكُمْ، وَهُوَ الفَصْلُ لَيْسَ بِالهَزْلِ، مَنْ تَرَكَهُ مِنْ جَبَّارٍ قَصَمَهُ اللهُ، وَمَنْ ابْتَغَى الهُدَى فِي غَيْرِهِ أَضَلَّهُ اللهُ، وَهُوَ حَبْلُ اللهِ المَتِينُ، وَهُوَ الذِّكْرُ الحَكِيمُ، وَهُوَ الصِّرَاطُ المُسْتَقِيمُ، هُوَ الَّذِي لَا تَزِيغُ بِهِ الأَهْوَاءُ، وَلَا تَلْتَبِسُ بِهِ الأَلْسِنَةُ، وَلَا يَشْبَعُ مِنْهُ العُلَمَاءُ، وَلَا يَخْلَقُ عَلَى كَثْرَةِ الرَّدِّ، وَلَا تَنْقَضِي عَجَائِبُهُ، هُوَ الَّذِي لَمْ تَنْتَهِ الجِنُّ إِذْ سَمِعَتْهُ حَتَّى قَالُوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ﴾ [الجن:٢]، مَنْ قَالَ بِهِ صَدَقَ، وَمَنْ عَمِلَ بِهِ أُجِرَ، وَمَنْ حَكَمَ بِهِ عَدَلَ، وَمَنْ دَعَا إِلَيْهِ هَدَى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ»[(١)].

﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ [النساء:٦٥].

لابد من هذا، وهذا خبر من الله، أقسم عليه سبحانه، وهو أصدق القائلين، ﴿لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾.

لكن إذا حكمنا القوانين الوضعية في المنازعات، وحكمنا أقوال الرجال في المذاهب وفي الأقوال، حكمنا أقوال الرجال، وتركنا الكتاب والسنة، من أين

---

(١) سبق تخريجه (ص٤٠٠).

يأتينا الهدى؟! حكمنا أقوال الرجال، وكل تبع منهجًا أو مذهبًا يخالف الكتاب والسنة من أين تأتينا الهداية؟! ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾ [النساء:٥٩]، وفي الحديث: «وَمَا لَمْ يَحْكُمْ أَئِمَّتُهُمْ بِكِتَابِ اللهِ إِلَّا أَلْقَى اللهُ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ»(١)، وهذا واقع مشاهد منذ أن أعرض كثير من المسلمين عن كتاب الله حصل لهم ما حصل.

وفي هذه البلاد -ولله الحمد- لما قامت على التوحيد والعقيدة الصحيحة وعلى المنهج السليم واتباع السلف، أعزها الله بين الأمم، ومكنها ومنحها الأمن؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ۝٤٠ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ﴾ [الحج:٤٠، ٤١]، قال سبحانه: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي﴾، هذا الشرط، ﴿يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ [النور:٥٥].

فلا نجاة للمسلمين إلا بالذي نجا به سلفهم، وهو التمسك بكتاب الله وهدي رسول الله ﷺ، ومتى ابتغوا الهدى من غير الكتاب والسنة، أضلهم الله، وجعل بأسهم بينهم، ولا حول ولا قوة إلا بالله!

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٤٠١٩)، والطبراني في الأوسط (٥/ ٦١)، وفي الشاميين (٢/ ٣٩٠)، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

طلب العلم الشرعي

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على عبده ورسوله نبينا محمد، وعلى آله واصحابه أجمعين، أما بعد:

فإن طلب العلم واجب على كل مسلم ومسلمة؛ كما صح في ذلك الحديث عن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[1]، ولا سيما تعلم العلم الذي لا يستقيم دين المسلم إلا به؛ من معرفة عقيدته، ومعرفة أحكام صلاته وزكاته وصيامه، وحجه وعمرته، فهذا القدر من العلم واجب وجوب عين على كل مسلم ومسلمة؛ لأنه لا يستقيم دينه إلا به.

وفي صحيح مسلم عن عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: «بَيْنَمَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَاتَ يَوْمٍ، إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ، شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعَرِ، لَا يُرَى عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ، وَلَا يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ، حَتَّى جَلَسَ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إِلَى رُكْبَتَيْهِ»، أي: أسند الرجل ركبتيه إلى ركبتي النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، جلس أمامه مجلس المتعلم من معلمه.

«وَوَضَعَ كَفَّيْهِ عَلَى فَخِذَيْهِ، وَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ أَخْبِرْنِي عَنِ الْإِسْلَامِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **الْإِسْلَامُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ**

---

(١) كما في الحديث الذي أخرجه ابن ماجه (٢٢٤)، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ، وَوَاضِعُ الْعِلْمِ عِنْدَ غَيْرِ أَهْلِهِ كَمُقَلِّدِ الْخَنَازِيرِ الْجَوْهَرَ وَاللُّؤْلُؤَ وَالذَّهَبَ**».

صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنِ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا. قَالَ: صَدَقْتَ، قَالَ: فَعَجِبْنَا لَهُ يَسْأَلُهُ، وَيُصَدِّقُهُ، قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِيمَانِ، قَالَ: أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ. قَالَ: صَدَقْتَ، قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِحْسَانِ، قَالَ: أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ. قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ السَّاعَةِ، قَالَ: مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ. قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنْ أَمَارَتِهَا، قَالَ: أَنْ تَلِدَ الْأَمَةُ رَبَّتَهَا، وَأَنْ تَرَى الْحُفَاةَ الْعُرَاةَ الْعَالَةَ رِعَاءَ الشَّاءِ يَتَطَاوَلُونَ فِي الْبُنْيَانِ. قَالَ: ثُمَّ انْطَلَقَ. فَلَبِثْتُ مَلِيًّا، ثُمَّ قَالَ لِي: يَا عُمَرُ أَتَدْرِي مَنِ السَّائِلُ؟ قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: فَإِنَّهُ جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ»[(١)].

فهذا حديث عظيم وفيه فوائد عظيمة، وفيه علوم غزيرة:

فأولًا: هذا فيه طلب العلم وتلقيه عن العلماء عن طريق السؤال والجواب، أو عن طريق الرواية، أو غير ذلك من طرق التلقي، فالعلم لايؤخذ إلا عن العلماء، لا يؤخذ عن الجهال أو عن الآباء والأجداد عن عوائدهم، وإنما يؤخذ عن العلماء، كذلك لا يؤخذ العلم عن الكتب مجرد قراءة، بل لابد من الجلوس إلى أهل العلم ومذاكرتهم، وسؤالهم عما أشكل، وتلقي العلم عنهم.

فهذا جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ جاء يعلم الأمة كيف تتعلم العلم، وأنها ترجع إلى علمائها بالسؤال والجواب، أو بالرواية، أو غير ذلك من وسائل تلقي العلم النافع.

---

(١) حديث جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ سبق تخريجه (ص٢٦).

وفي هذا الحديث: أدب طالب العلم؛ بأنه ينبغي أن يكون على أحسن هيئة؛ هذا جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ جاء في صورة «رَجُل شَدِيد بَيَاضِ الثِّيَابِ»، ففيه أن طالب العلم يعتني بملابسه، ويتجمل، ويلبس الثياب البيضاء، فإن البياض هو أفضل اللباس للرجال، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الْبَسُوا مِنْ ثِيَابِكُمِ الْبَيَاضَ، فَإِنَّهَا مِنْ خَيْرِ ثِيَابِكُمْ، وَكَفِّنُوا فِيهَا مَوْتَاكُمْ**»[١].

«**شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعَرِ**»: هذا فيه أن طلبة العلم -أيضًا- يلتزمون بخصال الفطرة؛ من إعفاء اللحى، وجز الشوارب؛ لأن هذا من خصال الفطرة، إعفاء اللحى، وتركها على حالها التي خلقها الله، لا يتعرض لها بقص ولا بحلق ولابتخفيف، وإنما تعفى، هكذا كان الأنبياء عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، كانوا يعفون لحاهم، ومنهم رسولنا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كان ذا لحية عظيمة تملأ ما بين منكبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ثم فيه -أيضًا-: أدب الجلوس بين يدي العلماء، فهذا جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ جلس بين يدي الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مجلس المتعلم من معلمه، وأسند ركبتيه إلى ركبتي الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، هذا فيه أن المتعلم يقرب من المعلم؛ لأجل أن يسمع ما يقول، ويعقل ما يقول المعلم، ولا يكون بعيدًا عنه.

ووضع جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ يديه على فخذيه، هذا من الأدب، فطالب العلم بين يدي معلمه لا يعبث ولا يلتفت، وإنما يصغي إلى معلمه، ويخضع بجوارحه، فلا يحركها ويعبث بيديه أو بشيء آخر.

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٩٤)، وأبو داود (٣٨٧٨)، والترمذي (٩٩٤)، وابن ماجه (٣٥٦٦)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

ثم قال: «يَا مُحَمَّدُ»، هنا بدأ السؤال والجواب.

«أَخْبِرْنِي عَنِ الْإِسْلَامِ»، ثم سأله عن الإيمان، ثم سأله عن الإحسان، ثم سأله عن أشراط الساعة، فهذا فيه دليل على أن أول ما يُبدأ به تعلم الإسلام، وتعلم الإيمان؛ لأن هذا هو أصل الدين، أصل الدين تعلم الإسلام؛ فلا يبدأ الإنسان بشيء من طلب العلم، لا يبدأ بشيء قبل معرفته لأركان الإسلام وأركان الإيمان؛ لأن هذا القدر من العلم لابد لكل مسلم أن يعرفه.

والإسلام هو الاستسلام لله جَلَّ وَعَلَا بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة، والخلوص من الشرك وأهله[١]، هذا هو الإسلام.

الإسلام هو الانقياد لله جَلَّ وَعَلَا، الانقياد له بالتوحيد، وإخلاص النية والعمل، والبراءة من الشرك؛ لأن الشرك ضد الإسلام، فلابد من أن يتبرأ مما يضاد الإسلام، وهو الشرك والكفر.

وهذا الإسلام له أركان يقوم عليها، لا يتحقق إلا بوجودها، فلا يكفي أن الإنسان يقول: أنا مسلم، وهو لا يعرف أركان الإسلام، بل لابد أن يعرف أركان الإسلام؛ من أجل أن يحققها، وأن يقوم بها؛ حتى يصح إسلامه.

وأما مجرد الدعوة من غير عمل ومن غير اعتقاد، فهذا لا ينفع صاحبه، لا يكفي أن الإنسان يقول: أنا مسلم. ثم إذا سُئِلَ عن الإسلام، قال: لا أدري، إذًا كيف تكون أنت مسلمًا، وأنت لا تدري ما هو الإسلام؟!

---

(١) سبق بيانه (ص٢٥).

فلذلك بدأ جبريل صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أول ما بدأ بالسؤال عن الإسلام، فيجب على كل مسلم أن يعرف ما هو الإسلام؛ حتى يحققه ويقوم به.

قال: «**الْإِسْلَامُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ**»، هذا هو الركن الأول الشهادتان، وهذا هو الأساس، وهذه هي العقيدة، ولا تصح صلاة ولا زكاة ولا صيام ولا حج ولا غير ذلك من الأعمال حتى يتحقق الركن الأول، وهو التوحيد والعقيدة التي تُبنى عليها جميع الأعمال.

ومعنى شهادة «أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ»: الاعتراف بالقلب واللسان أنه لا يستحق العبادة إلا الله جَلَّوَعَلَا.

«**أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ**»: أن تعلم علم اليقين، وتنطق بذلك، وتعلن بذلك أنه لا يستحق العبادة إلا الله جَلَّوَعَلَا، فمن صرف شيئًا من العبادة لغير الله، فإنه يكون مشركًا كافرًا بعيدًا عن الإسلام، وإن زعم أنه مسلم.

فـ(لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ) معناها: لا معبود بحق إلا الله جَلَّوَعَلَا؛ فقوله: (لَا إِلَهَ): هذا ينفي جميع الشرك، وقوله: (إِلَّا اللهُ): هذا يثبت العبادة لله وحده لا شريك له، فإذا قال هذه الكلمة، فلابد أن يلتزم بما تدل عليه؛ بأن يخلص العبادة لله جَلَّوَعَلَا، وأن يكفر بكل ما يُعبد من دون الله عَزَّوَجَلَّ؛ حتى يدخل في الإسلام دخولًا صحيحًا.

ومعنى شهادة (أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ): أن تعترف وتقر وتنطق بلسانك أن محمدًا رسول من عند الله جَلَّوَعَلَا، بعثه إلى الثقلين الجن والإنس بشيرًا ونذيرًا؛ ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ

وَٱلۡأَرۡضِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلۡأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴾ [الأعراف:١٥٨]، فهذا هو معنى شهادة أن محمدًا رسول الله: الاعتراف والإقرار والاعتقاد الجازم أن محمدًا رسول الله من عند الله جَلَّ وَعَلَا إلى جميع الثقلين الجن والإنس، ثم لابد من العمل بمقتضى هذه الشهادة؛ فإذا شهدت أنه رسول الله حقًا، وجب عليك أن تطيعه فيما أمر، وأن تصدقه فيما أخبر، وأن تجتنب ما نهاك عنه وزجر، وألا تعبد الله إلا بما شرع(١)، فشهادة أن محمدًا رسول الله تلزمك باتباعه وطاعته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فهذه الشهادة بالرسالة تنفي جميع البدع والخرافات التي ما أنزل الله بها من سلطان، فإذا شهدت أن محمدًا رسول الله، وجب عليك أن تتبعه، وألا تعمل عملًا تتقرب به إلى الله إلا إذا كان هذا العمل ثابتًا عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وما لم يثبت عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فإنك تبتعد عنه؛ لأنه بدعة وخرافة، وقد قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا، فَهُوَ رَدٌّ**»(٢)، وفي رواية: «**مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ**»(٣).

فمن شهد أن محمدًا رسول الله وهو يعصيه ولا يطيعه ويتبع هواه، أو يعمل أعمالًا لم ترد عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإن شهادته إما باطلة وإما ناقصة، شهادته أن محمدًا رسول الله، وهو لا يطيعه ولا يتبعه ولا يعمل بشرعه، وإنما يعمل بهواه، أو بما أدرك عليه الناس من غير دليل، فشهادته غير صحيحة؛ إما باطلة، وإما ناقصة، بحسب مخالفته للرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأن الله جَلَّ وَعَلَا يقول:

---

(١) انظر: ثلاثة الأصول وشروط الصلاة والقواعد الأربع (ص١٥).
(٢) سبق تخريجه (ص٩٢).
(٣) سبق تخريجه (ص٩٢).

﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء:٨٠]، يقول جَلَّوَعَلَا: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [النساء:٦٤]، ويقول جَلَّوَعَلَا: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [النور:٥٦]، ويقول جَلَّوَعَلَا: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [النور:٥٤].

إذًا ليست شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله مجرد لفظ يقال باللسان، وإنما هو لفظ وعمل، وتحقيق وإخلاص لله، ومتابعة للرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وهذا هو معنى قوله تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة:١١٢].

﴿مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ﴾: هذا معنى شهادة أن لا إله إلا الله.

﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾: هذا معنى شهادة أن محمدًا رسول الله.

﴿مُحْسِنٌ﴾: أي: متبع للرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

إقام الصلاة: الركن الثاني بعد الشهادتين من أركان الإسلام: إقام الصلاة، ولاحظوا أنه لم يقل: والصلاة، وإنما قال: «وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ»؛ لأنه ليس المقصود من الصلاة الإتيان بصورتها، وإنما المقصود الإتيان بالصلاة كما شرعها الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بشروطها وأركانها وواجباتها ومستحباتها؛ أن تكون صلاة مطابقة لما شرع الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وليس المراد صورة القيام والركوع والسجود، ليس هذا هو المراد، وإنما المراد حقيقة الصلاة.

وإقام الصلاة أي: الإتيان بها قائمة كما أمر الله بها سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

وإقام الصلاة على نوعين: إقام ظاهر، وإقام باطن.

فإقامتها بالظاهر: الإتيان بأعمالها من شروطها وأركانها وواجباتها وسننها، هذا إقامة لها ظاهرًا.

إقامتها باطنًا: بالخشوع بين يدي الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

فإقامتها في الظاهر لا تكفي عن إقامتها في الباطن؛ بأن يكون المصلي خاشعًا لله عَزَّوَجَلَّ، قانتًا لله، ﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾ [البقرة:٢٣٨]، قال سبحانه: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ﴾ [المؤمنون:١، ٢]، قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ﴾ [البقرة:٤٥]، فروح الصلاة ولبها ومقصودها: الخشوع بين يدي الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وأن تخشع لمن أنت قائم بين يديه؛ تناجيه، وتدعوه، وتركع له، وتسجد له، أن تستحضر عظمته سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وتعلم أنك قائم بين يديه، وتعلم أن الله يراك وأنت تصلي؛ فلا تلتفت بجسمك، ولا تلتفت بقلبك عن الله جَلَّوَعَلَا، بل أقبل على صلاتك إقبالًا كليًّا بين يدي الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، هذا معنى إقام الصلاة.

وإقام الصلاة المراد بها: الصلوات الخمس، قال صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**خَمْسُ صَلَوَاتٍ كَتَبَهُنَّ اللهُ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ**»(١)؛ صلاة الفجر، صلاة الظهر، صلاة العصر، صلاة المغرب، صلاة العشاء، هذه خمس صلوات في اليوم والليلة، فريضة على جميع العباد، لابد من إقامتها في مواقيتها ومع الجماعة في المساجد، وأن تكون مستوفية لأحكامها، ولا يقوم بذلك إلا من تعلم أحكام الصلاة، أما الذي يصلي على العادة فقط، وهو لا يعرف أحكام الصلاة، فهذا لا يتحقق منه إقامة

---

(١) سبق تخريجه (ص١٣١).

الصلاة على الوجه المطلوب، وإن كان مأمورًا أن يصلي على حسب استطاعته، قال جَلَّوَعَلَا: ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ ﴾ [التغابن:١٦]، وقال: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [البقرة:٢٨٦]، لكن لابد أن يعرف الإنسان أحكام صلاته، وهذا شيء ميسور ليس بالعسير ولا بالمتعذر، هذا شيء ميسور موضح -ولله الحمد-، موضح لك، تراجع كلام أهل العلم، رسائل مختصرة واضحة تقرؤها وتحفظها، وتسأل عنها أهل العلم فيما أشكل عليك، بهذا تعرف فقه صلاتك.

الركن الثالث: إيتاء الزكاة:

إيتاء الزكاة حقٌّ فرضه الله في أموال الأغنياء للفقراء، حقٌّ سنوي، كلما تم على المال سنة، تجب فيه الزكاة، إلا الخارج من الأرض، فإن زكاته تجب عند حصوله؛ ﴿ وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ﴾ [الأنعام:١٤١]، وأما بقية الأموال فإنها تجب فيه الزكاة كلما تم عليها الحول، إذا بلغت النصاب المقدر شرعًا، فلابد من إخراج الزكاة.

وهي ركن من أركان الإسلام، فمن جحد وجوب الزكاة، فقد كفر، وأما من منعها بخلًا وهو يقر بوجوبها، فإنها تؤخذ منه قهرًا، يأخذها ولي الأمر منه قهرًان ويوزعها على مستحقيها، فإن لم يمكن أخذها منه إلا بقتال، فإنه يُقاتَل؛ كما قاتل أبو بكر الصديق رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ مانعي الزكاة بعد وفاة رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، قاتلهم، وقال رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «وَاللهِ لَأُقَاتِلَنَّ مَنْ فَرَّقَ بَيْنَ الصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ»(١).

وقال رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «وَاللهِ لَوْ مَنَعُونِي عِقَالًا كَانُوا يُؤَدُّونَهُ إِلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لَقَاتَلْتُهُمْ عَلَيْه»(٢)، فقاتلهم رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ حتى أخضعهم للزكاة، وأخذها منهم.

---

(١) سبق تخريجه (ص٥٨).

(٢) سبق تخريجه (ص٥٨).

وهي حق للفقراء، فرضها الله سبحانه بقوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴾ [المعارج:٢٤]، وفي الآية الأخرى يقول: ﴿ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴾ [المعارج:٢٤، ٢٥].

﴿ حَقٌّ ﴾: ليست تبرعًا، حقٌّ واجب، وهي قرينة الصلاة في كتاب الله عَزَّوَجَلَّ، دائمًا تجدون الزكاة مقرونة بالصلاة؛ مما يدل على أهمية الزكاة، فلا يجوز التساهل بشأنها، أو التهاون في أمرها؛ لأنها حقٌّ واجب؛ ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [التوبة:١٠٣]، أمر الله نبيه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يأخذ من أموال الأغنياء صدقة، وهي الزكاة، وبيَّن فوائدها: ﴿ تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ﴾، أيضًا يحصلون على صلوات الرسول ودعاء الرسول لهم، ومن دعا له الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فهو السعيد؛ لأن دعوة الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مستجابة، هذه هي الزكاة، وهي الركن الثالث من أركان الإسلام.

الركن الرابع: صيام شهر رمضان:

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة:١٨٣].

ومعنى: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ ﴾، أي: فُرِضَ، فُرِض ﴿ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا ﴾ فُرِض ﴿ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾: من الأمم.

﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ أي: أن الصيام يسبب تقوى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فهو سببٌ للتقوى، وهذا مدح للصيام بأنه يسبب للصائم تقوى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ومن

اتقى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، سعد في الدنيا والآخرة؛ ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات:١٣].

ثم قال جَلَّ وَعَلَا بعد ذلك: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة:١٨٥]، فأوجب الله صيام شهر رمضان على كل مسلم بالغ عاقل.

أما المقيم الصحيح فيصومه أداءً؛ ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ﴾، أي: حضره، ﴿فَلْيَصُمْهُ﴾: هذا هو المسلم المقيم الصحيح.

أما من كان مسافرًا في شهر رمضان، أو سافر في أثنائه، فإنه يُفطر، خفف الله عنه، فأباح له الفطر أثناء السفر؛ تخفيفًا عليه وتيسيرًا له، لكن بشرط أن يقضي ما أفطره من أيام أخر، وأما المريض الذي أتى عليه شهر رمضان وهو مريض، أو مرض في أثناء الشهر مرضًا يشق عليه الصيام معه، فإنه يُفطر، فإذا ذهب عنه المرض وشفاه الله، فإنه يقضي الأيام التي أفطرها.

فدل على أنه لابد من صيام شهر رمضان على كل مسلم بالغ عاقل؛ إما أداءً وإما قضاءً، ولا يُعفى أحدٌ من صيام شهر رمضان؛ لأنه ركنٌ من أركان الإسلام.

ثم قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ﴾؛ حيث رخص للمسافر وللمريض أن يفطرا، وأن يقضيا الأيام من أيام أُخر يسهل عليهما فيها الصيام.

﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾: هذا من رحمة الله جَلَّوَعَلَا بعباده.

﴿وَلِتُكْمِلُواْ ٱلْعِدَّةَ﴾: تكملوا عدة رمضان، فمن أفطر شيئًا منه لعذر، فإنه يقضيه، ولابد حتى تكمل العدة، أما من أفطر في رمضان من غير عذر شرعي وهو صحيح مقيم، صحيح مقيم وأفطر في رمضان، فهذا قد عصى الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وترك ركنًا من أركان الإسلام، فيجب عليه التوبة على الله عَزَّوَجَلَّ، ويجب عليه قضاء ما أفطره، وإذا علم به ولي الأمر، فإنه يؤدبه أدبًا رادعًا؛ حتى لا يتساهل في هذا الركن العظيم.

الركن الخامس: الحج:

«وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنِ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا»: هذا مأخوذ من قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران:٩٧].

حج البيت مرة واحدة في العمر هذا هو الفرض، هذا هو الركن من أركان الإسلام، مرة واحدة في العمر، وهذا من تيسير الله عَزَّوَجَلَّ على عباده.

لما كان الحج فيه مشقة عظيمة، وقد يكون فيه خطر، والناس يأتون إليه من أقطار بعيدة، ويتحملون المشاق، لما كان كذلك، خفف الله عن عباده، فجعله مرة واحدة في العمر، بينما كان الصيام والزكاة كل سنة، وبينما كانت الصلوات الخمس خمس مرات في اليوم والليلة، لما كان الحج فيه مشقة وفيه أسفار وفيه أخطار، الله جَلَّوَعَلَا فرضه على عباده مرة واحدة في العمر، وما زاد عن الواحدة فهو تطوع.

وبهذا تكاملت أركان الإسلام، فمن شهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، وحقق ذلك قولًا وعملًا، وأقام الصلوات الخمس، وأدى زكاة ماله، وصام شهر رمضان، وحج بيت الله الحرام، فقد تكاملت في حقه أركان الإسلام، فليحمد الله على هذه النعمة.

ثم هذه الأركان منها ما هو بدني، وذلك كالصلاة والصيام، هذه أعمال بدنية، ومنها ما هو مالي، وهو الزكاة، ومنها ما هو مالي بدني، وهو الحج، ومنها ما هو قولي واعتقادي، وهو شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله.

ثم أيضًا لنعلم أن الإسلام ليس مقصورًا على هذه الأركان الخمسة، الإسلام هو كل ما شرعه الله من الطاعات، وترك المحرمات، هذا كله من الإسلام، لكن هذه الخمسة هي أركانه وأعمدته التي يقوم عليها، وما زاد على هذه الأركان الخمس من الواجبات والمستحبات وترك المحرمات فإنها مكملات لهذه الأركان الخمسة، ولهذا يقول ﷺ: «**الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ**»[1].

وفي الحديث: «**أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ رَسُولَ اللهِ ﷺ: أَيُّ الإِسْلَامِ خَيْرٌ؟ قَالَ: تُطْعِمُ الطَّعَامَ، وَتَقْرَأُ السَّلَامَ عَلَى مَنْ عَرَفْتَ وَمَنْ لَمْ تَعْرِفْ**»[2]، فدل على أن الإسلام ليس مقصورًا على هذه الأركان، وإنما هذه هي مبانيه ودعائمه، وما زاد عليها من الطاعات فإنه مكملٌ لها ومتممٌ لها.

---

(١) سبق تخريجه (ص٢٦).

(٢) أخرجه البخاري (١٢)، ومسلم (٣٩)، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

وكذلك من الإسلام: ترك المحرمات، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيهِ»**[(١)].

ترك المحرمات هذا من الإسلام، وإنما ذكر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هذه الخمسة لأنها الأركان التي يقوم عليها، ويبنى عليها، ولهذا جاء في حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قول الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ»**، **«بُنِيَ»**: دل على أن هذه الأركان هي التي يُبنى عليها الإسلام، **«بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ: شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَصَوْمِ شَهْرِ رَمَضَانَ، وَحَجِّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا»**[(٢)]، استطاعة السبيل للحج كما بيَّنها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنها الزاد والراحلة[(٣)].

الزاد يعني: الطعام والشراب الذي يكفي المسافر للحج من ذهابه إلى إيابه، معه طعام يكفيه من ذهابه إلى إيابه، وكذلك عند من يمونهم من أولاده وأهل بيته، عندهم ما يكفيهم إلى أن يرجع إليهم.

والراحلة يعني: المركوب في كل وقت بحسبه، عنده ما يستطيع به الركوب، ويوصله إلى بيت الله الحرام؛ إما من الدواب، وإما من السيارات، وإما من الطائرات، وإما من المراكب البحرية، فإذا كان عنده ما يستطيع به الركوب

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٢٥٩)، والطبراني في الأوسط (٨/ ٢٠٢)، وفي الكبير (٣/ ١٢٨)، من حديث الحسين بن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) سبق تخريجه (ص٢٥).

(٣) كما في الحديث الذي أخرجه الترمذي (٨١٣)، وابن ماجه (٢٨٩٦)، عَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: «جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، مَا يُوجِبُ الحَجَّ؟ قَالَ: **الزَّادُ وَالرَّاحِلَةُ**».

والوصول إلى البيت، وجب عليه الحج مرة واحدة في العمر، هذا هو الفرض والركن الخامس من أركان الإسلام، وما زاد على المرة الواحدة فإنه تطوع، ولهذا قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ فَرَضَ اللهُ عَلَيْكُمُ الْحَجَّ، فَحُجُّوا»، فَقَالَ رَجُلٌ: أَكُلَّ عَامٍ يَا رَسُولَ اللهِ؟ فَسَكَتَ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثم أعاد الرجل السؤال مرة أو مرتين أو ثلاثًا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَوْ قُلْتُ: نَعَمْ لَوَجَبَتْ، وَلَمَا اسْتَطَعْتُمْ، ذَرُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ، فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِكَثْرَةِ سُؤَالِهِمْ وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ فَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ، وَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَدَعُوهُ»(١).

«الْحَجُّ مَرَّةً وَاحِدَةً»، هكذا قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يعني: الحج الواجب مرة واحدة بالشروط التي ذكرها الله: ﴿مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران:٩٧].

هذه أركان الإسلام.

أما أركان الإيمان، فيأتي -إن شاء الله- لها درس آخر.

ونترك المجال الآن لما حضر من الأسئلة؛ لعل الله أن ينفعنا جميعًا بما قلنا وسمعنا، وصلى الله وسلم الله على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين.

(١) سبق تخريجه (ص٢٦).

طلب العلم وطرق تحصيله

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على عبده ورسوله نبينا محمد، وعلى آله واصحابه أجمعين، أما بعد:

يكون درسنا في هذه الجلسة عن طلب العلم؛ لأن كثيرًا من الشباب يحبون طلب العلم، ويحرصون عليه، ولكنهم قد يخطئون طريق التعلم.

لا شك أن طلب العلم من أفضل الأعمال، إن لم يكن هو الأفضل؛ لأن العمل مبنيٌّ على العلم، فلا يصح العمل إلا بالعلم، كما أن العلم لا يفيد إلا بالعمل، فهما مقترنان كما قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ ﴾ [التوبة:٣٣]، ﴿بِٱلۡهُدَىٰ ﴾: هو العلم النافع، ﴿وَدِينِ ٱلۡحَقِّ ﴾: هو العمل الصالح.

الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ بُعِثَ بالعلم والعمل، قال الله تعالى: ﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ﴾ [محمد:١٩]، فبدأ بالعلم قبل القول والعمل؛ لأن العمل لابد أن يكون مؤسسًا على علم، على هدى، فإذا كان العمل على غير علم، صار ضلالًا كما هي طريقة النصارى وكثير من العبَّاد الذين ليس عندهم علم.

مما يوضح هذا أن رجلًا ممن كان قبلنا قتل تسعًا وتسعين نفسًا ظلمًا وعدوانًا، ثم إنه أراد أن يتوب، فسأل عمن يفتيه: هل له توبة أو لا؟ فَدُل على

عابد جاهل، فسأله: إنه قتل تسعًا وتسعين نفسًا، فهل له من توبة؟ قال: لا، ليس لك توبة، فغضب عليه وقتله، وكمل به المائة. ثم سأل عمن يفتيه: هل له توبة؟ فدُل على عالم من العلماء، فسأله، فقال: إنه قتل مائة نفس، هل له من توبة؟ قال: نعم، ومن يحول بينك وبين التوبة؟! ولكنك بأرض سوء، فاذهب إلى أرض كذا وكذا، ففيها عباد صالحون تعبد الله معهم، فتاب الرجل، وخرج إلى الأرض الطيبة، وأدركته الوفاة في الطريق، فمات في الطريق، اختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، ملائكة الرحمة يقولون: إنه جاء تائبًا إلى الله، وملائكة العذاب يقولون: إنه لم يعمل خيرًا قط. فأرسل الله ملكًا يحكم بينهم، فقال الحكم: قيسوا ما بين البلدتين، فقاسوا، فوجدوه إلى الأرض الطيبة أقرب بشبر، فقبضته ملائكة الرحمة(١).

والشاهد من هذا الحديث: بيان فضل العالم على العابد.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤٧٠)، ومسلم (٢٧٦٦)، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ نَبِيَّ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**كَانَ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ رَجُلٌ قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ نَفْسًا، فَسَأَلَ عَنْ أَعْلَمِ أَهْلِ الْأَرْضِ فَدُلَّ عَلَى رَاهِبٍ، فَأَتَاهُ فَقَالَ: إِنَّهُ قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ نَفْسًا، فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ؟ فَقَالَ: لَا، فَقَتَلَهُ، فَكَمَّلَ بِهِ مِائَةً، ثُمَّ سَأَلَ عَنْ أَعْلَمِ أَهْلِ الْأَرْضِ فَدُلَّ عَلَى رَجُلٍ عَالِمٍ، فَقَالَ: إِنَّهُ قَتَلَ مِائَةَ نَفْسٍ، فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ؟ فَقَالَ: نَعَمْ، وَمَنْ يَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ التَّوْبَةِ؟ انْطَلِقْ إِلَى أَرْضِ كَذَا وَكَذَا، فَإِنَّ بِهَا أُنَاسًا يَعْبُدُونَ اللهَ فَاعْبُدِ اللهَ مَعَهُمْ، وَلَا تَرْجِعْ إِلَى أَرْضِكَ، فَإِنَّهَا أَرْضُ سَوْءٍ، فَانْطَلَقَ حَتَّى إِذَا نَصَفَ الطَّرِيقَ أَتَاهُ الْمَوْتُ، فَاخْتَصَمَتْ فِيهِ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ وَمَلَائِكَةُ الْعَذَابِ، فَقَالَتْ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ: جَاءَ تَائِبًا مُقْبِلًا بِقَلْبِهِ إِلَى اللهِ، وَقَالَتْ مَلَائِكَةُ الْعَذَابِ: إِنَّهُ لَمْ يَعْمَلْ خَيْرًا قَطُّ، فَأَتَاهُمْ مَلَكٌ فِي صُورَةِ آدَمِيٍّ، فَجَعَلُوهُ بَيْنَهُمْ، فَقَالَ: قِيسُوا مَا بَيْنَ الْأَرْضَيْنِ، فَإِلَى أَيَّتِهِمَا كَانَ أَدْنَى فَهُوَ لَهُ، فَقَاسُوهُ فَوَجَدُوهُ أَدْنَى إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي أَرَادَ، فَقَبَضَتْهُ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ**».

وقد قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ الْعَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ، وَمَنْ فِي الْأَرْضِ، وَالْحِيتَانُ فِي جَوْفِ الْمَاءِ، وَإِنَّ فَضْلَ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ، كَفَضْلِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ، وَإِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ، وَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا، وَلَا دِرْهَمًا وَرَّثُوا الْعِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ»(١).

وأما طالب العلم، فهو على خير، ما دام أنه يطلب العلم.

جاء في الحديث: «وَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا لِطَالِبِ الْعِلْمِ رِضًا بِمَا يَصْنَعُ»(٢).

فطلب العلم فريضة -كما في الحديث-(٣)، طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة، ولا يجوز للإنسان أن يبقى جاهلًا بأمور دينه، وهو يجد من يعلمه، ولكن عليه أن يسلك الطريق الصحيح لطلب العلم، وذلك بأحد أمرين:

الأمر الأول: إذا كان هناك مدارس ومعاهد وكليات شرعية مقررة فيها العلوم الشرعية، وما يساعد على فهمها من علوم اللغة، فإنه ينتظم في هذه المعاهد وهذه المدارس والكليات إذا أمكنه ذلك، وإن لم يكن هناك مدارس ولا معاهد ولا كليات، فإنه يختار من أهل العلم في بلده من يطلب العلم على يديه، يختار أحسن من يجد علمًا وتقوى لله عَزَّوَجَلَّ؛ الأمثل فالأمثل، أحسن ما في

---

(١) أخرجه أحمد (٣٦/ ٤٥)، وأبو داود (٣٦٤١)، والترمذي (٢٦٨٢)، وابن ماجه (٢٢٣)، من حديث أبي الدرداء رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

(٢) جزء من الحديث السابق.

(٣) سبق تخريجه (ص٥١٢).

بلده، ويطلب العلم على يديه، ويبدأ بالمختصرات في الفنون، في كل فن مختصر يحفظه ويتقنه، ويشرح مدرسه له معانيه، ويبينها له.

فيأخذ -مثلًا-: مختصرًا في الفقه، ومختصرًا في التفسير، مختصرًا في الحديث، مختصرًا في النحو، مختصرًا في أصول الفقه، مختصرًا في مصطلح الحديث، ومختصرًا في العقيدة، هذه مختصرات في كل علم وفي كل فن كالمبادئ والمداخل لهذه العلوم، ولا يبدأ بالمطولات من الكتب، بل يبدأ بالمختصرات، يحفظها ويتقنها، ويتفهم معناها؛ لأن هذه المختصرات مفاتيح للعلوم وأبواب للعلوم، ولا يزهد فيها، ويقول: هذه مختصرات يسيرة، ويبدأ بالمطولات؛ فإن هذه الطريقة غير صحيحة، ولذلك العلماء رَحِمَهُمُ اللَّهُ لخبرتهم بالتعليم ألفوا هذه المختصرات لطلبة العلم؛ لأنها تفتح لهم العلوم.

وإذا لم يجد طالب العلم في بلده من العلماء من يطلب العلم على يديه، فلينتقل إلى بلد آخر، يرحل في طلب العلم إلى البلد التي فيها العلماء وفيها المدارس الشرعية، يرحل إليها، ويسافر إليها، ويغترب من أجلها؛ كما كان العلماء في الزمان السابق يسافرون ويرحلون في طلب العلم، فالعلم لا يحصل عفوًا، ولا يحصل بالراحة، وإنما يحصل بالتعب والصبر.

ثم على طالب العلم أن يحسن النية في طلبه للعلم؛ بأن يطلب العلم لوجه الله عَزَّوَجَلَّ؛ لا يريد به رياءً ولا سمعة، ولا يريد به طمعًا دنيويًّا، وإنما يريد به وجه الله، ويريد أن يصحح أعماله على بيان من العلم النافع؛ ليعمل على بصيرة حتى يكون عمله صحيحًا.

وعلى طالب العلم أن يتأدب مع العالم الذي يتلقى العلم على يديه، أن يتأدب معه، وأن يحترمه؛ لأنه إذا لم يحترم معلمه، فلن يستفيد منه.

وكذلك على طالب العلم أن يصبر على طلب العلم؛ لأن طلب العلم فيه مشقة، وفيه يطول الزمان، يحتاج إلى زمان، يحتاج إلى صبر، وقد لا يتضح له العلم في أول مرة ولا ثاني مرة، فلا ييأس، يصبر حتى يتضح له العلم، يقول الشاعر(١):

اطلُبْ وَلَا تَضْجَرَ مِنْ مَطْلَبِ ... وآفَةُ الطَّالِبِ أنْ يَضْجَرَا

أَمَا تَرَى الحبلَ بتكرارِه ... في الصَّخْرَةِ الصَّمَّاءِ قَدْ أثرا

فلابد من الصبر في طلب العلم على ما ينال من المشقة.

الإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول(٢):

وَمَنْ لَمْ يَذُقْ ذُلَّ التَّعَلُّمِ سَاعَةً ... تَجَرَّعَ كَأسَ الْجَهْلِ طُولَ حَيَاتِهِ

لابد من الصبر والتحمل؛ سوف يلاقي مشقة وتعب، فيصبر على هذا.

ثم على طالب العلم أن يعمل بما علمه الله عَزَّوَجَلَّ، ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة:٢٨٢]، لا يتعلم العلم ويعطل العمل؛ فإن العلم يزكو بالعمل، ويزيد بالعمل، ويبارك الله فيه، ولو كان قليلًا، لكن إذا لم يكن هناك عمل، فإن العلم يرحل؛ كما قيل: «الْعِلْمُ يَهْتِفُ بِالْعَمَلِ فَإِنْ أَجَابَهُ وَإِلَّا ارْتَحَلَ»(٣).

---

(١) البيتان من الشواهد النحوية، وهما بلا نسبة في كتب النحو؛ كما في: المقاصد النحوية في شرح شواهد شروح الألفية للعيني (٣/ ١١٧٣)، وشرح التصريح على التوضيح (١/ ٦٠٩)، والمزهر في علوم اللغة للسيوطي (٢/ ٢٦١).

(٢) انظر: مراقي العز ومقومات السعادة (ص٧١٨).

(٣) هذا قول سفيان الثوري رَحِمَهُ ٱللَّهُ. انظر: جامع بيان العلم وفضله (١/ ٧٠٦)، والموافقات (١/ ١٠٢).

فالعلم إنما يثبت بالعمل، فمن عمل بما علم، ورثه الله علم ما لم يعلم، فثمرة العلم وبركة العلم بالعمل.

ثم على طالب العلم إذا عَلم شيئًا من الأحكام الشرعية وأمور الدين، عليه أن يدعو إلى الله، وأن يعلم الناس الخير، وأن ينشر العلم الذي عنده؛ حتى ينفعه وينفع غيره، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة:١٢٢].

وكان الصحابة على عهد النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يأتون إليه من البادية ومن البلدان، فيتفقهون عند الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثم يذهبون إلى قبائلهم وإلى بلدانهم، وينشرون العلم الذي حصلوه، ينفعون به أنفسهم، وينفعون به غيرهم.

وعلى طالب العلم أن يكون قدوة صالحة في نفسه، في أعماله وفي أقواله، يكون قدوة صالحة للناس؛ لأنه يحمل العلم؛ وقد قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ**»(١).

وعلى طالب العلم أن يشعر دائمًا بالنقص، وأنه جاهل، ولا يرى أنه عالم، أو يرى نفسه أنه صار عالمًا، فمن قال: أنا عالم. فهو جاهل.

والله تعالى يقول: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف:٧٦].

فإذا شعر طالب العلم بأنه بحاجة إلى التعلم دائمًا، زاد علمه، وحرص على طلب العلم، أما إذا رأى أنه قد كمل، وأنه صار عالمًا، فإنه يترك طلب العلم، فعليه دائمًا أن يشعر أنه بحاجة.

---

(١) أخرجه البخاري (٧١)، ومسلم (١٠٤٧)، من حديث معاوية رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

والعلم ليس له حد، ليس أحد أحاط بالعلم، وإنما كلٌّ يأخذ من العلم بقدر ما آتاه الله، وجاء في الحديث: أن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لما ذهب إلى الخضر ليتعلم منه، ووجده وصاحبه في القصة التي ذكرها الله في سورة الكهف: «**فَانْطَلَقَا يَمْشِيَانِ عَلَى السَّاحِلِ فَمَرَّتْ بِهِمْ سَفِينَةٌ فَعُرِفَ الخَضِرُ فَحَمَلُوهُمْ فِي سَفِينَتِهِمْ بِغَيْرِ نَوْلٍ -يَقُولُ: بِغَيْرِ أَجْرٍ- فَرَكِبَا السَّفِينَةَ، قَالَ: وَوَقَعَ عُصْفُورٌ عَلَى حَرْفِ السَّفِينَةِ فَغَمَسَ مِنْقَارَهُ فِي البَحْرِ، فَقَالَ الخَضِرُ لِمُوسَى: مَا عِلْمُكَ وَعِلْمِي وَعِلْمُ الخَلَائِقِ فِي عِلْمِ اللهِ إِلَّا مِقْدَارُ مَا غَمَسَ هَذَا العُصْفُورُ مِنْقَارَهُ**»(١).

فلا يتراءى لطالب العلم أنه صار عالمًا، وأنه صار أعلم من غيره، وأن غيره لا يفهمون كما يظهر على بعض المنتسبين للعلم اليوم، يحتقرون العلماء، ويحتقرون أكابر أهل العلم، ويرون أنهم لا يفهمون، ولا يفقهون الواقع -كما يقولون-، ويتنقصونهم، بل يتكلمون بكلام قبيح، ويقولون: هؤلاء علماء حيض، هؤلاء علماء نفاس، هؤلاء علماء الاستجمار والاستنجاء!! يحقرونهم، ويحقرون علمهم، فهذا من الجهل والكبر -والعياذ بالله- ومن احتقار العلماء.

فعلى طالب العلم أن يتقي الله عَزَّوَجَلَّ، وأن يحترم العلماء، وأن يستفيد منهم، وأن يرى نفسه أنه بحاجة إليهم، وأنه أصغر منهم؛ حتى يستفيد منهم، أما إذا تكبر وأُعجب بنفسه، أو احتقر العلماء، فإنه يُحرم من العلم النافع.

وكذلك على طالب العلم أن يتأدب مع مدرسه في وقت الدرس، وأن ينصت إلى ما يقوله المدرس، ولا ينشغل عنه، ولا ينصرف عنه بفهمه، أو

---

(١) أخرجه البخاري (٤٧٢٧)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

بوجهه، بل عليه أن ينصت، وأن يتلقى ما يقوله مدرسه بلهف وشغف وإقبال؛ حتى يُرزق العلم النافع.

كان من العلماء من إذا رأى من بعض الطلبة أنه يلتفت في وقت الدرس، إذا رآه يلتفت -مجرد الالتفات-، فإنه يطرده من الحلقة تأديبًا له؛ لأنه لا يمكن طلب العمل مع الانشغال ومع الصوارف.

ويقولون: العلم إذا أعطيته كلك أعطاك بعضه، إذا أعطيته كلك أعطاك بعضه، قليلًا منه، أما إذا لم تعطه شيئًا من الاهتمام ومن الإقبال عليه، فإنك لن تحصل على شيء.

فعلى طالب العلم أن يتأدب بآداب طلب العلم؛ حتى يرزق العلم.

الله جَلَّ وَعَلَا يقول: ﴿وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا﴾ [البقرة:١٨٩]، العلم يؤتى من أبوابه، ولا يؤتى من ظهره، ولا من أعلاه، وإنما يؤتى من أبوابه، ويؤخذ شيئًا فشيئًا؛ مسألة مسألة. قال تعالى: ﴿وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ [آل عمران:٧٩]. قالوا: ﴿رَبَّٰنِيِّـۧنَ﴾، الرَّبَّانِيُّ الَّذِي يُرَبِّي النَّاسَ بِصِغَارِ الْعِلْمِ قَبْلَ كِبَارِهِ[1]. هذا هو الرباني، المربي الصحيح الذي يربي الطلاب، فيعلمهم صغار المسائل قبل الكبار، أما الذي يعلمهم الكبار قبل الصغار، فهذا قد عكس القضية، فينعكس عليه المطلوب.

من طلبة العلم نسمع منهم كلامًا أنهم يتكلمون في الفقه، ويتكلمون في كتب الفقه، ويزهدون فيها، ويقولون: فيها أقوال، وفيها آراء.

---

(١) ذكره البخاري في باب الْعِلْم قَبْلَ الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ (١/ ٢٥)، بدون عزو.

نعم، كتب الفقه فيها أقوال، فيها آراء، وفيها اجتهادات لأهل العلم، وطالب العلم يعرف الأقوال، ويعرف الاجتهادات، ويعرف أدلتها، ثم يقارن بينها، ويأخذ الصحيح.

فالتعلم تعلم القول الصحيح والقول غير الصحيح، أم عند العمل وعند الإفتاء، فأنت تأخذ القول الصحيح.

لكن متى تعرف القول الصحيح؟ لا تعرفه إلا إذا درست الأقوال، درست أقوال أهل العلم وفهمتها، وعرضتها على الأدلة، حينئذ تستطيع.

أما أنك تتركها نهائيًّا -كما يقول بعضهم-، تتركون كتب الفقه وما فيها من الخير وما فيها من الأقوال والشرح والتوضيح، يزهدون فيها، من أين يأخذون العلم؟ من رؤوسهم؟!! من أفكارهم؟!! من أين يأتيهم العلم؟!!

لابد أنك تدرس كتب الفقه، فهي المدخل إلى العلم، وليس بلازم أنها تكون كلها صحيحة، أو كلها صوابًا، يكون فيها خطأ؛ لأنها اجتهادات، ولكن متى تعرف الخطأ من الصواب؟ لا تعرفه إلا إذا درستها، وعرفت وجوهها ومصادرها، فهي طريق إلى الفقه وإلى العلم.

المسافر إذا أراد أن يسافر، هل يذهب مع الطريق والجادة المسلوكة، أم أنه يبتدر له طريقًا خاصًا، وهو لا يهتدي ولا يعرف الجهات؟! يضيع، إذا رأى أنه يستغني عن الجواد وعن الطرق، فإنه يضيع، وربما يهلك في المتاهة، أما إذا سلك الطريق والجادة التي عليها الناس، ويمشي معها الناس، فإنه يصل إلى البلد الذي يريد، كذلك طلب العلم تأخذ الجادة المسلوكة التي عليها علماء هذه الأمة، تمشي معهم حتى تصل إلى المقصود، أما إذا كنت جاهلًا بالطريق، وتترك

الجواد، وتترك الطرق، وتبتكر لنفسك طريقًا بزعمك أنك تستغني عن المسالك الأخرى، فإنك تضيع وتهلك.

فعلى طالب العلم أن يسير مع الهدى، مع الطريق الصحيح، مع مسالك أهل العلم، قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡ﴾ [الأنعام:٩٠]، ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡ﴾، فأنت واحد من هذه الأمة، فعليك أن تسير في طريق الأمة التي سارت عليه، ولا تنتهج لك منهجًا جديدًا؛ كما يقول به بعض المغرورين الآن، يريدون أنهم يكونون علمًا من رؤوسهم ومن أفكارهم ومن إدراكهم، ويستغنون عن فقه الفقهاء وعن أقوال العلماء، فهؤلاء لا هم الذين سلكوا مسلك أهل العلم، ولا هم الذين وصلوا إلى الطريق الصحيح، بل صاروا تائهين في المتاهة والضياع.

فعلينا أن نهتم بهذا الأمر، وأن نأتي طلب العلم من أبوابه ومن اصوله على العلماء، على الكتب الصحيحة، على الحفظ والاتقان، على السؤال لما أشكل، ﴿فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [النحل:٤٣].

ولا تستكبر عن السؤال -يا أخي-، إذا أشكل عليك أمر، فاسأل أهل العلم، ولا تستكبر، وتقول: أنا فوق هذا الشخص، كيف لي أن أسأله؟!

فالذي ينتهج هذا المنهج -وهو منهج الاستقلالية-، هذا يضيع، أما الذي ينتهج منهج أهل العلم، ويسير في طريقهم وعلى أثرهم، ويستفيد من علمهم وخبرتهم، فهذا هو الذي سلك الطريق الصحيح في التعلم.

وفق الله الجميع لما يحب ويرضى، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

فهرس الموضوعات

أحكام الصوم العامة ٥
أحكام الحج ١٠
أركان الإسلام وأحكام الصيام........................ ٢٥
أعمال العشر الأواخر ٣٨
الأحكام المتعلقة بالصيام........................ ٤٧
الركن الثالث من أركان الإسلام الزكاة........................ ٥٧
الركن الثاني الصلوات المفروضة ٦٨
الركن الخامس من أركان الإسلام........................ ٨١
إتمام الحج والعمرة........................ ٨٨
الركن الرابع صيام رمضان........................ ٩٥
الركن الرابع من أركان الإسلام ١٠٧
الزكاة ورمضان........................ ١١٦
الصلوات المفروضة ١٢٣
الصلوات النوافل ١٣٤
الصوم عن المحرمات........................ ١٤٥

الصيام فضائل وأحكام ١٥٣
إنما الأعمال بالنيات ١٦٠
تفسير آيات الصيام ١ .... ١٦٦
تفسير آيات الصيام ٢ .... ١٧٧
تفسير آيات الصيام ٣ .... ١٨٩
تفسير قوله تعالى: ﴿ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ ﴾ ١٩٧
﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ﴾ ٢٠٥
كُتب عليكم الصيام ٢١٦
ختام شهر رمضان المبارك ٢٣٦
فرضية الحج ٢٥٠
فضائل شهر رمضان من القرآن الكريم ٢٦٠
فضل العشر الأواخر من رمضان ٢٧٦
فضل شهر رمضان ٢٨٤
فضل ليلة القدر ٢٩٤
قبول العمل ورده ٣٠٣
كل عمل ابن آدم له ٣٠٧
ليلة القدر فضائل وأحكام ٣١٧
ليلة القدر ٣٢٥
مفسدات الصيام ٣٣٦
من لم يدع قول الزور والعمل به ٣٤٦

نوافل الصيام ٣٥٣
أحكام تلاوة القرآن........................ ٣٦٠
أعظم الكتب ٣٨٣
أقسام الناس مع القرآن الكريم........................ ٤٠٦
المال في القرآن الكريم........................ ٤٢٦
المشرق والمغرب ٤٤٠
الاعتداء........................ ٤٦٢
البر ٤٨٠
عظمة القرآن الكريم........................ ٤٨٩
طلب العلم الشرعي........................ ٥١٢
طلب العلم وطرق تحصيله........................ ٥٢٧
فهرس الموضوعات........................ ٥٣٧